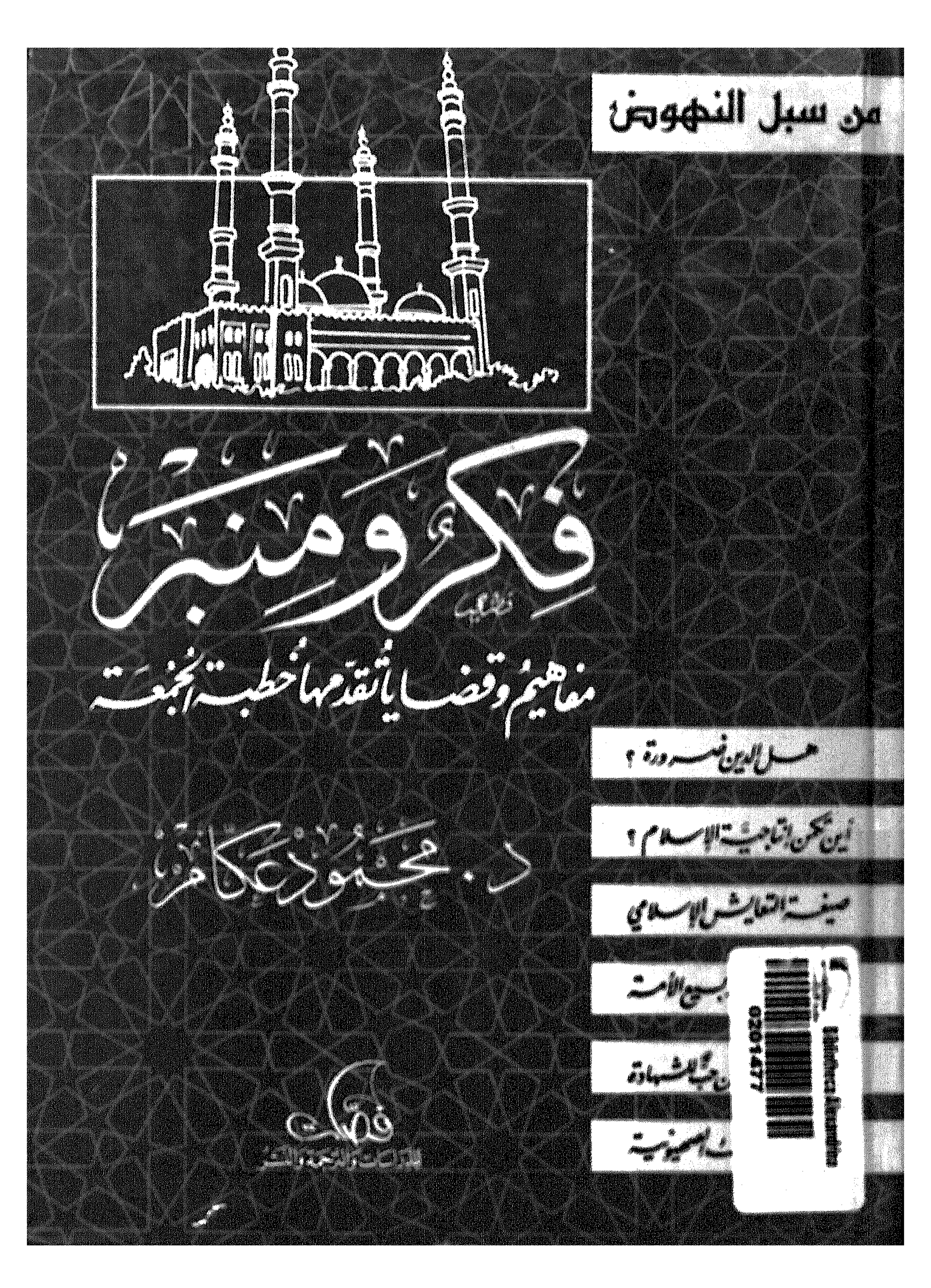

من سبل النهوض
فكر ومنبر
مفاهيم وقضايا تقدمها خطبة الجمعة
هل الدين ضرورة ؟
أين تكمن إيجابية الإسلام ؟
صيغة التعايش الإسلامي
د. محمود عكام
فصلت
للدراسات والترجمة والنشر







بسم الله الرحمن الرحيم

فكر ومنبر

مفاهيم وقضايا تتقدمها خطبة الجمعة

الكتاب رقم : / ٤ /
العنوان : فكرٌ ومنبر ، مفاهيم وقضايا تقدمها خطبة الجُمعة
المؤلف : الدكتور محمود عكام
إعداد : محمد أمير ناشر النعم . محمد أديب ياسرجي
الطبعة الثانية : ذو القعدة / ١٤١٧هـ . آذار / ١٩٩٧م
الطبعة الأولى : رمضان/ ١٤١٦هـ . شباط / ١٩٩٦م
التنضيد والتوزيع : فصّلت للدراسات والترجمة والنشر
حلب . أقيول . هاتف : ٤٤٥٥٢٦ . فاكس : ٢٢٦٥٢٨ . ص.ب : ٨٢٦٠

من سُبُل النهوض
فكر
١

د. محمود عكام

فكر ومنبر

مفاهيم وقضايا تُقدّمها خُطبة الجُمعة

الجزء الأول

إعداد

محمد أديب ياسرجي　　محمد أمير ناشر النعم

فصلت
للدراسات والترجمة والنشر



الإهداء

إلى والديّ

اللذين أكرمني الله بهما
وقضى أن تكون طاعته طاعتهما
وأمرني أن أخفض جناح الذل لهما
وأن أردد في صلاتي: ربّ ارحمهما
فنعم الربّ يا إلهي أنت...
ونعمت النعمة منك هما

محمود



مقدِّمةٌ يَتلوها شكرٌ

الحمد لله منْ تعبَّدنا بالتفكُّر بعد أنْ خلقَ وأمر ، والصَّلاة و السَّلام على خير مَنْ علا المنبرَ و كبَّر ، وآلهِ النُّجومِ الهُداة ، ورضي الله عن الأصحاب الكواكب الدُّعاة .

وبعد :

هكذا أردنا أنْ يكون كلام المنبر مسكوباً على صفحات كتابٍ ، ليغدوَ أوسع انتشاراً وأكثر قرباً من الناس على اختلافهم ، وأعْني بالاختلاف :

الذكورةَ والأنوثة ، والصِّغرَ والكِبَر ، و الالتزامَ وعدمه ، وسواها كثيرٌ مما لا يدخل تحت حصر . فالنَّاس جُلُّهم مختلفٌ عن جُلِّهم ، بلهَ كلُّهم في حالةِ تباينٍ ذاتِ أبعادٍ جدِّ متعددة ، تعدُّدَ عددهم، الذي لا يحصيه إلا مَنْ خلقَهم.

إنَّها تجربتي المنبريَّة، قدَّمتُ عصارتَها، آملاً مِنْ ورائها إقناعَ الناس بجدارة الإسلام للحياة، وأحقيَّته باستلام زمامها، وأسبقيَّته التفضيلية على غيره، مِنْ أجل أنْ يكون ملاذاً، وملجأً، ومرجعاً، وموئلاً للإنسان الباحث عن وجود، الظامئِ للطموح، في مسارٍ يتجاوز الحياة، إلى مابعدها، وما وراءَها.

ولهذا كانت مواضيع الخطب منوَّعة في كلِّ مجلدٍ نقدِّمه، وما التنويعُ إلا عيِّنةٌ تعبِّر عن «الشُّمول» الذي يعني الكمالَ و التَّمام، وهما عنصرا الصلاحيَّة و الأهليَّة لهذا الدِّين الحنيف.

أمَّا «الكمال»، فتغطيته لكلِّ المساحة الإنسانية.

وأمَّا «التمام»، فنوعٌ فريدٌ يمتاز بالانسجام والتَّناسب مع المخلوق الأسمى، حاملِ الأمانة، والخليفةِ العبد.

وأظنُّ أنَّ دوافعي في تحويل المقول إلى مكتوبٍ تسعفني ليكون منها تأكيدٌ على أهميَّة منبر الجمعة في حياتنا؛ فصلاة الجمعة سُرَّة العلاقة مع الله عبر الصلاة، وخطبتُها قطب العلاقة مع الناس.

ومِنْ هنا كان يوم الجمعة الأفضلَ بين أيام الأسبوع، واليومَ الأغرَّ فيها؛ فلْنُعِدْ اهتمامَنا بها، صلاةً تضبط الصِّلة مع الله، وخطبةً تقدِّم المفاهيم والقضايا، التي لا غنى للإنسان عنها في مسيرته كلِّها، ما ظهر منها ومابطن.

ولنجدِّد نظرةً منْ أعين الناس متجهةً إليها ، وليكنْ برهاننا واقعاً ينطق بالقَبول والاستجابة ، وحالاً يردِّد في جنبات داخل الإنسان وخارجه :
لمْ تَضِعْ صلاة الجمعة ولن تضيعَ ، ولم يأفلْ نجم نضارتها ولن يأفل ، فالشباب القادم يطرق الباب بهمَّة ويمسك بيده مصباح التجديد ، ويقول :

سرُّ الإنسان وجهرُه ، وشهودُه وغيبه ، وأصالته ومعاصرته ، وتاريخه وحاضره ، وتطلُّعه ومستقبله ، وعقله وقلبُه ، و نفسه وجسده ، وحبُّه ورفضه ، وحريِّته و استقراره ، أمانةٌ في أعناقنا ؛ فكراً نطرحه ونؤطِّره ، وسلوكاً نتمثَّله و نقدِّمه ، وأملاً نعيش تحقيقَه و نخلص له ؛ ولن يُعدَلَ عن إسلامٍ وسعَ الإنسان ، وإنما المهمل من الإسلام ما فُهِمَ في مواجهة الإنسان ، وربَّنا دائماً خيرُ معينٍ لمن يريد و يصمِّم و يثابر ، ويَجدُّ و يجاهد ويصابر ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنا ، وإنَّ الله لَمعَ المحسنين ﴾ .

وهذا وقتٌ أسجِّل فيه شكراً مزاجه منْ حبٍّ للأخوين الكريمين الحاذقين النابهين ، محمَّد أديب ياسرجي و محمَّد أمير ناشر النعم ، على ما قاما به منْ جهدٍ يستحق الثَّناء ، ويَجْدر له وصفُ الفضل . فقد تعاونا مع ثلةٍ طيبةٍ في تفريغ « الشرائط » ، واختارا لكلِّ مجلدٍ نماذجَه منَ الخطب ، ووثَّقا لكلِّ خطبةٍ آياتِها القرآنية ، بذكر سورها وأرقامها ، ودعَّما تخريجَ أحاديثها النبوية الشريفة ، وأكَّداه وصوَّباه ، وعلَّقا فأجادا ، واستهلا السلسلةَ بدراسةٍ علميةٍ للخطبة والخطيب .

فأمَّا الخطبةُ ، فقد أعطياها حقَّها بحثاً جاداً ، وقراءةً واعية هادفة ، ولكنهما مع الخطيب ذوا عينٍ راضية ، أظهرا حسناته ، وسلَّطا شعاع حبِّهما عليها ، وأخفيا سيئاته ، وغطَّياها بوِجاءِ رعايتهما الواسعة الأخويَّة .

فلهما مِنْ قلبي حبٌّ ، و مِنْ لساني شكر ، ومِنْ كلِّي أخوةٌ شاملة ، تستمدُّ روحَها منْ روح الله العظيم القائل : ﴿ إنَّما المؤمنون إخوة ﴾ .

وآملُ منْ قارئي الكريم أنْ يساهم معهما في تقديم ما أنا بحاجةٍ إليه من نصحٍ فاعل ، يقوم على حبٍّ صادق ، فنِعمَ العملُ تكاملٌ على خطِّ البناء ، لتكوين الإنسان الصالح في حقل الحياة الشامل ، وخير العلم أنفعُهُ للعباد ، فيما يعود عليهم بالنجاح في دنياهم ، والفلاح في أخراهم .

﴿ ربَّنا افتحْ بيننا وبين قومِنا بالحقِّ ، و أنتَ خيرُ الفاتحين ﴾ .

وكتب

محمود عكَّام

حلب الشهباء

٢٧ / رجب / ١٤١٦هـ ، ١٩ / ١٢ / ١٩٩٥م

تَصْدِيرٌ

الحمد لله ربِّ العالمين ، و الصلاة والسَّلام على سيدنا محمَّد ﷺ المبعوثِ رحمةً للعالمين ، وعلى آله الطيبين الطاهرين .

وبعد :

في زمن « الذاكرة الضعيفة » ، أوفي أيام « ضعف الذاكرة » ، ذلك المرض الخفي والداء الصامت الذي يتلبَّس الأمة ويغشاها ، يبدأ السلوك بالانحراف عن «التَّصورات » إلى أن يتناقض معها .

غير أن هذا المرض لايكتفي بذلك ، بل يتابع إرسالَ جنود النسيان لمراودة «التَّصورات » نفسِها عن نفسها ، عسَى أن يهتكها ، ويقضي عليها ليجعلها بعد ذلك دمىً في متاحف التاريخ .

فيا ترى ، هل ستقاوم و تعاند و تثبت ؟! أم أنهاسوف تستجيب وتذعن(*) ؟! تلك هي القضية المقلقة ، و ذلك هو السؤال المؤرِّق .

(*) وعندها لن ينفع « السلوك » ، ولو كان في الظاهر سليماً ، فد جاء على صورة « التصور » ، ذلك أنه لم ينطلق من التصور الصحيح المصون .

من هنا ـ وبالذات ـ انطلق أستاذنا المفكر الإسلامي العلامة الدكتور الشيخ محمود عكام ـ رعاه الله ـ في مغامرته ومراهنته ، عندما بدأ رحلة الخطابة في جامع التوحيد الكبير في حلب الحبيبة ، تلك الرحلة التي بدأت منذ سنة / ١٩٨٤م / وحتى اللحظة الراهنة ، والتي يمكن أن نسمِّيَها حقاً رحلةَ تثبيت التَّصور ، وتدعيم الفكر .

وإنَّها حقاً رحلةُ العدول ، الذين ينفون عن التَّصورات تحريفَ الغالين في جمودهم المتحجر ، وانتحالَ المبطلين في قطعيتهم التامة ، وتأويلَ الجاهلين في دمجهم الأهوج ، ورحلةُ الطائفةِ الظاهرة على الحقِّ التي لا يضرُّها مَنْ خالفها ، ولا يفلُّها مَنْ جابهها ، ولا يردُّها مَنْ نازعها .

لقد كانت هذه الرحلة فاتحةَ عهد جديد ، وبدايةَ أسلوب فريد ، استند فيه أستاذنا الداعية ـ رعاه المولى ـ إلى الإخلاصِ الممزوج بالغيرة ، والحماسةِ ، ومقدرةِ البيان ، أولاً . وإلى الفكرِ الذي تستهويه الأعماقُ ، فيأبى التمرُّغَ في الزبَد ، ثانياً . وإلى الروحِ الإنساني المشرق ، الذي لا يبتغي إلا خيرَ الناس ، وصلاحهم ، ثالثاً .

وإلى الشخصيةِ القويمة الجليَّة التي لم تعرف الغموضَ والالتواء ، أخيراً .

ولا عجبَ بعد ذلك ، أن يمتلك خطيبنا من أبناء مدينته ، ومستمعيه ، القلوبَ ؛ إذ أمدَّها بالعواطف الطاهرة ، والعقولَ ؛ إذ زوَّدها بالفكر السَّامي ، والنفوسَ ؛ فقد نفحَ فيها المبدأ الشريف .

ومِنْ هنا أيضاً ، كان دَيْناً في أعناقنا أنْ نقدِّم هذه الخطب ، التي كانتْ مصدرَ عطاء ، ومظهرَ إبداع ، لا سيَّما أنَّ الإلحاحَ مِنَ الشباب ، والطلاب ،

والمثقفين كان ـ ولا يزال ـ يلاحق أستاذَنا لطباعتها وتقديمها ، ليعمَّ النفعُ ، وتعظمَ الفائدة ، فهي على حدِّ تعبير أحد المثقفين : « متنُ طرحٍ حضاريٍ للمسلم الواقف على أعتاب القرن الواحد والعشرين » .

و الآن ، و بعد انتظارٍ طالتْ مُدَّته ، نقدِّمُ اليومَ الجزءَ الأول من حلقات « فكر و منبر » ، يضمُّ هذا الجزء بين دفَّتيه / ٢٤/ خطبةَ جُمُعة ، أثبتناها كما هي ، دون زيادةٍ أو نقصان .

إلا أنَّا قمنا بتخريج الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، و بكتابة تعليقٍ موجزٍ لكلِّ خطبة ، يوضِّح بعض مراميها ، أو يضعها في سياقها العامِّ من فكر أستاذنا العلاَّمة حفظه الله ، كما أننا قدَّمنا للكتاب بمقدمة ذات ثلاثة فصول :

الأول ـ إثارات حول خطبة الجمعة .

والثاني ـ حول ملامح التجديد في خطبة الجمعة ، عند أستاذنا الدكتور الشيخ محمود عكام .

والثالث ـ هموم وقضايا خطبة الجمعة ، عند أستاذنا الدكتور حفظه الله .

اللهمَّ إنا نسألك التوفيقَ لكلِّ خير ، والعصمةَ من كل شرٍّ .

﴿ و آخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين ﴾

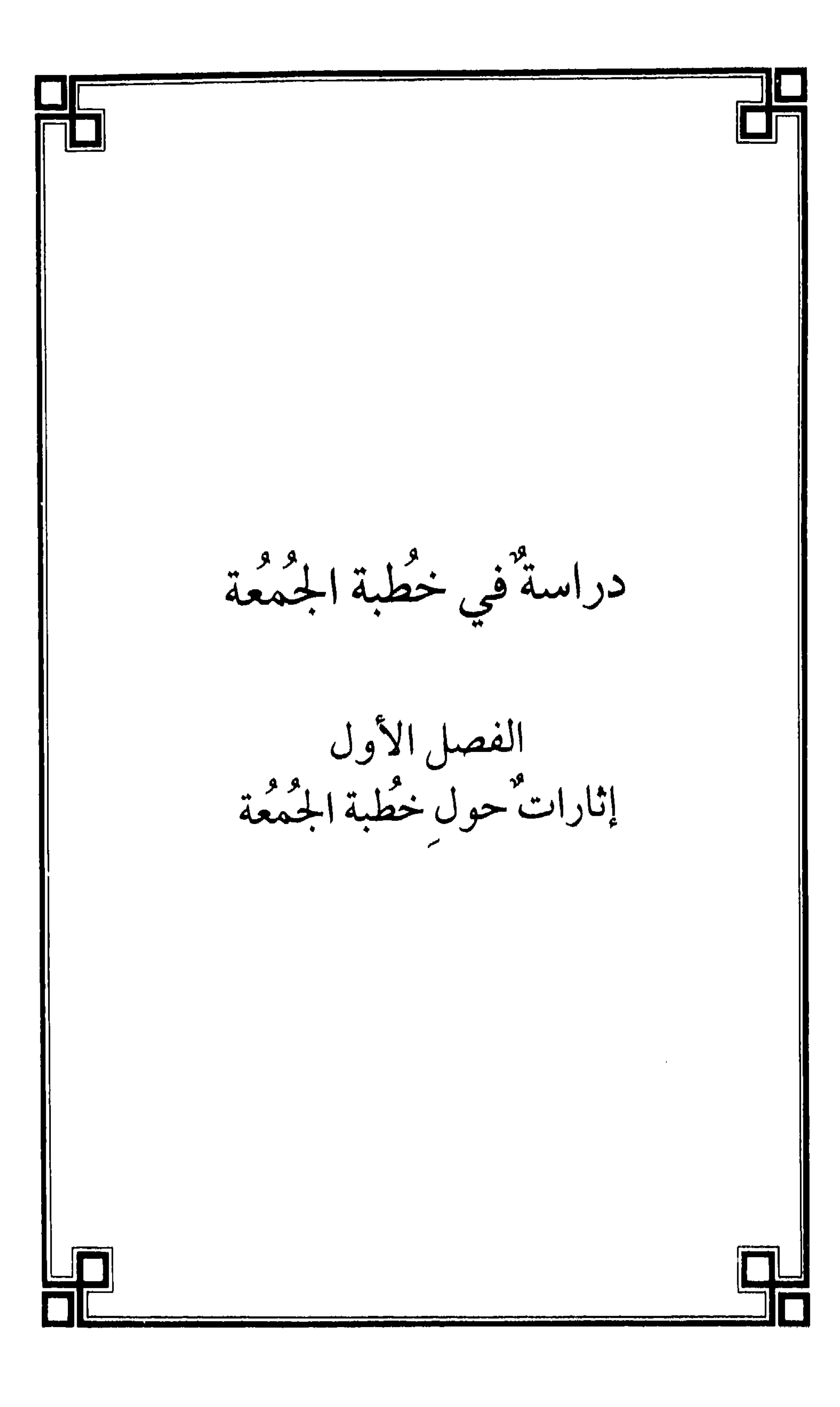
محمَّد أديب ياسرجي

محمَّد أمير ناشر النعم

حلب الشهباء

الجمعة : ٢٥ / المحرَّم / ١٤١٦ هـ ، / ٢٣/٦/ ١٩٩٥م .





دراسةٌ في خُطبة الجُمُعة

الفصل الأول
إثاراتٌ حولِ خُطبة الجُمُعة



مَدْخلٌ

في بدايات هذا القرن . . . وفي فترةِ تشكّل الحركات ، وتفجّر الثورات ، قال أحدهم :

(لو أننا امتلكنا منابرَ المسلمين ، لحوّلنا بلادهم إلى مبدئنا في أيامٍ قلائل) .

ولقد كان يجب أن تكون هذه الكلمةُ ـ ومثيلاتُها من الكلمات التحريضية ـ صفعةً قويةً لواقعٍ مؤلم ، وحياةٍ حزينة ، وشعبٍ طال انتظاره لإشراقِ شمس الحضارة عليه من جديد . . . ، لا بل كان يجب أن تكون ساعةَ المنبِّه للضميرِ الإسلامي علّه ينتفض ، و يصحو صحوةَ جبّارٍ أفاقَ مِنْ نومٍ عميق . . . ، ولكنّها جاءتْ صحوةَ عاجز ، فتحَ عينيه ليرى نفسَه في رمال الانحطاط المتحركة .

فهل منعته بروجُه المشيدةُ من أوهامِ الماضي وأشباحِه ، وخَورِ الحاضر وكسله ، وغرورِ المستقبل وزهوه منها . . . ؟!

من هنا كانت الإجابةُ على هذه الأسئلة ـ فيما يخصُّ المنبرَ وكيفية

استثماره ـ ضرورية :

١ ـ لماذا شرعت صلاة الجمعة ؟

٢ ـ ما هي مقومات نجاح خطبة الجمعة ؟

٣ ـ ما هي التحديات التي تواجهها ؟

* * *

أولاً ـ لماذا شُرِعتْ صلاة الجمعة ؟

ربما كان الكلامُ عن أساس المشروعية أسهلَ من الكلام عن غاية المشروعية ، ذلك أن كُتبنا ـ بشكلٍ عامّ ـ تفيض في الحديث عن دليل المشروعية ، ومستندات هذه المشروعية لأيٍّ أمر من الأمور ، لكنها في تحليلها لغائية هذه المشروعية ولأهدافها ـ إنْ في الإيجاب أو في السلب ـ توجز و تختصر .

و إن كان لنا مِنْ كلام عن هذا الأمر فإننا نقول : إنَّه يمكن أن نستشف غائية صلاة الجمعة من خلال نص المشروعية القرآني لهي ، و من خلال الظروف الحافَّة به :

﴿ يا أيها الذينَ آمنوا إذا نُوديَ للصَّلاة من يوم الجُمُعة فاسعَوْا إلى ذكرِ الله ، وذروا البيعَ ذلكمْ خيرٌ لكمْ إنْ تمْ تعلمون ، فإذا قُضيت الصَّلاةُ فانتشروا في الأرضِ و ابتغوا مِنْ فضلِ الله ، واذكروا اللهَ كثيراً

لعلكمْ تفلحون ، وإذا رأوْا تجارةً أوْ لهواً انفضُّوا إليها وتركوكَ قائماً ، قلْ مَا عندَ اللهِ خيرٌ مِنَ اللهوِ ومنَ التجارةِ ، و اللهُ خيرُ الرازقين ﴾ (١) .

١ـ أمَّا النص بمنطوقه ومفهومه :

فإنَّه يشير إلى المهمَّةِ العباديَّة المرْجُوَّة منْ صلاة الجمعة ، وهذه المهمةُ تكتنفُهَا وظيفتان :

أ ـ وظيفةٌ تربويةٌ وجدانية .

ب ـ وظيفةٌ فكريَّةٌ ، علميَّة أو تعليميَّة .

وبحسبِ ما نراه ، فإنَّ هاتين الوظيفتين تندمجان في « الموعظة الحسنة » .

و هنا نتساءلُ عنْ مفهومِ هذه الموعظة ، وعنْ قيمتها وأهميَّتِها ، وعنْ مَدَى تقديرِنا لها . . . ؟!

إنَّ هذه « الموعظة » و باختصار ، تمثِّل في عالمِ المسلمين الراهنِ مخزوناً للهويَّة المهدَّدة ، ومقاومةً شرعيَّةً لعمليات الاستلابِ الفظيعِ التي تُمرَّر علينا ، وهي المُغيثُ بالمعرفة الإسلاميَّة لأغلبِ الشرائح ، و حتى المثقفةِ منها . . . فما زالت أمتنا لا تقرأ ، و لا زال عالمنا الإسلامي يعاني من كسادٍ في الثقافة المطبوعة الكتابيَّة لاعتماده على الثقافةِ المسموعةِ الشِّفاهية ، ومن هنا تسدُّ هذه الموعظةُ فراغاً كبيراً ، و مساحةً عظيمة لم تكن لتُملأ لولاها . إنَّها ـ الموعظة الحسنة ـ صوتُ الدِّين ، ونداءُ الإيمان ، فهلْ نحن في غنىً عنهما ؟! .

---

(١) ـ سورة الجمعة / ٩ ـ ١١ .

إنَّ علماءَ الاجتماعِ اليوم ـ المتديِّنين وغيرَ المتدينين ـ يقررون أنَّه لا يمكنُ أنْ ننهضَ بدون الدين .

يقولُ عالم الاجتماع السُّوري برهان غليون :

(ما زالَ الدينُ بالنسبة إلى الغالبيَّة العُظمَى منَ الشُّعوبِ النامية أكبرَ آلةِ تهذيبٍ جماعيٍ وتمدينٍ وبناءٍ للُّحَمِ الوطنية و الاجتماعية ، وإنَّ زوالَ الدينِ يعني زوالَ الأمِّ الثقافية المرضعةِ نفسِها، وتركَ المجتمعِ دونَ أيِّ مرجعيَّة ثقافية ، أيْ دونَ أداةٍ للتواصلِ ، والتعارفِ والتماهي ، وتبادلِ العواطف ، و التقديراتِ المادِّيَّة والرُّوحيَّة) (٢) .

و يقولُ في مكان آخر :

(لمْ يُؤَدِ إلغاءُ الدين و القيمِ الميتافيزيقة في الدول الاشتراكية إلى تحررِ الإنسان ، كما كانَ يعتقدُ البعض ، ولا إلى تزايدِ قدراتِه العقليةِ والعلمية ، بعدَ أنْ تحررَ منْ سيطرةِ القوى الغيبية أو الخرافية ـ كمَا كانَ يُقال ـ وزالَ عنه الخوفُ ، أو الرَّهبةُ منَ القوةِ الإلهيَّة ، و إنما قادَ ـ على العكس ـ إلى قتلِ الرُّوحِ و الخيال والحضارة ، وتحوَّل النظامُ السياسيُ إلى معسكرِ اعتقالٍ كبيرٍ للجسمِ والروحِ معاً) (٣) .

---

(٢) و (٣) ـ انظر « الإسلام وأزمة علاقة السلطة الاجتماعية » ، دراسةٌ أعدَّها « برهان غليون » ، للندوة التي نظَّمتها « الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، في القاهرة عام / ١٩٨٩م/ ، وكان عنوان الندوة : الدين في المجتمع العربي .

وقد قام بنشرها مركز دراسات الوحدة العربية . بيروت .

نعمْ ، إنَّ نفسَ المسلمِ الجائعةَ المثقلةَ بأتعابِ العملِ وهمومِ الحياة تجدُ في صلاة الجمعة راحةً وتعزيةً و قوْتاً ، فمنْ أوحالِ معيشةٍ يُشابهُ صباحُها مساءَها ، و يومُها أمسَها ، ترتفعُ روحُه إلى عالمٍ تجولُ فيه العواطفُ البشريَّة ، والمشاعرُ الإنسانيَّةُ ، فيستعينُ على إصلاحِ نفسِه ، و يحرِّكُ دولابَ فكره ، و بالإجمال ، توقظُ فيه كلَّ قوى الوجود ، فيشعرُ أنَّه كائنٌ حَيٌّ ، فربَّ كلمةٍ تقعُ في أذُنِه يحتضنُها للحَالِ عقلُه ، وتختمرُ بها روحُه ، أوْربَّ عبارةٍ يخشعُ لها قلبه ، فتهزُّه بكليَّته كما تهزُّ العاصفةُ شجرةً منْ جذورها ، لكنَّ هذا التأثيرَ في السَّامع لا يمكنُ إحداثُه إلا إذا كانت الخطبةُ مشهداً حيَّاً منْ مشاهدِ الحياةِ الحقيقية ، وكان الخطيبُ قادراً على فهْمِ واقعه ، و تفسيرِ هذا الواقع ، و تأديةِ تلكَ الحقائقِ بما يُلائمُ ويُناسب ، حَالاً و قَالاً .

٢ ـ وأما الظروفُ الحافَّةُ بالنص :

فإنَّها تحملُ في طيَّاتها دلالةً وبُعْداً سياسياً ، فصلاة الجمعة وإنْ كانتْ عبادةً مرتبطةً بوجودِ الجماعة المسلمة أولاً ، إلا أننا نرى أنَّ النصَ لمْ يَتنزَّلْ إلا بعدَ تحققِ الدولةِ المسلمة ، فهي عبادةٌ مرعيَّةٌ منْ قِبَلِ الدَّولةِ ، والدَّولةُ شرطٌ لها كما هو مقررٌ في بعض المذاهب الفقهية (٤) .

---

(٤) ـ يُشير المؤرخون إلى أنَّ النبي ﷺ لم يُقِم صلاةَ الجمعة في مكة ، بينما كان المسلمون يقيمونها في يثرب ، قبل أنْ يهاجر إليها النبي ﷺ ، بإمامة أسعد بن زرارة ، ومصعب بن عمير ، إذ تحقق للمسلمين فيها تكتل .

لذا فقد ظلَّتْ صلاةُ الجمعة بالنسبةِ إلى الفقهاء رمزاً للوحدةِ السياسيةِ والاجتماعية، للجماعةِ في الوطن الموحَّد .

ومِنْ هنا أيضاً ، اتجهت الجماعاتُ الراديكالية في حدِّها الأقصى لرفضِ صلاة الجمعة ، كما في مصر مثلاً ، لأن هذه الصلاةَ تنطوي على اعترافٍ بالسلطة القائمة وبشرعيَّتها ، وهذا الموقفُ يتطابقُ مع الموقف الشِّيعي التقليدي .

و بناءً على ارتباطِ الشَّأنِ الدِّيني بالشَّأن السِّياسي في صلاة الجمعة ، قام المستشرقُ البريطاني « نورمان كولدر » بدراسةٍ تحت عنوان : (صلاةُ الجمعة ونظريةُ السُّلْطة عندَ الفقهاء)[5] بحثَ فيها ثلاثةَ نماذج :

أ ـ السرخسي ، من خلال كتابه المبسوط .

ب ـ والشيرازي ، من خلال كتابه المهذَّب .

ج ـ والماوردي ، من خلال كتابه الأحكام السلطانية .

ومِنْ جُمْلةِ الأفكار التي طرحها في بحثِه هذا ، قوله :

(تُظهِر النظرةُ التحليلية للأعمالِ الفقهية ، أنَّ الفقهاءَ كانوا ينظرون إلى الخطبةِ يومَ الجمعة باعتبارها تمثِّلُ علاقةً تواصليةً بينَ المدينةِ كوَحدةٍ سياسيةٍ، والمدى السياسي الأوسعِ الذي تنتمي إليه وتنتظمُ فيه . . . ، لكنَّ كتبَ الفقه لا تضع على أيِّ حالٍ تلك الرؤيةَ في إطارٍ نظري ، فالسرخسيُّ يقتصرُ على ذكرِ الخطبة وأنواعِها ، دونما ذكرٍ للدعاءِ للحاكمِ فيها ،

(٥) ـ انظر مجلة الاجتهاد ، عدد / ١٢/ ، ص / ١٤٥/ .

أوموقعه السياسي ، لكنْ ليسَ هناك شكٌ منَ الناحيةِ التاريخيةِ في أنَّ الدعوةَ للحاكمِ كانت موجودةً في الخُطَبِ آنذاك ، لذا فإنَّ صَمْتَ السَّرخسي عنْ ذلك هو بمثابةِ استنكافٍ أوإنكار ، أمَّا الشِّيرازي فيذكرُ مسألةَ الدعاء للحاكمِ في الخطبة مُنْكراً ذلك : « وأمَّا الدعاءُ للسلطان فلا يُستحبُّ ، لِمَا رُوِيَ أنَّه سُئِلَ عطاءٌ عن ذلك فقال : إنَّه مُحْدَث ، وإنَّما كانت الخطبة تذكيراً ») .

ويَخْلُص « نورمان كولدر » في المحصِّلة إلى النتائج التالية :

١ ـ صلاةُ الجمعة حسبَ التقليدِ الشافعي ، ليستْ رمزاً لوجودِ السُّلطة الفاعلة أو ضرورتها ، بلْ إنَّ الجماعةَ هنا تبرزُ بأجلَى مظاهرها ، باعتبارهَا مجموعةً حضريةً مفتوحةً تعبِّرُ عنْ ولائها لقيَمٍ مشتركةٍ ، بالاشتراكِ في الجمعة ، وهذه القناعةُ المشتركةُ للجماعةِ الواحدة ، هي أمرٌ مستقلٌ عن الحكَّام و سياستهم .

٢ ـ وأما التقليدُ الحنفي فينظرُ إلى السُّلطةِ السِّياسية مِنْ أجلِ توفيرِ الشُّروطِ الضَّرورية لاستمرارِ الإسلامِ و ازدهاره [٦] .

---

(٦) ـ نستطرد هنا لنذكر نتيجةً مهمة خلُص إليها هذا المستشرق ، وهي بعكس ماقرَّره المستشرق Gibb منْ أنَّ مساعي الفقهاء كانتْ بالضرورة متَّجهة إلى تبرير الأمر القائم ، بل يرى « نورمان » أنَّ مشروع الفقهاء السلطوي لا يُقدِّم تنازلات كثيرةً لحكَّام الوقت ، بل تحفظ صيغتُهم المطروحة التمييزَ بين مطالب الشرع و مقتضيات الواقع ، فالفقه لا يحاول تبريرَ الواقع بل يحاول الاحتفاظ باستقلاليته تجاهه .

نعمْ ، إنَّ صلاةَ و خطبة الجمعة لها دورٌ سياسيٌ كبير ، و تتنوعُ فيها أدوارُ الخطيب ، فهو ـ كما يرى يان ريشار (٧) ـ :

آ ـ يلعبُ دورَ الوساطةِ بينَ السلطةِ السِّياسيةِ و الجماهيرِ التقليدية ، وهو هنا عاملُ التَّطورِ المرتجى في بلدانٍ يرضخُ فيها العلماءُ لنفوذِ السلطةِ الحاكمة .

ب ـ و هو في بلدانٍ أخرى ، حيثُ يكونُ الدِّينيُ ملاذاً للتعبيرِ عن السَّخَط ، تكتسبُ الخطبةُ قدرةً هائلةً على التعبئةِ و التَّثوير .

* * *

(٧) ـ انظر كتاب « المثقف و المناضل في الإسلام المعاصر » ، إعداد جيل كيبيل و يان ريشار ، ص / ٢٧/ ، ترجمة بسام حجار ، دار الساقي ، الطبعة الأولى .

ثانياً ـ ما هي مُقوِّماتُ نجاحِ الخطبة ؟

الخطيبُ الناجحُ هو الذي يمتلكُ تصوراً واضحاً عنْ مقوِّمات نجاحِ الخطبة ، ويسيرُ وَفْقَ هذا التصورِ بثبات ، فإذا لمْ يمتلك التصورَ ، فمِنَ المتعذِّر أنْ يحقِّقَ النِّسبةَ المطلوبةَ التي تَنْميه إلى أصولِ النجاح ، أو ترقِّيه إلى سُدة الناجحين ، وإنْ صادفَ مُصفِّقاً أو مهللاً .

ويمكنُ تحديدُ هذه المقومات في عناصرَ رئيسةٍ ثلاثة :

أولاً ـ التَّصورُ المتكاملُ للمضمون المُعطَى .

ثانياً ـ اختيارُ الأسلوبيةِ الملائمة لأساسِ الإعطاء .

ثالثاً ـ الموهبةُ المرْعيَّةُ بالتَّعهُّدِ والتنمية .

١ ـ التَّصورُ المتكاملُ للمضمونِ المُعْطَى :

إنَّ المشكلةَ اليومَ ليست في انتفاءِ التصور ، أو في غيابِ المضمون ، ولكنْ في غيابِ التصورِ المتكاملِ للمضمون ، والأخذِ المشتَّتِ له ؛ المتناثرِ منه ، فالخطيبُ اليومَ ينتابهُ ـ معاً ـ داءان :

ـ فهو أولاً ، في مضمونهِ الذي يقدِّم ، صاحبُ فكرٍ إجماليٍ ، يعجزُ فيه عن التفصيل .

ـ وهو ثانياً ، ذو فكرٍ تجزيئيٍ لا يعرفُ ربطَه بكليَّات المضمون ، ربَّما لأنَّه لا يعرفُ هذه الكليَّات ، إلا أنَّه لو عرفها فإنَّه لا يُوفَّقُ في ربطِ هذه الجزئيات بتلك الكليات .

وإنها لمسألةٌ مهمةٌ في طرحنا فكرَنا الإسلامي اليوم ، فنحن لا نملكُ ، أولا نطرحُ تصوراتٍ كليَّةً عن إسلامنا ، بلْ نقدِّمُ و نطرحُ تصوراتٍ جزئيةً مفككةً ومبعثرة .

إنَّ النبيَّ ﷺ جعلَ التكاملَ و التناسقَ و عدمَ التنافرِ شرطاً أساسياً للقيام بالمضمون ، وطرْحِ وتقديمِ هذا المضمون ، فقالَ في حديثٍ يرويه صاحبُ دلائلِ النُّبوة :

[لا يقومُ بهذا الدِّينِ إلا مَنْ حاطهُ بكلِّ جوانبه] (٨) .

وأنْ تحوطهُ بكلِّ جوانبهِ يعني :

ـ أنْ تعرفَهُ وتتصوَّرَه أولاً .

ـ وأنْ يكونَ تصورُكَ له متكاملاً ثانياً .

فالكلياتُ مع الجزئياتِ تشكِّلُ كُلاً مُنسَجِماً ، ولوحةً متناسقةَ الألوانِ مترابطةَ الأجزاء .

فهلْ يَعي الخطباءُ أنَّهمْ بحاجةٍ إلى تمتينِ التصور ، وأنهمْ بحاجةٍ إلى ملاحظةِ التَّكاملِ في هذا التصور ، فالأخذُ المشتَّتُ للمضمون لثغُ عقلٍ طفولي ، و تأتأةٌ في المعنى هي شرٌ من التأتأة في اللفظ . و الناسُ ـ اليومَ ـ في بحثِهم عنْ مضمونٍ يتَبَنَونه ، إنما يتلمَّسون التكاملَ في مفرداته ، والانسجامَ في أجزائه ، والتوافقَ والتناسقَ بينَ جُزئياته ، فمسيرةُ الإنسان تكامليَّة ، وهو باحثٌ عن الكمالِ مِنْ خلالِ التكامل .

---

(٨) ـ رواه أبو نعيم في الدلائل ، حديث رقم / ٢١٤ / ، ج ١ ص ٣٧١ .

٢ـ اختيارُ الأسلوبيّةِ الملائمة لأساسِ الإعطاء :

إنَّ الأسلوبيةَ لا تقلُّ أهميةً عن المضمون ، ولئنْ رأينا خللاً في تصوراتنا للمضمون ، إلا أنَّ الخللَ في الأسلوبية أكبر ، فالخطباءُ ـ كما يظهرُ من مناهجِ دراستهم ـ إنما يتوجَّهون إلى دراسةِ المضمونِ ، أكثرَ مما يتوجهون إلى دراسةِ الأسلوبيةِ ، فتأتي أسلوبياتُهم مرتجلةً منْ غيرِ رَوِيَّةٍ حيناً ، و مقلَّدةً مكررةٌ أحياناً ، و هي في هذه وتلك ، ليسَ لها ناظمٌ أومحور .

إذاً ، لا بدَّ للخطيبِ مِنْ تصورٍ سليمٍ للأسلوبية ، أو طرقِ الإعطاءِ ، بالاعتمادِ على المناهج التربوية ، التي تُراعي المصلين وحالَهم الراهنة ، وهنا يمكنُ أنْ نتكلمَ عن أسسٍ متعددةٍ ، مِنْ إثارةٍ للعواطف ، أو ترغيبٍ وترهيب ، أو اغتنامٍ للفرص ، أوتكرارٍ وحُسْنِ بيان ، أو تنويعٍ وتغيير .

على أنَّ اعتمادَ أيِّ أساسٍ مِنْ هذه الأسس إنما يتحدَّد بناءً على ما يلي :

١ـ مضمونِ الخطبة .

٢ ـ واقعِ المصلِّين وحالِهم .

٣ـ شخصيَّةِ الخطيب .

تطبيقات

أ ـ إثارة العواطف

ينبغي للخطيب أنْ ينظرَ إلى مضمون الخطبة ، فإنْ كان يَحْتمل هذه الإثارة فعل ، وإلا لمْ يفعل ، حتى لا يعودَ على نفسه بالنقض .

أما حالُ المصلِّين في أيامنا هذه ، والاعتماد عليه فنرى ـ فيما يخصُّ أساسَ إثارةِ العواطف فقط ـ ألاَّ يعتمدَ الخطيبُ عليهم ، لأنَّه في كل الأحوال سيلائم ، فنحن شعبٌ عاطفيٌ سخيُ الدمعة سريعُ الضِّحكة ، يحبُّ إثارةَ العواطف بموجبٍ وبدون مُوجب . وهنا ، فإنَّ مشكلةَ عويصة ـ طالما وقع فيها الخطباء ـ تلاحقنا ، ألا وهي أنَّ تقويمنا لنجاح الخطبة اعتمد مِنْ جرَّاء ذلك على العواطف «أبكانا ـ أضحكنا» ، و هذا ليس بأساس .

أمَّا شخصيةُ الخطيب فلها الدورُ الأكبر في هذا الأساس ، فربَّ خطيبٍ إنْ عمَد لـ « إثارة العواطف » أضحكَ ، فحرَّكَ في النفوس مباهجها ، أو أبكى فهيَّجَ منها لواعجها ؛ وتراهُ ـ إنْ أراد ـ حرَّكَ من شعور النفسِ أدقَّ الأعلاق ، واستنزل الدموعَ من سماء الأحداق ، و اقتنصَ مِن تُخومِ الرُّوح شواردَ الأشواق . . . هكذا ، و ترى الناسَّ معه كأضَاميمَ مِنَ النبات الخضِلِ ، يميلون حيثُ يميل ، فهمْ رهنُ الإشارة وطوْعُ البنان .

وربَّ خطيبٍ . . . ربَّ خطيبٍ كانَ له مِنْ جفاف الروحِ صحراءُ الربع الخالي ، ومن سماجة النفس وبرودتِها ، ما لو قُذِف به في أتُّون جهنَّم

لاستغاثت بالله مِنْ صقيعه ، ثمَّ تراه بعد ذلك يطمعُ ، بل يجْهد في إثارة العواطف، وأية إثارة ؟! وأية عواطف ؟! رحماك ياإلهي رحماك .

إنَّكَ لترى رسولَ الله ﷺ كثيراً ما كانَ يعتمدُ هذا الأساسَ « إثارة العواطف » في خُطَبه ، مِنْ خلال حَاله وقَاله الشَّريفين ، حتى إنَّ وجهَهُ ليحمرُّ، وأوداجَه لتنتفخ ، كأنَّه نذيرُ جيشٍ يقولُ صَبَّحكمْ أو مَسَّاكمْ ، ولا شكَّ في أنَّ المضمون كان مناسباً للإثارة ، والمصلينَ ـ الذين هم صحابته الكرام ـ بحاجةٍ إلى هذا اللون ، فهم في مرحلة بناءٍ ، وهذه المرحلة تحتاج إلى تجييشِ العواطف وتحريكها ، وتحفيزِ النفوس واستثارتها، وإيقاد جذوة الإيمان في الضَّمير الإنساني ، ليكونَ الإقلاع قوياً و الانطلاقُ مُسدَّداً ونافذاً .

و لا شكَّ في أنَّ شخصيةَ النبي ﷺ كانت ملائمةً لهذا الأساس ، وما أظنُّ أنَّ أحداً من العالمين استطاع أن يحرِّكَ في النفوس ، ومن النفوس ، ما حرَّكه رسولنا الكريم ﷺ ، وإلا لما كانَ ذاك العربيُ مِنْ مستمعيه يغيِّرُ خطَ حياته كلِّها ، و مسارَ دربه كله بعد جِلسة قصيرة يستمع فيها إليه ﷺ.

ب ـ الترغيبُ والترهيب

ولو أنَّنا جئنا إلى أسلوبيةِ اعتماد « التَّرغيب والتَّرهيب »، فإننا سنصادف من المشكلات ما صادفناه في « إثارة العواطف » ، فهذه الأسلوبية ـ الترغيب والترهيب ـ ما زالت مشوَّشةً غير مبنيَّة على أساس، أومُقعَّدة وَفقَ قواعدَ وأصول ، فخطباؤنا لا يدرون إلى الآن : أيَّهما الأصل ؟ ،

متى نُرَهِّب ؟ ومتى نُرَغِّب ؟ ، و هل اليأسُ منَ الترغيبِ هو بدايةُ الترهيب، أم العكس ؟

إنَّ الواقع يخبرنا بأنَّ الخطباء اليوم يقدِّمون مواعظَهم بالترهيب لابالترغيب ، فما السبب ؟

ربما كانَ السببُ في أنَّ مجتماعتنا « مجتمعاتٌ يمينية ، و في مثل هذه المجتمعات لا تنتصر إلاّ اللهجةُ المتطرفة » كما يقولُ أستاذنا العلاّمة الشيخ محمود عكام ، فوقعَ في خلَد الكثيرين أنَّ « التقوى » إنما تكون في إعطاء الصورة المتشددة القاهرة الكابتة ، فهذه هي « العزيمة » عندهم ، أما الترغيب فهو اليسر والسهولة والسماحة ، و هو « رخصة » ليس إلاّ ، وشتَّان بين الرخصة والعزيمة ، لذا ، ولكي ينفي الخطيبُ عن نفسه وهمَ أنه غير تقي ، يُبْدي لا شعورياً تشدداً فيما يطرح ليثبِّتَ شرعيَّته ، وليؤسِّس مقبوليَّته بين الناس ، فما يكون منهم إلاَّ أنْ ينفعلوا بهذه الصورة التي أعطاهم إياها - وهو الذي أخذها في الأصل منهم - ليعيدوا إنتاجَها إلى الخطيب ذاته ، مما يضطره إلى أنْ يقدِّم صورةً أكثر تشدداً ، لكي يُبقي مسافةً بينه وبين الناس ، و ليظلَّ متميزاً عنهم ، فهو الأكثرُ تقوانية لأنه الأكثر تشدداً ، وهكذا غدا الأمرُ دي جدليَّةٍ مُطْبَقة بين الخطيب وبين المصلين ، و مايزال التشددُ مُتَصعِّداً ، ر لا يزالون يتشددون ، حتى غ.ت الخطبةُ اليوم رُجومَ شياطين ، ومطرَ عذاب ، ونارا تتميّز من الغيظ ، أخفُّ ما يُقدَّمُ فيها منْ وجْبات العذاب جمرتان يقفُ ء ليهما الإنسان حتى يذوبَ دماغه ويسيل .

إنَّ إنسانَنا - و يا بُؤساً لإنساننا - يظلُّ دوماً مطارَداً ، أوَليست القاعدةُ عند الخطيب أنَّ الترهيبَ أصلٌ والترغيبَ عارض ؟!

على أنَّ هذا الخطيب إنْ تكرَّم باستخدام أسلوب الترغيب ، فتحدَّثَ عن كرَم الله و غفرانه ورحمته التي وَسِعتْ كلَّ شيء ، فإنه يشعر في قرارة نفسه أنه يُقدِّم تنازلاتٍ يجب أنْ يحصدَ ما يقابلها ، إنْ مِنَ اللهِ ، أو منَ المصلين !

و إنَّنا على يقينٍ بأنَّه لوتوجَّه باحثٌ لدراسةِ تأثير هذه « المواعظ الترهيبية » الرهيبة ، و مدى انعكاسِها على نفسِ إنساننا ، و سلوكياته ، فلسوف يَخْلُص في رأينا إلى نتائجَ مهمة وخطيرة ، أولاها أنَّها تَهْدِمُ ما يحاول الخطيبُ تأسيسَه وبناءَه ، ولقد قال مرة أستاذنا الداعية حفظه اللهُ تعالى : «لقد خفَّ حبُّنا للموت والاستشهاد لأننا أُشْبِعنا بتصورات مرعبة جداً عن الموت ، وعن لقاء الله » ، وقال مرةً أخرى : « إن للهِ في أذهانِ أطفالنا وظيفتين : أنْ يغضبَ علينا ، وأنْ يعذبنا عذاباً كثيراً » (٩) .

---

(٩) - لقد درس الإمامُ الشاطبي هذه القضية بالذات في كتابه « الموافقات » ، إذ عقد فصلاً خاصاً للحديث عن الترغيب و الترهيب في القرآن الكريم ، مُحاولاً تقنين هذا الأسلوب ، أو البحث عن الناظم الكلي لسير هذا الأسلوب في القرآن الكريم ، وقد خلص إلى نتيجة مفادها : أنه إذا ورد في القرآن الترهيب قارَنه الترغيب في لواحقه أو سوابقه أو قرائنه ، وبالعكس ، وكذلك الترجية مع التخويف ، والبشارة مع النذارة ، وقد أفاض في التدليل على إثبات وجهة النظر هذه بما يقنع ويمتع ، فراجعه . ج٣ص٣٢٢.

ج ـ اغتنام الفرص

فالخطيبُ الناجح هو الذي يَتَصيَّدُ الفرصَ ولا يفوِّتها، ليصدِّرَ أفكاره وتصوراتِه ، و ليثبِّتها في خَلَدِ مستمعيه و يجذِّرها في نفوسهم .

إنَّ الفرصةَ لا بدَّ أن تكون :

١ـ مناسبةً للمضمون المرادِ طرحُه .

٢ـ وأن تكون على مستوى المصلين ، لا أعلى ولا أدنى .

ويتجلَّى هذا الأساس في طرح « المثال الداعم » الذي يشترط له أستاذنا الدكتور ـ حفظه الله ـ شرطين :

١ ـ أن يكون المثالُ واقعياً ، فالواقعية تُنتج صدىً أكبر وأعمق .

٢ ـ أن لا يلامسَ ما هو مغطىً ، أو ما لا حاجة إلى إثارته .

فالمثال : يجب ألاّ يُدغدغَ النوازعَ المغطّاة ، و لكنْ يجب أن يكون مُلامِساً للنوازع الواقعية ، ونذكر على سبيل المثال أن خطيباً شرحَ قوله تعالى : ﴿ كلوا مِنْ طيِّباتِ ما رزقناكم ﴾ [١٠] بأنْ راحَ يُعدِّدُ أسماءَ الأطعمة الفاخرة ـ الخاروف المكتَّف ، الكبة الحلبية . . . إلخ ـ و سالَ لعابُ المستمعين أثناء موعظته ؛ ويعلِّقُ أستاذنا الدكتور على هذه الأمثلة بأنَّها مما يدغدغ النوازع المغطاة ، ويقول :

« لو أنَّ ذاك الخطيب شرح كلمة « الطيبات » بالمالِ الذي كُسِبَ مِنْ حلالٍ لكان أولى وأحقَّ » .

---

(١٠) ـ طه / ٨١/ .

لقد علّمنا قرآننا الكريم اغتنامَ الفرص، وتحويلَها إلى خدمة العقيدة ، ولقد أرشدنا رسولنا ﷺ إلى هذا الأمر ، و الأمثلةُ كثيرة .

إنّ ﴿ ألم غُلبت الروم . . . ﴾[11] ما هي إلا فرصةٌ للتأكيد على صدقِ القرآن ، و أنّه مِنْ عند الله سبحانه ، هذا المثال كان على المستوى الواقعي ، وقد دعَّم المضمون ، و عادَ عليه بالبناء والتمتين .

و ما إنْ تنكسف الشمسُ ساعةَ موتِ وحيدِ النبي ﷺ « إبراهيم » ، حتى يقفَ النبي ﷺ في تلك اللحظات الرهيبة التي تُعتَصر فيها القلوب ، وتُكرَب عندها النفوس ليغتنمها فرصةً قويةً جداً ، و ليؤكد مضموناً يريدُ له البقاءَ والاستمرار ، فيقف خطيباً :

[إنَّ الشمسَ والقمرَ لا ينكسفان لموتِ أحدٍ من الناس ، ولكنهما آيتان مِنْ آيات الله ، فإذا رأيتموهما فقوموا فصلُّوا . . .][12] ، فجاء تقريره هذا ـ لمَّا اغتنمَ هذه الفرصة ـ لا أرسخَ ولا أمكن.

د ـ التكرار وحُسْن البيان

و هو أحـدُ الأسـس التي يُقـدِّمُ الخطيب مِنْ خـلالـهـا المضـمـون ، ووظيفةُ هذا الأسلوبِ التوضيحُ وزيادةُ التأكيد ، فإن أدَّاها فنعمَّا هو .

وتَنْبعُ قيمةُ التكرار من اختلاف أشكاله و تنوّعه ، فليس التكرار تَرداداً لجُمَلٍ معينة ، حرفاً بحرف و كلمة بكلمة ، فالنبي ﷺ ظلَّ يكرِّر مضموناً

---

(١١) ـ الروم / ١/ .

(١٢) ـ رواه البخاري ، حديث رقم / ٩٩٤/ .

واحداً ثلاثَ عشْرة سنةً في مكة :

[قولوا لا إله إلا الله تفلحوا] ، فهل كان طول هذه السنوات يردِّد هذه الجملة فحسب ؟! . الجواب البديهي : لا .

بقيَ أنْ نقول : إنَّ للتكرار آفةً واحدة فقط ، وهي الملل ، ويُنفَى الملل بالتَّنوُّع والغِنى ، كما قلنا .

٣ـ الموهبة المرعيَّة بالتعهُّد والتنمية

الموهبة كالنبتة ، فإنْ كان الإنسانُ قد حصَّل البذرة ، فلا أقلَّ مِنْ أنْ يسقيَها ويغذِّيها ، وسوف تنمو شيئاً فشيئاً .

ورغم ذلك فالخطابة عملٌ في مُكنة الإنسان ومُستطاعه إن تدرَّبَ على الإلقاء ، وثابرَ على النطق السليم الفصيح ، وجَالَ في اللغة علوماً وآداباً ؛ لأنها الأداة والوسيلة الأظهر ، و تعوَّدَ على الارتجال . كلُّ ذلك مع ملاحظة المقوِّمين السابقين : التصورُ المتكامل للمضمون ، واختيارُ الأسلوبية الملائمة لأساسِ الإعطاء . و عندها فالنَّجاحُ أكيد ، والتميُّزُ جِدُّ وارد ، والرضا و القبولُ من اللهِ حاصلٌ ، إنْ كان الصدق والإخلاصُ هوالحالَ السارية من البداية إلى النهاية .

* * *

ثالثاً ـ ماهي التحديات التي تُواجه خطبةَ الجمعة ؟

١ـ خُطبة الجمعة بين التبرير والتفكير

إنَّ خطبةَ الجمعة اليوم معملُ إنتاجِ ثقافةٍ قد اغتيلَ فيها العقل ، لأنَّها حولَّت وظيفتَه منَ التفكير إلى التبرير ، والتبريرُ عمليةُ تجميلٍ واهمةٌ لوجهِ الواقع المشوَّه ، دونَ التوجُّه لقطع أسبابِه وموادِّه ، و في الحاصلِ ، تكريسُ هذا التشوه وتثبيتُه .

هذه « الثقافة » افتقدَتْ مقوماتِ التفكير ، و وُصِمت بالتبرير ، لأنها اتَّسمت بسمتين :

أ ـ إنَّها لا تملك تحليلاً أو نقداً .

ب ـ إنها لا تمتلك استراتيجيه .

إنهـا تجنِّد النصَّ ووقـائعَ التـاريخ لإسـدال الشَّـرعيـة على (الفكر ـ الشخص ـ العمل) في وقتٍ ما ، أو لسلبِها عنهمْ في وقت آخر ، ولقد شـاهدنا سنةَ / ١٩٧٨م/ خطباءَ حكماء يتكلمون عن السلام ، تساوقاً مع زيارة السادات للقدس ، وسمعنا منهم تحليلاتٍ زاخرةٍ لصلح الحديبية .

على أنهم في الوقتِ نفسه ، وحسب توجُّهِ الدولة ، كانوا مستعدينَ ليكونوا الواجهةَ المعاديةَ للسَّلام المبررةَ للرفض ، المجندةَ كلَّ بلاغتها وبيانها لاستجلاءِ العبَر والعظات منْ إجْلاءِ بني النضير ، وبني قينقاع ، وبني قريظة ، و لانْصبَّتْ تحليلاتُهم تَتْرى لغزوة خيبر .

إنَّ على الخطيب اليوم لكي يؤديَ مهمتَه و رسالته ، أنْ يمتلك مقوماتِ

التحليل وأدواتَ النقد ؛ ليُعَرِّيَ الواقع ، وينفضَ ما تراكمَ عليه من غبار ، بل ليُظهِرَ منابعَ التشوُّهِ فيه ، حتى إذا ما حدَّدَها وعدَّدها ، انبرى مع زملائه العلماء لوضْع استراتيجيةٍ عليا ، تكْفل بأن تعيدَ لوجهِ الواقع رونقَه وجمالَه واتِّساقه .

مهمةُ الخطيبِ الداعيةِ في النهاية : أنْ يُوَقعنَ النصَّ ، ويُنزِّله التنزيلةَ اللائقةَ بالزمان والمكان والإنسان .

٢ ـ همومُ المجتمع ، وهمومُ الخطيب

إنَّ الإنسان اليوم يتطلَّع إلى المبدأ البديل ، الذي يَخْلف الأنظمةَ الفكرية الوضْعيَّة السائدة ، هذه الأنظمة التي لم تستطعْ أن تُجيبَ عن أكثر القضايا إلحاحاً وجوهرية بالنسبة إلى الإنسان ، مِنْ جهة أولى ، والتي لمْ تُوفَّق في إيجادِ النموذج المقْنع الذي يُورِّث الفكرةَ والمبدأ ، من جهة أخرى .

إنَّ الفكر الإسلامي ـ نقولُ هذا دون أنْ نكونَ متجاوزين للواقع ـ قد أصبح اليوم موضع توظيفٍ دائم لآمالِ التغيير في بلداننا الإسلامية ، على الأقل .

غيرَ أنَّ القائمين على هذا الفكر لم ينجحوا ـ سوى قِلَّة ـ حتى هذه اللحظة إلاّ في تخييب هذه الآمال . . . ، ولو دَرَوْا أيةَ ويلاتٍ يَجرُّونها بذلك على هذه الأمة التَّعسة ـ التي تنظر إليهم قادةً لأفكارها ـ لانتهوا عن أوضاعهم المترديَّة ، وارعوَوا عن مناهجهم البالية ، ولنسفوا قواعدَ منطقهم الجافِّ العقيم .

إنَّ النتيجة التي نريد أن نصلَ إليها ، هي مقولةٌ لأستاذنا الداعية ، طالما ردَّدها :

(نحنُ نكلِّم الناسَ مِنْ واقعنا ، ولا نكلِّمهم من واقعهم ، إذ نَفْترضُ فيهم حاجاتٍ معينةً نُخاطبهم على أساسها ، بل نَفْرضها عليهم ، فهل يشعرون بها حقاً ؟) .

نعمْ ، هذا ما ينطبقُ على الخطباء تماماً ، فهم اليوم لا يستنطقونَ همومَ الناس ، ولا ينطلقون منها ، وإنما ينطلقون من همومهم وحاجاتهم ، ليجعلوها همَّاً عاماً ، وحاجاتٍ عامة .

لَكَمْ تعجَّبْنا من ذلك الخطيب الذي راحَ يطرحُ مشكلةَ التخيير والتسيير ، بالاستنادِ إلى مسألة الجبر والاختيار على الطريقة الأشعرية ، مُبْرزاً نُقاطَ الاختلافِ بينها وبين الماتريدية ، ومُفرِّقاً بين اصطلاحَيْهما في القضاء والقدر ، ومُتحدِّثاً عمَّا يُسمَّى بالصَّلُوحيّ والتَّنْجيزيّ . . . إلخ ، ولَكَمْ كانَ عَجَبُنا أكثر مِنْ خطيبٍ آخرَ ساقَتْنا الأقدارُ إلى الصلاة عنده ، إذْ راحَ يحدِّثنا صبيحةَ معركةِ « عاصفة الصحراء » ـ سنة ١٩٩١م ـ عن (فوائد الشجرة في الإسلام) هكذا . . . ، وأتْبَعَ هذه الخطبةَ في الأسبوع الذي تلاه بخطبةٍ عن الرفق بالحيوان ، و تربيةِ القطط في الإسلام ، في حين أنَّ القطط العربية كانتْ تأكلُ بعضَها في الخليج العربي .

إنَّ الموضوعات المسيطرة على خطب الجمعة ، هي أمورٌ ثانوية بالنسبة إلى حياتنا ، بينما المشاكل الحقيقية قصيَّة عن هذه الموضوعات و العناوين .

إننا نتساءل : كيف يمكن لنا أن نناقش في خطبة الجمعة أموراً جوهرية ،

وكيف نجعلها مفتاحَ إجابة للقضايا المعاصرة ؟ ، ونحن غير منفتحين على علوم العصر ولا مطّلعين على مشاكل الساعة ، قد ارتبطنا بالماضي وعشنا ظلاله ، ونسينا الحاضر ، و تجاهلنا آفاقه ، وكان جلُّ ثقافتنا و معارفنا من كتب العهود المتأخرة التي قُتلت فيها روحُ الخلق و الإبداع والعمل عند الإنسان .

و خلاصة القول فيما نرى ، أنّ تغايرَ الهموم هذه نتيجةٌ حتمية لتغاير التقاليد الثقافية ، فالنظام التربوي التعليمي الذي ينشأ عليه الخطيب ، كما يُشبّهه الإمام محمد عبده رحمه الله ، ليس أكثر من متحف لإسلام العصور الوسطى ، ويعلّق الباحث الباكستاني فضل الرحمن قائلاً : (إنّ حقولَ المعرفة التي يدرسها ، إنما يدرسها عبر التفسيرات والشروح ، وهو يحمل في ذهنه فرضيةً هامة لكنها ضمنية تقول :

إنّ الدراسة لا يُنظر إليها على أنها جهدٌ متابعةٍ ووصولٌ خلاق للعقل إلى ما هو مجهول ، بل هي حصولٌ سلبي على معرفة متوطدة ، و من الطبيعي أنْ لا يؤدي هذا الفهم للوصول إلى بحث أو تفكير أصيل ، طالما أنه يفترض بأنّ كلَّ ما كان بالإمكان معرفتُه حول الواقع قد عُرِف بالعقل ، باستثناء أمور قليلة يمكن الوصول إليها عبر طريق الشروحات والاستطرادات أو الاستعارات) (١٣) .

---

(١٣) ـ انظر كتاب « الإسلام و ضرورة التحديث ، نحو إحداث تغيير في التقاليد الثقافية » ، فضل الرحمن الباكستاني ، ترجمة إبراهيم العريس ، دار الساقي ، الطبعة الأولى / ١٩٩٣م .

إننا ما زلنا نردد صباحَ مساء أنَّ الإسلام دينٌ ودنيا ، واقتصادٌ وأخلاق ، وحكمٌ وسياسة . . . إلخ ، و لكننا عندما نتساءلُ عن مفردات هذه المصطلحات التي ذكرنا في خطابنا وخُطبنا ، وعن حقيقة ربطها بالدين ، نجد أننا أبعدُ ما نكون عن هذا الأمر .

نعم إنّ التحديات التي تواجه الدعاة ـ وأخصُّ منهم الخطباء ـ يجب أن تستحثهم على الاستعجال في استدراك عدم تكيفِهم مع العلم الحديث والحياة الواقعية (١٤) ، فاللغة و المصطلحات التي يستعملونها لا تنتمي إلى عصرنا ، والموضوعات التي تُناقش لا تلامس الحياةَ اليومية المعاشة ، مما يخلق هوةً و فراغاً بين الخطيب و بين المتلقّي ، إذ لكل منهما عالم مختلف ، وما إنْ يخرج المسلم من المسجد إلى معترك الحياة حتى يصطدم بعالم آخر و حياة آخرى ، وكأنْ لا علاقة للإسلام بها ، فيقع ضحيةَ التناقض بين هذين العالَمَيْن .

وإذا أراد الخطباء اليوم أن يكونوا على مستوى الواقع ، فلا بدَّ لهم من

---

(١٤) ـ عندما نقول : إنَّ هموم الخطيب غير متطابقة مع هموم المجتمع ، فهذا لا يعني أنَّ هموم الحداثويين وطبقة الانتلجنسيا متطابقة مع هموم المجتمع ، بل ربما كانت الفجوة أكبر والهوة أعمق ، وهذا عائد إلى التقاليد الثقافية المغايرة أيضاً .

وكما أشرنا فإنَّ للثقافة الدور الأكبر في صياغة وصناعة الإنسان ، فهي التربة التي تنمو فيها أفكار كل شخص ، والمحيط الذي تتكون فيه الرؤى و تُحسم المواقف ، فإلى متى سيظل مجتمعنا حبيس هذين الخطابين المتناقضين ، خطاب الرجعي الجامد الذي يعيش في الأيام الماضية ، وخطاب الطوباوي الحالم الذي يعيش في الأيام المقبلة ؟ .

أن يحددوا موقفَ الشريعة فيما يخص كثيراً من القضايا الراهنة ، كقضايا التنميةوالنهضة ومقاومة التبعية والاستهلاك ، وقضايا التعليم والمؤسسات التعليمية ، ومستقبل الثقافة والمثقفين ، و تحدِّيات الحداثة . . . إلخ .

ترى هل نحن طوباويون إذ نطالب بذلك ؟! .

الجواب : لا . . . ، ذلك أنَّ الانقلاب الذي أحدثه المفكر الإسلامي أستاذنا الدكتور الشيخ محمود عكام ـ أدامه الله ـ في خطبة الجمعة يبشِّر بأفقٍ خيِّر معطاء ، وإنَّ إطلالة سريعة على عناوين الخطب التي اخترناها اليوم في هذا الكتاب لأَسْطعُ برهان ، وأَبْهرُ حُجَّة .

فلنقرأ :

١ ـ ملامح المبدأ الذي ينبغي أن يتبنَّاه الإنسان .

٢ ـ أين تكمن إنتاجية الإسلام .

٣ ـ صيغة التعايش الإسلامي .

٤ ـ مصطلح الأمة .

٥ ـ علَّمتنا يا رسول الله حبَّ الوطن .

٦ ـ الإسلام دين العقل .

٧ ـ هدف التعليم .

٨ ـ الشباب ربيع الأمة .

٩ ـ في ذكرى الجلاء : عبوديتنا لله سرُّ استقلالنا .

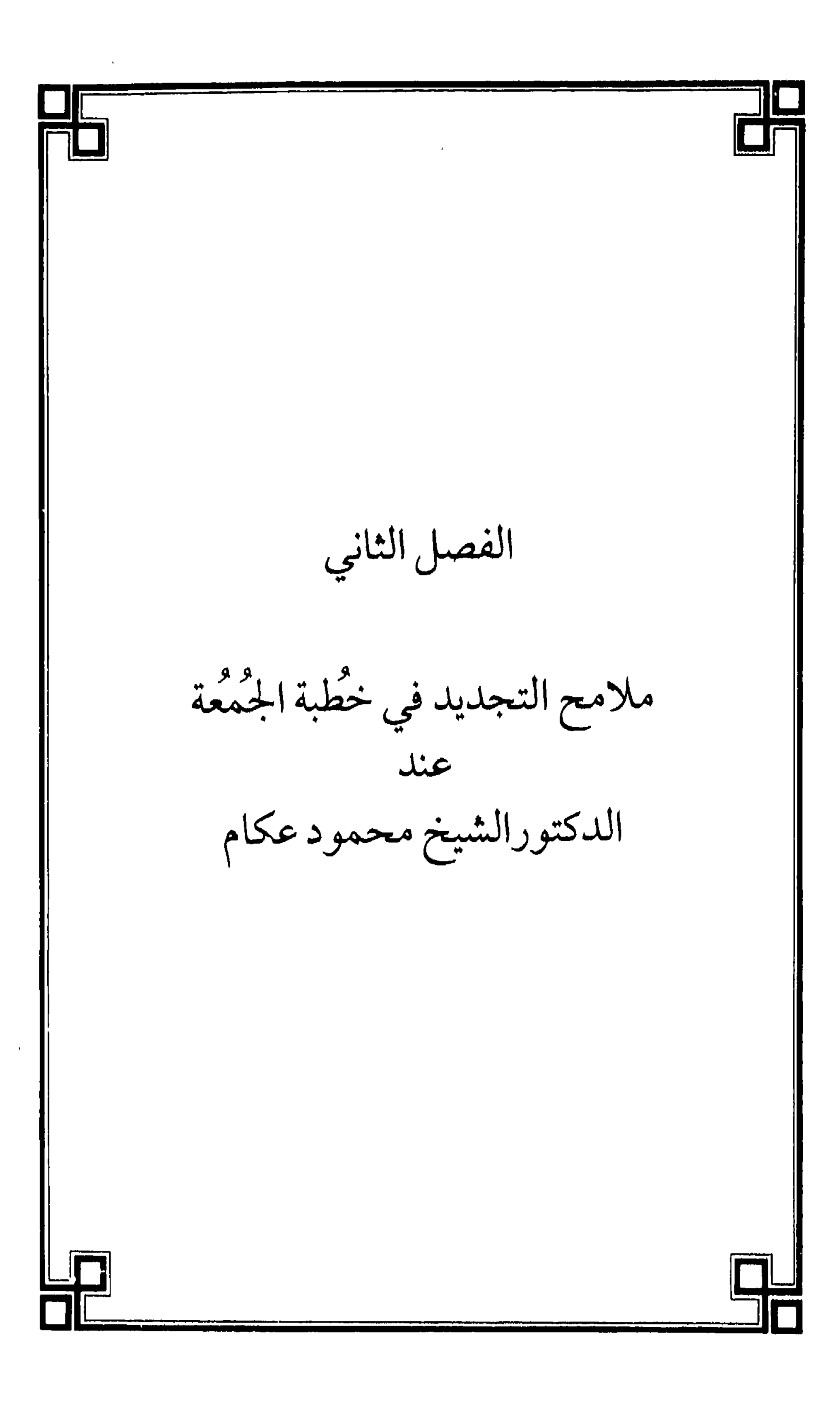
١٠ ـ التسامح مفهوماً مصداقاً .

١١ ـ قراءة في سلوك الصهيونية . . . إلخ .

على أنّ هذا غيضٌ من فيض ، فأمامنا الآن أكثر من / ٥٠٠ / خطبة جمعة ، أُلقيت في جامع التوحيدالكبير بحلب ، هي تراثُ أستاذنا منذ سنة / ١٩٨٤م / حتى هذه اللحظة ، وهو لم يترك فيها ساحة من ساحات الوجود الإنساني العام إلا وولجها ، ولا مساحةً من مساحات الهمِّ العربي والإسلامي إلا وطرقها .

وسوف نرى في الفصل التالي، بعضاً من جوانب وملامح التجديد، التي امتازت بها خطبة الجمعة، عند أستاذنا الدكتور حفظه الله تعالى .





الفصل الثاني

ملامح التجديد في خُطبة الجُمُعة
عند
الدكتور الشيخ محمود عكام



مفهوم التجديد

١ - تعريف التجديد

لا شكَّ في أنَّ مصطلح « التجديد » قد اكتسبَ في السنواتِ الماضية أهميةً تعادلُ ما لمصطلح « الصحوة » من مكانةٍ في الإسهامات الفكرية التي قدمها مفكرون إسلاميون متعددون .

بلْ إنَّه يَجدُ عند بعض المختصِّين قبولاً أكبرَ مِمَّا يلاقيه مصطلحُ «الصحوة» ، ليس لما يتمتع به مصطلح « التجديد » من أصالةٍ في تراثنا وفكرنا فقط [١] ، بلْ لأنه - بحسب رؤيتهم - يحمل دلالةً أوسعَ وأعمق من مصطلح الصحوة ؛ فالتجديد فعلٌ عقلانيٌ لا يقتصر على ما هو .

(١) - أخرج أبو داود عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : [إنَّ الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة مَنْ يُجدِّد لها دينها] . وأخرجه الحاكم وصححه ، والطبراني في الأوسط بسند رجاله ثقات ، اهـ. مُلخَّصاً عن كشف الخفا ، ج١ ص٢٣٤ .

وقد حاول بعضهم تحديدَ أسماء مُجدِّدي القرون السابقة منذ القرن الهجري الأول وحتى اليوم ، إلا أنَّ أستاذنا الدكتور يقول إنَّ « مَنْ » في قوله ﷺ [مَنْ يُجدِّد لها دينها] اسمٌ موصولٌ يحتمل الجمعَ والمفرد ، فلا ينبغي قَصْرُ وصفِ « المجدِّد » على شخصٍ واحدٍ بعينه =

سطحيٌ وظرفي ، بل يُحيل إلى عملٍ يمسُّ أعماقَ التاريخ ، ويستهدفُ المستقبلَ بكل ما فيه من أبعاد (٢) .

وإذا أردنا تحديداً لمعنى « التجديد » كمقدمةٍ للبحث فيه ، فإنَّ أستاذنا

= على رأس كل قرن ، بل الأقربُ أنْ يكون المرادُ بالحديث الجمع ، ويكون التجديدُ مهمةً يقوم بها أشخاصٌ متعددون كلٌّ في مجاله الذي يبدع فيه ، ولذلك سوف نرى بعد قليل كيف عرَّف أستاذنا التجديد بأنه « السَّعيُ الجادُّ مِنْ قِبَل المفكرين المسلمين في كل الأصقاع » ، وفي هذا تجاوزٌ للنزعة الفردية التي يموت بسببها الإبداع ، وتُهدر الطاقات ، ودعوةٌ إلى التقاء العقول والخبرات وسيادة الروح الجماعية .

وبخصوص مصطلحٍ آخر تعارف بعضُ الأساتذة والمفكرين على استخدامه مرادفاً لمعنى التجديد وهو مصطلح « التغيير » ، فإنَّ أستاذنا الدكتور لايرى هذا المصطلح دالاً على المعنى الإيجابي و النَّهضَوي الذي أراده هؤلاء المفكرون ، إذ إنَّ « التغيير » بحسب الاستخدام القرآني لهذا المصطلح ، فعلٌ سلبيٌ وحركةٌ نحو الأسوأ ونقلٌ للشيءِ عن حالته السَّويَّة الصحيحة ، وفي هذا المعنى قوله تعالى في وصف الجنة :

﴿ فيها أنهارٌ منْ ماءٍ غيرِ آسنٍ وأنهارٌ منْ لبنٍ لم يَتغيَّر طعمُه ﴾ / محمد : ١٥ / ، والآيةُ على لسان الشيطان : ﴿ ولآمُرنَّهم فليُغَيِّرُنَّ خلقَ الله ﴾ . / النساء : ١١٩ / .

لذا ما كان الله ليغيِّر نعمةً أنعمها على أمة فيستبدل بها العذاب ، حتى يغيِّروا فطرةَ التوحيد التي فطرهم الله عليها ، فيشركوا ، ﴿ ذلك بأنَّ الله لم يَكُ مغيِّراً نعمةً أنعمها على قوم حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ / الأنفال : ٥٣ / ، و ﴿ إنَّ الله لا يُغيِّر ما بقومٍ حتى يغيِّروا ما بأنفسهم ﴾ . / الرعد : ١١ / .

(٢) ـ انظر ما كتبه د. محمد عابد الجابري في كتابه « وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر » ، ص/ ٤٠ / ، مركز دراسات الوحدة العربية .

الدكتور الشيخ محمود عكام يعرِّفه فيقول :

(التجديد : هو السَّعيُ الجادُّ مِنْ قِبَل المفكرين المسلمين في كلِّ الأصقاع ، لإيجادِ بنيانٍ معرفيٍّ معاصر ، واستراتيجيةٍ ثقافية واحدة ، مأخوذةٍ من منابع ديننا الحنيف) [٣].

وهكذا ، فإنَّ التجديدَ المرادَ اليوم ، فعلٌ وبناءٌ يتضمَّنُ بالضرورة ـ كما يقول أستاذنا الدكتور ـ تحقيقَ نسبتين اثنتين :

أولاهما : تحقيقَ النسبةِ الصادقةِ إلى الإسلام في نصوصه الأولى ،

---

(٣) ـ يؤكد أستاذنا في هذا المجال على التربية كأساس لتحقيق كل أملٍ منشود ، غير أنَّ الذهنية الإسلامية اليوم ، تصنعها مؤسساتٌ تربوية لا تتضمن استراتيجياتها ما يساعد على إنماء التفكير المبدع الحرِّ ، الذي يكون أهلاً للدخول في عملية التجديد المطلوبة

إنَّ التربية اليوم تعتمد على استنطاق الذاكرة لا على تفعيل العقل ، ومثلُ هذه التربية لا تُنتج تجديداً ، إلا أنها تكرِّس ما هو قائم ، وتكررُه بصورة مُقزَّمة تحتفظ بكل مافيه منْ سلبيات وتشوُّهات . لذا كانت إعادة النظر في نظامنا التربوي ، وبيانُ أولويَّاته اليوم ، شرطاً ضرورياً للتجديد عند أستاذنا الدكتور ، ويأتي على رأس هذه الأولويات :

١ ـ تحديد هدف التعليم .

٢ ـ تحديث آليَّات الإرسال في التعليم ، والاستفادة في ذلك من علم النفس والتربية والاجتماع ، ومجمل العلوم الإنسانية . والسيرة النبوية الشريفة حافلة بالوقائع التي استخدم فيها النبيُّ ﷺ مختلف الأساليب التربوية في إيصال الفكرة إلى أصحابه رضي الله عنهم .

٣ ـ توفير جوِّ الحرية ، وإذكاء روح السؤال والنقد ، وتشجيع الإبداع في عالم الأفكار قبل عالم الأشياء .

المنتسبةِ إلى الوحي مباشرةً ، من القرآنِ الكريم وصحيحِ الحديث الشريف، عبْرَ الأدواتِ العلميةِ الصحيحة ، المعروفةِ في علومِ قراءةِ النصوص ، مع ملاحظةِ الفُهوم السابقة ، والاستفادةِ من انجازاتها وخبراتها .

ثانيهما : تحقيقَ الانتسابِ إلى العصرْ والتناسبُ معه ، من خلالِ العلم بالحاضر ، ومعرفةِ الواقع و الظرف والبيئة ، وضروراتِ الحياة ، لتغطيةِ حاجةِ الأجيال الحاضرة ، في كل المساحات التي تحتاجُ إلى تنظيمها .

٢ ـ تحدِّيات التجديد

إنَّ هذا التعريفَ للتجديد يستدعي بالضرورة الحديثَ عن التحديات التي تواجهها الأمة ، لأنَّه إنما كان تجديداً لأنه يستجيبُ لهذه التحديات بتقديمِ الحلول العمليَّة لها ، بما يتوافقُ مع انتمائنا وهويتنا ، ويُسهمُ في دفعنا نحو التقدم ، ودخولِ العصر من بوابة الفاعل والمؤثِّر فيه .

وبدايةً للكلام نقول :

إنَّ حجمَ هذه التحديات قدْ أصبح من الكبَرِ كماً ، والخطورةِ نوعاً وامتداداً على مساحات حياتنا ، بحيث لم يَعُد إدراكُها سمةً خاصةً بالمفكرين والنابهين من أبناء الأمة ، كما كان الأمرُ في بداية عصر النهضة ؛ بل لقد أصبح إحساساً عاماً يسْكنُ بثقلٍ طاغٍ على جماهير الأمة من مختلفِ الشرائح ، إلا أنه إحساسٌ صامتٌ ، خالٍ من قوةِ الدفعِ والحركة ، بحيث صارَ من المألوف ـ الذي يعبِّرُ بشيءٍ من الصراحةِ عن واقعِ الأمة ـ

أن يكتبَ باحثٌ له شهرته ، في مجلة واسعة الانتشار :

[إني ليُصيبني الرُّعبُ حين أتصورَّ هذه الملايين العربية تتمددُ أجساداً مُسَطحةً على الأرض ، خَدَراً وضَعفاً واستكانةً ، بدلاً منْ أنْ تكون مثلَ شجرة السَّرو مشرئبةً للسماء . هل أصبحتْ غثاءً أحْوى ؟! خرساءَ دونَ صوتٍ ، ودونَ مردودٍ كبير ، والأهمُّ من ذلك دون تفكيرٍ بالغد ، ودون وعيٍ به . هذا هو السؤال] . (٤)

لا نحبُّ أن نكون متشائمين ، إلا أنَّ الأمرَلم يَعُدْ مقصوراً على تقدمٍ يرفل فيه الغربُ ، وتخلفٍ يطوِّقُ رقابَنا ـ رغمَ تعددِ وتشعُّبِ مفرداتِ هذا التخلف على مستوى الفرد والمجتمع ـ [فالفردُ يعاني حصارَ الدولةِ والدينِ والمؤسَّسات ، والتقاليدِ والقوانينِ والدساتيرِ و الاغتراب ، وسيادةَ الروح الفردية ، والانحرافاتِ الاجتماعية ، والنزعةَ الاستهلاكية ، والتمسكَ بالتقاليد ذات الطقوسِ الخاليةِ منْ أيِّ مضمون ؛ أمَّا المجتمعُ ، فيعاني التفككَ والتجزئةَ الاجتماعيةَ والسياسيَّةَ ، والنزعةَ الفئويةَ الطبقية ، وخلخلةَ القيم ، والتبعيةَ ، وأزمةَ التجانسِ والهويةِ ، وأزمةَ شرعيَّةً عامة] (٥) ؛ لكنَّ الأمرَ امتدَّ إلى أعظمَ من ذلك وأدهى ، فالحيرةُ قد ضربتنَا بسَوْطها فلمْ نعد نعرفُ من نحن ، وما هي مقوماتُ

---

(٤) ـ د. شاكر مصطفى : « وعي المستقبل والأكثرية الصامتة » . مجلة العربي الكويتية ، العدد/ ٤٣٥ / ، شباط/ ١٩٩٥/ .

(٥) ـ ثناء عبد الله : « ممكنات التغيير في المجتمع العربي » ، مجلة المستقبل العربي ، العدد/ ١٧٦ / ، تشرين الأول / ١٩٩٣/ .

وجودِنا ؟ وما ملامحُ شخصيتنا ؟ وأيّ رسالةٍ نحمل ؟ ونحو أيّ هدفٍ نحن نسعى ؟! حتى رأينا شخصيةً كالأمين العامّ السابق لجامعة الدول العربيَّة يكتبُ بكل ألَم :

[هل نحن أمةٌ ؟ أسئلةٌ لابدَّ مِنْ طرحهَا على الضميرِ العربيّ] .(٦)

٣ ـ محمود عكام والتحدِّيات

و هنا نصلُ إلى المساحةِ التي عملَ فيها ، ولا يزالُ ، الداعيةُ والمفكرُ المبْدعُ أستاذنا الدكتور الشَّيخ محمود عكام .

إنّ ابنَ حيّ « الجلُّوم » العريقِ في مدينة حلب ، قد اكتسب ثقافتَه الأولى مِنْ دراسةِ المصادرِ التقليدية للعلوم الإسلامية ، بفروعها المتعددة ، من القرآنِ الكريم وعلومِه ، والحديثِ الشريف وفنونِه ، والفقهِ وأصولِه ، واللغةِ وآدابِها ، وعلمِ الكلامِ ، والمنطقِ ، والفلسفةِ ، والتاريخ .

كانَ ذلكَ في المدرسةِ الخُسرويَّة ـ الكليَّةِ الشرعيَّة ، ثم الثانويَّة الشرعيَّة فيما بعد ـ في مدينةِ حلب .

وازدادتْ هذه الدراسةُ توسعاً أفقياً وعُمقاً في كلية الشريعة بجامعة دمشق ، مع مزيدٍ من الوعي ـ بالذاتِ والعالم ـ الذي يناسبُ شخصيتَه التي أكَّدَ كلُ مَنْ يعرفها على انفتاحها واستيعابها ، وسرعةِ تمثلها للأفكار

(٦) ـ الشاذلي القليبي : « هل نحن أمة ؛ أسئلة لا بدَّ مِنْ طرحها على الضمير العربي » ، مجلة المستقبل العربي ، العدد/ ١٧٩/ ، كانون الثاني / ١٩٩٤/ .

والآراء ، مع تمحيص عميق ، وتصنيف دقيق ، ونقد علمي جريء .

وكان قسمُ الدراسات العليا في كلية التربية بجامعة دمشق مجالاً رحباً لعوالمَ جديدة ، وعلوم متعددة خَبِرهَا محمود عكام ، مع عناية بدراسة مناهج البحث واهتمام بالنظريات التربوية ومدارس علم النفس المختلفة .

وفي باريس وجامعة السوربون ، لتحضير الماجستير والدكتوراه (٧) أمضى « الإمام » ـ كما كان يسميه الأستاذُ الباحث البروفسور محمد أركون ـ السنوات الأكثرَ عمقاً في البحث والدراسة ، وكانت المعرفةُ المباشرة بأوربا والحضارة الغربية ، مع التعرُّفٌ العلمي على جوانب هذه الحضارة ، من خلال آثار مفكريها و واقعها المعاش معاً .

لقد أنتجتْ هذه المعرفةُ عندَ أستاذنا الدكتور محمود عكام مَزيداً من الإحساس بالهوية الخاصة لهذه الأمة ، وطبيعة الرسالة المتميزة التي قُدِّرَ لها أن تكونَ حاملةً لها .

ولقد رافق ذلك نظرةٌ موضوعية ناقدة إلى مجتمعنا ، وما يعانيه من تردٍ

---

(٧) ـ لأستاذنا الدكتور رسالتان تعادل كلٌّ واحدة منهما الماجستير ، واحدةٌ من جامعة السوربون ، والأخرى من جامعة السوربون الجديدة ، وهما :

ـ نظرية الإمامة عند الشيعة المعاصرين .

ـ والفكر السياسي عند عمر بن عبد العزيز .

وكانت رسالة الدكتوراه بعنوان :

ـ الحاكمية والسلطة في الفكر السياسي الإسلامي عند الشيعة والسنة في القرن الخامس الهجري .

وانحطاط ، بحثاً عن سبلِ النهوض ، وآفاقِ التجديد المطلوب .

وهكذا عاد أستاذنا الدكتور إلى مدينة حلب حاملاً معه همَّ النهوض ، وطموحاتٍ وأفكاراً ، تتجاوز بمسافةٍ كبيرة عمرَه من حيث الأيام والأعوام [٨] .

وكانت السنواتُ الأربع / ١٩٨٤ ـ ١٩٨٨م / في إدارةِ الثانوية الشرعيَّة بحلب ، مجالاً لدورٍ تربوي فاعلٍ ومتفوقٍ ، أعادَ إلى الأذهان ، رغم قِصرَ الفترة ، والتحدياتِ الهائلة ، ذلكَ الحلمَ القديم ، الذي طالما سعى الإمامُ محمد عبده رحمه الله إلى تحقيقه ، إذ كثيراً ما صرح ـ رحمه الله تعالى ـ بتطلُّعهِ إلى معهدٍ أو مدرسة يُنشِّىءُ فيها جيلاً من حملةِ العلوم الشرعيةِ جديداً ، له من الخبرةِ بالحياة ، والإحاطةِ بفنون العصر وعلومه ، وحاجاتِ الأمة والغيرةِ عليها ، مثلَ ما له من المعرفةِ الموثَّقة بدينه ، والوعيِ بمقاصد الشرع ، وتمثُّلِ أهدافه .

يُضافُ إلى ماسبق ، مجموعةُ دروس الثلاثاء ذات الموضوعات الحسَّاسة طيلةَ تلك السنوات الأربع في مسجد الخُسرويَّة ، ومن بعدها دروسُ الاثنين الجريئة والمميزة ، بعد صلاة الفجر في جامع التوحيد .

رافقَ ذلك مجموعةُ المحاضرات القيِّمة التي ألقاها ، ولايزال ، على طلاب دبلومِ التأهيل التربوي ، وما تحتويه من إثاراتٍ وأطروحاتٍ جادة وناقدة ، مما يتعلق بالتربية والعلوم الإسلامية معاً .

كلُّ ذلك أبرزَ حضورَ شخصيةٍ جديدة ، ذاتِ تميزٍ في طرحِها للإسلام

(٨) ـ ولد أستاذنا الدكتور محمود عكام في حلب في ٦/٦/١٩٥٢م .

على آفاقِ الحياة المعاصرة ، ونظرةٍ مدهشةِ النفاذ إلى عمق المسائل الحساسة ، وعقلٍ رفيع المستوى ، أثبتَ جرأةً عظيمة ، وقدرةً إبداعية متفوقة على الإبحارِ في محيط الإسلام العظيم ، وتذليلِ أمواج الحياة المعاصرة .

إلا أنَّ المجال الأشهر ، والأطولَ زمناً ، الذي قدَّمَ فيه أستاذُنا الداعيةُ رؤيتَه للإسلام في عصرنا ، كان خطبةَ الجمعة في جامع التوحيد الكبير بحلب .

لقد تناولتْ خطبةُ أستاذنا حفظه الله ، ومن خلال دراساتٍ معمَّقة ، كلَّ القضايا التي تمسُّ جوهرَ حياتنا ، و ما يواجهنا من مشكلاتٍ تتطلب الإجابةُ عليها قدراً كبيراً من التجديد ، بحسب المعنى الذي قدّمناه آنفاً لهذا المصطلح ، والذي نخصصُ هذا الفصل لدراسةِ بعض ملامحه في خطبة الجمعة ، عند أستاذنا الدكتور أمدَّه الله ، من خلال العناوين التالية :

أولاً ـ قراءةٌ أصيلةُ الانتماء ، معاصرةُ التكوين .
ثانياً ـ فكرٌ موثَّقٌ محقَّق .
ثالثاً ـ تحديدُ المفاهيم ، وضبطُ المصطلحات .
رابعاً ـ تعاملٌ واعٍ مع التاريخ .

وإنها ليست إلا بعضاً مما يمكن أن يجودَ به القلمُ عن أستاذنا الدكتور الشيخ محمود عكام ، وشيئاً يسيراً مما تستحقه هذه الشخصيةُ العظيمة من

وفاءٍ ، يشهد بذلك كلٌّ من عرفه، ورأى روحَه المتوقدة ، وغَيْرته الصادقة على مصلحةِ ناسه وأمته، وعزيمتَه التي لا تعرف الكلل، وهو يبذلُ كل ما يملك من علم ، وعمل ، ووقت ، وعاطفة، وحبٍّ، وكلَّ ما لديه في سُبُل نهوضِ الأمة، فإن أثنيتَ عليه أو شكرته ، فلن ترى في عيونه إلا حياءَ أولئك الأمناءِ من علمائنا البررة ، ولن تسمع من كلماتِه إلا مثل ما قاله مرةً لنا ، والصدقُ يعبقُ من إهابه :

(أنا أقلُّ مما تقولون بكثير ، وكلُّ ما أرجوه ، أنْ يأتيَ مثلُ هذا الرجل الذي تتحدثون عنه ، وأن أقفَ وراءَه ، وأمدَّه ، وأساندَه ، وأدعمَه، وأغذِّيه) .

وعزمنا الذي نرجو المولى الكريمَ لتحقيقه ، أن نتابعَ الحديث في الأعداد القادمة من « فكر ومنبر » عن بقيةِ ملامح التجديد، عند أستاذنا الدكتور محمود عكام حفظه الله .

أولاً ـ قراءةٌ أصيلةُ الانتماء معاصرةُ التكوين

١ ـ مِنْ أين ننطلق ؟

إذا كانَ التجديدُ المطلوب يقتضي أولاً تحقيقَ النِّسبة الصادقة إلى الذات ، وإبرازَ الصلةِ الوثيقة بهوية الأمة وتاريخها ، كما يقول أستاذنا الدكتور؛ فإنَّ هذا التعريف يتضمن الإقرارَ أولاً بأنَّ ما أصابنا مِنْ أمراض وجمود ، لم يكن سببُه الأول في عواملَ خارجية اقتحمت علينا حياتنا ، ولم يكن « الآخر » ، الغربيُ أو سواه ، علةَ تخلفنا الأولى .

ونستذكر في هذا المجال مصطلحَ « القابلية للاستعمار» ، الذي ولَّدته عبقريةُ الأستاذ الكبير مالك بن نبي رحمه الله ، عنواناً لمشكلاتنا في الصراع مع المستعمر .

إلا أنَّ مفاجأة المواجهة الواسعة مع الحضارة المتقدمة والعصرِ الحديث ، أذهلتْ ـ ولفترات طويلة ـ عقول الكثيرين منَّا ، و قسمتنا دهشةُ البحث عن الحلِّ إلى فريقين اثنين متناقضين أشدَّ التناقض ، غيرَ أنهما يجتمعان في نقطةٍ مركزية واحدة ، أنهما معاً يطلبان الحل من الخارج :

أ ـ فريق يرى الحلَّ خارجَ عصره الذي يعيشه ، ويستجدي الحلولَ لمشكلاته الجديدة من تراثٍ بشري أنتجته عقولُ أناس لم يعرفوا قلق الأشياء التي يعيشها ، ونسيَ هذا الفريق ضرورةَ فهْمِ التراكمات المعرفية التي أنتجها عصرنا، وأهميةَ استيعاب مفرزاتها التي لا يمكن إلغاؤها، كما

يقول أستاذنا الدكتور ، ولذلك لم يروا في أنفسهم حاجةً إلى التعامل المباشر مع نصوص القرآن والحديث ، ولا إلى ضرورة تمثُّل التاريخ والارتباط به ؛ مِنْ خلال استيعاب حركته و معرفة قوانينه وسننه ، (ولا يمكن أنْ نقفَ عند حدودِ عصرٍ من العصور للقرآن الكريم ، لِنفرضه على بقية العصور التالية ، بلْ إنَّ هناك ثوابت تتخللُ كلَّ العصور يُسمِّيها علماؤنا القطعيات ، وهناك تنزيلات تناسب كل زمنٍ وأحوالَه ، ترعاها وتغطيها وتكتنفها) . كما يقول أستاذنا حفظه الله .

ب ـ واكتملت الدائرةُ مع الفريق الآخر ، الذي يطلب هذا الحلَّ من خارج ذاته ، وبعيداً عن تراثه .

لقد أشبَعَنا هذا الفريقُ حديثاً عن تحررِّه وتقدُّمه وليبراليته ، أوحتمياته ، وملأ آذاننا تقريعاً لهذا « التراث المتخلف الجامد » ، الذي يجثم ـ حسب رؤيته المستعارة ـ على صدورنا ثقلاً يمنع أنفاسَ التنوير من أن تصل إلينا ، وهو يرى تاريخَنا صفحاتٍ أَوْلَى بنا أن نمحوها ، قبل أن يقرأها السيدُ الآخر ، شرقياً كان أو غربياً ، فما الذي نستفيده اليوم منها ؟!

و ما خطرَ ببال هذا الفريق أن يقرأ تراثه قراءةً علمية موضوعية ، وأن يصنِّفَه ويرتِّبه ؛ ففيه شخصيته ، وفيه هويته وحقيقة وجوده .

وإنه ليَصْدُق فيهم قول أستاذنا الداعية : (مشكلتُنا أنَّ الواحد منَّا لم يتعرَّف على نفسه ، لقد جَهِلنا ولم نتعلَّم ، جهلنا ديننا وثقافتنا ، جهلنا دستورنا ، جهلنا ثوابتنا ورسالتنا) .

و كانت خطبةُ الجمعة عند أستاذنا الدكتور ، مجالاً لاقتحامٍ جريءٍ

ومجدِّدٌ قام به ، وتجلّى من خلاله صدق المعاصرة ، وأصالة التكوين ، عند أستاذنا حفظه الله ، ساعده في ذلك امتلاكه لناصية العلوم الإسلامية المتعددة ، مع براعةٍ في علم الأصول ، وعلوم الآلة من لغة ومنطق وغيرها ، و درايةٍ واسعة بالعلوم الإنسانية ، ومعرفةٍ علمية بجوانب الحياة المعاصرة ، وما يُقدَّم في العالم اليوم من دراسات تستشرف أبعادَ المستقبل ، وترسم له ملامحه .

ومما أيَّده في حُسْن الربط بين ذلك كله ، معرفتُه بطبيعة مجتمعنا وتركيبته ، والعواملِ التي أسهمت في قيامه وارتقائه ، ومن بعد ذلك توقفه وانحداره ، وحقيقةِ المشكلات التي تواجه هذا المجتمع ، ومعايشتُه اليومية لهذه المشكلات ، من خلال المهام التي تقلّدها ، بالاضافة إلى خطبة الجمعة .

وإذا كنا سنتكلم هنا عن البنية النظرية لخطاب أستاذنا الدكتور التجديدي ، فإننا سنرى أمثلتَه التطبيقية في الفصل القادم ، من خلال الهموم والقضايا التي تناولها في خطبة الجمعة .

لقد كان أستاذنا ـ حفظه الله ـ مجدداً أصيلَ الانتماء ، إذ كان واعياً لضرورة الصُّدور عن النص في تجديدنا فـ (نحن أمةُ النص ، عُرفنا به ، وهذا النصُّ شاملٌ ، وعلينا أن نُعمل عقلنا فيه من أجل أن نَصْدُر عنه) .

وكان في قراءتِه وتجديدِه معاصرَ التكوين ، إذ كان واعياً لضرورة التعامل مع هذا النصِّ بروحِ العصر ، ومعرفةِ مطالبِ و حاجات الأمة ، والاستفادة من الدراسات والعلوم المختلفة في فهمه ، مع الاستعانة بجهود

السابقين ، فـ (لسنا مِنْ أولئك الذين يتحدثون عَنْ كل مفرزات النص وفهومه السابقة على أنها تراثٌ لنحافظَ عليه برمّته ، ولسنا من أولئك الرافضين لكل ما نتجَ عن النص سابقاً ، على أنه قديم ينبغي التخلي عنه ، ولكنني أدعو إلى التكامل في الطرح ، وذلك بالتزام النص مصدراً لفكرنا ، وتحديدِ معالم هذا النص وتبيانه ، ثم العملِ على تنزيله وفق العصر الذي نعيشه ، بأدوات سابقة ، وأخرى لاحقة مستجدة ، فيما يسمى اليوم بالأركيولوجي والأنتربولوجي و الألسنية ، ينبغي الاستفادة منها واستيعابُ العصر من خلالها ، فهي دراسات إنسانية ، ونحن مع الإنسان وما يلامسه) .

غير أنَّ هذا يقتضي إزالة ما علق بالأذهان حولَ ضرورة الاجتهاد ، وحول إمكانيةِ الدعوة إليه ، وشروطِه ، فـ « الاجتهاد » كما يراه أستاذنا الدكتور ، هو عنوانُ حركةِ العقل المسلم ، والمصطلحُ الذي يُعبِّر عن تفاعلِ هذا العقل مع « النَّص » المُوحَى به ومع الحياة ، هذه الحركةُ والتفاعل اللذَيْن يَسْتَلزمهما « التكليف » ؛ لذا كان « الاجتهاد » دون غيره مُحققاً لمرادِ الله تعالى منّا تجاهَ كتابه ، فكانَ وحدَه مناطَ الأجر والمثوبة :

[إذا حكمَ الحاكمُ فاجتهدَ ثمَّ أصابَ فَلَهُ أجْران ، وإذا حكمَ الحاكمُ فاجتهدَ ثمَّ أخطأَ فله أجرٌ] . رواه البخاري .

٢ ـ الاجتهاد

لقد كان الاجتهادُ عنواناً حملته كثيرٌ من الأفكار التي قدمها أستاذنا

الدكتور وسائلَ لنهوضنا ، وهو عنده قسمان اثنان :

أولهما : اجتهادٌ في استخراجِ الحُكم بالأدوات الصحيحة من النصوص الأصلية .

وثانيهما : اجتهادٌ في تنزيل الحكم على الوقائع الحادثة ، إذْ لكلٍّ إنسان ، ولكل واقعةٍ خصوصيتُها واستقلالها .

ولأنَّ أستاذنا يُؤمنُ بإمكانية انتظام جوانب الحياة الإنسانية كافةً تحت مظلة الإسلام ، و قدرتهِ على تغطية الحياة ، وتلبيةِ كل حاجات المجتمع الإنساني ، فإنه يدعو إلى التخصص في الاجتهاد ، وَفْقَ فروع المعرفة الإنسانية ، وتعددِّ الحاجات البشرية .

يقول أستاذنا ـ حفظه الله ـ في كتابه : « سِمَاتُ العملِ الإسلامي في مُستَقبلٍ منشود » (٩) :

(مشكلتنا أننا لمْ نطرح إسلامَ الإنسانِ بشكل عام ، بل إنَّ الجماعات جَهَدت في طرح إسلام الحكم والسياسة فقط ، وهذا الذي أوجدَ جفوةً من الشعوب الغربية ، وكأنهم يقولون لنا : نحن لسنا بحاجة إلى نظامٍ سياسي نستوردهُ ، ولكننا بحاجةٍ إلى نظام متكامل نتبنَّاه ، فهل عندكم مِنْ علمٍ فتخرجوه لنا ؟ وهل من شيءٍ آخر في إسلامنا نطرحُه عليهم ، و نقدِّمه إليهم ؟ .

فلنطرحْ إسلامَ المعرفة ، إسلامَ الاجتماع ، إسلامَ القِيَم ، إسلامَ

(٩) ـ سيصدر هذا الكتاب ضمن سلسلة : « بحوثٌ جادةٌ وهادفة في الفكر الإسلامي » بإذن الله تعالى .

التصنيع ، إسلامَ الزراعة ، إسلامَ الاكتفاءِ الذاتي ، إسلامَ التقنية ، إسلامَ الأخلاق والفضيلة ، إسلاماً نَصُوغه مذكرةً تفسيرية لقانون الإنسان في كلِّ أحواله .

فحَيَّهلا بكلِّ باحث ، ومرحباً بكل كاتب وناقد ، يُحقِّق جميعُهم هدفَ الإسلام في الإنسان) .

و كانت « قواعد قراءة النص الإسلامي » عند أستاذنا الدكتور ، مساهمةً ـ تستحق الإعجاب والتقدير لوضوحها وتحديدها ـ نحو تجديد واعٍ ، ونحوتفعيلٍ لحركةِ علم أصول الفقه في آفاقِ النصوص الشرعية ، والحياة .

يقول حفظه الله :

(القراءةُ تعني الفقه ، والفقهُ هو أشد الفهم ، فـ « قراءة التراث » تعني فقهَ الإسلام ، أيْ فهمَ الإسلام من خلال فهمِ مَتْنِه القرآنِ الكريم وصحيحِ الحديث الشريف ـ والصحيحُ ليس حصراً على الكتب الستة ، إذ هو ممكنُ الوجود في غيرها ، في الاستبصار ، و كتاب زيد ، وكتب عبد الجبار ، وغيرها ـ فهماً يُفيدنا في إغناء حياتنا ورفدِها بما يكمِّلها ، أي بما يحقق فينا إنسانيتنا المميزةَ لوجودنا .

ولا بد لقراءة النصِّ من أدواتٍ تضمن الفهمَ الصحيح له ، وهذه الأدوات هي :

١ ـ اللغة : لأن هذا التراث مكتوبٌ بلغة هي اللغة العربية ، ولا نقبل من إنسان أنْ يقدِّم لنا فهماً للتراث إذا لم يمتلك مِنْ هذه اللغة ما يُعينه على فهمها الفهمَ الصحيح .

٢ً ـ المنطق : بأنْ يكون هذا الفهم المستمدُ من اللغة فهماً مقبولاً في منطق الإسلام وروحهِ العامة ، محققاً لمقاصد التشريع ، ومنسجماً مع غاياته .

٣ً ـ المصلحة : لأنَّ النظر في مآلات الأمور معتبَرٌ شرعاً ، ودراسةُ الأثر الواقعي أمرٌ ضروريٌ لتطبيق الحكم الشرعي ، ولابدَّ منه قبل تطبيق الحكم على الواقع .

٤ً ـ معرفة الظرف الزماني، والمكاني، الذي يُطبَّق فيه الحكم الشرعي .

ويقول ـ رعاه الله ـ في مناسبةٍ أخرى :

(فهمُ النصِّ القرآني محكومٌ بأمرين في رأيي :

أولاً ـ بفهم النبي ﷺ وتفسيره وتبيانه ، إنْ ثبت سنداً وتوثيقاً .

ثانياً ـ و بآليَّة اللغة ، وأسبابِ النزول ، و السِّياق ، والمقاصدِ العامة للشريعة الإسلامية ، إنْ لم يكن هناك تبيان نبوي . وإنْ كنتُ على ثقة أنّ التبيان النبوي هو الذي أمدَّنا بما ذكرنا ، من لغةٍ وأسباب النزول في مواجهة النصِّ لفهمه .

بالتالي ، فالبابُ مفتوحٌ لكل مَنْ امتلك الأداة والوسيلة ، و النتيجة : ﴿ فأمَّا الزَّبَدُ فيذهبُ جفاءً وأمَّا مَا ينفعُ الناسَ فيمكثُ في الأرض ﴾ ، والقرآنُ الكريم أوسعُ مِنْ أنْ يُحدَّ بفهمٍ أو رأي ، والإسلامُ أكبر من أنْ يَرسمَ ملامحَه عالمٌ أومفكر ، وموقفُنا حِيالَ المفسرين على اختلاف مذاهبهم ، موقفُ مَنْ يُطالِب بوحدةِ قياسٍ متحدة ، وإن اختلفت أسماؤها ، والمهمُّ فيها هو حدُّها وقدُّها .

وأنا أفهمُ أنَّ اختلافَ الصحابة رضي الله عنهم كان في الأسماء دونَ الحدود ، وكلٌّ كان في فهمِه جزءاً من الإسلام ، ليشكلَّ الإسلام في النهاية كلهم .

فهلْ تغيرُ الإسلامُ حتى لم يعد قادراً على استيعابنا سنياً وشيعياً ومعتزلياً وسواه ؟ أمْ تغيَّرنا نحن لنضع فُهومنا موضعَ الحاكم على الدين والإسلام ؟! .

ولْنَقفْ ـ ونحنُ نرفضُ تفسيراً خاطئاً ـ موقفاً واحداً ، ولو تعددت مصادرُ هذا التفسير مذهبياً ، فالحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع ، ظهرَ في جماعتي ، أو في جماعةٍ أخرى ، ما دام الجميع ينهلون من ماء واحد ، وإنْ اختلفت أسماءُ أوانيهم ، فالماءُ العذبُ لا يُرفض لعدم الاتفاق على إناءٍ واحد ، بشكل مُتَّحد) .

لقد تعدَّدت الدراسات التي تبحث في التراث ، وكَثُرَ الكلام في طبيعةِ الاجتهاد المطلوب ، ونحن نعتقد أن مقولةَ أستاذنا :

(القرآنُ الكريم كتابُ الله ورسالته الخالدة إلى الناس ، تمدُّ الأجيالَ المتلاحقة بكلِّ ما تحتاجه ، شريطةَ أنْ تمتدَّ إليه الفهومُ الواعية ، والعقولُ الناهضة النيِّرة ، التي تدرك أبعادَ دلالاته ، وطبيعةَ نظامه المعرفي ، وبنيتَه اللغوية ، وواقعَ المخاطَب ومجالاته وظروفه وبيئته ، ومِنْ ثمَّ تُحْسِنُ الربطَ بين الخطاب والمخاطب .

وعليَّ أنْ أكونَ الحلقة التي تُضاف إلى السلسلة السابقة ، هذه الحلقة تتصفُ بالأصالة ارتباطاً ، وبالمعاصرة تكويناً وتناسباً) .

نحن نعتقد أن هذه المقولة ، التي كان كلامُنا بياناً لها ، تلخّص بدقةٍ حقيقةَ مشكلتَنا الأساسية ، ومن أين ننطلق لنعثرَ على حلٍّ لها .

[إنَّ التحريرَ الحقيقي هو ذلك الذي ينتجُ عن جهدٍ خاص ومرير ، تقوم به الذاتُ على ذاتها ، وليس عن طريق التقليد الأعمى والكسول للآخرين . . . ، فإذا كانت الحالةُ التاريخية للعرب المسلمين تبدو حالياً صعبةً ومتخلفة عن ركب الحضارة ، فإنَّ ذلك لا يعني أنها كانت دائماً هكذا ، ولا يعني أنها ستبقى كذلك إلى أبدِ الآبدين ، لا ينبغي التعميم واستخلاص الأحكام المسبقة من حالة تاريخية واحدة][10] .

إن أستاذنا يخاطب كل غيورٍ واعٍ فيقول :

(النصُّ الذي لا يلقى متفاعلاً معه يفهمُ مراميَه الدلالية وأبعادَه التطبيقية ، سيظل مُتَّهماً بعدم قدرته على الاستيعاب ، فلنُبْعد الاتهام عن نصِّنا بنشاطنا وتفاعلنا ، وهو أرحبُ مِنْ كلِّ حركةٍ فكرية انسانية ، ولقد زهونا بنتاجِ علمائنا السابقين الفقهي والاستنباطي ، حتى إذا ما آلَ الأمر إلينا ، تقاعسنَا عنْ فعلِ ما امتدحناه فيهم ، وكررنا مع التقزيم صفحتَهم ، فكنَّا الرقمَ المكرَّر المقزَّم ، ولم نكن العددَ التالي بترابطٍ وايجابية) .

* * *

(١٠) ـ هاشم صالح : « الفكر العربي المعاصر والحركات الأصولية » ، مجلة الوحدة ، العدد/٩٦/ ، أيلول/١٩٩٢/ .

ثانياً ـ فكرٌ مُوثَّقٌ مُحَقَّق

١ـ قيمة الكلمة

يقول أستاذنا الدكتور الشيخ :

(مِنْ أسبابِ انهيار الأمة ، عدمُ دقَّتِها في كلامها ، وتضييعُها عبائرَها فيما لا يعود عليها بالتحضُّر ، فالأصلُ كلمة ، وهي أهمُّ معابر الحضارة ، فهل نسعى لسيادتها ؟ !) .

إنَّ الذي يعرف أستاذنَا الدكتور محموداً ، يدركُ ما للكلمةِ مِنْ قيمةٍ عنده ، لا في خطبة الجمعة ودروسِه العلمية فحسب ، بل وفي حياته الخاصة بين أهله وأصدقائه ، وفي ضحكه ومزاحه .

إنَّ « سيادة الكلمة » مطلبٌ يسعى إليه أستاذنا الدكتور بحرص ، من خلال الدعوة إلى ذلك أولاً ، وتقديم النموذج الداعم بنفسه ثانياً ، لذلك ما رأيناه أبداً يلقي الكلمات جزافاً ، أو دون تمحيص دقيقٍ لمعانيها ودلالاتها ، ولطالما أدهشنا ذلك التحديدُ الفائقُ الوضوح ، الذي يقدمه لكلِّ مَنْ يسأله عن الفروق التي يراها بين معاني المصطلحات والمفاهيم التي تبدو مترادفةَ المعاني في كلامه أحياناً .

وبغضِّ النظرِ عن تمكُّن أستاذنا المشهودِ له به في اللغة ، وتذوقِه لآدابها وإحساسِه المرهف بجمالياتها ، فإنَّ هذه الدقة التي يتمتع بها كلامه عائدةٌ في الدرجة الأولى إلى :

ـ وضوحِ رؤيته ، وتماسكِ بُنْيتِه الفكرية ، واستنادِها إلى مصادرَ موثَّقة .

ـ والضبطِ الواضح والمحدَّد للمصطلحات التي يستخدمها ، سواءٌ منها ما هومعروفٌ من قبل ، أوما يقوم هو بتوليده .

وهي الأمورُ التي حرصَ عليها أستاذنا الدكتور محمود حفظه الله ، ولقيَ من المعاناة الشيءَ الكبير في سبيل الدعوة إليها ، من أجل أن تكون متوفرةً في كل الطروحات الفكرية التي نقدمها ، وصولاً إلى فكرٍ متين مُقْنع ، ينقذنا من الحالة التي نعيش فيها ، تحت وطأةِ ما أسماه أستاذنا حفظه الله بـ : غوغائية الفكر .

٢ ـ غوغائية الفكر

يقول أستاذنا الدكتور :

(لقد كانَ طرحُنا مهزوزاً لأن فكرنا مترددٌ وسلوكنا غيرُ صادق) ، فالسلوكُ الصادق لا يُنتجهُ إلاّ فكر متين ، إلاّ أنَّا قدمنا للناس ، ولفترةٍ طويلةٍ فكراً متردداً نتيجةً لغوغائيته ، وغوغائيةُ الفكر في اصطلاح أستاذنا الدكتور تعني أنه :

١ ـ فكرٌ غيرُ مُوثَّق .

٢ ـ فكرٌ غيرُ مُحَقَّق .

٣ ـ فكرٌ يَنقصُ فيه التخطيط .

والفكرُ غير الموثق : أطروحةٌ لا تتحرَّى الصحةَ في نقلها ، ولاتعتمدُ

التوثيقَ العلمي في عودتِها إلى مصادرها التي تستقي منها ، وتنتمي إلى نظامها المعرفي .

والفكرُ غير المحقق : فكرٌ غيرُ متماسكٍ في بنيته الداخلية ، لأنه غيرُ قائمٍ على التدقيق في الفهم ، ولايتمتع بتحديدِ المصطلحات المركزية فيه ، أوْ لايقدِّم ضبطاً واضحاً لمعانيها المرادة ، ودلالاتِها المقصودة عنده .

لقد ظهرت الغوغائيةُ في ساحة فكرنا بشكل قوي ، ويظهرُ هذا من خلال ذلك الكمّ الهائل من الروايات التي نتناقلها وننسبها إلى مَنْ لا علاقة له بها ، وربما كانت على شكل أحاديثَ تُرفَع إلى النبي ﷺ لتبريرِ بعضِ ما هو قائمٌ من العادات المستحكمة ، أوعلى شكل آراء ومقولات تُنسب إلى المذاهب المخالفة ، تشنيعاً عليهاوإظهاراً لها في مستوىً فظيع من الضَّحالة في فهم الإسلام ، وتبريراً لأحكام الفسقِ أو الكفر التي توصَم بها . لذلك كثيراً ما سُمِعَ أستاذنا وهو يقول : (إني أعيشُ هاجسَ الرواية) .

وتظهر الغوغائية أيضاً بشكلٍ مُحْزِنٍ في كثيرٍ من الدراسات التي نراها اليوم عن الإسلام ، وفيما تدَّعيه مِنْ تقديم رؤىً تجديديةٍ معاصرة ، مع افتقارها إلى الأدوات العلمية الخاصة بقراءة الإسلام ، وجنوحِ كثيرٍ منها إلى الاتهامية والهدم ، دون تقديم البديل .

لقد كان التزامُ أستاذِنا الدكتور بتوثيق النصوص التي يؤسسُ عليها أفكارَه علامةً بارزة لخطبة الجمعة عنده ، وكان يؤكد دائماً على ضرورة الوصول إلى نقدٍ علمي موضوعي بعيدٍ عن الاتهامية وتتبُّع السَّقطات ، وعلى أهمية الارتفاع بمستوى الدراساتِ العلمية الخاصةِ بالإسلام .

لقد عاشت كثيرٌ من نقاشاتنا مع بعضنا ، أو مع الآخرين ، في حلقةٍ مفرغة من الغوغائية ، فكان فكرنا فيها متردداً غير مقنع ، يحمل في داخله بذورَ نقضه ، فبينما نجدهُ يطرحُ صلاحيةَ الشريعة لكلِّ زمانٍ و مكان ، فإنَّا نراه في أطروحاته قاصراً عن تأطيرِ كثيرٍ من القضايا المعاصرة بالإطار المقنع المتناسبِ مع حاجاتنا الإنسانية اليوم ، وكانت نتيجةُ الغوغائية قطيعةً مع نصوص فكرِنا الأولى التي تشكِّل مصادرَه ، هذه القطيعة التي حوَّلتنا إلى لاهثين نتراكض خلف الوقائع والمستجدَّات ، لنتدارك بالترقيع ما انكشفَ من عوراتها ؛ فلا تخطيطَ مُسْبقاً ، ولااستشرافَ للمستقبل ، فكنَّا بذلك مبررين ولم نكن مفكرين .

٣ـ بين التبرير والتفكير

(التبريرُ فكرُ ردَّةِ الفعل ، والتفكيرُ فكرُ الفعل ، الأولُ جامدٌ ، والثاني متطورٌ متغيرٌ بحسب الفعل ، الأولُ سلبيٌ منفَعل ، والثاني إيجابيٌ فاعل ، الأولُ شتمٌ ، والثاني نقد ؛ وتتبُّعُ السقطاتِ فقط تبريرٌ ، ومثلُه إظهارُ الحسناتِ دونَ غيرها) .

هكذا فرَّق أستاذُنا الشيخ بين حدَّيِّ التبريرِ والتفكير ، وعلى أساسِ هذا التفريق عملَ في خطبه لتقديم فكرٍ علميٍ ، يُسهمُ ـ بحسب ما يؤدِّيه إليه اجتهاده ـ في بيانِ التغطية الشرعية لكل المسائل التي تُطرح على ساحة البحث ، في محاولةٍ جادة منه لكسرِ دائرة التبرير ، حيثُ التعاملُ مع الأحداث والمسائل وَفقَ قانونِ ردة الفعل ، الذي يقدِّم قوالبَ جاهزةً

جامدة في مواجهةِ أسئلةٍ متعددة متحركة .

هذه المحاولة التي تضمَّنت بذلَ الجهدِ في النفاذ إلى عُمْقِ المسائلِ الحادثة ، لفهمِ أبعادها وتكوينها ومكانِ تعلُّقِها بحياتنا ، ثمَّ بذلَ الجهد أيضاً في تثويرِ النصوص الشرعية ، باستخراج الإطارِ التنظيمي لهذه المسألة ، بما ينسجمُ وقواعدَ الشريعة ، وتحقيقاً لأكبر قدْرٍ ممكن من المصلحةِ للأمة ، لتكونَ نتيجةُ هذا الجهدِ كلِّه « فكراً » يغطّي « الواقع » ويُنمِّيه .

لقد أكدَّ أستاذنا الدكتور على ضرورة التعامل الجادّ مع النصوص والواقع ، وصولاً إلى اجتهادٍ موثقٍ محققٍ مواكبٍ لحركة الحياة و فاعلٍ في تقدمها .

ومِنْ خلال واقعٍ يعيشه عالمُ الفتاوى في حلبَ وغيرِها ، في قضايا المجتمع والتربية والاقتصاد ، قدَّم أستاذنا ـ حفظه الله ـ أمثلةً على لغةِ التبرير التي نتعامل بها ، مع أنَّنا نعلم قصورَها عن استيعاب الواقع ، وكيف أنها لنْ تتجاوزَ حركةَ اللسان ، لتغدوَ واقعاً مُعاشاً أبداً .

إنَّ أستاذنا الداعية يريدُ أنْ نصلَ إلى مرحلةٍ نقوم فيها حيالَ النصوص الشرعية بما يحققُ عمليةَ التَّثوير تلك التي أمرنا بها رسولُ الله ﷺ حيالَ القرآن الكريم ، هذه العمليةُ التي تتضمَّن اختراقَ النصوصِ بالأدوات العلمية الملائمة ، اختراقاً يستخرج عللَها الكامنة وراءها ، ويتعرفُ على مقاصدها ، ويتمثَّل في التطبيقِ روحَها . وإلاّ فإنَّا سنضطر إلى رؤية مَنْ يقومُ باقتحامِها بأسلوبٍ آخرَ يمزّق ترتيبها ، ويحطّمُ أسسَها ، ويلغي حضورها الفاعلَ في حياتنا ، وهذا ما نراهُ اليوم من خلالِ مظاهرَ شتَّى ،

يقول أستاذنا عنها :

(لقد حلَّت العادةُ محلَّ الفكر في اختراق النص ، فأُجْبِرنا على قبولِ اختراقاتها ، ولم نَعِشْ اختراقَ الفكر ، فصِرنا مبررين لاهثين ، وكان علينا أنْ نكون مفكرين مُنَظِّرين) .

(العادةُ عندنا مستحكِمة ومُحَكَّمة ، ولمسُها بالنقدِ يُثيرُ المسلمين أكثرَ مِنْ إثارةِ فكرةٍ جديدة كلَّ الجِدَّة ، فلنُزِل العاداتِ المستحكِمة بإثارة الأفكار الحادَّة الجديدة) .

* * *

ثالثاً ـ تحديد المفاهيم وضبط المصطلحات

١ ـ المصطلحات منافذُ العقيدة

(لقد ميَّز الله هذه الأمة بعقيدةٍ صافية واضحة ، وتفرَّد جلَّ وعلا بتشريع المنافذ التي تعبِّر عنها وتمثلها ، لأنها إنْ تُركت للإنسان ، ربما وقعَ في تعبيرٍ لا يُمثِّل تلك العقيدة ، ولهذا حرَّم الله سبحانه المساومةَ على هذه المنافذ :

﴿ قلْ يا أيُّها الكافرون ، لاأعبدُ ما تعبدون ، ولاأنتمْ عابدون ما أعبد ﴾ ، فليستْ أهميَّةُ المصطلحات والكلمات بأقلَّ مِنْ أهميةِ العبادات ، ويوم كانت الكلمةُ تؤذي العقيدة ، أو لا تعبِّر عنها التعبيرَ الصادق ، أُمِرَ المسلمون باجتنابها ﴿ لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ .) .

بهذه العبائرِ المضبوطة قدَّم أستاذنا الدكتورلسلسلةٍ من خُطَبِ الجمعة المبدعة المتميزة ، عالج في كلِّ حلقةٍ منها مصطلحاً من المصطلحات المتداولةِ بيننا ، مُصحِّحاً لِما رآهُ اضطراباً في فهمها ، مِنْ حيث استعمالها في غير مكانها ، أو عدمُ الدقةِ في تحديد أبعادها .

لقد تناولت هذه السلسلة مصطلحات :

الدين ـ الإنسان ـ العقل ـ الأمة ـ الشهيد ـ التسامح ـ الحضارة ـ الانتفاضة ـ السعادة .

وبيَّن في خُطبٍ أخرى مصطلحات :

الفتوة ـ الكرامة ـ الخيانة ـ الحياء ـ العدل ـ الخوف ـ الهدف ـ الغاية ـ

الصبر - الإنتاجيَّة - الرساليَّة - الوعي - الموعظة ، وغيرها .

وفي خطبةٍ لاحقة بعنوان : « مصطلحاتٌ تَحكمُنا ومصطلحاتٌ نحمكها » ، قدَّمت لنا عبقريةُ أستاذنا الدكتور واحداً من التصنيفات الممكنةِ للمصطلحات المعروضة في حياة إنساننا المسلم اليوم ، بحيث يضعُ كلَّ مفهومٍ في إطارهِ المناسبِ للإنسان ، ليتمَّ توظيفُه بما يعودُ عليه بالخيرِ والرُّقي .

٢ - لماذا هذه الدعوة إلى ضبط المصطلحات؟

مِنْ تلك الكلمات التي قدَّم بها أستاذُنا الدكتور لسلسلة خُطَبِ المصطلحات ، يمكننا أنْ ندرك أهميةَ مثلِ هذا العمل اليوم ، فالمصطلحات أوالمفاهيم ، منافذُ تعبِّر عن الفكر ،عن التصور ، عن العقيدة ، وتُمثِّلها ، وإنما تمتاز المبادئُ عن بعضها في سُلَّمِ التماسك الداخلي ، ومِنْ حيث قابليتُها للتوريث والانتقال ؛ مِنْ خلال تفاوتِها في تقديم ما تحمله من رؤى ضمن مفاهيم أو مصطلحاتٍ محددة وواضحة ، وإذا افتقدَ المبدأ - أيُّ مبدأ - مثلَ هذه المفاهيمِ المنافذِ ، فإنَّ ذلك يعني وهْناً خطيراً في تماسكه ، وتراجعاً في قابليته للانتشار والتوريث ، إنْ على امتدادِ الجغرافيا ، أو على محور الزمان ، وذلك أولُ علاماتِ موتِ المبادئ .

إنَّ مقداراً كبيراً من الوهْن الذي أصابَ فاعليةَ الدُّعاة اليوم ، كما بيَّن أستاذنا حفظه الله ، يعود إلى أنهم لمْ يُقدِّموا رسالةً مبنيةً على مفاهيم محددة و مصطلحات مضبوطة ، ونجاحُهم المأمولُ قرينٌ لهذا التحديد

والضبط ، وهل كان حديثُ [بُني الإسلام على خمس] ، و حديث جبريلَ المشهور [أخبرني عن الإيمان . . . ، فأخبرني عن الإسلام . . .] ، وحديثُ [الإيمانُ بضعٌ وسبعون شُعبة ، . . .] ، وحديثُ [أتدرونَ مَن المُفلس ؟ . . .] ، وغيرُها من الأحاديث ، إلا عملاً في تحديد المصطلحات ، وضبطِ دلالاتها لتعبِّر عن العقيدة وتمثِّلَها بصدق .

٣ ـ مصطلحاتٌ وعبقرية

لقد قدَّم أستاذنا الدكتور حفظه الله إسهاماته الفكرية مِنْ خلالِ مصطلحاتٍ متعددة ، ورغم أننا نستطيع أنْ نصنِّفها إلى قسمين اثنين :

الأول : مصطلحاتٌ متداولة سابقاً ومعروفة مثل مصطلحات :

الدِّين ، الإسلام ، الإنسان ، الحضارة ، الحاكميَّة ، الخوف ، الصَّبْر ، الهدف .

الثاني : مصطلحات ولَّدها إبداعُ أستاذِنا الدكتور واجتهاده ، إذ نقلها منَ الدلالة اللغوية المتداولة البسيطة ، إلى الدلالة الاصطلاحية الحاملةِ لفكرةٍ محددة ، مثل مصطلحات :

الوعي ، الموعظة ، الروحانية ، الغوغائية ، التبرير والتفكير ، التمسُّك و التماسك ، التمام والكمال ، الجادُّ والجيِّد ، الإنتاجيَّة ، الرساليَّة ، توظيف الصفات ، صفات الأبواب ، الفتوة ، الانتفاضة . . . إلخ .

إلا أننا نرى في كلا القسمين إبداعَ أستاذنا الدكتور ظاهراً جلياً ، إذ إنَّه لا يُرى ـ في تعريفه لأيٍ من مصطلحاته ـ معتمِداً على استنطاقِ الذاكرة

وحدها ، بل إنَّ كل العلوم والمعارف المتاحةِ مسخرةٌ عنده لإنتاجِ تعريفٍ محددٍ ومضبوط ، وواضحِ التعلقِ بمكانه المناسب من الإنسان ، بحيث يتحقق فيه أنه « تعريفٌ تجديدي » ، حسب المعنى الذي بيَّناه للتجديد .

ونذكر في هذا المجال بشيءٍ من الإيجاز ، دلالاتِ بعض هذه المصطلحات عند أستاذنا الدكتور حفظه الله :

أ ـ مصطلح الإنسان

يقول أستاذنا الدكتور حفظه الله :

(هناك تعريفاتٌ متعددة للإنسان ، فقد عرَّفه بعضهم منطلقاً من المنطوق اللغوي لكلمة « إنسان » ، مصدر « أنس » على وزن عرفان ، وأنْسه في ظهوره ، وقال أخرون في تعريفه منطلقين من موقعه في الوجود : الإنسان هو محورُ الوجود المشهود ، ومنطلقُ التكليف المعهود .

أتحسبُ أنك جُرمٌ صغير وفيكَ انطوى العالمُ الأكبرُ

و ما اخترتُه ينطلق منه ـ أي منَ الإنسان نفسه ـ مِنْ سَبْره ، واستقراءِ رسْمِه ، على مدارِ الزمن الكافي لوضعِ حدِّه ، فهو :

« كائنٌ حَيٌ موجودٌ بالاضطرار ، مُتميزٌ عن بقيةِ الكائنات الحيَّة بآليَّةِ المعرفة ، وقدرةِ الاختيار ، أُهِّلَ بهذا للتكليف ، فكانَ الأولَ في النوع خَلقاً ومكانةً مِنْ حيث التصنيف » .) .

إنه تعريفٌ جديد ، يستغني بنفسه عنْ أيِّ تعليق ، والكلامُ عن مميزاته يتأيَّد بمقارنته بغيره منَ التعريفات التي قدَّمها مفكرون متعددون لمصطلحِ

خطيرِ الشأن كمصطلح « الإنسان » ، وهي مقارنةٌ تحتاجُ إلى بحثٍ موسَّع ، وقد أشرنا إلى شيءٍ منه في تقديمنا لـ « الإسلام والإنسان » ، الكتابِ الأول مِنْ سلسلة « بحوث جادة وهادفة في الفكر الإسلامي » لأستاذنا الدكتور محمود عكام .

ب ـ مصطلح الوعي

الوعي كلمةٌ معروفةٌ متداولة ، انتقلتْ عند أستاذنا الدكتور إلى مصطلحٍ يُمثِّل فكرةً ويعبِّر عن عقيدة ، فلقد وضعَه أستاذُنا عنواناً لحالةٍ متطورة عاشها رسول الله ﷺ وصحابتُه ، وطريقاً إلى التجديد الذي نسعى إليه ، فـ (الوعي حالةٌ راقيةٌ ، يَنْشُدها الإنسانُ العاقل المفكر ، إذ بها يجدُ ذاتَه ، وعبْرَها يُحقِّق بُعدَه ، فالواعي : هادفٌ عن عمل ، وعاملٌ عن معرفة ، و عالمٌ عن إيمان ، وَفقَ سَيْرٍ كُلّيٍ متوازنٍ منتظم) .

وفي توضيحٍ لأبْعَادِ هذا المصطلح ، يحدِّد أستاذنا الدكتور مقوِّمات الوعي ، فيقول :

(مقوِّمات الوعي : جذورٌ إيمانية ، يَعتمدُ عليها ساقٌ معرفي ، يَتفرعُ عنه أغصانٌ مثمرة سلوكية ، إذ الوعي عملٌ عن علم ، وعلمٌ عن إيمان ، يكتنفُ كلَّ ذلك إخلاصٌ للهِ عزَّ وجلَّ .

وشرطُ العمل :

١ ـ أن يكون شاملاً : يُلبِّي كلَّ حاجةِ الإنسان ، مُنسجماً غيرَ متناقض .

٢ ـ أن يكون رساليّاً : أي مؤثراً في الآخرين من خلال إنتاجيَّته .
وشرطُ العلم : التَّحَقُّق ، والتَثَبُّتُ ، و التَّوثُّق .
وشرطُ الإيمان : القناعةُ ، دونَ تقليد) .

إنَّ أستاذنا ـ حفظه الله ـ يدعو شبابَنا ومثقفينا اليوم إلى تمثُّل حالةِ الوعي التي عاشها رسول الله ﷺ و صحابته الكرام . فـ (إنْ لمْ تكنْ واعياً ، فلن تكونَ صاحبَ موقفٍ يُحدِّدُ ما إذا كنت مسلماً أم لا . وحتى إذا لم تُخْتَبَر ، فسوفَ تُحاسَبُ على إمكانيةِ الاختبار) .

ج ـ مصطلح الانتفاضة

وهو مصطلحٌ جديد ، لم يُعرف إلا منذ سنوات ، إلا أنَّه وُلِدَ كأشدِّ ما يكون قوة ، بحيث غدا رمزاً لقضية كبرى ، وأملاً لشعبٍ عظيم ، وعلامةً على جيلٍ كامل ، حتى إنَّه تجاوزَ لغتَه العربية الأمّ ، ليَدخلَ معاجمَ اللغاتِ العالمية الكبرى ، كمصطلحٍ له دلالتُه الخاصَّة به .

وقد كانَ أستاذُنا الدكتور حفظه الله ، أولَ منْ سارع ـ فيما نعلم ـ لتحديد أبْعادِ هذا المصطلح النَّاشىء ، مِنْ خلال خُطَبٍ متعددة ، رافقتْ مسيرةَ الانتفاضة منذ اشتعالِها حتى يومِنا هذا ، ومنْ خلال خطبِ السِّلسلةِ الخاصَّة بالمصطلحات الإسلامية ، ومن بينها مصطلح الانتفاضة ، الذي كانتْ ملامحُه حياديةً أولَ الأمر ، ثمَّ ما لبثتْ أنْ أخذتْ قَسَماتِ الإسلام تظهرُ على وجههِ البرَّاق يوماً بعد يوم .

وإنما أخذَ مصطلحُ « الانتفاضة » مكانَه هذا بين « المصطلحات

الإسلامية » ، لأنه يحملُ مِنَ الأبعاد ما يجعله منفذاً يعبِّر عن عقيدة ، وعلامةً على موقفٍ مبدئيٍّ في قضيةٍ مصيرية .

يقول أستاذنا الدكتور عن « الانتفاضة » :

(ولئنْ كانت الانتفاضةُ في لغتنا تعني أن الكَرْمَ قد نَضُر ورقُه ، وأنَّ الزرع قد أخرج آخرَ سنبلةٍ فيه ، إلا أنَّه يمكننا أنْ نحدد مصطلحَ الانتفاضة ـ حسب ما رأينا ـ على الشكل التالي ، فنقول :

إنَّه تكاملُ وعيِ جيلٍ ما بعدَ الاحتلال ، الذي بلغ سنَّ الأربعين ، فَقَدْ بدأ الاحتلالُ سنةَ / ١٩٤٨م / ، و فجَّرت الانتفاضةُ ثورتَها سنةَ / ١٩٨٧م/ ، . لقد أصبحَ لدى هذا الجيلِ ، الذي نضُر ورقه ، وأينع ، وأخرجَ ما لديه ؛ أصبحَ لدى هذا الجيل قناعةٌ تعتمد على التجربة ، والواقعِ ، والمنطق ، والتاريخ ، أنَّ الإسلام هو السبيلُ الوحيد لاستعادةِ كلِّ الأراضي ، وللقضاءِ على المستعمرِ البغيض ، ولإجلائه عنْ كلِّ شبْرٍ من أراضينا الكريمة ، وذلك عبرَ فريضة الجهاد ، التي تنتظمُ لتشكلَ قوةً تُرْبكُ العدو ، حتى ولو كان سلاحُ هذا العدو ناراً ، وسلاحُ أبنائنا حجارة ، فعقيدتنا أنَّ اللهَ الناصرَ سيحوِّلُ حجارتنا عليهم قطعاً منْ سجِّيل ، وسيحوِّلُ نارَهم علينا برداً وسلاماً ، وما أمثلةُ التاريخ عنَّا ببعيدة) .

* * *

رابعاً ـ تعاملٌ واعٍ مع التاريخ

١ـ ما هو التاريخ ؟

ليس التاريخُ ـ كما يفهمُه أستاذنا الدكتور ـ هو ذلك الزمان الذي سَلَفَ ، بما فيه منْ أحداث ومفردات ، مهما كانت عظيمةً ، إنما ذلك أساطيرُ الأولين ، يُعيدُ استهلاكَها الخاملون الذين تقاصروا عن الوصول إلى مستوى تحديَّات الحاضر ، فهمْ على حدّ تعبيرِ أستاذنا « يجْتَرُّون » التاريخَ في خَدَر كسول ، التماساً لمبررات ِ وجودِهم اليوم .

إنّ التاريخَ روحٌ متحركة تعيشُ في الماضي ، و تسكن في قلبِ الحاضر جذوةً تتَّقد في داخله لتحرِّكَه نحو المستقبل ، في مسارٍ صحيح يدعمُ إنسانيةَ الإنسان ، وإلى مثْلِ هذا التاريخ يكون انتسابُنا اليوم .

يقول أستاذنا حفظه الله ، في خطبةٍ بعنوان « تاريخنا وتاريخهم »، مِنْ سلسلة خطب « نحن والغرب » :

(تاريخُنا الذي ننتمي إليه ، ليسَ بمفرداته ، إنما بروحِه وثوابته ، تلك الثوابتُ المبدئية فيه التي ترعى الإنسان . هذا هو التاريخُ الذي ينبغي أنْ يُتبنَّى اليوم) .

وهكذا ، فإنَّ العلاقة التاريخية التي تربطُ الماضي بالحاضر ، علاقةٌ تأثيرية جدلية ، فكما أنَّ بصماتِ الماضي تبقى حاضرةَ التأثير فينا اليوم ، فإنَّ الحاضرَ هو الواقعُ المُعَاش الذي يعطي للتاريخ استمراريتَه ، مِنْ

خلال تقديمِ ما أسماه أستاذنا حفظه الله بـ « النموذج المقنع » .

٢ ـ روح التاريخ

(لأنَّ التاريخ ليس ذاك الذي تسجِّله الأيدي في فترةٍ من الفترات ، وإنما التاريخ هو الذي يُنشئ أجيالاً تنتسب إليه ، مِنْ خلال العقيدة والمبدأ، ومِنْ خلال العلم ، والانتماءِ ، ومِنْ خلال الواقع ، ومِنْ خلال النَّظرةِ المتطلِّعة إلى المستقبل) ، فروُحُ تاريخِنا التي بها كان ؛ ومنها انطلاقُه ، إنما انبثقتْ منَ العقيدة والمبدأ ، والانتماءُ إلى هذا التاريخ يعني إعلانَ الولاءِ لهذه العقيدة ، وتحقيقَ الانتماء لها .

ولهذا ينظر أستاذنا حفظه الله إلى تاريخنا على أنه ممتدٌّ في الزمان ، إلى حيث يدخل فيه كلُّ مَنْ حمل هذا المبدأ الذي هو : ﴿ ملَّةَ أبيكمْ إبراهيمَ هو سمَّاكم المسلمين مِنْ قَبْلُ وفي هذا ﴾ . يقول حفظه المولى :

(حينما نقول إنَّ مبتدأ تاريخِنا هو « اقرأ » في غارِ حراء ، فهذا لا يعني أنه تاريخٌ لا يمتدُّ إلى أبعدَ مِنْ ذلك أو أعمق ، ولكننا نتحدثُ عن الحدثِ البارز ، الحاكمِ بصبغته على هذا التاريخِ كلِّه .

فتاريخُنا يمتدُّ مِنْ أجلِ أنْ يشملَ بصماتِ الحنيفية السَّمحة ، ليستقرَّ وليرقى إلى ما سجَّله الأنبياءُ عليهم السَّلام ، وتاريخُنا يصعدُ من خلال الطاهرين ، كما عبَّر المصطفى ﷺ ، ليكونَ إلى آدم ، مِنْ خلالِ أنبياء ، ومِنْ خلال علماء ، ومِنْ خلال زُهَّاد ، ومِنْ خلال واعين ، ومِنْ خلال حركاتٍ إنسانيةٍ صادقة).

٣ ـ ملامح الامتياز في تاريخنا

(إننا إذْ نقول إنَّ تجربتَنا سليمةٌ ، فلأننا نحملُ في داخلها أموراً ثلاثةً لا يحملها الآخرون في تجربتِهم ، إنْ كانت شرقيةً أو غربيةً ، فنحن نحمل في تجربتنا :

١ ـ عبوديةً للهِ عزَّ وجلَّ .

٢ ـ إرادةَ الخيرِ للناس .

٣ ـ واستعمارَ الأرضِ بالمعنى الصحيحِ الخيِّر) .

و المجالُ مفتوحٌ للدراسة المقارنة ، فـ (نحنُ لا نبغي في حديثنا شتماً ولا سباباً ولا نبغي فضيحةً ولا اضطهاداً ، وإنما نريدُ نقداً مِنْ أجلنا ومِنْ أجلهم ، فنحن أمةٌ رُبِّيْنا على أنْ نكون أمةَ نصيحةٍ ونقد ، لا تبغي مِنْ وراءِ ذلك إلا الخير) ، ولا نبخسُ الناسَ أشياءَها أو الأممَ تاريخها .

إنَّ تاريخَنا :

١ ـ تاريخٌ مبدئيٌ : لا يقوم الانتماءُ إليه على الدَّم والجنس ، بل هو قائمٌ على الولاءِ للعقيدة والفكرة .

٢ ـ تاريخٌ علميٌ : ليس فيه انفصالٌ بين الدين و العلم ، إنما الدين موجِّه للعلم نحو غايته الصحيحة ، والعلمُ فيه داعمٌ للدين .

٣ ـ تاريخٌ إنسانيٌ : فـ (تاريخُنا يسجِّلُ في أسماعنا أننا ننتمي لأناسٍ لمْ يُريدوا مِنْ هذه الحياة إلا العدل ، و إلا المساواة ، و إلا الإنسانَ مِنْ أجلِ أنْ يكون سعيداً مسروراً) .

٤ ـ تاريخُ مبادئَ واعيةٍ واعدةٍ : (نحن الذين نادينَا بالأمر بالمعروف

والنهيِ عن المنكر ، نحن الذين نادينا بالعدالة ، والسياسةِ الراشدة ، نحن الذين قال كتابنا الكريمُ : ﴿ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قومٍ على ألا تعدلوا ، اعْدِلُوا هو أقربُ للتقوى ﴾) .

٥ ـ تاريخٌ واقعيٌ مكشوفٌ : فهو ليسَ بتاريخٍ للملائكة ، إنما هو تاريخُ بشرٍ يخطئون ويصيبون ، ينجحون ويخفقون ، وقد كتبناه بكلٍّ ما فيه ، و (كنَّا موضوعيين في كتابته ونقله فتكلَّمنا ، غيرُنا أخذَ منَّا موضوعيَّتنا واستغلَّها ضدَّنا ، كنَّا طيِّبين وكانَ غيرُنا خبيثاً ، ولو كَتَبَ غيرنا تاريخَه وفقَ المنهجِ الذي كتبنا به تاريخَنا ، لكانَ صفراً ، ولما بقيَ له منْ تاريخه شيء) .

(تاريخُنا مكشوف ، ونحن نتحدثُ عنه بكل حريةٍ ، فإنْ كان فيه نقاطٌ سود ، لكنَّ النقاطَ البيض فيه أغلب ، ودائماً يُنظر إلى الإنسان ، وإلى المجتمع ، ليس على أنه مجتمعٌ خالٍ من العيوب ، ولكنْ على أنَّ حسناته غلبتْ سيئاتِه . وتاريخُنا إنْ نظرتمْ إلى الدِّماء فيه ، نظرنا إلى القرآنِ فيه ؛ وإنْ نظرتمْ إلى القتلِ فيه ، نظرنا إلى الإحْياءِ فيه ؛ وإنْ نظرتمْ إلى ظلمٍ كانَ فيه ، نظرنا إلى عدلٍ شهدتم أنتمْ ونحن بأنه تجسَّد فيه . تاريخنا واقعي ؛ سجَّلناه بأمانةٍ ، ونقلناه بثقة ، وقُلنا فيه لِمَنْ أخطأ مِنْ رجالنا لقدْ أخطأت) .

٤ ـ تاريخنا بين الإفراط والتفريط

لقد قدَّم أستاذنا العلامة ـ مِنْ خلال خطبةِ الجمعة ـ هذا الفهمَ الواعي

للتاريخ ، وكانت الطريقةُ التي استثمرَ بها التاريخَ في خُطَبه علامةً رائدة على فهمٍ واعٍ نريد أنْ نصل إليه في تعاملنا مع تاريخنا .

لقد مررنا بتجربةٍ كنّا نَرى فيها :

١ ـ إمّا أناساً تحوّل التاريخُ عندهم إلى أساطيرِ الأولين كما قلنا ، فهو تاريخٌ فوق القوانين و القدرةِ البشرية ، متعالٍ لا يُستطاع إليه سبيلاً .

٢ ـ أوفئةً أرادتْ أنْ تنسلخ الأمةُ من هذا التاريخ كلّه ، وراحتْ تقدّم لنا بدائلَ مستعارةً من مبادئ وأشخاصٍ لا ينتمون إلينا ، ظناً منهمْ أنهم يقدّمون لنا مفتاحَ السّحر الذي يَزجُّ بنا في أضواء المستقبل السعيد .

٣ ـ وها نحنُ نرى فئةً جديدة تَبرز على الساحة ، كاشفةً ما كانتْ تُخفيه تحتَ الأقنعة إلى زمنٍ قريب ، وليس لها مِنْ حديث اليومَ إلا « الذّهنيَّة العربية المُغلَقة » ، و « الوعي الخرافي » الذي نستقبلُ به الحوادثَ و ننظرُ به إلى العالم ، و « الانتقائية الظالمة » و « سحر النصوص » الذي خضعتْ لهما « البنية العقلية العربية » في صراعنا مع « الصهيونية » ، وصارتْ الموضوعية والعقل والعلم تعني عندها أنْ نتركَ ذلك كلّه ، فلا مكان على سطحِ الأرض لِمَنْ يحمل مثلَ هذه الأفكار السود .

وكانوا بذلك مبررين لأناسٍ لا يحملون إلا العداوةَ للأمةِ و الوطنِ ، وللإنسانية ، والدنيا كلها شاهدة ؛ قد سرقوا مِنْ حاضرنا الشيءَ الكثير ، ولا زالوا يسرقون ، ويريدون منّا فوقَ ذلكَ أنْ نراهمْ أصحابَ حقٍ تاريخيٍ ، يجب أن يأخذوه .

وحتى لو كان الأملُ كبيراً ، فإنّه يبقى مشروعاً ، بل وواجباً ؛ الأملُ

الذي يرنو إلى الواعين منْ أبناءِ هذه الأمة، الذين ينتمون إليها وِفْق مقومات الانتماءِ الصحيحة ، منْ أجل أنْ يدافعوا عن تاريخها ، الذي به وجودها ، دفاعَ العالِم الموثِّق ، والناقد المحقق ، وأنْ يقدِّموا لأبناء هذه الأمة رؤيةً واعية لتاريخهم ، تستجيبُ لتحديات الحاضر ، و تُجيب على مسائِله وتستوعبُ قضاياه .

إنها مهمةٌ عاجلة ، ونحن واثقون ـ من خلال ما نرى ونسمع ـ بنخبةٍ مؤمنة مثقفةٍ شابَّة ، نرى انتشارَها يزدادُ على مساحةِ وطننا الكبير ، ونشاهدُ ما يَبعثُ على التفاؤل منْ حركتها على ساحاتِ العمل اليومي ، وإنتاجِها المميَّز على صفحات الكتب والمجلاتِ المتخصِّصة .

وإننا لنرجو منْ خلال عملِنا هذا الذي نقدِّم ، والأعمالِ القادمة بإذن الله ، أنْ نكشفَ عن بعضِ جوانبِ الإسهامات الرائدة ، والأفكارِ النَّيِّرةِ الواعدة ، التي قدَّمها أستاذنا الكبيرُ الدكتور الشيخ محمود عكام أمدَّه الله ، لا في هذه المسألةِ فقط ، ولكنْ في مختلفِ المسائل التي تهمُّ قضايا فكرِنا الإسلامي المعاصر ، والتي نعتَقدُ بتداخلِها وترابطها الوثيق مع بعضها جميعاً .

٥ ـ كيف نتعامل مع التاريخ ؟

« كيف نتعامل مع التاريخ ؟ » مَلْمَحٌ منْ ملامح التجديد في خطبة أستاذنا الدكتور ، إذْ كثيراً ما يُحيلُ أستاذنا في خُطَبه إلى التاريخ ، ويستشهدُ بحركته وحوادثِه وقوانينِه ، ويمكننا منْ خلال مسيرتِه الطويلة في

الخطابة ، أنْ نلاحظ عدةَ مستوياتٍ من التعامل مع التاريخ :

المستوى الأول : التاريخُ مصداقيةً تجريبيةً مؤيدة

يقدِّم أستاذنا الدكتور التاريخَ في هذا المستوى، كرديفٍ عَمَلي يتلازمُ مع الطرح النظري الذي يحمله المسلمُ اليوم، فتكاملُ أيِّ مبدأ في ذاته ، لا يُغني في ساحة تَصَارعِ الأفكار والمبادئ عن تجربةٍ واقعية تُقدِّم نموذجاً عملياً ، يعبِّر عنْ أبعاد الواقعِ الذي أنتجه المبدأ يومَ نزلَ إلى ساحة التطبيق، (ولقد جُرِّبَ الإسلامُ فكان الدينَ الرائع العظيم، وسلوا التاريخَ يُنبئْكم عن أنصعِ صفحاته ، يوم سجَّل فيها المسلمون أفعالَهم وأقوالهم ، سلوا التاريخَ عن التجربةِ الإسلامية في قرونٍ كان الإسلامُ فيها دينَ الإنسان ، إذ ظهرَ فيها الإنسانُ مِنْ خلالِه إنساناً بكلِّ معنى الكلمة) .

المستوى الثاني : التاريخ مقوماً من مقومات الأمة

يقولُ أستاذنا حفظه الله : (الأمةُ ولاءٌ وانتماء ، قائمٌ على الفكرةِ والمبدأ، ولا علاقةَ له بالجنس والدم ، ومقوماتُ الأمةِ في ذهننا :

١ ـ عقيدةٌ تجمعُ بين أفرادها .

٢ ـ عبادةٌ محدَّدةُ الأشكال .

٣ ـ سلوكٌ عامٌّ ينبثقُ عن اللفظة القرآنية .

٤ ـ منهلٌ تاريخيٌّ واحد: نَتَّفقُ وصُنَّاعَه في الأصول التي تحدثنا عنها ، فتاريخُنا ، إنَّما هو تاريخُ أولئك الذين يؤمنون بالعقيدة ،

ويقومون بالعبادة ، وتنتظمُ سلوكيَّاتُهم تحت قنطرةِ القرآن الكريمِ والسُّنَّة المشرَّفة) .

ومَن ادَّعى الانتماءَ إلى هذه الأمة ، فإنَّه مسؤولٌ ـ قبلَ أنْ نصدقَه ـ عنْ أيِّ منهلٍ تاريخي يَصْدُرُ في حاضره اليوم ، إذ لا يستحقُ أنْ يدخلَ في إطارِ هذه الأمة إلا إنسانٌ انتمى إلى تاريخِها هذا .

المستوى الثالث : التاريخ بنداً في صيغة التعايش

إذ العالمُ باحثٌ عن مُعايَشةٍ اليوم ، وقد حدَّد أستاذنا الدكتور البنودَ التي تُختبر على أساسها الصِّيَغ التي تقدِّمها المبادئُ المختلفة ، فقال :

(مِنْ أجلِ صيغةٍ للمعايشة ، لا بدَّ لك مِنْ أنْ تطلب أموراً ثلاثة :

١ ـ ابحثْ عن مضمونٍ تُريده في هذه الصيغة .

٢ ـ وعن تاريخٍ تنظر إليه .

٣ ـ وعن تجربةٍ متكاملة تعيشها) .

وقد أثبتَ التاريخُ أنَّ الصيغة الأعظمَ استيعاباً ، والأكثرَ إقناعاً ومصداقيةً ، للتعايش بين البشر ، قد تمثَّلت في الإسلام ، يوم قدَّمَ تجربتَه الواقعيةَ من خلالِ الحضارة التي أفرزها .

المستوى الرابع : التاريخ حافزَ عملٍ للحاضر والمستقبل

فإذا كان تاريخُنا مضيئاً ومُنوَّراً ، كما يقول أستاذنا ـ أدامه الله ـ ، فإنّه يدعو مِنْ أجلِ أنْ يكونَ الحاضرُ مُنوَّراً بالنور نفسه ، وعندها

فالمستقبل لنا أيضاً ، فـ :

(المستقبلُ للإسلام عندما يكونُ الحاضرُ له ، أما إذا لمْ يكن الحاضر له ، فلنْ يكونَ المستقبل له) .

ويخاطبُ شبابَنا ومثقفينا و شعبَنا قائلاً :

(إذا كان التاريخُ مِنْ أجلِ التحفيز ، فنِعْم التاريخُ ، ونعمَ الاستذكارُ له ، وإنْ كان التاريخ منْ أجلِ الإخلادِ إلى الأرض ، والتثبيطِ والقعود ، فبئسَ مَنْ يتذكر ، ولنْ أقولَ بئسَ التاريخ ، وإنما بئسَ مَنْ يتذكرُ هذا التاريخ) ، (إنَّ المسؤوليةَ في رقابكم مِنْ أجل دعمِ النظرِ بالواقع ، فالنظرُ ثابتٌ والتصورُ مَصُون ، والحقيقةُ ساطعة ، لكننا بحاجةٍ إلى واقع مِنْ خلالكم ، فكونوا الواقعَ الذي يَدْعم) .

إنَّ (واقعَنا اليومَ لا يُسعِفُ تاريخَنا ، وواقعُهم يُسعف ادعاءَهم ، ومِنْ أجل هذا يتحدَّثون متفوقين ، ونتحدَّثُ وراءَهم لاهثين .

فلننظر التاريخَ سِنْ جديد ، وأؤكِّد أننا نريد أنْ ننظرَ إلى التاريخِ لا على أنَّه وسادةٌ لننامَ عليها ، ولكن نريد التاريخَ جذوةً تتَّقدُ في داخلِنا ، ليحرِّكنا في مسارٍ صحيحٍ يضعُ أمامَ الإنسان مبدأَه السليم) .

المستوى الخامس : التاريخ بوابةً للعالم

إنَّ ملامح التميُّز ، والمصداقيةَ ، وإمكانيةَ التعايش ، والحافِزيَّة ، التي يراها أستاذنا في تاريخنا ، كلُّها عواملُ تدفعنا إلى أنْ ندخل العالمَ اليوم بثقةٍ كاملة بالنفس ، وبما نملك ، فنحنُ ـ ويشهدُ لنا تاريخُنا ـ قادرون

على أنْ نكون أصحابَ دورٍ فاعلٍ وإيجابي في مسيرة الحياة الإنسانية .

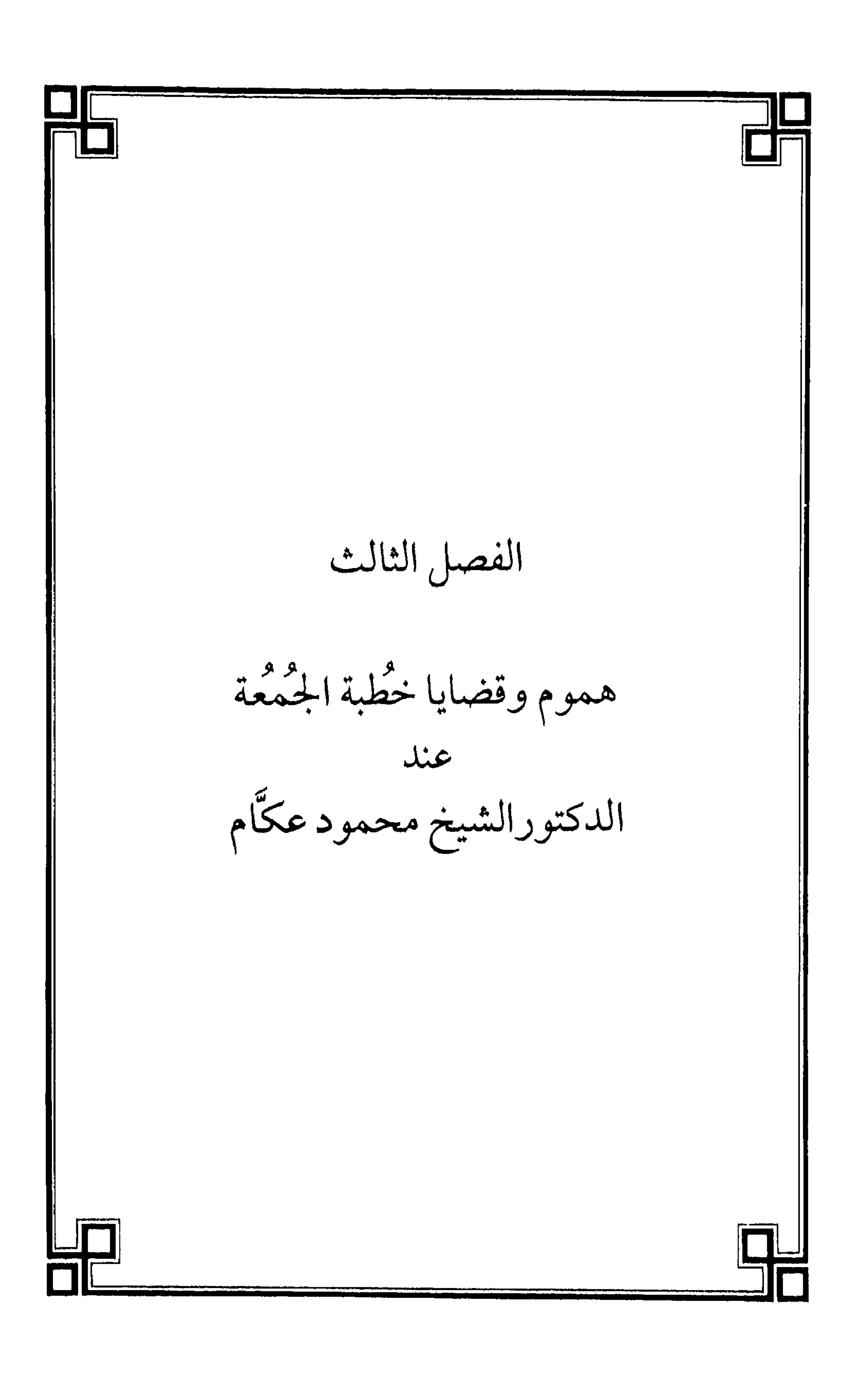
(إنَّ عالَمنا اليوم يبحثُ عن مبدأ مِنْ أجل أنْ يتعايش الناس فيه ، ونحن نقدِّم لهذا العالم مبدأً ، نقدِّمُ له الإسلامَ ، ديناً يحتضن الجميعَ ، ويتعايش فيه الجميعُ ، قائلين للجميع : جرِّبوا) .

إنَّ تاريخَنا يمنحنا النموذجَ الذي يؤكِّد لنا أنَّ مَنْ سعى فسوف يصلُ إلى هدفه ، والفرصةُ اليوم متاحةٌ لعطاءٍ كبير ، فلنكنْ أصحابَ علمٍ وعمل ، ولنمنح العالمَ تجربةً جديدة تُضاف إلى حلقاتِ تاريخِنا وتاريخ العالم .

إنَّ شُموليَّة الرسالةِ التي نحملها ، وعالَميَّتها ، تستدعي منَّا ذلك ، وأنْ نتجاوز الزاويةَ التي حشرْنا فيها أنفسَنا ، قبلَ أنْ يغلقها علينا الآخرون .

(إنَّ عالمنا اليوم يريدُ أنْ ينفتح ، ويريد أنْ يتعايش ، أو هكذا يَدَّعي ، وأريدُ مِنْ شبابنا أنْ يكونوا واعين بدينهم ورسالتهم ، وأنْ يتسلَّحوا بإسلامهم ، وبالمعرفة ، وأنْ يكونوا على وعيٍ بكلِّ ما يجري في حَلَبات الدنيا بأسرِها) .

* * *



الفصل الثالث

هموم وقضايا خُطبة الجُمُعة
عند
الدكتور الشيخ محمود عكَّام



تمهيد

إذا كانت القدرة على التعبئةِ، والتجييش، وتوجيهِ العواطف، سمةً مميِّزة لمنبرِ أستاذنا الدكتور محمود عكام حفظه الله، فإنَّ ما وقفَ عليه أستاذُنا حياتَه مِنَ العملِ «في سُبُل النهوض»، وما يستدعيه هذا العملُ مِنْ معرفةٍ علميةٍ بمجتمعنا المعاصر، ومتابعةٍ لقضاياه الحيوية، والتحدياتِ المجابِهة لحاضره ومستقبله، وضرورةِ الاستجابة لها حفظاً لمصالحِ الأمة، بلْ ولوجودها قبلَ ذلك؛ كلُّ ذلك أكسبَ خطبةَ الجمعة عند أستاذنا الدكتور محمود عكام صِفتَها الأولى المميزةَ لها قبل أيِّ صفةٍ أخرى، ألا وهي:

إعادةُ التفكيرِ في كلِّ المسائلِ والقضايا التي تَمَسُّ تراثَ الأمة، ودورَها في العالم اليوم ومستقبلاً، وتسليطُ الأنوار عليها.

وإذا كانتْ مسائلُ التخلفِ والنهضة ومايَلحقُ بها، تأتي على رأسِ المواضيع التي تناولها المفكرون و المصلحون، منذ الأفغاني، ومحمد عبده،

والكواكبي رحمهم الله ، إلى يومنا هذا ، فلا شكَّ أنَّ الإطارَ الفكري الذي يُنظِّم عمليةَ تناولِ هذه المسائل ـ والمتمثِّل في المرجعيَّة المعرفيَّةِ للأمة، ومعرفةِ الهُويَّة التي تُعطيها سِمَتَها الخاصة أمام العالم ـ له منَ الأهمية الكبرى ، ما يجعلنا مضطرين لبيانه بوضوح كامل ، أمامَ كلِّ مساهمة نُقدِّمها في هذا المجال .

وهكذا كانَ لهذه المسألةِ مركزُ الصَّدارةِ في خطبة أستاذِنا الدكتور ، وهو ماسنعرضُ له الآن بإيجاز ، مُتْبِعين ذلك بعرضٍ لأهمِّ المسائل الأخرى التي تناولتها خطبةُ أستاذنا الدكتور حفظه الله ، وذلك من خلال العنوانين التاليين :

أولاً ـ في إعلانِ الهوية وتحديدِ الولاء والمرجعيَّة .

ثانياً ـ في قضايا وهمومِ حياتِنا المعاصرة .

أولاً ـ في إعلان الهويَّة وتحديد الولاء والمرجعيَّة

إنَّ قراءةَ دساتيرِ كثيرٍ منَ الحركاتِ التي ظهرتْ خلالَ أكثرَ منْ قرنٍ مضى ، ومتابعةَ النتاجِ الفكري للمثقفين والباحثين العرب ، تُظهِر تردداً كبيراً عاشته هذه الفئات في مسألة « الهوية » ، وتحديد الولاء و المرجعية ، التي ينبغي الصُّدورُ عنها في سبيل النهوض .

وإذْ يؤكِّد أستاذنا الدكتور على « الولاء لله عبر الرسالةِ والرسول » مقوِّماً أولَ منْ مقوِّمات السيادة ، وعلى « الإسلام » هويةً ومرجعية حاكمة ، فإنه يُشير إلى المحاولات المستمرةِ ـ منْ قِبَلِ تيَّاراتٍ متعددة ـ لتجاوزِ الإسلام في هذا المجال ، واستبدالِ غيره به ، وكبْتِ الولاءِ له في نفوس أبناءِ هذه الأمة ، ظناً منهم ـ لجهلهم أو تجاهلهم ـ أنَّ ذلك أولُ شروط التقدم والحضارة .

ولا حاجةَ لتقييم هذا العملِ بكلامٍ طويل ، إذ يكفي للحكم عليه ملاحظةُ تلك الانفجاراتِ التي أحدثها هذا التجاوزُ ، وردودِ الأفعال الدَّموية ، التي خلَّفها في سلوك كثيرٍ منَ الفئات . يقول أستاذنا الدكتور :

(إنَّ أيَّ إفراطٍ ، أو تفريطٍ في نظرتِنا إليه ـ أي الإسلام ـ سيؤدِّي إلى التطرفِ أو التسيُّب ، وقد عانينا مِنْ كليهما ، إذْ تُمثِّلهما بعضُ الحركات هنا وهناك ، منَ التكفير إلى التمييع) .

إنَّ ردودَ الأفعال هذه ، تشكِّل ـ في نظرنا ـ إجابةً صريحة على أكثرَ

مِنْ قرنٍ كاملٍ مِنْ محاولاتِ إرساءِ جذورِ « العلمانية » في تُربةِ مجتمعنا ؛ إذ لم يُحقِّق هذا العملُ الأثرَ المرجوَّ منه أبداً ، فلا تزال العلمانيـة حلاً احتمالياً في أذهان أكبرِ الداعين إليها ، ولا يزالون يشعرون بحلقةٍ مفقودةٍ بين ذلك التصورِ المثالي الذي يُقدِّمونه عنها ، وبين واقعِ حياتنا .

ويرفضُ أستاذنا الدكتور أنْ يقفَ المسلمُ في مواجهة « العلمانية » إذا كانت مشتقةً من « العلم » ، وتعني تحريرَ الإنسان منَ القيود ، وحريةَ التفكير و الإبداع ، وكلَّ ما يخدم الإنسانَ ، ولكنه يخاطبُ تلك العلمانية الشِّعار ، التي تنظرُ إلى الإسلام على أنَّه دينٌ كأيٍّ دين آخر ، في حُكمٍ تعميمي غيرِ قائمٍ على نوع جادٍّ من الدراسة المقارنة ، وتسعَى لعزل الإسلام عن توجيه النشاطاتِ المختلفة للمجتمع ، مِنْ تربويةٍ وثقافيةٍ واجتماعيةٍ واقتصاديةٍ وجَمَاليةٍ وغيرها .

وإذْ يُرَادُ مِنَ الإسلام أنْ يعتزلَ دورَهَ الحضاريَ في توجيهِ النهضة المرْجُوَّة ، بحُجَّة اعتمادِه على « نصٍّ مُقدَّسٍ شُمولي صالحٍ لكلٍّ زمانٍ ومكانٍ » ، فإنَّ أصحابَ هذه الدعوة لا يفعلون أكثرَ مِنْ تقديم « علمانية » بأوصافٍ سحرية ، وشموليةٍ لا تقلُّ عمَّا عابوه على الإسلام ، بلْ وتعتمدُ على نصوصٍ مغلقة تماماً ، يُراد تعميمُها علينا ، سواء أكانتْ نصوصاً قومية أو ليبرالية أوماركسية .

لقد أخفقت هذه العلمانية في بلادنا ـ ودونَ إغفالٍ للعوامل الاقتصادية والسياسية والظرفِ الاجتماعي ـ لأنها علمانيةٌ استهلاكيةٌ سطحيَّة تابعة ، تفتقدُ الإحساسَ بالهويةِ الحضارية الخاصة ، ولقد أنتجَتْها ظروفٌ

وتفاعلاتٌ تاريخيةٌ محدَّدة ، لا علاقةَ لها بمراحلِ تطوُّر مجتمعنا ، وكانتْ ردَّ فعلٍ في مواجهة واقعٍ جامدٍ وراكد ، شكَّلته عناصر غيرُ تلك التي أوصلت حياتَنا إلى الجمود والتأخر الذي تعيشه .

لقد كانت علمانيةً تجاوزية تفتقرُ إلى الحسِّ التاريخي ، وكانت شكليَّةً مهرجانية ، لم تستطعْ تأسيسَ وعيٍ عامٍّ ، أو ثقافةٍ شعبية حقيقية ، بلْ لم تتجاوز دائرةَ الطرحِ النظري أو الفَرْضِ السُّلْطوي أبداً ، لأنها ظلَّتْ حبيسةَ نظرةٍ أحاديةِ الاتجاه تفتقدُ البُعْدَ الإنساني والروحي ، والنظرةَ الشُّموليةَ المنسجمة ، وقد رأينا كيفَ بدأت هذه العلمانية تتعرضُ للنقد مِنْ قِبَلِ أربابها ـ مشروع محمد أركون مثالاً ـ مجاراةً لعمليةِ إعادةِ النظر في التقييم العلماني للدِّين التي تشهدها فرنسا منذ سنوات [1] .

ولا يريد أستاذنا مِنْ نقده هذا الدخولَ في دائرة الاتهامية ، أو تحميلَ العلمانية تبعةَ عدمِ تقدمِنا كلِّها ، ولذلك فقد حدَّد أولاً ، وكما بيَّنا ،

---

(١) ـ وانظر أيضاً ما كتبه الدكتور الجابري : [مسألة « العلمانية » في الوطن العربي مسألة مزيفة ، بمعنى أنها تعبِّر عن حاجاتٍ ، بمضامين غير متطابقة مع تلك الحاجات ، إن الحاجة إلى الاستقلال في إطار هويةٍ قومية واحدة ، والحاجة إلى الديمقراطية التي تحترم حقوق الأقليات ، والحاجة إلى الممارسة العقلانية للسياسة ، هي حاجات موضوعية فعلاً ، إنها مطالب معقولة وضرورية في وطننا العربي ، ولكنها تفقد معقوليتها وضروريتها ، بل ومشروعيتها ، عندما يعبَّر عنها بشعار ملتبس كشعار « العلمانية »] .

محمد عابد الجابري : « وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر » ص/ ١٠٤/ ، مركز دراسات الوحدة العربية ، / ط ١ : ١٩٩٢/ .

العلمانيةَ التي يقصدها ، وبيّن ثانياً كيف كان للتطرف العلماني فضلٌ في تخفيف حِدَّة الجمودِ الديني ، والركودِ العقلي الذي اتصفَ به تعاملنا مع الإسلام خلالَ فترةٍ سابقة ؛ إلا أنه أرادَ أنْ يُظهِر كيف تصلح هذه العلمانية رداً على « الإسلام المُعاش » اليوم في أحسنِ حالاتها ، لا على الإسلام في قواعدِه العامة وبنائه النظري ، أو في تجربته التاريخية لقرونٍ متعددة ، ولا على المنهجِ والإطارِ والفُرَصِ التي يمكن أنْ يُقدمها الإسلام اليومَ في بناءِ المشروعِ الحضاري النَّهضوي ، ورسمِ مستقبل الأمة .

وتبقى العلمانية رداً غيرَ كاملٍ على هذا التأخر ، وهدماً دون بناء ، لأنَّها ردٌّ غريبٌ على طبيعة هذه الأمة ، وقد أتاها مِنَ الخارج دونَ مُراعاة لخصائصها وشخصيَّتها كما قلنا ، وأستاذُنا يرى أنَّ الحلَّ الحقيقيَ لايُمكن أنْ يأتيَ إلا مِنَ الداخل ؛ إلا منَ الإسلامِ نفسه [٢] .

---

(٢) ـ [. . . إذ كيف يمكن لطبقة المثقفين التي تَعتبر نفسَها مسؤولةً عن توجيه الرأيِ العام وتشخيص الواقع ، أنْ تُخْليَ منَ الساحة أهمَّ موضوعٍ يَخُصُّ الواقعَ والرأيَ العام : موضوعَ الإسلام ؟! . ولذلك فعندما اندلعت الحركاتُ الحالية التي تتَّخذ الإسلام ، أو نتفاً مبعثرة من معجمه الديني القديم كأداةٍ للاحتجاج السياسي ، فإنّي لم أفاجأ بشيء ، ولا فاجأتني أيضاً ظاهرةُ انتشار هذه الحركات بسرعة ، وسيطرتُها على قطاعات واسعة من الشارع ، والرأي العام . الشيءُ الوحيد الذي فاجأني هو شعور المثقفين العرب بالمفاجأة ! . فهم اعتقدوا أنَّ موضوعَ الدِّين قد ولّى إلى غير رجعة ، ولاتزال دهشتهم تدهشني حتى هذه اللحظة ! .

إذ كيف يمكن لعاقلٍ أنْ يتوقَّع إمكانيةَ تجاوز شيءٍ دون الانخراط فيه ، أو تسميته باسمه ، أو تشخيصه وعلاجه ؟ . كيف يمكن لمسألةٍ كبرى كلَّفت أوربا ثلاثة قرون من الصراع الداخلي أنْ تُحَلَّ عندنا بمجرد القفز عليها ، أي بدون طرحها على محكِّ البحث والتساؤل والنقد ؟ =

نرجو أنْ يكونَ من الواضح أنَّ المسألةَ ليست خوفاً من التّخلّي عن موروثٍ نشأنَا عليه، ولا تعصباً، إنما التعصبُ أنْ يُطلب منَ الإنسان أنْ يتجاوز في أمورٍ معينةٍ شيئاً هو خاصتُّه الإنسانيةُ المميزة . فكيف يمكنني أنْ أنظرَ إلى شيءٍ يلتصقُ بي تماماً، سواءٌ أكان فناً أو قانوناً أو حدثاً سياسياً أو اجتماعياً، بمعزلٍ عن رؤيتي الخاصةِ إلى الكون والإنسان والحياة ؟! هل هذا إلا انفصام ؟! .

إنَّ كلَّ الملاحظاتِ العلميةِ الموضوعيةِ تُشيرُ كلَّ يومٍ إلى ارتفاع مستوى الحاجةِ إلى دخولِ الدين في كلِّ المسائلِ التي تمسُّ الإنسانَ، دون استثناء .

كيف يُطلبُ من المسلم اليوم أنْ يكون علمانياً في حياتِه العامة ، وهو يرى العالمَ المتحضرَّ منْ حولِه ـ مثالَ التقدم التقني والمدنية ـ يُعلن يوماً بعد يومٍ حاجتَه الماسَّة إلى مبدأ ما ، يُحقِّقُ به الانسجامَ بين الكمبيوترِ والهندسةِ الوراثية والأسلحةِ المتطورة من جهة ، وذاتِه هوَ من جهةٍ ثانية ؟ .

= لماذا يدهش المثقفون العرب « العلمانيون » و « التقدميون » لانتشار الحركات الأصولية ، ويُعْولون ويولولون ، في حين أنهم لم يفعلوا أيَّ شيءٍ لدراسة المسألة الدينية بشكل علمي وتاريخي وسوسيولوجي ؟ ما سرُّ هذه المراهقة الفكرية والاستقالة العمياء ؟! .

ثمَّ لماذا يتكبَّرون على الشعب و دينه وتراثه ، في حين أنهم جزءٌ لا يتجزأ منه ؟! ومَنْ هم في نهاية المطاف ، حتى يتكبَّروا على تراث الأمة ، ويعتبروا أنفسهم من معدن آخر ؟!] .

هاشم صالح : « الفكر العربي المعاصر ومسألة الحركات الأصولية »، مجلة الوحدة ، العدد/ ٩٦/ ، أيلول / ١٩٩٢/ .

إنَّ جماعةَ الحقيقة المطلقة في اليابان ، وأشكالَ المسيحية الجديدة في أوربا وأمريكا ، وكلَّ الحركات الروحية واليمينيات المتطرفة ، التي أصبحتْ سمةَ عالم الشمال المتقدم ، ليست إلا رداً على الصورةِ الفوتوغرافية المسَطَّحة ، الخاليةِ مِنَ العُمْق والبعد الحيويِّ ، التي قدَّمتها العلمانية عن الإنسان .

لقد حبستهمْ التقنيةُ « المعلمنة » في عُلَبٍ من الإسمنت ، وأخرى مِنَ القوانين والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، فانفجروا ـ وما نراه ليس إلا البداية ـ ، فلقد حُرِموا في قمةِ « تقدُّمِهم » مِنْ شيءٍ كانَ متوفراً حتى للإنسانِ البدائي أنْ يُعبِّرَ عنه أمامَ كلِّ عملٍ هامٍّ يريد القيامَ به ، فكان يَتعبَّدُ ، ويَرسمُ على جُدرانِ الكهوف .

نحنُ اليومَ أمامَ خِيارين اثنين :

١ ـ إمَّا أنْ نمضيَ في « العلمانية » التي سارتْ أوربا على دربِها قبلنا وقدْ لا نصلُ إلى التقدم الذي وصلتْ إليه ، وقد نصل ، مع ما يفتحه ذلك التقدمُ الأُحَاديُّ الجانب مِنْ سُبُلِ النُّكوص نحو البدائيةِ المتطرفة ، التي نرى بوادرَها اليوم في العالم المتقدم .

٢ ـ وإمَّا أنْ نختارَ الإسلامَ ناظماً وموجِّهاً لكلِّ مشاريع النهضة والتنمية التي نُخطط لها ، ورسالةً شاملةً نحملها إلى العالم كله ، وكما يقول أستاذنا الدكتور رعاه الله :

(المستقبلُ مرهونٌ بالحاضر ، يَعتمدُ عليه ويُرى من خلاله ، وحاضرُ المسلمين يحتاجُ إلى إيمانٍ مُحَقَّق ، وعملٍ صحيحٍ كاملٍ شامل ،

ووحدةٍ تقوم على أسسٍ متينةٍ مُستمدَّةٍ مِنْ مصادرِ ديننا الحنيف . وبعبارةٍ أخرى :

المستقبلُ مرهونٌ للإسلام ، إنْ سعَى المسلمون إلى إيجادِ النموذج المُقْنع على مستوى الفردِ ومستوى الجماعة ، والإقناعُ ينبثق منْ تكاملٍ نظري وعملي ، ابتداءً بالمعرفةِ ونظامِها ، ومروراً بالتقنيةِ وأخلاقِها ، والحياةِ وفنِّها ، والروحِ وأبْعَادِها ، وانتهاءً بالدولةِ الصَّائنةِ لحقوق الأفراد ، الراعيةِ لشؤونِ الجماعة وحقوقِها .

وعلى المسلمين أنْ يَجْهدوا في تقديمِ مُذكرةٍ تفسيريةٍ عالميةِ اللغةِ والصَّلاحية ، يمكنُ منها استخلاصُ قانونٍ عامٍّ يحكم الإنسانَ في كلِّ أحواله ، وأهمُّ ميزاتِ هذا القانون أنْ يعكس شخصيةَ الإنسانِ زماناً ومكاناً ، وتطلعاتٍ وأهدافاً ، وآفاقاً وغيباً ، فالحياة تُعاش على مستويين : معنويٌّ وماديٌّ ، يوجِّهُ الأولُ الثاني .

ومِنْ خلال هذا ، يبرزُ الإسلام قادراً على توجيه مسارِ الحياة بشكلٍ عامٍّ ، والمستقبلُ مرهونٌ بالإعداد والتخطيط ، ﴿ ولقدْ كتَبْنَا في الزَّبورِ مِنْ بعدِ الذِّكر أنَّ الأرضَ يَرِثُها عباديَ الصَّالحون ﴾ ، أيْ : القادرون على عِمارتها ، مَنْ كانوا ! فهل نحنُ ممَّنْ يَسْتشرفُ هذا ؟ آملُ ، وإنْ كانَ الواقعُ لا يُسعفني) .

إنَّ هذا الشيءَ الذي تريده أوربا و أمريكا واليابان هو « الدِّين » ، لكنْ ليس الدينَ الذي هو تجربةٌ خاصة لا تذهبُ أكثرَ مِنَ العلاقةِ الشخصيةِ بالله ، مِنْ خلالِ عباداتٍ وشعائرَ معينةٍ ، فهو موجودٌ عندها ، ولكنَّها تريد

ديناً كالإسلام، يحتوي الحياةَ كلها، أي الإنسانَ في مجموع جوانبه.

وفي اعتقادنا أنَّ أهليَّةَ الإسلام ـ ليس لقيادة نهضة هذه الأمة فقط، بلْ وللمِلْءِ فراغٍ محوري وكبيرٍ في مسيرة الحضارة الإنسانية كلِّها ـ إنَّ هذه الأهلية «حقيقةٌ علميةٌ»، لازالت الأيام تُوالي تأييدَ منطقيَّتِها وانسجامِها مع الإنسان، وهذه قناعةٌ يعرضها أستاذنا الدكتور أمامَ كلِّ راغبٍ في حوارٍ حُرٍّ وجَادٍّ؛ وأنَّ الدعوة إلى «العلمانية» لتلعبَ هذا الدور، ليستْ إلا «قراراً إيديولوجياً» بحتاً، نرجو أنْ يُعيدَ المثقفون والمفكرون العربُ النظرَ فيه مرةً أخرى بحسٍّ تاريخي واعٍ، وروحٍ موضوعية جريئة، تلتمسُ الحقَّ، وتسعَى لخير هذه الأمة.

و هكذا يُقدِّمُ أستاذنا الدكتور نفسَه حاملاً هوية الإسلام، ناهلاً منْ مَعينه الثَّرِ في كلِّ المجالات التي يَبحثُ فيها، مُعتمداً إياه، بعد الإيمان به، مرجعيةً معرفية شاملة، ومنطلقاً حضارياً حاكماً.

وهو يجتهدُ في التعاملِ مع نصِّه الموثوقِ بالأدواتِ العلميةِ المساعدةِ في استخراجِ دلالاته، التي لايزالُ يفرزها (كلمَّا امتدَّتْ إليه الفُهومُ الواعية، والعقولُ النَّاهضة النيِّرة التي تُدركُ أبعادَ دلالاته، وطبيعةَ نظامه المعرفي، وبنيتَه اللغوية، وواقعَ المُخَاطَبِ فيه، ومجالاته، وظروفَه، و بيئتَه، ومنْ ثَمَّ تُحسنُ الربطَ بين الخطاب والمخاطَب).

إنَّ الإسلامَ الذي نعيشه اليوم لا يُغري العالمَ بشيءٍ، لأنه ـ بكل بساطة ـ ليسَ كإسلامِ القرآنِ، وإسلامِ رسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ، وأبي بكرٍ، وعليٍّ، وجابرِ بن حَيَّان، والتوحيدي، وابنِ رشد، وابنِ خلدون،

وجلالِ الدين الرُّومي ، ومحمد إقبال ، والكواكبي ، و . . . ، فمثل هؤلاء يُغْرون العالمَ بكلِّ تأكيد ، وواجبُنَا اليوم هو أنْ نقدِّمَ إسلامَ الإنسانِ المستوعِبَ ، والنموذجَ المُقْنع الذي يَنبثقُ منه ، وهو ماينتظره العالمُ منَّا .

إنَّ مشكلتَنا ـ كما وضَّحها أستاذنا الدكتور ـ ليستْ في الإسلامِ السِّياسي ، أو الإسلامِ الشَّامل ، حتى نفزعَ إلى العلمانية لحلِّها ، ولكنَّ مشكلتنا ، منذ أكثرَ مِنْ خمسةِ قرونٍ خَلَتْ ، تظهرُ في غيابِ حقيقتين اثنتين عن أذهاننا :

الحقيقة الأولى :

أنَّ هذا النصَّ ثَرٌّ لا يَنضُب ، ومَعينٌ لا يَنفد ، ما دامت العقولُ مِنْ حولِه متحركةً متجددةً ، وبالتالي فالأزمةُ ليستْ مع النصِّ وشمولِه واستيعابِه ، إنما هي مع « عقولنا » التي أذعنتْ أمامَ اللهجاتِ المتطرفة ، فتوارتْ لغةُ العلم والمنطق في تعاملِنا مع القرآن الكريم ، وبالتالي في كثيرٍ مِنْ نواحي حياتنا .

أزمتُنا هي مع جماعةِ الحرسِ القديم ، الذين يُشرعون سيوفَهمْ في وجهِ كلِّ عقلٍ يحاول أنْ يمدَّ نظرَه إلى القرآن الكريم ، ليُحاورَه ويُثيرَه ويُقلبَه على وجوهه ، بحثاً عن اكتشافِ جديدٍ لمْ يُسْبَق إليه ، أو إلقاءً للضوءِ على زاويةٍ لم تكنْ إنجازاتُ ومعارفُ العصور السابقة تساعدُ على إلقاءِ الضوءِ عليها .

مشكلتُنا مع مَنْ حرَّم علينا أنْ نسألَ القرآنَ الكريم بأنفسنا ، وألزمَنا بمُفرزاتٍ وفُهومٍ صدرتْ عنه فيما مضَى ، حتَّى كأنَّ القرآنَ الكريم أصبحَ عقيماً عن ولاداتٍ جديدة ، نستخرجها نحن ، أومَنْ بَعْدَنا إلى يومِ القيامة .

وتلحقُ بهؤلاءِ كلُّ فئةٍ تدَّعي لنفسها حقَّ تقديمِ الإسلام اليوم ، وتحتكرُ النطق باسمه ، وكأنَّها هي الإسلامُ دونَ غيرها ، كما يقول عنهم أستاذنا الدكتور : (بالرغم مِنْ وجودِ صفاتِه وشَرائطه العامَّةِ لدَى غيرِها ، ومِنْ ثَمَّ يكونُ تعامُلُها وسلوكُها على هذا الأساسِ القاصر ، واحتقارِ فهومِ أتباعِه ، مِنْ خلال قَصْرِ عبائرِه ونصوصِه على بعضِ ما تدلُّ عليه ، ومحاولةِ مَنْعِ المسلمين مِنْ فهمِه على اتساعِه وشمولِه) .

ويشاركُ البطولةَ معهم كثيرٌ مِنْ أصحابِ القراءات الجديدة ، ومشاريعِ إعادةِ فهْمِ التراث ، الذين أرادوا كسرَ الأسوارِ التي وُضِعتْ أمام التعاملِ مع النصوص الأصلية ، وفهمِها مِنْ جديد ، إلا أنَّ عَثْرةَ هذه القراءاتِ الكبرى ، كانتْ يومَ اعتبرتْ أنَّ فهمَها الذي توصَّلت إليه هو الاكتشافَ العظيم الذي ألغى كلَّ الاجتهادات السابقة ـ بحُجة أنَّها اجتهاداتٌ قاصرة لم تستفدْ منَ العلوم التي تستفيد القراءاتُ الجديدة منها ـ ، وأنَّها تؤسِّسُ لكلِّ قراءةٍ يمكنُ أنْ يَنضجَ بها المستقبلُ ، وأنها هي التي تمهِّدُ لها سواء السبيل . يقول أستاذنا الدكتور :

(« القراءة المعاصرة » كلمةٌ ومصطلحٌ جيِّد ، إلا أنَّ استخدامَها لمْ يكنْ على مستوى جودةِ التركيبِ فيها ، فقد حُوِّلت أداةً لنسفِ الماضي ،

وتعميمِ نقطةٍ في الحاضرِ عليه وعلى المستقبل .

« أنا أقرأ القرآنَ الكريم وكأنه عليَّ أنزِل » هذا صحيح ، ولكنَّ التراكماتِ المعرفيَّةَ لا يجبُ إلغاؤها ، ولا أستطيعُ أنْ ألغيها ، بلْ عليَّ أنْ أكونَ الحلقةَ التي تُضافُ إلى السلسلة السابقة ، هذه الحلقة تتَّصفُ بالأصالةِ ارتباطاً ، وبالمعاصرة تكوُّناً وتَناسُباً ..

ولربَّما قرأ معاصرٌ مبتورٌ القرآنَ الكريم ، فأوصلنا بفهمه إلى تحليلِ ما حرَّم اللهُ قطعاً ـ إذْ ثبتَ ذلكَ عبرَ كلِّ العصورـ ، ليُنهيَ بزعمه عهداً سابقاً منَ التشريع ، ويُحِلَّ محلَّه عهداً جديداً ، وكأنَّنا أمامَ نصٍ لايحملُ في طيَّاته خطابَ الإنسانِ ذي القضايا الثابتة ، والمتغيِّرة . أفيجوز هذا ؟!) .

إنَّ قواعدَ قراءة النصِّ الإسلامي عند أستاذنا الدكتور محمود عكام ، التي عرضنا لها في الفصل السابق ، وما قدَّمه منْ إسهاماتٍ في إحياءِ التفكير العلمي والاجتهاد ، والأبحاثَ الجادَّة التي تناول منْ خلالها كيفَ نتعاملُ مع القرآنِ الكريم ، في خُطبهِ ودروسهِ ومحاضراته ، كلُّ ذلك كانَ منه دعوةً إلى قراءةٍ للإسلامِ قرآنه الكريم وحديثه الشَّريف ، قراءةً تَستفيدُ منْ إنجازاتِ الماضي وتراثه ، وتستعينُ بأدواتِ الحاضر ومُعطياته ، وتستهدي بكلِّ ما يُساعد على فهم « الخطاب = القرآن » ، و مجموعِ العلوم التي تجلو أبعادَ « المخاطَب = الإنسان » ، فالإنسانُ هو الغاية القريبة ، وما التشريعُ إلا لصيانتهِ وخدمتهِ وتوجيههِ في المسارِ الأمثلِ الذي ينسجمُ معه .

الحقيقة الثانية :

أنَّ « المسؤولية » ظاهرةٌ إنسانية ، يتحوَّل الإنسانُ عند فقدها إلى مجرَّدِ شيءٍ ، أو أداةٍ ، كأيٍّ واحدةٍ مِنَ الأدواتِ التي تمتلىءُ بها حياتُنا .

ومِنْ أجلِ (إنسان = مسؤول) ، فإنَّه لا غنى عن الجوِ المفتوح ، الذي يستطيعُ كلُّ إنسانٍ فيه أنْ يقولَ كلمتَه ، دونَ أنْ يخاف القذفَ أو الاتهام أو الإلغاء ، ما دامَ هو نفسُه لا يَستخدمُ هذه اللغة .

لقد توقَّفتْ عقولنا عن « الإبداع » ، وهذا يعني أنَّها توقفتْ عن القيامِ حيالَ القرآنِ الكريم بعملية « التَّثوير » و « الحرث » التي أمرَنا بها الحديثُ الشريف ، وهذا التوقفُ ـ في جُزْءٍ عظيم منه ـ يرجعُ في نظر أستاذنا إلى غيابِ هذا الجوِ المسؤول ، الذي عِمادُه احترامُ الكلمةِ ، وحريةُ الإنسان ، إذ (لا مسؤولية دونَ حرية) كمَّا يؤكد أستاذنا الدكتور دائماً [٣] .

لقدْ أنزلَ اللهُ تعالى هذا القرآنَ على الإنسان ، فلنبحثْ عن العواملِ التي تريد أنْ تقتلَ الإنسانَ فِينا ، ولنتساءلْ عمَّا أوصلَنَا إلى « مجتمع

---

٣ ـ [. . . إنَّ قضيةَ الخَلْق ، هي في الحقيقة ، قضيةُ الحرية الإنسانية ، فإذا قبلنا فكرةَ أنَّ الإنسانَّ لا حريةَ له ، وأنَّ جميعَ أفعاله محدَّدة سابقاً ـ إما بقوىً جوانية أوبرانية ـ ففي هذه الحالة لا تكونُ الألوهية ضرورية لتفسير الكون وفهمه ؛ ولكنْ إذا سلَّمنا بحرية الإنسان ومسؤوليته عن أفعاله ، فإننا نعترف بوجود الله ، إمَّا ضمناً ، وإما صراحة ؛ فاللهُ وحدَه هو القادر على أنْ يخلق مخلوقاً حراً ، فالحريةُ لا يمكن أنْ توجد إلا بفعل الخَلْق] .

المفكر الإسلامي علي عزت بيجوفيتش ، رئيس البوسنة والهرسك : « الإسلام بين الشرق والغرب » . ص/ ٨٢/ ، مؤسسة بافاريا للنشر . / ط ١ : ١٩٩٤/ .

النِّقمة »، كمَّا عبَّر أستاذنا حفظه الله، هذا المجتمع المخنوق، الذي لا يعرفُ للإنسانِ كرامة، ولا يُرى له فيه حريَّة، وتُسيطر فيه نزعةُ الطغيان، وحبٌّ التألُّـه .

وهل يَنطبقُ على فئاتِ المتعاملين مع القرآنِ الكريم التي ذكرناها آنفاً إلا أنها مصابةٌ بعُقْدةِ « نهاية التاريخ » ؟! ، حيثُ يشعرُ المُصَابُ بأنَّه وحدَه الموجود ، ولا شيءَ معه ، ولا بعدَه ، والكلُّ مِنْ حَولِه تابعٌ له ، فهي ـ الفئاتُ السابقةَ ـ تريدُ سجنَ العقولِ عند عقلِها هي وحدَها ، بلْ إنَّها تَزْعمُ احتكارَ فَهْمِ كلامِ اللهِ الكريم نفسِه .

إنَّ ذلك المجتمعَ الذي كان يُجيرُ أضعفُ أفرادهِ على أقواهم ، ويَسعى بذمَّته أدناهم، والضعيفُ فيه قويٌّ حتى يأخذَ حقَّه ، ورسولُه العظيمُ ﷺ يقوم على قدميْه احتراماً لجنازةِ يهوديٍّ لأنَّ هذا الميت « نَفْس » كما قالَ عليه الصلاة والسلام، والخليفةُ لا يَشبعُ مِنَ الخبزِ حتى تشبعَ المدينةُ كلُّها، هذا المجتمعُ الذي وجدَ فيه الإنسانُ نفسَه ، هو المجتمعُ الذي نزلَ فيه القرآنُ الكريم فأعطى .

وإنَّ ما نراه في العالمِ الغربيِّ اليوم مِنْ تقدُّمٍ ومدنيةٍ وتفوقٍ ، إنما أسَاسُه ما نجحوا في الوصولِ إليه مِنْ إقرارٍ بقيمةِ إنسانِهم ، وأنَّ الحريةَ لازمٌ أساسي مِنْ لوازمِ وجودِه ، لكنَّهم لمْ يصلوا إلى ذلك بينَ ليلةٍ وضحاها، بلْ عبرَ مسيرةِ سعيٍ وعملٍ امتدَّت على مسافاتٍ طويلة ، ولازلنا نراهمْ مِنْ خلالِ مفكِّريهم يَسعون نحو مزيدٍ من الفهْمِ للإنسان ، في كلِّ الفلسفاتِ والمبادئِ التي قدَّمتْ صورةً عنه ، وما نراهُ مِنْ إقبالِ كبارِ

مِنْ مفكريهم على الإسلام تَعرُّفاً و دراسةً ، وإيماناً به ، إلا لِما وجدوه في الإسلام ـ مما غفلنا نحن عنه ـ مِنْ توصيفٍ صحيحٍ للإنسان ، وتوظيفٍ سليم له ، فـ« توصيف » الإنسان و « توظيفه » ـ وفق اصطلاح أستاذنا الدكتور ـ هما محكٌ كلِّ مبدأ ، ومجالُ اختبارِ صلاحيته ، و مبررُ قبولِ وغايةُ كلِّ سعيٍ وعملٍ فكري .

إنَّ ما نحتاجه اليوم ليسَ هو العلمانية ، وإنما نحن مُحتاجون إلى إطلاقِ العقل في ساحة الإبداع ، وإلى الحريَّة التي تَصون ذلك ، وهما حاجتان لم تُوفِّرهما العلمانية لنا وفي بلادنا ؛ وتجربةُ الإسلام ، وإمكاناتُه الكبيرة ، تُؤيِّدان كلَّ مَنْ يُقدِّم الإسلامَ ضماناً لهذين المطلبين ، و في ملامح التجديد عند أستاذنا الدكتور محمود عكام حفظه الله ، التي سبقَ الحديث عنها ، نجدُ شيئاً مِنْ إسهامات أستاذنا في مجالِ الدَّعوةِ إلى هذا الإبداع ، وهذه الحرية .

مِنْ هاتين الحقيقتين ، وبالإيمان بهما ، ينطلقُ أستاذنا الدكتور محمود عكام مُجْتهداً ، ومُقدِّماً رؤيةً تبتغي النقاشَ العلمي والحوار الجادَّ ، في كلِّ المسائل التي تهمُّ إسلامَنا المعاصر ، وخاصة في دراسة أبعادِ التأخرِ الذي نعيشه ، ورصدِ مظاهرِ الأزْمة في أوضاعنا المعاصرة ، عسى أنْ تكون خطوةً « في سُبُل النهوض » .

* * *

ثانياً ـ في قضايا وهموم حياتنا المعاصرة

وهي المسائل التي نالتْ اهتماماً بارزاً في خطبة أستاذنا الدكتور حفظه الله ، حيث امتازت بمتابعتها الجادَّة لكلِّ المسائل المعاصرة ، ابتداءً مِنْ قواعد قراءة النص الإسلامي ، وانتهاءً بمسائل البيئة ، فمِنْ على منبرِ جامع التوحيد الكبير بحلب ، وعلى مدى إحدى عشْرةَ سنة ، دعا أستاذنا الدكتور المفكرين المسلمين ، والمثقفين كافةً ، إلى الاهتمام الجادِّ بهذه القضايا ، وقد سبق القولُ كيف تميزت خطبة أستاذنا الدكتور بكونِها فرصةً مستمرةً لإثارةِ السؤال ، وإعادةِ تسليط الأضواء ، والتفكيرِ في أوضاعنا ، ومظاهرِ التأخُّر فيها ، بحثاً عن العوامل السلبية المسبِّبة لها ، واكتشافاً للقدرات والإمكانات التي تُسهم في بناءِ المشروع الحضاري الذي تطمحُ الأمةُ مِنْ خلاله لتقديم إسهاماتِها في خدمة المسيرة الإنسانية العامة .

وقد أكّد أستاذنا الدكتور دائماً على قدرة الأمة على تجاوز كلِّ هذه المظاهر ، من خلال إمكاناتِها الذاتيَّة ، ومقدراتها الخاصة ، مِنْ مادية وبشرية وثقافية ، وبالاستفادة ممَّا يُتيحه الإسلامُ منْ فُرَصٍ وسُبُلٍ للنهوض لا يُقدمها غيره منَ الأفكار والمعتقدات أو الأيديولوجيات .

وفي هذا المقام ، تُعتبر خطبة الجمعة عند أستاذنا الدكتور محمود عكام محاولةً جادَّة وريادِيَّة لإعادةِ الحيوية والفاعلية إلى منبر الجمعة ، ليأخذَ دورَه الرائدَ في توجيه المسيرة ، وإسهاماً في مناقشةٍ لا بدَّ منها حول

قضايانا الحقيقية اليوم .

وتشكّل العناوين التالية التي سنعرضها أمثلةً على هذه القضايا التي تناولتها خطبة أستاذنا الدكتور محمود عكام حفظه الله تعالى :

١ ـ الإسلام في حياتنا :

ـ الدِّين في حياة الإنسان .

ـ تعميق الولاء والانتماء إلى الإسلام .

ـ أساسيات الإسلام وكليَّاته .

ـ الرِّسالية والإنتاجيَّة في الإسلام .

ـ نموذجيَّة السيرة النبوية الشريفة .

ـ مستويات التعامل مع القرآن في حياتنا .

ـ ما هو القرآن ، وماهي مواضيعه ؟ .

ـ التجديد والاجتهاد .

ـ قواعدُ قراءة النص الإسلامي .

ـ الإسلام والعقل .

ـ رؤيةٌ اعتقادية للاقتصاد .

ـ مسألة الحاكمية ، والعلمانية .

٢ ـ المسلمون والعالم :

ـ لماذا ندعو إلى الإسلام ؟ .

ـ مفهوم الدعوة إلى الإسلام .

ـ إسلامُ الإنسان المستوعبُ .

- صيغة التعايش الإسلامي .
- طبيعة الجهاد ورسالته .
- نحن والغرب .
- مصطلحُ الحضارة .
- مصطلحُ التسامح في الإسلام .
- حقيقةُ الإرهاب ومن يقوم به .

٣ ـ مجتمعنا ، أمراضُه وعلاجُها :

- المرأة المسلمة بين الواقع والإسلام .
- رعاية الإسلام للأسرة ، ودورُها في بناء المجتمع .
- دعائم الأسرة في الإسلام .
- فلسفة الزواج .
- توجيه الجنس في مساره الصحيح .
- الإنسان بين الدوافع المثالية والدوافع العضوية .
- الطفل : تربيتُه ، والاهتمامُ العلمي به .
- مفهوم السعادة .
- مظاهر الخواء الروحي في حياتنا .
- الإنسان بين المبنى والمعنى
- الفقر والغنى ، و العلاقات بين الفئات الاجتماعية كما ينظمها ديننا .
- المحبة أساس علائقنا ، وروابط ما بيننا .
- مسائل النظافة العامة والبيئة ، والسلوك الاجتماعي في الإسلام .

- الآثار السلبية للاستهلاك غير المنظم .

٤ ـ بناء الشخصية المسلمة :

- مقومات الشخصية المسلمة .
- أبعاد المسؤولية في حياة المسلم .
- المسؤولية والحرية .
- وضوح الإنسان المسلم .
- النيَّة والهدف في حياة المسلم .
- مقومات السلوك الإنساني .
- صفات الداعية .
- توظيف الصفات .
- أخلاق المسلم .

٥ ـ هموم الوطن :

- مقوِّمات الأمة في ديننا .
- عبوديتنا لله سرُّ استقلالنا .
- حبُّ الوطن في الإسلام .
- الحركات الإسلامية والوطن .
- قضية فلسطين ، وقضايا العالم الإسلامي المماثلة .
- تحديد العدو ومعرفته .
- موقفنا حيال عدونا .
- قراءةٌ في سلوك الصهيونية .

- شروط الجهاد القتالي ، ومقوِّماته .

٦ ـ التعليم والتربية والشباب :

- مشاكل النظام التربوي .
- هدف التعليم في الإسلام .
- الشباب ربيع الأمة .
- مقومات الشباب المسلم .
- الإسلام دين العقل .
- التربية بين الإبداع واعتماد الذاكرة .
- مفهوم الثقافة .
- أسباب ضياع المثقفين .

إنَّها بعضُ المواضيعِ الرئيسية التي تناولتها خطبةُ أستاذنا الدكتور محمود عكام حفظه الله ، وكثيرٌ منها جديدٌ على خطبة الجمعة ، حيثُ استطاع في خطبته تقديمَ أكبرِ القضايا ، وأكثرِها أهميَّةً بلغةٍ علميةٍ رصينةٍ ، يجدُ فيها المثقفُ ما يُغنيه ، ويدعوه إلى تحريكِ عَنَفاتِ وَعْيه ، والتفكيرِ في المسائل مِنْ زوايا جديدةٍ ، وبأساليبَ مختلفة .

إلا أنَّها كانت لغةً بسيطة مِنْ حيث عدمُ تعقيدِها ، وبالتالي وجدتْ طريقَها إلى فهمِ الإنسانِ العادي ، فأصبح يهتَمُّ بالمسائل التي كان يُظَنُّ أنها عَصِيَّةٌ عليه ، إذْ عرَّفَتْه خطبةُ أستاذِنا الدكتور مدَى التصاقِ هذه المسائل بوجودِه وتأثيرِها في حياته ، وهكذا نجحتْ خطبةُ أستاذنا حفظه الله

في تَرْقيةِ لغةِ واهتمامات إنسانِنا العادي الذي تابعَ هذه الخطب، ووسَّعتْ مداركَه، وأثارت السؤالَ في داخله، وفتحتْ له الأبوابَ ليخرجَ منَ الهامشيَّة التي كان مدفوعاً إليها دون أنْ يمدَّ أحدٌ منَ المثقفين إليه يدَ العونِ ليتخلَّص منها.

وتبقى السِّمةُ الأولى المميِّزةُ لمواضيعِ خطبةِ أستاذنا الدكتور، أنَّها مواضيع تتعلَّق وتخْدمُ معاً مصطلحين اثنين هما «الإسلام والإنسان»، في كلِّ الجوانب التي تتعلقُ بِفهمِهما واستيعابهما، والعلاقةِ الجدلية فيما بينهما، فأستاذنا، وكما عرفناه، إنسانٌ رساليٌّ، ورسالتُه خدمةُ الإنسانِ ورعايتُه، أينما كان هذا الإنسان ومهما كان وصفه، وقد وجدَ أستاذنا بالبحثِ والدراسةِ واستقراءِ التجارب الإنسانية أنَّ الإسلامَ خيرُ ما يكتنفُ الإنسان، وأفضلُ ما يوجِّهه، ففي الإسلامِ التوصيفُ المتكاملُ للإنسان، وفيه التوظيفُ المناسب له، والقضيةُ قابلةٌ للنقاش ومطروحةٌ أمامَ الدراسة المقارِنة؛ لذلك كان دأبُ أستاذِنا واجتهادُه في خطبة الجمعة، وفي كلِّ جوانبِ نشاطه الواسع أنْ يعرضَ مؤيِّدات هذه القضيةِ التي آمنَ والتزمَ بها.

ولمْ تكنْ هذه المؤيِّدات نظريَّةً أو كلاميَّة فقط، وإنما كانت عند أستاذنا اجتهاداً متواصلاً في اكتشافِ تفصيلاتِ كيف يُشكِّل الإسلامُ دستوراً أساسياً للإنسان مهما كان مجالُ اهتمامه، لذلك كانت الأخلاقُ والاقتصادُ والأدبُ والفنُّ والعلومُ الإنسانية والتجريبية حاضرةً في رؤيتِه، بحيثُ نزلَ بفكره إلى ساحةِ حياتنا، وتعاملَ مع كلِّ مفرداتها، فالتقى مع

إنسانِ اليومِ في مسائله التفصيليةِ وقضاياه الجزئية ، التي كان قد ضاعَ الكثيرُ منها في زحْمةِ النظريات العامَّة و القوانين الكُلِّيَّة التي دأبنا على استخراجها من الإسلام، لكنَّا أهملنا بيانَ ما أطلقناه ، وتفصيلَ ما أجملناه ، فعُدْنا بالنقضِ على ماسبق وقرَّرناه .

وبعد : يا ابن وطني ، أيُّها الإنسان الكريم :

هذا هو السِّفر الأول مِنْ أسفار « فكر ومنبر » ، نقدِّمه باعتزاز إليك ، وقد رأينا فيه ما يستجيب لانسانيتك بالتوصيف الصادق والتوظيف الصحيح . وأنَّه يقدِّم من الأفكار ما تحتاج أمتنا إليه ، وهي تسعى لبناء ذاتها من جديد ، على أسسٍ من الوعي بقيمة الإنسان ، وحقيقة الدور الذي وُجِد لأجله ، ضمن رؤيةٍ شاملة ترعى الدنيا وتريد النجاح فيها ، وتنظر الآخرةَ مآلاً وتسعى للفلاح فيها ، واللهُ تعالى هو الغاية في كلا الدارين ، وهو الرقيب علينا . أملنا أن نُسهم جميعاً في العمل لسعادة إنساننا ، ورقي وطننا ، ولنعلن الأخوةَ رابطةً تؤلف بين قلوبنا ، ولنلتقِ دون ألقاب أفلا يكفينا الإسلام؟! .

نرجو أن نستفيد مِنْ رأيك الناصحِ في تقويم عملنا هذا ، وكلُّ الشكر والتقدير لك على أيِّ ملاحظة تُهديها إلينا .

والحمد لله ربِّ العالمين

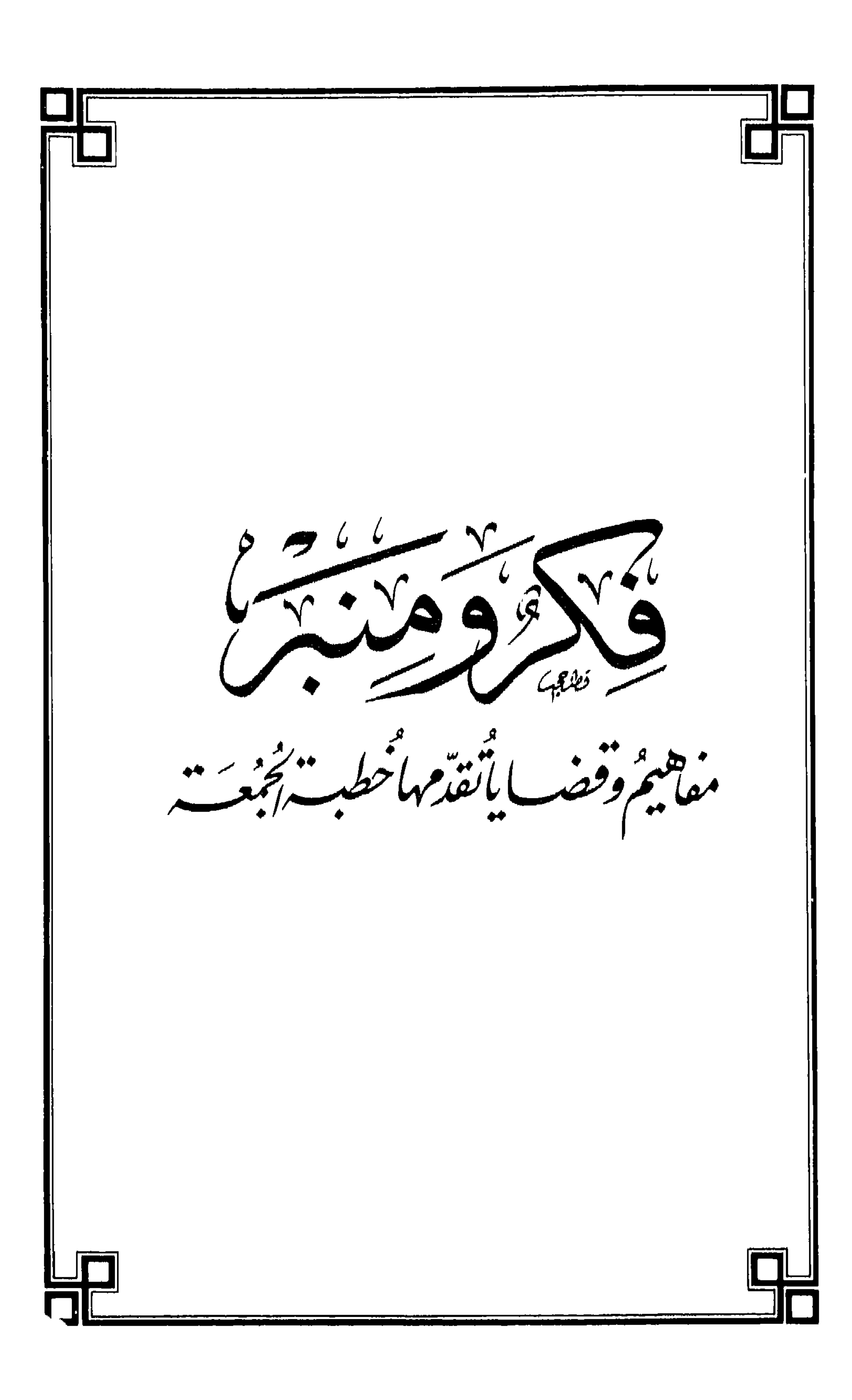
وكتب

محمَّد أديب ياسرجي

محمَّد أمير ناشر النعم

حلب الشهباء : ٢٥ / رجب / ١٤١٦هـ ، / ١٧ / ١٢ / ١٩٩٥م .




فكر ومنبر
مفاهيم وقضايا تُقدّمها خُطبة الجُمعة



الخطبة الأولى

هل الدين ضرورة ؟



* كان لابدَّ من أن نبدأ هذه المجموعة القيِّمة من خطب أستاذنا الدكتور محمود عكّام بهذه الخطبة « هل الدين ضرورة ؟ »، إذ إنَّ الفكرة التي تعالجها هذه الخطبة سوف تكون حاضرةً في كل المواضيع التي ستتناولها بالبحث الخطبُ التالية .

إنَّ أصالة الدين في داخل الإنسان ، أصالةٌ خَلقية لا انفكاك عنها ، فهي ليست نتيجةً للظروف البيئية ، أو التطور الاجتماعي ، أو الاقتصادي . وهذا ما نلمحه في تعريف الدين الذي اختاره أستاذنا الدكتور ، عندما قال :

« الدين وفاءٌ إرادي رمزي ، ثبت في ذمَّة المخلوق الإنسان ، تجاه الخالق ، نتيجةَ الخلق والإيجاد ، ثم نتيجة إسباغِ ما تميَّز به على بقية المخلوقات مِنْ صفات » .

إنَّ الشعور بكوني مخلوقاً شعورٌ بدَهي فطري ، وهو يلازمني إنساناً ، كما لازم كل البشر ، على اختلاف دهورهم و مستويات تفلسفهم ، فالمخلوقية صفةٌ لازمة للإنسان ، لا يستطيع أن يكبت شعوره بها . وإنْ وُجد من أنكرها ، إلا أنهم لا يشكّلون شيئاً أمام من أقرَّ بها ، لا كماً ، ولا نوعاً ، بل لقد غدا إنكار هؤلاء دليلاً إضافياً على هذه المسألة .

وإذا كان الإنسان مخلوقاً ، فإنَّ وزن المفعولية في هذه الصفة يقتضي طرفاً آخر متَّصفاً بالفاعلية ، يعني الخالقية ، وذلك هو الله تعالى .

و لكنك قد تسأل نفسك : هل يقتضي كوني « مخلوقاً » أن يكون « الدين » ضرورةً لحياتي ، والتدينُ واجباً في ذمتي ؟ .

إنّ أستاذنا الدكتور يردُّ على هذا السؤال بالإيجاب ، إذ يصحبك إلى داخلك ، ليلفت انتباهك إلى مساحاتٍ أربع ، أنت ـ بوصفك إنساناً ـ بحاجة إلى تغطيتها بما ينسجم معك ، بكل ما فيك .

وأول ما يجب أن تنسجم هذه التغطية معه ، هو حقيقة كونك مخلوقاً لله تعالى .

إنّ التطلع الفطري نحو الغيب ، والعجزَ البشري الذي لا تزال أبعاده في توسّعٍ كلما ازدادت المعرفة الإنسانية ، والرغبةَ والرهبة المرافقة لذلك ، وهذا الموت ، كلُّ ذلك يضع علاماتِ استفهام كبيرة لا يجيب عنها إلا الدين ، لأنّه يقدّم لك ما ينسجم مع فطرتك ، وكينونتك مادياً ومعنوياً .

إنّها خطبة ذات لغة مميزة ، لأنّها خطاب إنساني واضح بسيط ، يعتمد برهاناً بدهياً يسهل إدراكه دون حاجة إلى الغوص العميق في لجج الاستدلال والجدل ، يستوي في إدراك هذا الخطاب الإنسان البسيط ، والعالم الفيلسوف ، يدركه الأول بفطرته وصفائه ، ويلاحظ الثاني تفصيلاته ، والأسسَ التي يقوم عليها .

خلاصة ما تقوله لك هذه الخطبة :

مادمت إنساناً لا بدّ لك من دين ، أي لا غنى لك عن مبدأ ، وعندما تنتهي من قراءتها ، لا بدّ من أن تسأل :

ولكن أيُّ دين ينبغي أن أدينَ به ، حتى أكون منسجماً مع ذاتي ، مؤدّياً حقّ احتياجاتي ؟ ، وماهو ذلك المبدأ الذي يغطي كل ساحات إنسانيتي ؟ .

عندها ، ستجد الجواب في الخطبة التي تلي هذه الخطبة ، وهي بعنوان « ملامح المبدأ الذي ينبغي أن يتبنّاه الإنسان » .

بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المسلمون :

الدِّين : وفاءٌ إراديٌّ رمزيٌّ لدَينٍ ثَبَتَ في ذمَّة المخلوق الإنسان تجاهَ الخالق، نتيجةَ الخلقِ والإيجاد أولاً، ثمَّ نتيجةَ إسباغِ ما تميَّز به على بقيَّة المخلوقات منْ صفات ﴿ أَلَمْ تَرَوا أنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ ما في السَّموات وَما في الأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَليكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرةً وبَاطِنةً ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ في اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدَىً وَلا كِتَابٍ مُنِيْرٍ ﴾ (١) .

و الإنسانُ ـ أيُّها الإخوة ـ ما دامَ يَشعر أنه مخلوقٌ، فالدِّينُ لازمٌ له، إلا أنْ يشعرَ بنفسه أنَّه خالق، فله عندئذ دَيْن في رقابِ المخلوقين، وما أظنُّ أنَّ أحداً منَّا على وجه هذه البسيطة يَزعُمُ هذا الزَّعْم .

و الدِّين كما قررنا ـ أيُّها الإخوة ـ يَنْبغي أنْ تكون وِجهتُه لله عزَّوجلَّ ﴿ أَلا للهِ الدِّينُ الخَالِصُ ﴾ (٢) .

وينبغي أنْ تكونَ طريقتُه الإسلام ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامَ دِيناً فَلَنْ

يُقْبَلَ مِنْهُ وَهو فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٣) .

ولكنَّ سائلاً يسأل : وهل الدِّينُ ضروريٌّ للإنسان ؟ .

وألا يُمكنُ للإنسان العيشُ بدون الدِّين ؟ .

إنَّها مسألةٌ جادَّة وجديرةٌ بالبحث . بحثها الفلاسفة قديماً ، ولايزال العلماءُ يبحثونها حديثاً .

ودليلُنا على أنَّ الدِّينَ ضروريٌّ للمخلوق هو هذا البحثُ المتواصل منَ القديم وحتَّى الحديث ، ولقد ذكر الدعاةُ إلى الدِّين ، وإلى ضرورةِ التمسك بالدِّين أدلةً لا يَسَعُ الإنسانَ حين يسمعها إلاَّ التمسكُ بدينٍ من الأديان .

ولقد اخترتُ أربعةَ أدلةٍ على ضرورة الدِّين :

الدليل الأول

إنَّ الإنسان يتطلَّع إلى الغيب تطلُّعاً فطرياً ، وهو بفطرته وجِبِلَّته يتطلَّع إلى الحقيقةِ الرابضة وراءَ الغيب .

وبعبارةٍ أخرى :

يعيش الإنسانُ بين تَعَقُّل وتَصورٌ ، فالتَّعقُّل يُوصله إليه العقلُ ، ولكنْ هناك مساحةٌ لا يمكن للعقل أنْ يَصِلَ إليها ، وهذه المساحة هي التي يُغطِّيها النقل . وبعِبارة ثانية : هي التي يُغطِّيها الدِّين .

يَضربُ العلماءُ مثالاً على التعقُّل والتَّصور فيقولون :

إذا كان إنسانٌ ما في داخل غرفة ، وطُرق الباب ، فإنَّ العقل يقول : إنَّ هناك شخصاً وراءَ الباب . لكنْ أرجلٌ هو أمْ امرأة ؟ ، صغيرٌ أمْ كبير ؟ ،

أسمر أمْ أشقر؟ . لا يمكن للعقل أنْ يبحث في هذا ؛ إذ تنتهي حدودُه عند الباب، لا أكثرَ ولا أقلَّ، و لا بُدَّ مِنْ مُخبرٍ يُخْبِر هذا الإنسانَ في داخل الغـرفـة عن صـفـات هذا الطارق، وهـذا المخـبـِر يجب أنْ يكـون مـوثوقـاً مُصَدَّقاً .

و نحن أيضـاً نقـول : إنَّ حدودَ تَعـقُّـلِنا تنتـهي عند وجـوبِ الإيمان بأنَّ لهذا الكون خالقاً . و لكنْ مَنْ هو هذا الخالق ؟، و ما هي صفاته ؟، أين ينتهي العالم ؟ و كيف ينتهي ؟ . كلُّ هذه أسئلةٌ يتطلّع إليها الإنسان، ولابُدَّ مِنْ مُجيبٍ صادق يُجيبه عليها، والجواب الصَّادق هو الذي يأتي عبر النقل، عبر الخالق : ﴿ ألا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهو اللَّطيفُ الخَبِيرُ ﴾ (٤) .

و لذلك يقول أحدُ الفلاسفةِ المعاصرين :

إنَّ اللغـز العظيمَ الذي يَسـتـحثُّ العـقلَ، والذي يسـتـحثُّ الإنسـانَ بكُلّيته هو :

- مَنْ خلقَ الإنسانَ ؟
- ما هي صفاتُ هذا الخالق ؟
- ما علاقةُ المخلوقِ بالخالق ؟
- ما علاقةُ الإنسانِ بما وراءَ العالم ؟

هذه الأسئلة لا يُمكن أنْ يُجَابَ عليها إلا بالدِّين .

ويقولُ أحدُ الفلاسفة المعاصرين أيضاً : كلما خطرَ على بالي السؤال التالي : « هل الإنسـانُ يحتـاج إلى دين ؟ »، أجـدني مضطراً لأنْ أجيبَ نفسي : لا يمكن للإنسانِ أنْ يكون بخِلافِ ذلك .

هذا إذاً الدليلُ الأول « التطلُّع إلى ما وراء الغيب »، إلى الحقيقة الرابضة، إلى التصور الكامنِ بعد التَّعقُّل، وهذا لا يُجيبُ عنه إلا الدِّين، الذي حدَّدْنا وِجهتَه بأنَّه الله، وحدَّدْنا طريقته بأنَّه الإسلام .

الدليل الثاني

العجزُ البشريُّ، و حاجةُ الإنسانِ إلى مَنْ يُنْقذه حالَ الهلاك، وإنَّها لحالةٌ تَنتابُ الإنسان أيّاً كان، هذا العجز، و تلك الحاجة، دليلٌ على حاجةِ الإنسان إلى دين، إلى مَنْ يلجأ إليه ليُنقذه حالة التهلكة .

و لقد سُئِل الإمامُ جعفر الصادق رضي الله عنه عن الدِّين، وعن ضرورته، فقال لهذا السائل : ألمْ تركب البحر ؟ .

قال له هذا السائل : بلى .

قال له : فهل حدثَ أنْ هاجَ بريحٍ عاصفة ؟ .

قال السائل : نعم .

قال الإمام : فهلْ شعرتَ بأنَّه لاأملَ لك ولاخلاص ؟ .

قال السائل : نعم .

فقال له : فهل انْقدحَ في ذهنك، و خطر في بالك أنَّ هناك مَنْ يستطيع إنقاذك ؟ .

قال السائل : نعم .

فقال الإمام : هذا الذي يستطيع إنقاذك هو الله الذي لاإله غيره، ﴿ وَإِذا غَشيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ ، دَعَوُا اللهَ مُخْلصينَ له الدِّينَ، فَلَمَّا نجَّاهُمْ إِلى

البرِّ فمنهم مقتصد، وما يجحد بآياتنا إلا كل ختار كفور ﴾ (٥)، ﴿ وإذا مسّكم الضرُّ في البحر ضلّ من تدعون إلا إيّاه ﴾ (٦)، نعم، إنّ الإمام جعفراً - عليه السلام - استقى هذا الدليل من كتاب ربّه، ﴿ ما فرّطنا في الكتاب من شيء ﴾ (٧)، إنّه الكتاب الذي يحثّنا على أنْ نلتزم بالدِّين .

الدليل الثالث

تلك الرَّغبة و الرَّهبة . والرهبةُ قبلَ الرَّغبةِ . الرهبة أمام الكون ، وأنتَ أيُّها الإنسان و باختصار : بينَ مصنوعٍ وصانعٍ ، هذا المصنوع هو الكون ، والصانع هو المكوِّن ، فإنْ وقفتَ مع المصنوع كنتَ علمانياً ، كما يدَّعي بعضُ النَّاس اليوم ، وإنْ وقفتَ مع الصَّانع كنت مُتديِّناً ، فاخترْ مع أيٍّ منهما تقفْ . هل تقف مع الصانع ، أم تقف مع المصنوع ؟ .

هل تقف مع الذي لا يَتغيَّر ولا يتبدَّل ، أم مع الذي يتغيَّر ويتبدَّل ؟ .

منْ أجل ذلك ، وفي آيات كثيرةٍ ، حاول القرآن الكريم أنْ يربطَ في ذهنك علاقةَ المصنوع بالصانع ، وأرادَ منك أنْ تقفَ مع الصانع ، لاأنْ تقفَ مع المصنوع .

اسمعوا مثلاً إلى قول الله عزوجل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا ربَّكُم الذي خلَقكُمْ منْ نَفْسٍ واحدةٍ وخلَقَ منها زَوْجَهَا وبَثَّ منْهُمَا رجَالاً كَثيراً و نسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الذي تَسَاءلونَ به و الأَرْحامَ ، إنَّ اللهَ كَانَ عليكمْ رقيباً ﴾ (٨) . قِفوا مع الصانع ، و لا تقفوا مع المصنوع .

واسمعوا أيضاً : ﴿يا أيُّها النَّاسُ اعْبُدوا ربَّكُم الذي خلقكمْ والذين مِنْ قبلِكم لعلكم تَتَّقون، الذي جعلَ لكم الأرضَ فراشاً ، والسماءَ بناءً، وأنزلَ منَ السماءِ ماءً ، فأخرجَ به منَ الثمراتِ رزقاً لكم ، فلا تجعلوا للهِ أنداداً وأنتم تعلمون﴾ (٩) .

قِفوا مع الصانع، اعْبدوا الصانع، تَوجَّهوا إلى الصانع .

واسمعوا إلى قول الله عزَّ وجلَّ يتحدَّث عن الكون ويَربطه بالمُكوِّن : ﴿تباركَ الذي بيدِه الملكُ وهو على كلِّ شيءٍ قدير، الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليَبْلوكمْ أيُّكمْ أحسنُ عملاً ، وهوالعزيزُ الغفور، الذي خلقَ سبْعَ سمَوات طباقاً ، ما ترى في خلقِ الرَّحمن مِنْ تفاوتٍ ، فارْجعِ البصرَ هلْ ترى مِنْ فُطور، ثمَّ ارجعِ البصرَّ كرَّتين يَنقلبْ إليكَ البصرُ خاسئاً وهو حَسير﴾ (١٠) .

واسمعْ آياتٍ أخرى تَتَابعُ أيُّها المسلم : ﴿ وآيةٌ لهمُ الأرضُ المَيْتةُ أحَيَيْناها وأخرجْنا منها حباً فَمِنْهُ يأكلون، و جعلنا فيها جنَّاتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ، و فجَّرنا فيها منَ العيون﴾ (١١) . ﴿ و آية لهم ﴾، مِنْ أجل ماذا هذه الآية ؟ من أجل أنْ يقفَ الإنسانُ مع الصانع، وبعبارة أخرى :

مِنْ أجل أنْ يكونَ الإنسانُ مُتديِّناً، تابعاً لسَنَن الخالق، واقفاً معه .

واسمعوا قوله تعالى : ﴿ وآية لهمُ الليلُ نسلخُ منه النَّهارَ فإذا هم مظلمون، والشمسُ تجري لمُستقرٍ لها، ذلك تقديرُ العزيز العليم، والقمرَ قدَّرناه منازلَ حتى عادَ كالعُرجون القديم، لا الشمسُ يَنبغي لها أنْ تُدركَ القمرَ، ولا الليلُ سابقُ النَّهارِ، وكُلٌّ في فَلَكٍ يسبحون﴾ (١٢) .

اسمعوا أيضاً : ﴿ ألمْ نجعل الأرضَ مهاداً ، والجبالَ أوتاداً ، و خلقناكمْ أزواجاً ﴾ (١٣)، إنَّه صُنْعُنا، إنَّه صُنْعُ الله، فلا يَليقُ بكَ أيُّها الإنسانُ أنْ تقفَ مع المصنوعِ دونَ الصَّانع .

اسمعوا إلى قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ رفعَ سَمْكَها فسوَّاها، وأغطشَ ليلَها وأخرجَ ضُحاها، والأرضَ بعدَ ذلكَ دحاها، أخرجَ منها ماءَها ومرعاها، والجبالَ أرساها، متاعاً لكمْ ولأنعامكم ﴾ (١٤)، إنَّه كَوْنٌ منْ أجلِ تَمتُّعِكم، لا منْ أجل أنْ يكونَ هدفَكم، فهدفُكم هو الخالق، هو الله . ﴿ فلينظر الإنسانُ إلى طعامه، أنَّا صَبَبْنا الماء صبَّاً، ثم شققنا الأرض شقَّاً، فأنبتنا فيها حبَّاً ، وعِنَباً وقَضْباً ، و زيتوناً ونخْلاً ، وحدائقَ غُلباً ، وفاكهةً وأبَّاً، متاعاً لكمْ ولأنعامكم ﴾ (١٥) .

أفلا يَليقُ بك أيُّها الإنسانُ أنْ تقفَ مع الخالقِ دون المخلوق، مع الصَّانع دون المصنوع، فهذا الكون يُرْعِب، و حينما يشعر الإنسانُ برَهْبته لا بدَّ له مِنْ ملجأ يلجأ إليه، وهذا الملجأ هو الله الذي لا إله غيره . والإنسانُ حينما يلتجئُ إلى الصانع لا يَرهب الكون، لأنه مع الصانع، والله خلق المصنوع منْ أجلك أيُّها الإنسان .

وقد يقول لي إنسان : أنا لا أرهبُ الكون، و لا أرهب تَقلُّباته، وبالتالي لا حاجة لي إذاً إلى إلهٍ ألتجئُ إليه و أدينُ له . أقول لهذا السائل :

أنت كالطفل الذي يرَى النارَ، ثمَّ يقول أنا لا أرهبُ النَّار، لأنه لا يعرف حقيقتَها، وأمَّا أنا ككبيرٍ فإنني أرهب النارَ لأنني أعرف حقيقتها، وهذا الإنسانُ الطفلُ لا يرهب النار، لأنه لا يعلم حقيقتها، ولكنه حينما يقترب

منها ستحرقه، وسيبتعدُ عنها، ولكنْ هيهات، فقد فاتَ الأوانُ أيُّها الإنسان . والذي لا يُؤمن بالله ستحرقه نارُ جهنَّم، عندها سيقول : ﴿ لو كنَّا نسمعُ أو نعقلُ ما كنَّا في أصحاب السعير ﴾ (١٦) .

عندها سيقول هذا الإنسان : ﴿ ربِّ ارجعونِ لعلِّي أعملُ صالحاً فيما تركت . . . ﴾، كلا لقد فات الأوان، ولات حين مندم، ولا مجال للرجوع : ﴿ . . . كلا إنَّها كلمةٌ هو قائلها ﴾ (١٧) .

إذاً، إنَّ مَنْ لا يرهبُ الكونَ منْ أجل أنْ يقفَ مع ربِّ الكون ؛ إنسانٌ صغيرُ العقل، إنْ لم أقُلْ لا عقلَ له .

الدليل الرابع

هو ذاك الذي يأتِينا بَغتةً، يدخل البيوتَ دون استئذان، هو هذا الموتُ الذي أعجزَ العبادَ، فلم يجدوا له تفسيراً . ووجودُ الموتِ دليلٌ على أنَّ هناك منْ يختارُ للموتِ ساعتَه وتوقيتَه .

هذا الذي يختار ذلك، هو الله، فعليك أنْ تقف مع الله، « النَّاس نِيامٌ، فإذا ماتوا انتبهوا »، و « كفى بالموت واعظاً يا عمر » .

الموتُ دليلٌ على ضرورة التديُّن، ولمَ لا ؟! ، و هو يأتي الواحدَ منَّا صغيراً كان أم كبيراً، عالماً كان أم جاهلاً، رئيساً كان أم مرؤوساً، رجلاً كان أم امرأة، مسلماً كان أم كافراً .

أيُّها الإنسان :

ألا يَحقُّ لك أنْ تقف عند هذه الظاهرة حينما تراها لتفتشَ عن نهايتك،

وعمًّا بعد نهايتك، وعن الذي يختار الموتَ، وعن الذي ينتقي مِنْ بين الأحياء أمواتاً، وعن الذي يُرسل ملكَ الموت ليختارَ فلاناً ويَدَعَ فلاناً ؟ .

ألا يحق لك أنْ تتساءل عن هذه الظاهرة ؛ لتقفَ بعدها مُعلناً تديُّنك ؟ .

اسمع إلى رجلٍ خَبِرَ الموتَ، إلى عمرو بن العاص ، لقد كان يَسأل دائماً عن الموت، عن ظاهرة الموت، عن حقيقته، و لا أحدَ يجيبه، ولما جاءته سكَرات الموت، قال له ابنه : يا أبي كنتَ تسأل دائماً عن الموت، عن تصورٍ للموت، وها أنت في النَّزع الأخير، فكيف تجد الموت ؟ .

قال له عمرو بن العاص : « يا بُنيَّ، إني أحسُّ كأنَّ شوكاً في حلقي، وناراً تتأجج في داخلي، وجبلاً كجبل رَضوى، يجثمُ على صدري، يابنيَّ، هذه بعض أوصاف الموت، ولا أستطيع لك وصفَه كلَّه » .

لا يستطيع، فهو عاجزٌ، فالعقل لايستطيع أنْ يصل، ولا بدَّ منْ تصورٍ يأتي من خلال الدِّين .

أيُّها الإخوة المؤمنون :

إنَّ الذي يزدادُ علمُه وعقله ؛ يزداد تطلُّعه للدِّين . إنَّ عالماً كذلك العالمِ الهندي الفلكي الذي كتب كتاباً بعنوان : أين الله ؟ . يقول في بداية الكتاب : « اللّهم لا أسألُ عنك لأنك ضائع، ولكنْ أسألُ عنك لأجدَ نفسي » .

و يقول عالم فيزيائي فلكي : « اللّهم لا أبحث عنك لأنك ضائع ؛ ولكنِّي ضائع إنْ لم أجدك، اللّهم لاأبحث عنك لأنك غائب ؛ ولكني غائبٌ إن لم أجدك، اللّهم لاأبحث عنك لأنك مُستترٌ ليس لك آيةٌ تدلُّ

عليك ؛ ولكنني أبحث عنك من أجل أن أغدوَ آيةً تدلُّ على وجودك، وعلى الإيمان بك » .

ثم يقول ـ والذي يتعلَّم يزداد رهبةً، ويحتاج لأنْ يقف مع الكون، ولا يمكن للإنسان الضعيف القاصر ألاّ يرهب الكون، فعقلُه لا يوصله، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إنما يخشَى اللهَ مِنْ عبادِه العلماءُ ﴾ (١٨)ـ يقول :

« لو أراد علماء الفلك أنْ يجتمعوا اليوم، وأنْ يُكوِّنوا لغةً فلكيَّةً واحدة فيما بينهم، وأنْ يسبكوا عباراتٍ تدلُّ على حركات الأفلاك في السماء، وكيف تسير، لا يمكن لهم أبداً، وأنا الخبير باللغة الفرنسية والإنكليزية والأوردية والعربية، لو أراد العلماء مِنْ جميع هذه اللغات، أنْ يجتمعوا ليسبكوا عبارةً تدلُّ على حركات الكواكب في السماء، لن يستطيعوا أنْ يأتوا بمثل تلك العبارة التي أتى بها القرآن الكريم :

﴿ وآية لهمُ الليلُ نسلخُ منه النهارَ فإذا هم مظلمون، والشمسُ تجري لمستقرٍ لها، ذلك تقدير العزيز العليم، والقمرَ قدَّرناه منازلَ حتى عادَ كالعُرجون القديم، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمرَ، ولا الليلُ سابق النهار، وكلٌّ في فلك يسبحون ﴾ (١٩) . » .

أيُّها الشاب، أيَّتها الفتاة، أيُّها الرجل، أيَّتها المرأة، أيُّها المثقفون :

اعلموا جميعاً يا عباد الله، يا مَنْ تريدون أنْ تصلوا بالأمة إلى شاطئ الأمان، أنَّ الدعوة التي تُقال اليوم شرقاً أو غرباً، يميناً أو شمالاً، في كلِّ مكان، إنَّ الدعوةَ التي تُنادي اليوم بالعلمانية وترك الدِّين، ماهي إلا دعوةٌ لسلخ الإنسان عن إنسانيته، ماهي إلا دعوةٌ لتفريغ الإنسانِ مما كُرِّمَ به،

ماهي إلا دعوةٌ من أجل أنْ يعيش الإنسانُ لا عقل له، ولا مبادئَ له، ولاسلوك له، ﴿ إنْ هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً ﴾ (٢٠).

يا شباب الإسلام :

إنَّ الدِّين الذي أوجده اللهُ لكم، ليس أمراً زائداً، أو أمراً ثانوياً، وإنما هو ضرورةٌ لكم، من أجل أنْ تُثبِّتوا إنسانيتكم، وإنسانٌ بلا دين ـ كما يقول علماء الفلسفة ـ إنسانٌ بلا دينٍ إنسانٌ بلا إنسانية، إنسانٌ بلا دينٍ إنسانٌ لا وجودَ له، وجودٌ بلا دينٍ وجودٌ لا قيمةَ له، مجتمعٌ بلا دينٍ مجتمعٌ لا أساسَ له .

أيُّها الرجل، أيُّها الشاب :

انظرْ بعينيك جلياً وفكِّر بعقلك ملياً، وحاول أنْ تكون إنساناً قائداً، لا مَقُوداً، في مجال تطلُّعات العقل والروح، وأقبلْ على الصانع دون المصنوع، أقبل على الخالق دون المخلوق، أقبل على المُكوِّن دون الكون، أقبلْ واعلم أنَّك بإقبالك ستكون إنساناً لا ريب، وأنَّك بإقبالك ستكون عاقلاً لا ريب . وأنا أقولُ لكل مثقف :

إنْ كنتَ تجدُ في نفسك حرجاً أو شكاً أو ضيقاً فائتني ـ وما أنا إلا واحدٌ مِنْ كثير ـ فائتني علَّنا أنْ نتناقش ، علَّنا أنْ نتكلم . فالعصرُ اليومَ عصرُ فكرٍ وعلم، وهو في الوقت نفسه عصرُ جهلٍ، يريد أنْ يسيطر الغربيون علينا به ؛ يريدون أن يبعدونا عن الدِّين، وهم ـ أيُّها الإخوة ـ كما يقول إنسانٌ شرقي آمن، يقول : إنَّ الذي ينفي الإله هو إنسان دَيِّن . وبعبارة أخرى : إنسانٌ يحتاج للدِّين، لأنه نفى إلهاً، ولايزال يُعارك نفسَه

لأنَّه نفَى الإله ، ولوكان الإلهُ غيرَ موجود ؛ لما وُجد هذا العراك في نفسه ، ولما وجد هذا العراك في ذَوْقه وفكره .

ونحن أيُّها الإخوة : نُشهد اللهَ عزَّوجلَّ أننا أصحاب دين ، وسنظلُّ أصحاب دين ، وسنتَّبع الدِّين ما حَيِينا . إننا أصحاب دينٍ كتابُه هو القرآن الكريم ، ولا عيشَ مِنْ غير القرآن ، ولا مجتمعَ منْ غير القرآن ، ولا أخلاقَ منْ غير القرآن .

اللّهم

دلّنا على عقلنا لنصلَ إليك .

اللّهم دلّنا على إنسانيتنا لنتعرَّف عليك .

اللّهم إنَّك تريد بنا خيراً ، ويريد بعضنا ببعض شراً ،

اللّهم فاجعل إرادتَك تغلبُ إرادةَ الخاسرين ، تغلب إرادة الكافرين ،

تغلب إرادة المشركين ،

حتى لا يُفتتن شبابنا ، ولا تفتتن نساؤنا ، ولا تفتتن شابَّاتنا .

اللّهم

إنَّا نسألك ديناً حقاً ، وهو الإسلام ، ووجهةً خالصة ، وهي وجهك الكريم

إنَّك على ماتشاء قدير .

أقول هذا القول ، وأستغفر الله .

الهوامش

(١) لقمان / ٢٠ .

(٢) الزمر / ٣ .

(٣) آل عمران / ٨٥ .

(٤) الملك / ١٤ .

(٥) لقمان / ٣٢ .

(٦) الإسراء / ٦٧ .

(٧) الأنعام / ٣٨ .

(٨) النساء / ١ .

(٩) البقرة / ٢١ ـ ٢٢ .

(١٠) الملك / ١ ـ ٤ .

(١١) يس / ٣٣ ـ ٣٤ .

(١٢) يس / ٣٧ ـ ٤٠ .

(١٣) النبأ / ٦ ـ ٨ .

(١٤) النازعات / ٢٨ ـ ٣٣ .

(١٥) عبس / ٢٤ ـ ٣٢ .

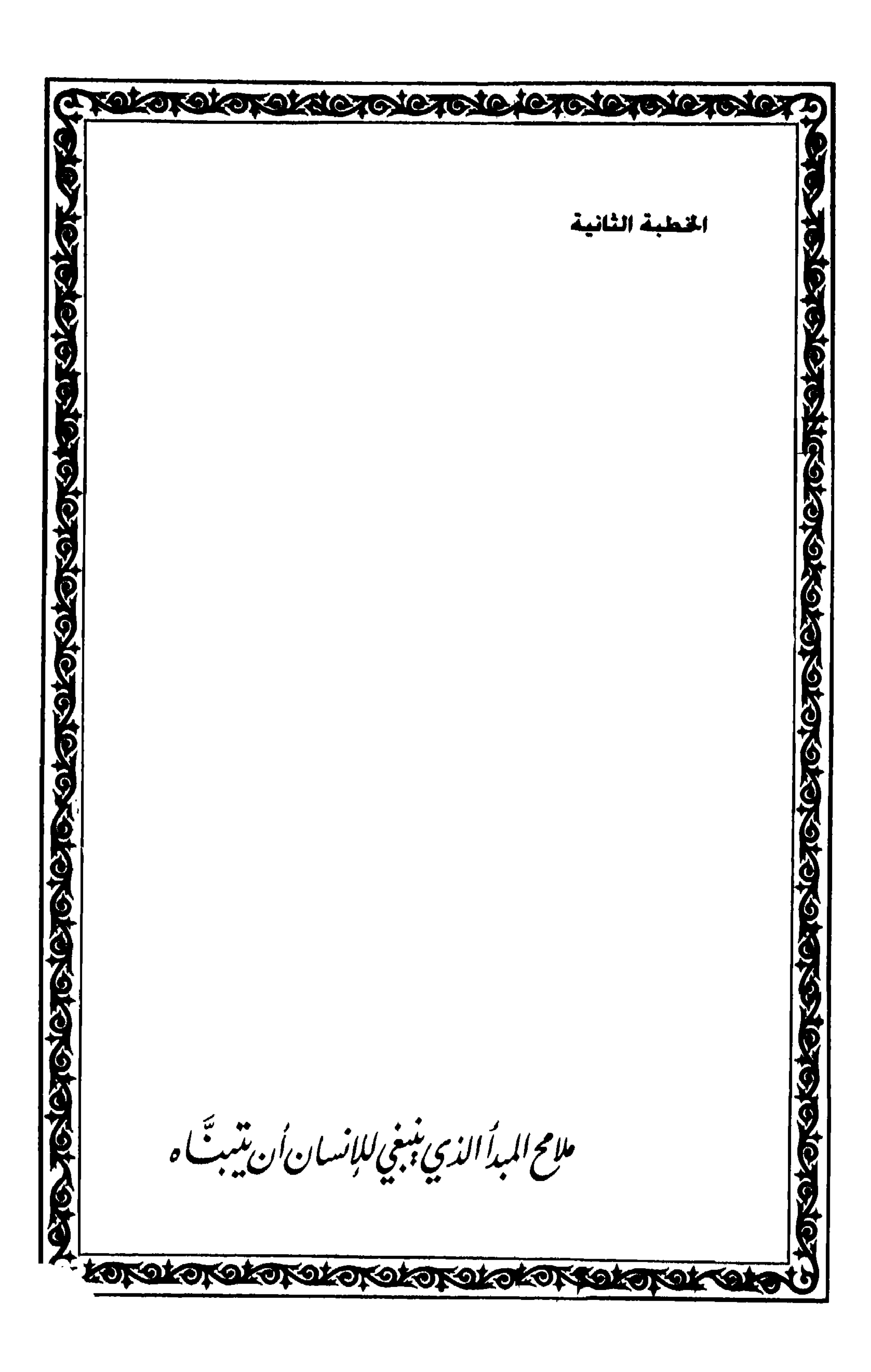
(١٦) الملك / ١٠ .

(١٧) المؤمنون / ٩٩ ـ ١٠٠ .

(١٨) فاطر / ٢٨ .

(١٩) يس / ٣٧ ـ ٤٠ .

(٢٠) الفرقان / ٤٤ .



الخطبة الثانية

ملامح المبدأ الذي ينبغي للإنسان أن يتبناه



* هنالك مقولةٌ لأستاذنا الدكتور محمود عكام :

« الإنسان نظامٌ ، ويحتاج إلى نظام » ، ومن خلال هذه الكلمة تتجلى أهمية هذه الخطبة ؛ إذ تُحدِّد ملامحَ المبدأ ، والنظام الذي ينبغي أن يتبناه « الإنسان النظام » .

وإن لأستاذنا ـ حفظه الله ـ رأياً لا بدَّ من ذكره ههنا ، وهو أنَّ المفاضلة بين المبادئ ، محصورةٌ بين تلك التي تنتمي إلى السماء في أصلها ، وليس بين فكر أرضي وآخر سماوي ، لذا كان الشرط الأول لتبني المبدأ هو موثوقية مصدر المبدأ ، وهذا يعني أن لا سبيل للمفاضلة بين ماركسية وإسلام ، أو بين وجودية ومسيحية . . . إلخ ، فالمقارنة بين الأديان فقط في المحصلة .

لكن العلمانيين ، ولكي يسحبوا البساط من تحت أقدام الأديان بشكل عام ، والإسلام بشكل خاص ، يقولون :

«ليس مهماً في نهاية المطاف أن تكون هذه النصوص صحيحةً ، أم لا ، موثوقة ، أم لا ، تعود إلى صاحبها والفترة المنسوبة إليها ، أم لا ؟ .

هذه الأسئلة كانت تهم المؤرخ الوضعي الفللوجي ، وتشغله كلياً فلا يتعداها إلى شيء آخر » . ويتابعون قائلين :

« إنَّ الفكر الحديث لا ينكر أهميتها ، ولكنه لم يعد يراها كل شيء ، بل لم يعد يراها أساسية جداً ، أصبح الشيء الأساسي في نظره هو التالي :

كيف استطاعت هذه النصوص أن تشغل وعي الناس ، وتسيطر عليهم طيلة قرون وأجيال ؟ . وكيف استطاعت أن تفرض هيبتها وقدسيتها على الجميع دون استثناء ؟ » .

نقول : والجواب عن هذه الأسئلة التي يطرحها الفكر الحديث هو في طيّات « ما لم يعد يراه شيئاً أساسياً جداً »، أي في المصدر ، وفي موثوقية هذ المصدر ، وبكلمة واحدة في « الله » .

و إذا سلّمنا بأنّ المفاضلة قد انحصرت في المبادئ التي تنتمي في أصلها إلى السماء ، فإنّ هذه المبادئ لا بد وأن تخضع إلى امتحانين :

الأول ـ امتحان توثيق : توثيق نسبة المبدأ إلى الله سبحانه ، وهذا ما عبّر عنه أستاذنا في هذه الخطبة بـ «موثوقية المصدر » .

الثاني ـ امتحان تحقيق : تحقيق معلومات المبدأ ومطابقتها وتكاملها ، وهذا ما عبّر عنه أستاذنا بـ : « مناسبة المبدأ للإنسان » ، فامتحان التحقيق ينصبُّ على اختبار هذه المناسبة ، والتأكُّدِ منها .

بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْمِ

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

إنَّ أهمَّ مميزات عصرنا أنَّه عصرُ المبادئ والمذاهب، حرصاً منه على التَّساوق، وعلى الموازاة للتقدم العلمي، والاختراقِ الفضائي، والتَّسلحِ النووي الذي اتَّسم به .

ولكنَّ الملاحظ أنَّ عالمنا الراهن، بالرغم مِنْ أنَّه كما قلتُ يتَّسم بأنَّه عصر المبادئ، إلا أنَّه لم يَصلْ إلى الآن إلى مبدأ يُكسبه الفاعليةَ والثقة، كتلك التي يبحث عنها .

ونحن إذ نساهم في هذا الأمر، فلا بُدَّ مِنْ أنْ نُقدِّم ملامحَ المبدأ الذي ينبغي أنْ يتبنَّاه العالم .

وإنَّها لملامحٌ يصل إليها الإنسان العاقلُ بالعقل، والمفكِّرُ بالفِكر، وصاحبُ القلب بهَدْيٍ مِنْ قلبه .

إنَّ المبدأ الذي ينبغي أنْ يُتبنَّى لا بُدَّ من أنْ يتَّصفَ بصفاتٍ ثلاث، هي ملامحه :

أمَّا الصِّفة الأولى : فلا بُدَّ مِنْ أنْ يكون مِنْ مصدرٍ موثوق .

وأمَّا الصفة الثانية : فلا بُدَّ مِنْ أنْ يكون مناسباً للإنسان .

وأمَّا الصفة الثالثة : فلا بُدَّ مِنْ أنْ تكون له مصداقيةٌ تجريبية، أومصداقية تاريخية .

ولا أريد أنْ أكثِرَ التعداد، فلقد كثَّفتُ الصفات، وجمعتها في هذا الذي عرضت .

صفاتُ المبدأ يا أيُّها العالم، يا من تبحث عمَّا تتمسك به في ميادين التَّمذهبِ والتَّمبدؤ، إنَّ صفات المذهب الذي ينبغي أنْ تبحث عنه، هي ماذكرنا، أنْ يكون من مصدرٍ موثوق، أنْ يكون مناسباً للإنسان، أنْ تكون له المصداقية التاريخية المجرَّبة، ولن تجد هذه الصفات ـ ولا نريد من عرضنا هذا إلا الاحتجاجَ على العالم الذي يلتفت يمنةً ويَسْرة في البحث عن المبادئ، إلا أنَّه يقف أعمى أو مُتعامياً عن الإسلام ـ لن تجد هده الصفات، ولا يمكن أن تكون إلا في هذا الدِّين الحنيف .

فمصدرُ إسلامنا الله، ومناسبته للإنسان معروفة مقررة، و مصداقيته التاريخية والتجريبية أكيدة .

١ ـ موثوقيَّة المصدر

إذا كان مصدر المبدأ الله، إذاً فأكرِمْ به من مبدأ ! ذلك أنَّ الله هو الذي

خلق العالم، وهو الأولى بأن يضع له المبدأ الذي يسير عليه؛ ذلك أنَّ الله هو الذي أوجدَ الإنسان، وهو الأولى بأن يضع له المذهب الذي يسير عليه:

﴿ قدْ جاءكمْ منَ اللهِ نورٌ وكتابٌ مبين ﴾ (١).

﴿ إنَّا أنزلناه قرآناً عربياً ﴾ (٢).

﴿ ألم، ذلكَ الكتابُ لاريبَ فيه ﴾ (٣).

﴿ وبالحقِ أنزلناهُ وبالحقِّ نزل ﴾ (٤).

وإذا أردنا أنْ نسأل أصحابَ المبادئ الأخرى، وأصحاب المذاهب الأخرى، وإذا أردنا أن نسأل أولئك الذين يُروِّجون، وأولئك الذين يبحثون:

ما هي مصادركم؟، ومِنْ أينْ استقيتمْ مبادئكم؟. مِنْ أينَ أخذتم مذاهبكم، أنتم يا مَنْ تطرحون المذاهب والمبادئ للإنسان؟

إنَّ الجوابَ جاهزٌ وحاضر:

إنَّ المبدأ الذي يعرضونه علينا بديلاً عن الإسلام، مصدرُهُ إنسانيٌ في أحسن أحواله، وشتَّان بين مبدأ يقدِّمه لنا الله عزَّ وجلَّ، وبين مبدأ يقدمه لنا الإنسان، والمهم في ذلك أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم السرَّ وأخفى. المهمُّ أنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم مَنْ خلق:

﴿ ألا يَعْلمُ مَنْ خلقَ وهو اللطيفُ الخبير ﴾ (٥)

المهمُّ في كلِّ هذا أنَّ مصدرَ مبدئنا، مصدرَ إسلامنا اللهُ عزَّوجلَّ، وكفى بذلك إقناعاً مِنْ أجل أن نتبنى هذا المبدأ، هذا المذهب، هذه العقيدة، هذه الشريعة.

ولنخاطبْ عبرَ هذه الصفة الآخرين، مِنْ خلال المصدر، وإنَّها لصِفةٌ أولى .

٢ ـ مناسبة المبدأ للإنسان

أما الصِّفة الثانية التي ينبغي أنْ تحدَّد ملامحَ المبدأ ، فمناسبة المبدأ للإنسان. وأريد باختصارٍ أنْ أحدِّد مناسبةَ الإسلام للإنسان .

الإسلامُ يناسبك أيُّها الإنسان، الإسلام هو اللَّبوس المناسب لك، الذي من خلاله تَظهر إنسانيتك، وها أنا أعرض عليك كيف أنَّ الإسلام عرَّفك، كيف أنَّ الإسلام حكى أصلك، كيف أنَّ الإسلام عرض خلقك، كيف أنَّ الإسلام عرض خُلقك، كيف أنَّ الإسلام عرض مسؤوليتك، وإذا أردتَ البحث عن المبادئ الأخرى ؛ من أجل أن تُسائلها عن هذا الذي عرضناه، فوالله إنهم في أحسن أحوالهم مُتحيِّرون، إنهم في أحسن أحوالهم لا يستطيعون أن يقدموا جواباً حاسماً أوصارماً .

١ ـ لقد عرض الإسلام لأصل خَلقك ؛ من أجل أن يُدلِّل على معرفته بك، فالإسلام قال إنك من طين :

﴿ خلقَ الإنسانَ مِنْ صلصالٍ كالفخَّار ، وخلقَ الجانَّ مِنْ مارجٍ مِنْ نار ﴾ (٦) .

٢ ـ ثمَّ بعد ذلك عرض لخَلقك، وهذا ما اكتشفته العلوم الحديثة الآن،

عرض إلى أصل خَلقك استمراراً بعد أن عرض إلى أصل خَلقك وجوداً ، عرض إلى الأصل استمراراً فقال :

﴿ فلينظر الإنسانُ مِمَّ خلق ، خُلقَ مِنْ ماءٍ دافق ، يخرجُ مِنْ بين الصُّلْب والتَّرائب ﴾ (٧) .

وقال : ﴿ اقرأ باسم ربِّكَ الذي خلق ، خلقَ الإنسانَ مِنْ عَلَق ، اقرأ وربُّك الأكرم ، الذي علَّم بالقلم ﴾ (٨) .

٣ ـ لقد عرض لخلقك استمراراً ، وعرض لخُلقك وأخلاقك ، وهاهي صفاتك جليةً في كتاب الله :

﴿ إنَّ الإنسانَ خُلقَ هلوعاً ، إذا مسَّهُ الشَّرُّ جَزوعاً ، وإذا مسَّه الخيرُ مَنُوعاً ﴾ (٩) . إنَّه يعرض لأخلاقك ، ﴿ وكانَ الإنسانُ قَتوراً ﴾ (١٠) ، و﴿ وخُلقَ الإنسانُ ضعيفاً ﴾ (١١) . لقد وصفك ، ﴿ يا أيُّها الإنسانُ ما غرَّكَ بربِّك الكريم ، الذي خلقكَ فسوَّاك فعدلك ﴾ (١٢) .

إنَّه عرضٌ تفصيليٌّ لأخلاقك ، لطبيعتك ، ومن ثمَّ قال لك : إنَّه لا يحميك من هذا ، وإنَّه لا يَرقى بك إلى سدَّة استلام الكون ؛ إلا أنْ تتحمَّل الأمانة ، فقال :

﴿ إنَّا عرضنا الأمانةَ على السَّموات و الأرض والجبال فأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنها وأشفقنَ منها ، وحملها الإنسانُ إنَّه كان ظلوماً جهولاً ﴾ (١٣) .

إذا لم يحمل الأمانةَ ، أمانةَ التكليف مِنْ ربِّ العزَّة فهو ظلومٌ جهول .

لقد عرض الإسلامُ صفاتِك ، لقد عرَّفك ، لقد حرَّرك ، وأيُّ المبادئ التي

تقدِّم وصفاً كاملاً للإنسان ؟ من خلال خلقه في عالم الأصل، ومنْ خلالِ خلقه في عالم الاستمرار، ومن خلال الخُلق قبل أن يتحمَّل الأمانة، ومن خلال الخلق بعد أن يتحمَّل الأمانة، فعندما تحمَّل الأمانة أصبح الخليفة، ولذلك قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفة ﴾ (١٤)

لأنَّه تحمَّل الأمانة، لأنَّه أعلن أنَّه سيتكلَّف بالأوامر الصادرة عن اللهِ تعالى، وأنَّه سيقوم بوظيفةٍ يُكلِّفه بها اللهُ خيرَ قيام .

٤ ـ ثم جاء الإسلام بعد ذلك فعرض غايتك و قال : ﴿ وما خلقتُ الجنَّ و الإنسَ إلا ليعبدون ﴾ (١٥)، وعرض هدفك، وهل يريد الإنسان أكثر من أن يكون سعيداً في الدنيا وفالحاً في الآخرة ؟ .

إنَّ الإنسان يحب أن يكون سعيداً، والسعادةُ لا تأتي من غير إشعاعِ الإيمان بالله، فبالإيمان بالله تكون السعادة، بالإيمان بالله يكون الاطمئنان، وبالإيمان بالله يشعر الإنسان بوجوده، ومن غير الإيمان بالله فلا سعادةَ واطمئنان، ولا شعورَ بالوجودْ .

أيُّها الإنسان : هذه غايتك، وهذا هدفك في الدنيا؛ وأما الآخرة فـ:

﴿ الحمد لله الذي صدقنا وعده، وأورثنا الأرضَ نتبوأ منَ الجنة حيث نشاء، فنِعْمَ أجرُ العاملين ﴾(١٦) .

٥ ـ وأما مسؤوليتك، فعرضها ربِّي عزَّ وجلَّ أيَّما عرض :

﴿ وقِفُوهمْ إنَّهمْ مسؤولون ﴾ (١٧) .

وعرضها رسوله الكريم ﷺ :

[لا تزولُ قدمُ ابنِ آدمَ يومَ القيامة حتى يُسأل عنْ خمسٍ :

١ ـ عن عمره فيما أفناه .

٢ ـ وعن شبابه فيما أبلاه .

٣ ـ و عن ماله من أين اكتسبه .

٤ ـ وفيمَ أنفقه .

٥ ـ و ماذا عمل فيما علم] (١٨) .

٣ ـ المصداقيَّة التاريخية و التجريبية

وأما الصفَّة الثالثة، فلقد جُرِّبَ الإسلام ؛ فكان الدِّين الرائع العظيم، ولا نقول هذه الصفات اعتباطاً . سلوا التاريخ ينبئْكم عن أنصعِ صفحاته يوم سجَّل فيها المسلمون أفعالهم وأقوالهم، سلوا التاريخ عن التجربةِ الإسلامية في قرونٍ كثيرة، في ستة قرون، كيف كان الإسلام دينَ الإنسان، إذ ظهر الإنسانُ من خلاله إنساناً بكلِّ معنى الكلمة .

إن للإسلام مصداقيةً لا يمكن أن يحوزها غيره، ولا يمكن أنْ يُدانيه فيها أو يقاربَه أيٌّ مذهب آخر، تذكروا روعةَ الإسلام، ونحن نراه في شخصية المصطفى ﷺ ، تذكروا روعة الإسلام، ونحن ننظر إليه في سجلاتٍ خلَّفها أصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم، في أيامٍ سجَّل فيها أولئك الروَّاد أروعَ ما يمكن أن يسجِّله الإنسان .

وإنني لأتضاءل وأنا أذكر تلكمُ الأمثلة ، وأنا أذكر تلكم القصصَ الكثيرة

المتوالية ، ولكن حسبي أن أشير إلى قصة ٍ، من خلالها تجلّت إنسانية الإنسان في روعتها ، وكلُّ سيرة ا لنبي ﷺ شاهدٌ على ذلك .

يروي الإمام أحمد، أنَّ أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه جاء بأبيه أبي قحافة، وهو مشركٌ، من أجلِ أن يُسْلم أمام النبي ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : [هلا تركتَ الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه] (١٩)، إنه كبير أنا أمشي إليه يا أبا بكر . فقال أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه : يا رسول الله هو أولى بالمشي إليك، منك بالمشي إليه .

إنَّ رسول الله يمشي إلى هذا الإنسان ؛ من أجل أن يستمع إليه، وهو مشرك .

وما أروع تلكم القصة التي يرويها الإمام أحمد، يوم جاء شابٌ إلى النبي ﷺ، وقد امتلأ جسمه قوة ونشاطاً، لكنه يريد أمراً لا يتناسب والإنسانَ، يريد أن يزني، فقال للنبي ﷺ : إيذنْ لي في الزنا . فزجره الناس، فقال له النبي ﷺ، وبلسان القائم بالحجة و العقل والمنطق، قرَّبه منه وقال له : [أتحبُّه لابنتك] ؟

قال : لا فداك أبي وأمي يارسول الله ﷺ .

قال : [ولا الناس يحبُّونه لبناتهم . أتحبُّه لأختك] ؟

فقال : لا فداك أبي وأمي يارسول الله ﷺ .

قال : [ولا الناس يحبُّونه لأخواتهم] .

وراح يعددُّ النبيُّ ﷺ الواحدةَ تلوَ الأخرى، وفي كل مرةٍ يقول هذا الشابٌ: فداك أبي وأمي يارسول الله ﷺ، والنبي ﷺ يُجيب : [ولاالناس

يحبُّونه لخالاتهم ؛ ولا يحبُّونه لعمَّاتهم]. ثم بعد ذلك أدناه منه أكثر، ووضع كفَّه على صدره، وقال ﷺ : [اللهمَّ اغفر ذنبه، و طهِّر قلبه، وحصِّن فرجه] .

فخرج هذا الشاب وهو يقول : دخلت إلى رسول الله ﷺ وما مِنْ شيءٍ أحبُّ إليَّ من الزنا، وخرجتُ من عند رسول الله ﷺ وما من شيءٍ أبغضُ إليَّ من الزنا. (٢٠)

أيُّها الإخوة :

أريد أن نضعَ في أذهاننا نقاطَ ارتكاز، ونحن ندعو إلى الله، وأرجو اللهَ أن تكون دعوتنا على بصيرة، خاطبوا أصحاب المبادئ الأخرى، قولوا لهم: ما هي مصادركم لمبادئكم ؟ . قولوا لهم : ماهي مناسبة هذه المبادئ للإنسان ؟

تقلَّبوا أيُّها الشباب، انظروا يميناً و يساراً، انظروا أماماً وخلفاً، وسلوا هذه الأسئلة التي وضعتُها لكم، عند ذلك ستُقرُّون بداخلكم ويقرُّ معكم كلُّ عاقل أن لامبدأ إلا الإسلام، وأن لا مذهبَ إلا الإسلام، وأن لاشريعةَ إلا الإسلام، وأن لا دستورَ إلا الإسلام، وأن لا منهجَ إلا منهجُ الله عزَّوجلَّ، وأن لا كتاب إلا هذا الذي أنزله الله على محمَّد ﷺ، فمصدرُ مبدئنا ربُّنا، ومناسبةُ ديننا لإنساننا أكيدةٌ، ومصداقيةُ ديننا عبر التاريخ لا مجال للشك فيها .

إنها نقاط أحببت أن أعرضها عليكم، من أجل مناقشة كبيرة، سيَّما أن عالمنا اليوم يريد أن ينفتح، ويريد أن يتعايش، أوهكذا يدَّعي، ومِنْ خلال

ادّعـــائه هذا ؛ أريد من شـبــابنا أن يتـسلّـحـوا بدينهم، أن يتـسلـحـوا بإسلامـهم، أن يتسلحوا بالمعرفة الصّافـية المستقاة من نبع ربّـنا جلّت قدرته، ومن نبعٍ يَنْتُج عن نبع ربّنا، من نبع مصطفاه ﷺ .

إن عـالمنا اليوم يبحث عن مبدأ من أجل أن يتعـايش فيه الناس، هكذا يدّعي، ونحن نقدم لهذا العالم الإسلامَ مبدأ، نقدم له الإسلام ديناً يحتضن الجميعَ، ويتعايش فيه الجميع، قائلين للجميع : جرّبوا، جرّبوا .

أنتمْ يا أصحابَ ويا أولياءَ الأمور :

جـرّبوا الإسـلام في مـيادين الحـيـاة، في قـضـايا الحكم، في قـضـايا الاقتصاد، من خلال التأكُّد من هذه النقاط الثلاث التي عرضتُها، و إنني واثق، نعم إنني واثق ؛ بأن النهـاية لهـذا الدّين، ذلك أنه يمتلك مناسـبـةً للإنسان ؛ حيثما كان الإنسان، إنْ في الشرق وإنْ في الغرب، لا فرق بين ذلك، والأمـر سيّـان، إنْ في الشـمـال وإنْ في الجنوب، الإسـلام دينٌ للإنسان حيثما وجد الإنسان .

اللهم إني أسألُ، ياربّنا، ياإلهنا، يا رجاءَنا، أنْ تُبصّرنا بديننا،
وأنْ تعلّمنا أحكامك التي أردتها لنا .

ياربنا أكرِمنا مِنْ أجل أنْ نكونَ دائماً على وعيٍ لكل ما يَجري في حلبات الدنيا بأسرها .

نِعْمَ مَنْ يُسأل ربُّنا، ونِعْمَ النَّصير إلهنا .

والحمد لله ربّ العالمين .

الهوامش

(١) المائدة / ١٥.

(٢) يوسف / ٢.

(٣) البقرة / ١-٢.

(٤) الإسراء / ١٠٥.

(٥) الملك / ١٤.

(٦) الرحمن / ١٤-١٥.

(٧) الطارق / ٥-٧.

(٨) العلق / ١-٤.

(٩) المعارج / ١٩-٢١.

(١٠) الإسراء / ١٠٠.

(١١) النساء / ٢٨.

(١٢) الانفطار / ٦-٧.

(١٣) الأحزاب / ٧٢.

(١٤) البقرة / ٣٠.

(١٥) الذاريات / ٥٦.

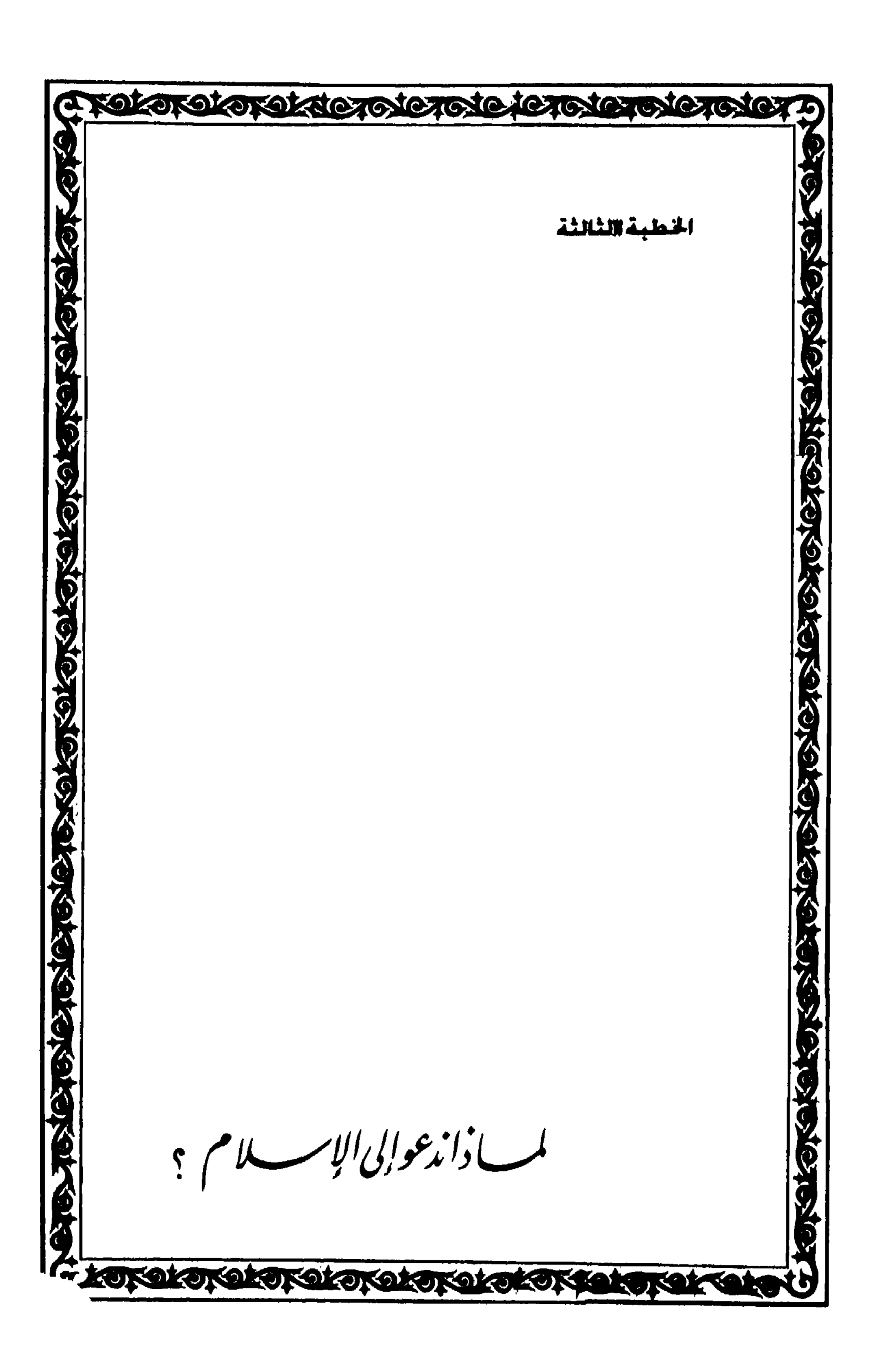
(١٦) الزمر / ٧٤.

(١٧) الصافات / ٢٤.

(١٨) رواه الترمذي في صحيحه، حديث رقم / ٢٤١٦ / ج ٤ ص ٦١٢ .

(١٩) رواه الإمام أحمد في المسند ج ٦ ص ٣٤٩ .

(٢٠) رواه الإمام أحمد في المسند ج ٥ ص ٢٥٧ .



الخطبة الثالثة

لماذا ندعو إلى الإسلام ؟


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* ليست الدعوة إلى الإسلام ذريعةً للوصولِ إلى السلطة ، أوإلى تحقيق المكاسب الاقتصادية ، أو أيّ مأرب شخصي ، فالإسلام بطبيعته لا يتحمّل أن يكون مطيّة لأي هدف أناني صغير .

إنّ الإسلام بعيدٌ عن الاتهام، لأنّه الدين الذي يحمل خير الإنسان وصلاحه .

فليكن الدعاة إليه على مستواه ، وليكن كلُّ مسلم داعية لدينه ، فلا شيء يبرر التكاسل و القعود أو الخوف .



بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

في أزمنةٍ حرجةٍ صعبة ، يكثر السؤال على الشِّفاه ، ما ضرورة الدعوة إلى الإسلام ؟ . لماذا ندعو إلى هذا الدِّين ؟ .

وكأنَّ الدافعَ لهذا السؤال قولٌ مفادُهُ :

أفلا نترك الدعوة إلى هذا الدين فنستريحَ منْ عناءٍ كبير ، يمكن بعدَ الاستراحة أنْ نجنيَ مكاسب في دنيانا ؟ أفلا نترك الدعوة إلى الإسلام ؛ فلعلنا نكسب في دنيانا الكثير ؟ أوَ ليس الغربُ قد ترك الدعوة إلى الدين ؛ فعاش مستقراً إلى حدٍّ ما ؟ .

فلمَ يا أيُّها الناس . لِمَ الدعوة إلى الدين ؟ . و لمَ الدعوة إلى الإسلام بشكلٍ خاصٍّ ؟! .

إنَّ أخْشَى ما نخشاه ؛ أن يكون الدافع إلى هذا السؤال وهمَ خوفٍ لجبانٍ يتوارى ! .

إنَّ أخْوَفَ ما أخافه، أن يكون الدافع لهذا الكلام قياسَ جاهلٍ يتمارى .

إنَّ أخوفَ ما أخاف ؛ أن يكون الدافع لهذا الكلام جبناً وفشلاً ! .

إن الدعوة إلى الإسلام ضرورةٌ إنسانية ، إنْ وقفتْ ، وقفتْ الإنسانية ، وإنْ انعدمتْ ، انعدمتْ الإنسانية ، وإنْ مُـنعتْ ؛ مُنِـعَ خيرٌ ، ينبغي أن نقف في وجه المانع ، وإنْ حُـجبتْ ؛ حجبت الإنسانية بأكملها ، وتاهت العوالم ، وأضحت الفوضى عنواناً للزمن الذي نعيش فيه .

دوافع دعوتنا للإسلام

أولاً ـ إنَّها مهمةُ تشريفٍ بعد أنْ وُصِمتْ بالتكليف

إنَّها مهمة تشريفٍ للإنسان ، أوليستْ مهمةَ الأنبياء ، فكلُّ الأنبياء دعوا إلى الإسلام ، آدم ومن بعده حتى المصطفى ﷺ دعوا إلى الإسلام ، لذلك كانت الدعوة إلى هذا الدين مهمَّةً تشريفية منْ ربِّ العزَّة :

﴿ يا أيُّها الرسولُ بَلِّغْ ما أُنزلَ إليكَ مِنْ ربِّكَ وإنْ لمْ تفعلْ فما بلَّغتَ رسالتَه ﴾ [1] .

وهل يَعْدلُ الإنسانُ عن مهمَّة التشريف ، عن مهمَّة التكليف من ربِّ العزة للأنبياء ؟ . فيها التشريف ، فيها التكريم ، فيها التبجيل فيها التسويد ، فيها كلُّ شيءٍ يُعيدُ للإنسان وجودَه .

إنَّها مهمةُ تشريف ، ينبغي ألاَّ نعدلَ عنها ، إنَّها مهمة إبراهيم ، إنَّها مهمة موسى ، إنَّها مهمة عيسى ، إنَّها مهمة محمَّد ، عليهم صلوات الله وسلاماته . هذا أولاً .

ثانياً ـ حاجةُ الناس إلى الإسلام

إنَّ ما يدفعنا للدعوة إلى الإسلام أنَّ الناس بحاجة إليه ، وأنَّ الناس عطاش ؛ من أجل أنْ يشربوا الماءَ الفرات .

ودعوتكم ، أيُّها المسلمون ، هي الماءُ الفرات للناس العطاش ، ولكلٍّ منْ يرغب أنْ يشربَ ماءً فراتاً عذباً يرتوي بعده .

لقد فتحت الإنسانيةُ فمَها لغيركم ، فإذ بها تشرب ماءً حميماً ، ماءً غسَّاقاً أو ملحاً أجاجاً ، ولكنَّها حينما فتحت فمها لكم ، لرسولكم ﷺ ، لأنبيائكم ، وإذ بها تُسقى ماءً فراتاً ، فكانت جديرةً بالسيادة ، وعاشت ملحمةً إنسانية رائعة ، قدمت للإنسان لَبوساً رائعاً ، في ميادين وجوده كلِّها .

الناس عطاش من أجلكم ، ولكم ، فقدِّموا للناس ولا تبخلوا ، ولئِنْ كان أولئك الذين يقدِّمون للناس الملح الأجاج ، والحميم الغسَّاق ، لئن كان أولئك ناشطينَ في عملهم ، فإنَّه مِنَ الجدير بنا أنْ ننشط ونحن ندعو ، ونحن نعمل ، ونحن نسعى ، ونحن نثق أننَّا نحمل ماءً فراتاً ، لخَّصه القرآنُ الكريم ، وسيرة المصطفى ﷺ .

وأمَّا ثالثاً ـ فإنَّ الدعوة إلى الإسلام انسجامٌ مع الكون

الذي يدفعنا للدعوة إلى هذا الدين ، أنَّ الدعوة إلى الإسلام انسجام مع الكون ، أنَّ الدعوة إلى عبودية الخالقِ انسجامٌ مع العَوالم كافة ، أوَليس الحجرُ والشجر يسبِّح الله ، أولَيس الكونُ بأسره يسجد لله ؟

﴿ ألَمْ ترَ أنَّ اللهَ يسجدُ له مَنْ في السَّمَوات ومَنْ في الأرض والشمسُ والقمرُ والنُّجومُ والجبالُ والشَّجرُ والدوابُّ وكثيرٌ منَ النَّاس ﴾ (٢)، ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلا يُسبِّحُ بحمده ﴾ (٣) ، إنَّ الشجر ليَشهد بأنَّه مخلوقٌ مِنْ قِبَلِ الله، وأنَّه خاضعٌ لسنن الله، وإنَّ الحجر ليشهد، ﴿ إنَّا عرضنا الأمانةَ على السَّمَوات والأرضِ والجبالِ فأبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَها وأشْفقنَ منها ، وحملها الإنسانُ، إنَّه كان ظلوماً جَهولاً ﴾ (٤).

أيُّها الإنسان:

إنَّ دعوتك إلى الدين، إلى الإسلام، تعني الانسجامَ مع الكون، ولقد ردَّدتُ مرةً عبارةً فقلت : إنَّ الكون يسبِّح اللهَ اضطراراً ، وعليك أيها الإنسان أنْ تسبِّح اللهَ اختياراً ، وإلا فأنت نَشازٌ في لحنِ هذا الكون، ومَنْ لمْ يَدْعُ إلى الانسجام مع الكون دعا إلى النَّشاز، والنَّشاز مرفوض .

إنَّها حقيقةٌ ينبغي ألا تغيبَ عن بالنا، ولقد قدَّمتُ هذه الحقيقة بوثائقَ من ربِّنا جلَّت قدرته، وبرواياتٍ عن مصطفانا محمَّد ﷺ . أوَليس الحجر والشجر شهد للنبي ﷺ برسالته ؟ . أوليست الروايات تثبت أنَّ الشجر وأنَّ الحجر قالا لرسول الله ﷺ : نشهدُ أنَّك رسول الله ؛ من خلال رواياتٍ جُمعتْ وكان جَمعُها وثائقَ حسنة (٥) ؟ .

رابعاً ـ الأعداءُ يدعون لباطلهم، أفلا ندعو لحقِّنا ؟!

وإنَّ مما يدفعنا إلى الدِّين أيضاً ، أنَّ أعداءَنا يشتغلون ليلَ نهار ، يشتغلون صباح مساء، يشتغلون في كلِّ آنٍ بضلالهم وباطلهم، أفلا نشتغل بحقنا ،

أفلا نشتغل بإسلامنا ؟ .

وهم يشتغلون بدعوتهم إلى ضلالهم، إلى باطلهم، تحت رداءين اثنين، أو تحت قناعين اثنين : .

ـ أمَّا القناع الأول :

فدعوةٌ ممسوخة، دعوةٌ تدَّعي الإصلاح الممسوخ ليس إلا، فمِنْ ماسونيةٍ حاقدة، إلى صليبية مشوّهة، إلى صهيونية مدمِّرة . هذه أقنعة الآخرين، تدعونا من خلالها إلى الباطل .

ـ وأمَّا القناع الثاني :

فقناع الشهوات، قناع الإباحية التي تتردَّد في العالم بشكلٍ عامٍّ في هذه الأيام، ومنذ أيام، وستستمر إنْ بقينا نائمين إلى أيام طويلة .

إنَّ الآخرين يدعون إلى باطلهم تحت قناع الشهوات، فالإباحية رائجة، وكما قلتُ في أسبوع مضى :

إنْ سُئلنا علامَ ندعو إلى الدِّين، إلى الإسلام، إلى الإنسان الصحيح السَّويِّ، إلى الفكرة السائدة الحرة، إلى الفكر الثاقب الصحيح، إلى السلوك السليم ؟ . فإننا نقول لأولئك الذين يدعون إلى الفجور والفسوق :

علامَ أنتم تدعون، وأنتم تعلمون في قرارة أنفسكم، أنكم تدعون إلى التخريب ؟

وإنَّها لدعوةٌ تكاد أنْ تَلفَّنا بردائها وأنْ تحرقنا بشرارها، تنتابُ أبناءَنا، وتنتاب شبابَنا، وتنتاب نساءَنا . لماذا يُجاهَر بالدعوة إلى الفساد، ولا نجاهر بالدعوة إلى الحق، إلى الصلاح ؟ .

لماذا يُجاهَر بالدعوة إلى الإباحية ، ولا نجاهر بالدعوة إلى الطهر والعفاف ؟ .

لا أريد أنْ أذكِّركم ، فلعل الآلامَ التي نراها ، أو لعل الآلام التي تُسكب في قلوبنا جراءَ ما نرى في هذه المجتمعات ؛ تكاد أنْ تجعلنا في حالةٍ صعبةٍ حرجة ، كما قلت .

أو لستم تَرَوْنَ في شوارعنا ما يدعو إلى الفساد والضلال ؟! ، هنا لائحة وهناك لائحة وهناك لوحة أخرى ، تُنادي شبابَنا أنْ ينغمسوا في الفساد ، أنْ ينغمسوا في الإباحية ، أتريدون أنْ يستمر هؤلاء ، وأنْ نسكت نحن ؟ .

أتريدون يا إخوتي أنْ ينتشر الفساد في ربوع أسرنا ، في مدارسنا ، بين طلابنا ، وألاّ ندعوَ إلى ديننا جرَّاءَ وهمٍ نتوهَّمه ، جرَّاءَ خوفٍ من مكاسبَ لا نحصل عليها في دنيانا ؟ .

إننا سنبقى - بعون الله - ندعو إلى دين الله ، لأنَّها الدعوة إلى الفطرة ، لأنَّها الدعوة إلى الاستقامة ، لأنَّها الدعوة إلى الخير ، لأنَّها الدعوة إلى الفضيلة ، لأنَّها الدعوة إلى كلِّ ما يمكن أنْ يرقى بالإنسان ، منْ أجلِ أنْ يُحافظ الإنسانُ على إنسانيته .

خامساً - دعوتنا للإسلام تدفعُ البلاءَ عنَّا

نحن ندعو إلى الدِّين من أجلِ أنْ ندفع بلاءً عنَّا ، لأننا إنْ لم ندعُ إلى ديننا ؛ أصابنا البلاء ، وصُبَّ علينا صباً ، أوليس المصطفى ﷺ يقول كما يروي الترمذي : [و الذي نفسي بيده ، لتأمُرنَّ بالمعروف ، ولتَنْهونَّ عن

المنكر، أوليُوشكنَّ اللهُ أنْ يَبعثَ عليكم عقاباً منه ، ثمَّ تدعونه فلا يُستجاب لكم] (٦) .

نحن ندعو إلى إسلامنا من أجل أنْ ندفع بلاءً عنا، أوليس المصطفى ﷺ يقولُ كما في الترمذي :

[إذا اتُّخذَ الفيءُ دُولاً ، والأمانةُ مغنماً ، والزكاةُ مغرماً ، وتُعُلِّمَ لغير الدين، وأطاعَ الرجلُ امرأتَه وعقَّ أمَّه، وأدنى صديقَه وأقصى أباه، وظهرت القينات، وسادَ القبيلةَ فاسقُهم، وكان زعيمُ القومِ أرذلَهم، فليرتقبوا عند ذلك ريحاً حمراءَ، وزلزلةً وخسفاً ومسخاً وقذفاً] (٧) .

إنَّه بلاءٌ يُصبُّ علينا إنْ لمْ نَدعُ إلى ديننا، إلى إسلامنا .

هذه دوافع دعوتنا إلى ديننا، إلى قرآنِ ربنا، إلى إسلامنا، فهل هنالك من تبريرٍ من أجل دعوةِ الآخرين إلى الفساد ؛ إلا أنَّهم يريدون التخريب، إلا أنَّهم يريدون الإفساد ؟ . إلا أنَّهم يريدون لشبابنا أنْ ينثنوا عن الجهاد في سبيل الله عزَّوجلَّ، وعن إعلاءِ كلمة الحق في هذه الدنيا، التي خَلقنا اللهُ فيها ، لنكون سادتَها ، من خلال عبوديَّتنا له ؟ .

الناس عطاشٌ، وأريد أنْ أؤكِّد على هذا الأمـــر، الناس عطاشٌ لدعوتكم، الناس بأمَسِّ الحاجةِ لإسلامنا، الناس بأمَسِّ الحاجة إلى قرآنِ ربِّنا عزَّوجلَّ، الناس توَّاقون لكلمةِ حقٍ تُقَالُ منْ فمٍ نظيفٍ مخلص، الناس توَّاقون لتطبيق كلِّ الفضائل في عالمنا الذي نعيش فيه، الناس توَّاقون منْ أجل أنْ يسمعوا كلمةَ المصطفى ﷺ :

[واللهِ، لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمَّد سرقتْ لقطعتُ يدها] (٨) .

الناس توّاقـون من أجل أنْ يجدوا تطبيقاً رائعاً لكلمة عمر رضي الله عنه : (متى استعبدتم الناسَ وقد ولَدتهمْ أمهاتهم أحراراً ؟) .

الناس توّاقون من أجل أن يسمعوا كلمة ربعيٍّ بن عامر : (إنَّ اللهَ ابتعثنا لنخرج العبادَ مِنْ عبادةِ العباد إلى عبادةِ ربِّ العباد، ومِنْ ضيقِ الدنيا إلى سَعة الآخرة، ومِنْ جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام) .

الناس توّاقون، وأنتم الذين تحملون لهم الماءَ الفرات ؛ إنْ حملتم قرآنَ ربكم في قلوبكم وعلى ألسنتكم وعلى أسنَّتكم، من أجل أنْ تمشوا في هذه الحياة معلنينَ الولاء لله عزَّ وجلَّ .

هذه دوافعُ دعوتنا إلى إسلامنا، فهل هناك مَنْ يستطيع أنْ يقدِّم دوافعَ يمكن أنْ تكون كتلك التي قدَّمناها ؟

واللهِ لا أظنُّ ذلك، لكنني أسألُ ربِّي عزَّ وجلَّ وأتوجَّه إليه أنْ يوفقنا، وأنْ يجعلنا ممَّن يدعون إليه على بصيرة، وأنْ يجعلنا دائماً في سبيله، داعين مجاهدين مُصَابرين متباذلين متحابِّين .

أسألُ اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يجعلنا ممَّن لا يخاف في اللهِ لومةَ لائم
أن يجعلنا دائماً وأبداً مِنْ أولئك الذين يتوجَّهون إلى ربِّهم قائلين :
﴿ربَّنا آمنَّا بما أنزلت واتَّبعنا الرَّسولَ فاكتبنا مع الشَّاهدين﴾ (٩) .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) مائدة / ٦٧ .

(٢) الحج / ١٨ .

(٣) الإسراء / ٤٤ .

(٤) الأحزاب / ٧٢ .

(٥) أحاديث شهادة الشجر للرسول ﷺ رواها عدد من أئمة الحديث منهم الدارمي في سننه ج ١ ص ٤ ، والبزار في مسنده ج٣ ص١٣٣ كما في كشف الأستار، وابن حبان في صحيحه حديث رقم / ٢١١٠ / كما في موارد الظمآن، والبيهقي في دلائل النبوة ج٦ص١٤ .

(٦) رواه الترمذي عن حذيفة و قال حديث حسن، الحديث رقم / ٢١٦٩/ ج٤ ص ٤٦٨ .

(٧) رواه الترمذي عن أبي هريرة ، و قال حديث غريب ، الحديث رقم / ٢٢١١ / ، ج ٤ ص ٤٩٥ .

(٨) رواه البخاري ، حديث رقم / ٣٢٨٨ / ، ج ٣ ص ١٢٨٢ .

(٩) آل عمران / ٥٣ .



الخطبة الرابعة

أين تكمن إنتاجية الإسلام ؟



* هذه الخطبة « أين تكمن إنتاجية الإسلام ؟ » تتمةٌ في موضوعها للخطبة السابقة « لماذا ندعو إلى الإسلام ؟ » .

فإذا كانت الدعوة إلى الإسلام بناءً للإنسان، فإنَّ الإنسان لا يتحلّى بالقسم الأوفر من إنسانيته إلا إذا كان منتجاً ، و« الإنتاج » مصطلحٌ كثير التداول ، إلا أننا نرى له في هذه الخطبة تحديداً دقيقاً ، يصلح دواءً لتردد من أصابته الحيرة ، و هو يبحث عن أسباب لا إنتاجيةٍ يتصف بها ، إنْ على المستوى المادي ، أو على المستوى الإنساني .

و من معين الإسلام و في تحديدٍ يؤيده علم النفس ، وعلوم الإنسان يقدِّم لك أستاذنا الدكتور ـ حفظه الله ـ شرطين اثنين حتى تكون منتجاً :

الوضوح في الهدف ، والرسالية .

ويفصِّل لك في كل شرط لتخرج من هذه الخطبة بخلاصة مضبوطة ، ومنظومة واضحة سوف تتذكَّرها كلما شعرت بأنك لست منتجاً على المستوى الذي تريده لنفسك . .

إنَّها خطبة من نوع جديد ، وسوف تستمتع بقراءتها ، وتستفيد من وضوح وتحديد أفكارها .



بسْمِ اللهِ الرَّحمَن الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المسلمون :

لا يتحلَّى الإنسانُ بالقِسم الأوفر منْ إنسانيته إلا إذا كان مُنتجاً ، والإنتاجُ لا بدَّ له من شرطين اثنين حتى يتحقق :

١ ـ أمَّا الأول : فوضوحٌ في الهدف .

٢ ـ وأمَّا الثاني : فالرِّسالية ، ونعني بها أنَّ ما تقدِّمه للناس ينبغي أنْ يكونَ قابلاً للتوريث ، قابلاً للتلقين ، قابلاً للخطاب ، تَقتنع بذلك أنت أولاً ، ثم تَسْري تلك القناعةُ للآخرين .

واشترطنا للرِّسالية شرطين من أجل تحقُّقها :

ـ أمَّا الأول : فهو المستند الصحيح .

ـ وأمَّا الثاني : فهو المعقولية فيما تُقدِّم للناس ، وفيما تحدِّث الناس ، ونعني بالمعقولية : الانسجامَ والتَّناسب مع إنسانيتك ، مع فطرتك ، مع جبِلَّتك و كينونتك وما أنتَ عليه .

و حين ندعو للإسلام نشعر بالإنتاجيَّة، حين ندعو إلى هذا الدين نشعر أننا نُنتج على المستوى الإنساني، لأنَّ هذا المجالَ مجالُنا، على أنَّنا لا ننكر الإنتاجيةَ في المستوى المادي، و لكننا نَشترط لذلك أنْ تكون هذه الإنتاجيةُ الماديةُ حاضنةً للإنتاجية في المستوى الإنساني، تأتمر بأوامرها وتنتهي بنواهيها .

إننا إذ نقدّم الإسلام، نقدّمه على أنَّه إنتاجٌ توافرت فيه شروطه، وإننا إذ نطالب الآخرين بالدَّعوة إليه، فإننا نريدهم بذلك أنْ يكونوا منتجين، إننا ندعوهم بذلك إلى أنْ يَتبيَّنوا ما يقولون، وأنْ يتحقَّقوا مما يفعلون .

و إذا أردنا الحديثَ عن إنتاجيةِ الإسلام وفق الشروط التي ذكرنا، فإنَّه يبقى الأوضحَ في هدفه، والأكثرَ رساليةً في توجُّهاته، في مبادئه، في عطاءاته .

أولاً ـ وضوحُ الهدفِ في الإسلام

إذا ما تحدَّثنا عنْ وضوحِ الهدفِ في الإسلام ؛ رأينا بشكلٍ واضحٍ أنَّ الإسلام يدعو إلى :

أ ـ نجاحٍ في الدنيا مِنْ حيث العمل .

ب ـ وفلاحٍ في الآخرة من حيث الأمل .

يدعو إلى العبودية لله في هذه الحياة الدنيا من حيث التكليف، ويدعو إلى الأنسِ بالله عزَّوجلَّ في الآخرة من حيث التشريف . واسمعوا إلى وضوحِ الهدف، مِنْ حيثُ كونه تكليفاً، ومن حيث كونه تشريفاً .

ـ أمَّا التكليف :

فـ ﴿ يا أيُّها النَّاسُ اعبُدوا ربَّكمُ الذي خلقكُمْ والذينَ مِنْ قبلكُمْ لعلَّكمْ تتَّقون ﴾ (١) .

﴿ وما خَلقتُ الجنَّ و الإنسَ إلا ليَعبُدون ﴾ (٢) .

ـ وأمَّا الهدفُ من حيث كونه تشريفاً تَتمتَّع به في الآخرة، تتمتع بثماره هناك، حينما يغدو أنساً مع الله، فما أجملَ أنْ نقرأ قوله تعالى :

﴿ وجوهٌ يومئذٍ ناعمةٌ، لسَعيها راضيةٌ، في جنَّةٍ عاليةٍ، لا تَسمعُ فيها لاغيةً، فيها عينٌ جاريةٌ، فيها سُرُرٌ مرفوعةٌ، و أكوابٌ موضوعةٌ، ونمارقُ مصفوفةٌ، و زرابيُ مبثوثة ﴾ (٣) .

إنَّه الوضوحُ في الهدف الذي يُشكِّل الشرطَ الأول لإنتاجيةِ الإسلام على المستوى الإنساني .

ثانياً ـ الرساليَّةُ في الإسلام

و تشكلُ الرساليةُ الشرطَ الثاني لإنتاجية الإسلام، وإننا نذكرُ شرطيها أيضاً :

١ ـ نذكرُ المستندَ الصحيح، فاللهُ عزَّوجلَّ يقول :

﴿ ألم . ذلك الكتابُ لاريبَ فيه ﴾ (٤)، مستندهُ صحيح، و يقول سبحانه : ﴿ قلْ إنَّما أنا بشرٌ مثلكمْ يُوحى إليَّ ﴾ (٥)، المستندُ صحيح، ويقول : ﴿ وما يَنطقُ عن الهوَى، إنْ هو إلا وحيٌ يُوحَى ﴾ (٦) المستندُ صحيح .

٢ ـ و أمَّا الشّقُ الثاني للرسالية ، و هو الذي عبَّرنا عنه بالمعقولية ، فما أروعَ انسجامَ الإسلام مع الإنسان ! .

إنْ تحدَّثتَ عن معقولية العقيدة وجدتّها مناسبةً للإنسان ، وإنْ تحدَّثتَ عن معقولية العبادة و جدتّها منسجمةً مع الإنسان ، وإنْ تحدَّثتْ عن معقولية التشريع وجدتّها منسجمةً مع الإنسان ، وإن تحدَّثتَ عن معقولية الأخلاقِ وجدتّها منسجمةً مع الإنسان ، و هذه مضموناتُ الإسلام .

أ ـ معقوليّةُ العقيدة

و هل ترى معقوليةً تُنافس معقوليةَ الإسلامِ في العقيدة ، يوم أمرَ الإنسانَ أنْ يعتقد بأنه لا إله إلا الله ، يوم أمرَ الإسلامُ ذاك الإنسانَ أنْ يقولَ عن خالقِ الأكوان : ﴿ قلْ هوَ اللهُ أحدٌ . اللهُ الصَّمدُ . لمْ يَلِدْ ولمْ يُولَدْ ولمْ يكنْ له كُفُواً أحد ﴾ (٧) .

وهل تستطيع أنْ تطرحَ معقوليةً تتعلّق بالعقيدة ؛ تستطيع أنْ تُماشيَ هذه المعقولية ؟ .

إنْ كنتَ تريدُ حواراً فأخبرني عن معقوليةِ عقائدَ سَلَفتْ ، و انقرضت لأنَّها لا تحمل مؤهلاتِ الاستمرار و البقاء ، إن كنت تريد حواراً فأخبرني عن معقوليةِ لعقائدِ اليوم ؛ التي يريد أصحابها أنْ يأخذوها منْ غيرِ الإسلام ، إن كنت تريد الحوار فأقبِلْ وتقدَّم من أجل أنْ تعرضَ أمامنا معقوليةَ سوى الإسلام .

الإسلامُ يُرسِّخ في الإنسان عقيدةً تُناسبه وتنسجم معه ، إنَّه الإسلامُ

الذي يطرح نفسَه معقولاً ، و قابلاً للاستمرار ، وقابلاً للتوريث ، وقابلاً للتلقين ، و قابلاً للبقاء إلى أبَدِ الآباد .

ويوم جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ يطرح أمامه عقيدتَه ، وطرح النبيُّ ﷺ أمامه عقيدةَ الإسلام ، و بدأ الحوارُ بقول المصطفى ﷺ لهذا الرجلِ ، وكان يُسمَّى حُصيناً : [يا حصين ، كمْ تعبدُ مِنْ إله ؟] .

قال : سَبْعاً في الأرض وواحداً في السَّماء .

قال : [فإذا أصابكَ الضُّرُّ ، مَنْ تدعو ؟]

قال : الذي في السماء .

فقال النبيُّ ﷺ : [يا حصين ، فيستجيبُ لك وحدَه وتُشركهم معه ، يا حصين أسْلمْ تَسلم] !! .

فقال حصين : إنَّ لي قوماً وعشيرةً فماذا أقول ؟

قال النبيُّ ﷺ : [قلْ : اللهمَّ إنّي أستهديكَ لأرْشَدِ أمري ، وأسألكَ علماً ينفعني] (٨) .

إنَّ الإسلامَ يطرحُ معقوليَّتَه في العقيدة ، من أجل أنْ يحقق الرساليةَ ، ومن أجل أنْ تتحققَ بالرساليةِ الإنتاجيةُ .

ب ـ معقوليَّةُ العبادة

يطرح الإسلامُ معقوليتَه في العبادة . وسَلُوا عباداتَ الآخرين ، سلوا صيامَ الآخرين ، صيامَ الديانات الأخرى التي اختفى الحقُّ فيها ، كمْ طرأ عليه مِنْ تبديل ، ومن تعديل !! ، كانت أيامُ الصِّيام لديهم ربَّما في عدد

الأيام التي نصومها، ثم بعد ذلك حُرِّفت فصارت ستينَ يوماً، ثم حُرِّفَ الصيام في نوعيَّته، فأضحى صياماً عن أشكالٍ وأنواعٍ معينة، ومنذ مدة غير قصيرة وقفَ الرجل المسؤولُ عن دين المسيحية في مستقرِّه في روما، فقال: (لقد غدا الصيامُ تطوعاً).

وأما الصِّيام في الإسلام، فدليلُ معقوليته استمرارُه، دليل معقوليته أنَّ الأجيالَ في هذا الدين استقبلته كما هو، منذ عهد المصطفى ﷺ إلى يومنا هذا.

يَطرح الإسلامُ معقوليتَه في العبادة، ومَن الذي يستطيع أنْ ينكرَ معقوليةَ العبادات في الإسلام؟.

من الذي ينفي عن الصلاة إمكانيةَ استمرارِها، و مَقدرة بقائِها، وإمكانية أنْ تكون الدِّينَ، و الصِّلَةَ الواصلةَ بين العبد وبين الله سبحانه وتعالى؟!.

قولوا للناس: إننا نريد أنْ نرى عباداتكم، ومدى انسجامها وتناسبها وتلاؤمِها مع الإنسان الذي يطرح نفسَه قائداً للكون، و مُستلماً لسُدَّة الحياة.

ج ـ معقوليَّةُ التَّشريع

الإسلام يطرح نفسَه، ويطرح معقوليةَ التشريع فيه، ومَن الذي ينكرُ معقوليةَ البيعِ والشِّراءِ و الرَّهن والاستئجار؟. مَن الذي يستطيع أنْ يَقْتربَ من هذا التشريع ليأتيَ بمساوٍ له، أو ليأتيَ بقريبٍ منه؟.

أيُّها الإنسان الكريم :

سَل المؤتمراتِ التي عُقدت حول إمكانيةِ أنْ يكون التشريعُ الإسلامي تشريعاً لكلِّ الدنيا، وسلوا علماءَ القانون الذين تحدَّثوا عن معقوليةِ تشريعنا، عن معقوليةِ إسلامنا في كلِّ ميادين الحياة، في مَيدان الأسرة، في ميدان التعليم، في ميدان القضاء، في ميدان الحكم . ولئنْ قال بعض القانونيين : إنَّ تشريعاً ما، لايَضمنُ استمرارَه، ولا يُؤكِّد معقوليتَه، مالم تظهر النزعةُ الإنسانيةُ فيه واضحةً جليَّة . فإننا نقول له : إنَّ الإسلام في تشريعهِ لم يَسبقه تشريعٌ آخر في وفرةِ النزعةِ الإنسانية فيه، وسلْ أوامرَه ونواهيه، سلْ أحكامَه ومبادئَه، سلْ خطاباته .

إنَّ القرآنَ الكريم يقول للناس : ﴿ ولقدْ كرَّمنا بني آدم ﴾ (٩) ، إنها نزعةٌ إنسانية، وهو يقول لهم أيضاً : ﴿ إنَّا خلقناكمْ مِنْ ذكرٍ وأنثى، وجعلناكمْ شعوباً وقبائلَ، لتعارفوا ؛ إنَّ أكرمَكمْ عند اللهِ أتقاكم ﴾ (١٠) إنها نزعةٌ إنسانية .

سلوا الحديثَ الشريف يوم وقفَ النبيُّ ﷺ فقال : [ألا إنَّ ربكمْ واحدٌ، وإنَّ أباكمْ واحدٌ، وإنَّ الدِّينَ واحد] (١١) .

سلوا حوادثَ وقعتْ في تاريخنا، تُؤكِّد نزعةَ الإسلام الإنسانية، فهي العاملُ الكبير الذي يُؤهِّله لكي يكونَ تشريعاً خالداً باقياً .

ما أجملَ أنْ تقرؤوا ما جاءَ عن النبيِّ ﷺ يوم وقفَ أمامَ أبي ذرٍ يحاكمه، كما روى البخاري ومسلم . أتعلمون ما فعل أبو ذر ؟ . لقد قال لبلال، و بلالٌ رجلٌ أسودُ اللونِ أبيضُ القلب، قال له : (يابن السوداء) .

وإذ بالنبيِّ ﷺ أمامَ الأبيض، أمامَ هذا الذي ينتسبُ إلى قبيلةٍ عربية يقول ﷺ: [يا أبا ذر، أعيَّرتَه بأمِّه ؟! إنَّك امرؤٌ فيك جاهلية][12]، إنَّها نزعةٌ إنسانيةٌ تحكُم تشريعَنا، تحكُم أخلاقَنا.

سلوا وما أروعَها مِنْ قصةٍ! تلك التي حدثتْ لعمرَ بن الخطاب - رضي الله عنه - ، يوم قَدمتْ قافلةٌ إلى المدينة، ووقفتْ لتَبيتَ خارجَها، وفيها التجار ومعهم النساء والأطفال، نظر عمر وكان أميراً للمؤمنين، منْ سيحرسُ القافلة ؟. فقال لعبد الرحمن بن عوف، وكانَ أغنَى رجلٍ في المدينة: هل لك أنْ تحرسهم الليلة معي ؟.

فباتا يَحرسانهم ويُصلِّيان ما كتبَ اللهُ لهما، فسمع عمرُ بكاءَ صبيٍ، فتوجَّه نحوه، وقال لأمه: اتَّقي الله، وأحسني إلى صبيِّكِ!.

ثمَّ عادَ، فسمعَ البكاءَ مرة ثانية، فعادَ إلى أمه وقال: اتَّقي الله، وأحسني إلى صبيك.

ثمَّ عاد إلى مكانه، فلما كان آخرُ الليل سمع بكاءَه، فأتى أمَّه فقال: ويَحَكِ، إنِّي لأراكِ أمَّ سُوء! مالي لا أرى ابنكِ يَقَرُّ منذ الليلة ؟.

فقالت، وهي لا تعرف أنَّه أميرُ المؤمنين:

يا عبدَ الله لقد أبرَمْتني منذُ الليلة، إنِّي أُريغُه عن اللبنِ ليُفطم، فيأبى. فقال: لمَ؟. فقالت: لأنَّ عمرَ لا يَفرضُ إلا للفطيم. قال: وكم له ؟. قالت: كذا وكذا شهراً. قال: ويحكِ لا تُعجليه.

فصلَّى عمرُ الفجرَ، وما يَستبينُ الناسُ قراءتَه من غلَبة البكاء، فلما سلَّم قال: يا بُؤساً لعمر، كم قتل منْ أولاد المسلمين ؟!.

ثمَّ أمرَ منادياً : أنْ لا تُعجلوا صبيانَكم عن الفِطام، فإنَّا نفرضُ لكلِّ مولودٍ في الإسلام .

إنَّها نزعةٌ إنسانيةٌ منبثقةٌ عن الإسلام، عن هذا الدين الحنيف .

نحنُ نطرح الإسلامَ على أنَّه رساليٌّ، على أنه منتجٌ، على أنَّ المعقوليةَ تسوده، فما الذي يطرحه الآخرون ؟! . ما الذي يريده الآخرون ؟! .

نحن نريد حينما يقدِّم الآخرون شيئاً أنْ يكونوا مقتنعينَ به أولاً ، إذْ إننا كثيراً ما نرى اليوم أشخاصاً يَعرضون علينا مبادئ، وأشخاصاً يعرضون علينا تشريعاً ، وأشخاصاً يخطبون أمامنا كثيراً ، يقدِّمون لنا حلوَ اللسان، ويقدِّمون لنا كلماتٍ برَّاقة، ولكنني أقول لهم :

إنَّ كلامكم هذا ليس برسالي، لأنكم لم تقتنعوا به، والدليلُ على عدمِ اقتناعكم به ، أنكم لا تُطبِّقون هذا الذي تقولون به . إن التشريع الإسلامي يوم حكمَته المعقوليةُ طبَّقهُ مَنْ أُنزل عليه، وطبَّقه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

إنَّ التشريع الإسلامي لَيَحكُمُ كلُّ العقلاء على أنَّه معقول، على أنَّه رسالي .

وأريدكم يا شباب إذا أردتمْ فحصَ مبدأ يُعرض أمامكم، أو امتحانَ فكرٍ يُلقى عليكم أنْ تناقشوه من خلال الإنتاجية، ناقشوه من خلال الرسالية، ناقشوه من خلال المستند الصحيح، ناقشوه من خلال المعقولية .

ناقشوا برمضان، فرمضانُ يكفي من حيث كونه معقولاً لكي يجلبَ الناسَ إلى دين الله القويم، ناقشوا من خلال ليلة القدر، فليلةُ القدر ليلةٌ

في السنة تكفي لإقناعِ الناسِ أنَّ هناك صلةً بين الإنسان المشهودِ و بين الربِّ المعبود .

ناقشوا الناس ، وقدِّموا لهم هذه النماذج ، فإسلامُنا منتج ، وإسلامنا رسالي ، وإسلامنا معقول ، ولن نقبلَ بأيِّ شيءٍ يُعرض أمامنا إلا عبر هذه الشروط التي ذكرناها .

اللهم إنا نتوجَّه إليك بسرِّ رمضان ، وبسرِّ ليلة القدر ،
بسرِّ العشر الأواخر من رمضان
أنْ تجعلنا رساليين في إسلامنا ،
أنْ تجعلنا أصحابَ معقوليةٍ ونحن نطرح هذا التشريع .

نِعْمَ مَنْ يُسأل ربُّنا ، ونِعْمَ النَّصير إلهنا .
والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) البقرة / ٢١ .

(٢) الذاريات / ٥٦ .

(٣) الغاشية / ٨ ـ ١٦ .

(٤) البقرة / ١ ـ ٢ .

(٥) الكهف / ١١٠ .

(٦) النجم / ٣ ـ ٤ .

(٧) الإخلاص / ١ ـ ٤ .

(٨) رواه ابن خزيمة ، كما ذكر فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين في كتابه : « هدي القرآن إلى الحجة والبرهان » .

(٩) الإسراء / ٧٠ .

(١٠) الحجرات / ١٣ .

(١١) رواه الإمام أحمد في مسنده ج٥ ص٤١١ .

(١٢) رواه البخاري حديث / ٣٠ / ج١ ص٢٠ ، ومسلم في الأيمان والنذور ، حديث رقم / ١٦٦١ / .



الخطبة الخامسة

أساسيات الإسلام وكلياته



* في هذه الخطبة ، يطرح فضيلة الدكتور الشيخ محمود عكام مفهومه عن الدائرة الكبيرة التي طالما تحدث عنها ، و تعدُّ هذه المسألة إحدى النقاط البارزة في طرحه ، فهو من الذين يسعون لترسيخ مفهوم الدائرة الكبيرة التي يلتقي فيها المسلمون دون ألقاب أو تسميات ، فالاسم الوحيد الذي سمانا الله به هو « المسلمون » ، ﴿ هو سمَّاكم المسلمين من قبل ﴾ ، ولقد أطلق ـ حفظه الله تعالى ـ كلمةً غدتْ عنواناً بين الشباب المثقف الواعي :

« لنلتقِ دون ألقاب ، أفلا يكفينا الإسلام ؟! »

و من هذا المنطلق ـ وحسب مفهومنا ـ ، لم يكن يفكر أستاذنا الداعية بتكوين جماعةٍ ما مميزة عن بقية الجماعات الإسلامية الأخرى ، فهو يبشر دائماً بما يسميه بـ (الجماعة النواة) ، تلك التي تستوعب الجماعات كلها ، ما دامت هذه الجماعات لم تخرج عن الدائرة الكبيرة ، والمحيط الإسلامي الواسع .

و في هذا الصدد ، نقتبس جُمَلاً من إحدى محاضراته ، وقد ألقاها في الخرطوم ضمن أعمال ندوة : « العرب والمسلمون في عالم متغير » ، إذ يقول :

« أليس قميناً بنا أن نوجّه جهودنا إلى تقوية الانتماء للإسلام الكبير الذي نواجَه من خلاله من قِبَل عدونا ، من غير تسميات ؛ بدلاً من أن نقوي الانتماء إلى الحركة الصغيرة ، ونقف عندها فتتفتت الصخرة العظيمة الكبيرة إلى صخيرات يسهل طحنها وكسرها » .

و يقول بعد ذلك :

« لا أريد أن نقدّم ، أو نفضّل ، ما ورثناه عن تاريخنا السابق في

حركاته المختلفة ، على ما ينبغي استقباله عن ربّنا جلّ وعلا » .

و من جميل كلماته ـ بحق ـ قوله أيضاً :

« لنترك لغيرنا صناعة الفرق و الطوائف فليس حديث النبي ﷺ :

[ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة] ـ إنْ صحّ ـ تكليفاً ، وإنما هو تنبيه ، فلنحذر » .

إنّ (الوحدة) في نظر أستاذنا الداعية ، لا بدّ لها لكي تغدو واقعاً نعيشه من أمرين اثنين :

١ ـ العاطفة المحركة للنفس .

٢ ـ التصور القائم في الذهن .

وعلى الدعاة و المصلحين أن يعملوا في هذين الحقلين ، حقل العاطفة إذ يقوونّها و يحركونها ، وحقل التصور إذ يثبتونه .

« الوحدة التي ننادي بها :

ـ لا بد لها من عاطفة متجذرة في داخل الإنسان ، تقوى على تحويلها من عالم السكون إلى عالم الحركة .

ـ ثم لا بد لهذه الوحدة من تصور قائم في الذهن لها .

وكلا الأمرين أعطاهما الإسلام أكبر المقومات :

ـ أمّا العاطفة : فمن خلال الحضّ عليها من الله في قرآنه ، و على لسان نبيه ﷺ ، فثوابها أعظم الثواب ، وعقاب تركها أغلظ العقاب .

ـ أما مقوّمات تصورها لتقوم في أذهاننا و يسهل تنفيذها : فتوحيد الله الواحد ، والإيمان بكتاب واحد ، والرسول ﷺ ، وهو واحد في القدوة والتأسي ، و القبلة واحدة ، والعبادات محدودة في إطارها العام ، بحيث يتفق المسلمون في أدائها بصورتها الكلية .

ـ أما الظنيات فعامل ثراء ، وعامل حوار متفاهم ، ولقاء بنّاء

وليس العكس ، وهي الأرضية المتحركة التي تجعل الإسلام قابلاً لكل عصر ومصر » .

أليس هذا الطرح المتميز هو الكفيل بأن يمهّد لوحدة إسلامية مرجوّة ، تنوّعها متناغم ، واختلافها منسجم ؟! .



بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المسلمون :

إذا كان العلمُ محصوراً بالكليات، والفكرُ في الأساسيات، والعقلُ في المصادَرات والبدهيَّات، فإن الإسلامَ لايخرج عن تلك الواقعة وهذه السِّمة . ذلك أنَّ له كليات تحدِّده، وأساسيات تميِّزه، وبدهيَّات تلازمه .

وكثيراً ما يسأل الناسُ عن ذلك، فهم يريدون المحيطَ الذي يجمع، والإطارَ الذي يمنع، والحدَّ الذي يُدخِل التزامُه من كان خارجَه، ويُخرج من كان داخلاً تجاوُزُه .

وإنني إذ أذكر ذلك، فلأنَّ كثيراً من الناس اليوم يبحثُ عن معيارٍ ليتَّخذه لنفسه ابتداءً، وليجعله بعد الحوار والنقاش للآخرين انتهاءً . أذكر هذا وأنا أعلم أنَّ الناسَ اليوم يبحثون عن الإطار الأساسي للإسلام، ليدخل مَنْ يدخل عن بيِّنة، وليخرجَ من يخرجُ عن بيِّنة .

وإذ أقول هذا أيضاً ، فمن أجل أن يتخذ الناسُ هذا الكلام نواةً لتحقيق المهمةِ التي خلقهم الله من أجلها ، الكامنةِ في قول الله تعالى :

﴿ وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون ﴾ (١) .

ولئن كنا قد ذكرنا في خطبة سابقة « نواقضَ الشهادة » ، وذلك على سبيل التَّخلّي ، فإني أريد اليوم أنْ أذكرَ الكليَّات والأساسيات للإسلام على سبيل التَّحلّي ، من أجل أنْ يُتقنَ الإنسانُ الإطار الذي يدعو إليه ، من أجل أنْ يَعيَ المسلمُ الدائرةَ التي تَضمُّ المسلمين ، من أجل أنْ يتذكر ذلك الإنسانُ الداعي الحدودَ التي إن دخلها إنسانٌ كان مسلماً ، والمادةَ التي ينبغي أنْ ندعو إليها ، في كلِّ حالٍ ، وفي كلِّ آنٍ .

أقول هذا وأنا أعلم أيضاً ، أنَّ كثيراً منْ شبابنا يَدعُون إلى الله ، ولكنهم بحاجةٍ إلى وضع النُّقاط على الحروف في تحديد الثوابت والأركان ، في تحديدِ ما أسماه الإمام الغزالي في كتابه « الاقتصاد في الاعتقاد » ، في تحديدِ الأصول التي على أساسها يَحكم المسلمُ نفسَه ، ويُحاكِم بعد حوارٍ غيرَه .

إنَّ الثوابتَ والأركان التي تشكّل الكليات والبدهيات والأساسيات في الإسلام هي أمورٌ أربعة :

١ ـ عبوديةُ الله عزَّوجلَّ الفردِ الصمد ، حسب التصور الإسلامي ، المجمع عليه جملةً وتفصيلاً .

٢ ـ الإيمانُ بالقرآن الكريم ، كتاباً مُنزَّلاً من الله عزَّ وجلَّ على المصطفى الكريم ﷺ بواسطةِ الوحي .

٣ ـ الإيمانُ بنبوَّة المصطفى ﷺ ، وبرسالته الشاملة التامة المتمِّمة .

٤ ـ التكاملُ بين هذه الثوابت وبين هذه الأركان، وعدمُ الأخذِ المشتَّت لها، وعدم الأخذ المتناثِر منها .

إنَّ هذه الأمور تشكل محيطاً لدائرة الإسلام التي يدخل فيها المسلمون ولا يخرجُ منها إلا من تجاوزها . أذكر ذلك، وأنا أعلم أنَّ كثيراً من المسلمين اليوم يبحثون عن الحدود، ولطالما قلناها وتحدثنا عنها :

ـ من المسلم ؟، وكيف ندعو إلى الإسلام ؟

ـ ماهي الثوابت والأركان ؟

ـ ما هي الأسسُ العامة، ما هي الكليات ؟

أيُّها المسلم، فَلتقلْ لكل الذين يحدثّونك :

إنَّ الإسلام في دائرته الواسعة يضمُّ الذين يعبدون الله عزَّوجلَّ وفقَ التصور الإسلامي جملةً وتفصيلاً، فيما اتفق عليه المسلمون .

يضم أولئك الذين يؤمنون بالقرآن كتاباً منْ عند الله، والذي يغطي للإنسان كيانَه بأسره، مِنْ كلِّ نواحيه النفسيَّة والجسميَّة والروحية والاقتصادية والسياسية .

يضمُّ أولئك الذين يؤمنون برسالة النبيِّ ﷺ لكل الناس، وأنها تدعو الناسَ جميعاً إلى خَيْرَي الدنيا والآخرة .

يضم أيضاً أولئك الذين لا يُشكلون في تفكيرهم تنافراً بين هذه الثوابت، أوتناقضاً بين هذه الأركان، وإنما يأخذون من جميعها التناسقَ والتكامل مهتدين بقول الله تعالى :

﴿ اليوم أكملت لكم دينكم ﴾ (٢) .

إذاً فالمستند العامُّ لهذه الثوابت والأسس هو في قولِ الله عزَّوجلَّ :

﴿ الم . ذلكَ الكتابُ لا ريبَ فيه ، هدىً للمتقين ، الذين يؤمنونَ بالغيبِ ويقيمونَ الصلاةَ ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يُؤمنونَ بما أنزلَ إليك وما أنزلَ مِنْ قبلك وبالآخرةِ هُمْ يوقنون ، أولئك على هدىً مِنْ ربِّهمْ وأولئك هم المفلحون ﴾ (٣) .

أما المستند من الحديث الشريف ، المستند العامُّ لهذه الأسس فهو قوله ﷺ كما روى أبوداودَ في سننه :

[مَنْ قالَ رضيتُ باللهِ تعالى رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمَّدٍ رسولاً ؛ وجبتْ له الجنة] (٤) .

و إذا ما أتَيْنا على هذه الأمور الأربعة بذكرِ مُستنداتها مفصلةً في القرآن الكريم في النص أولاً ، وفي العقل ثانياً ، قلنا :

أ ـ أمَّا المستندُ لعبودية الواحدِ القهَّار ، حسبَ التَّصور الإسلامي ، جُمْلةً وتفصيلاً على ما اتفقَ عليه المسلمون ، فإنَّ الله عزَّوجلَّ يقول :

﴿ قلْ إنَّ صلاتي ونُسُكي ومَحياي ومماتي للهِ ربِّ العالمين لا شريك له وبذلك أمرتُ ، وأنا أولُ المسلمين ﴾ (٥) .

ويقول اللهُ تعالى :

﴿ وما أُمروا إلا ليَعبدوا اللهَ مخلصينَ له الدِّينَ ﴾ (٦) .

ويقول تعالى :

﴿ وقضَى ربُّكَ ألا تَعبدوا إلا إيَّاه ﴾ (٧) .

إنَّها مستنداتٌ نَصيَّةٌ لثابتٍ منْ ثوابت الإسلام وركنٍ من أركان الدائرة ،

لضلعٍ من أضلاع المربع الإسلامي، إنْ جازَ لنا هذا التعبير .

ب ـ أمَّا المستندات النصيَّةُ الثانية للضلع الآخر، للوجه والحدّ الآخر، لقولِنا بأنَّه ينبغي أنْ نؤمن بالقرآن كتاباً منْ عند اللهِ عزَّوجلَّ، فهي قوله تعالى :

﴿ الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبدهِ الكتابَ ولمْ يَجعلْ له عِوَجاً، قَيِّماً ليُنذرَ بأساً شديداً ﴾ (٨) .

﴿ تبَاركَ الذي نَزَّلَ الفرقانَ على عبْده ليكونَ للعالمينَ نذيراً ﴾ (٩) .

﴿ إنَّ هذا القرآنَ يَهدي للتي هي أقوم ﴾ (١٠) .

ج ـ أمَّا الإيمانُ بالمصطفى ﷺ رسولاً ونبياً، فما أكثرَ الآيات ! :

﴿ لقدْ جاءكمْ رسولٌ منْ أنفسِكمْ عزيزٌ عليه ماعَنتُّمْ ﴾ (١١) .

﴿ وما أرسلناكَ إلا كافةً للنَّاس بشيراً ونذيراً ﴾ (١٢) .

﴿ قلْ إنْ كنتمْ تحبُّونَ اللهَ فاتَّبعوني يُحببكمُ الله ﴾ (١٣) .

د ـ أمَّا المستندات النصيَّة للثابتِ الرابع، للضلعِ الرابع، فقوله تعالى :

﴿ اليومَ أكملتُ لكمْ دينَكمْ وأتممتُ عليكمْ نعمتي ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً ﴾ (١٤) .

وقوله تعالى :

﴿ أفتؤمنونَ ببعضِ الكتابِ وتكفرونَ ببعض، فما جزاءُ مَنْ يفعلُ ذلك منكمْ إلا خزيٌ في الحياة الدنيا ﴾ (١٥) .

إنَّ هذه الأمور هي الدائرة، هي الحدود، أركّزُ على هذا، وأدعو المسلمين لذلك .

وربما قال الإنسان :

أينَ الإيمانُ باليوم الآخر ؟ !، وأينَ الإيمانُ بالملائكة ؟! .

فأقول له : انظر الركنَ الثاني، انظر الثابتَ الثاني، انظر القرآنَ الكريم تجدْ فيه كلَّ ذلك . أنا أقول إنَّ الحدودَ التي ينبغي لنا أنْ نحاسبَ عليها أنفسنا والآخرين هي هذه الحدود .

بعد ذلك إنْ سألتموني عن المستند العقلي لهذه الثوابت فإني قائلٌ لكم :

أ ـ أمَّا الدليلُ العقلي على الإيمان باللهِ فبدهيَّتُه، ولطالما قلنا :

إنَّ الإيمانَ بالله غدا اليوم لدى عقلاءِ الأمة، لدى عقلاء الناس، غدا بدهيَّة من بدهيَّات العقل .

ب ـ والدليلُ على الإيمان بالقرآن، وأنَّه الكتابُ الذي ينبغي أنْ يكون الأسوةَ للإنسان، تحدِّيه :

﴿ قلْ لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثله ولو كانَ بعضهم لبعضٍ ظهيراً ﴾ (١٦) .

ج ـ والدليل العقلي على رسالية الرسولِ، وضوحُه ومعجزاته، وانظروا إليه بكلِّ عقولكم .

د ـ والدليل على التكامل، ضرورتُه .

ولن أنسى أنْ أعرضَ عليكم قصةً لعلها تمثِّلُ هذه الجوانب والأضلاع، تمثل هذا المحيط وهذه الأركان و الثوابت .

يروي أبونعيم في « دلائل النبوة » أنَّ سيدنا علياً قامَ مع أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بمعِيَّةِ المصطفى ﷺ، قاموا يَدعون إلى اللهِ عزَّوجلَّ

وجلسوا إلى وفدٍ من بني شيبان، وبنو شيبان فرعٌ من فروع ربيعة، وقام أبوبكر يكلّمهم، وهم : المثنى بن حارثة ومفروق بن عمرو و النعمان ابن الشريك . قال لهم أبوبكر : كم العددُ فيكم ؟ .

قالوا : إنّا لنزيد على الألف، ولنْ يُغلبَ ألفٌ منْ قلّة .

قال : كيف الحربُ فيكم ؟ .

قالوا : إنَّا لنكونُ حين نَلقى أشدَّ غضباً، وإنَّا لنُؤْثر الجيادَ على الأولاد، والسلاحَ على اللقاح .

فقال لهم أبوبكر : كيف المنَعة فيكم ؟ .

قالوا : إنَّا لنَمنعُ الذي يستجيرنا أكثرَ ممَّا نمنع أنفسَنا .

انتهى دور أبي بكر، وإذ بالمصطفى ﷺ يقوم، ويقول أبوبكر : فقمتُ بجانبه أظلله بثوبي، وراح كلٌّ واحدٍ منهم من هؤلاء، من بني شيبان، يطرح على النبي ﷺ سؤالاً . إلامَ تدعو ياأخا قريش ؟ .

قال المصطفى ﷺ :

[أدعوكمْ إلى شهادةِ أنْ لا إله إلا الله و حدَه لا شريك له، وأنّي رسولُ الله، وأنْ تُؤْوني و تمنعوني وتنصروني] .

و قام الثاني فقال : إلامَ تدعو ياأخا قريش ؟ .

فقال ﷺ : [اسمعْ]، وقرأ عليهمْ آيةً من كتاب الله :

﴿ قلْ تعالَوْا أتلُ ما حرَّمَ ربكمْ عليكم، ألاّ تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، و لا تَقتلوا أولادكم منْ إملاقٍ، نحن نرزقكمْ وإيَّاهم، ولا تقربوا الفواحشَ ما ظهرَ منها وما بَطن، ولا تقتلوا النفسَ التي حرَّمَ اللهُ إلا بالحق،

ذلكمْ وصَّاكمْ به لعلكم تعقلون .

ولا تقربوا مالَ اليتيمِ إلا بالتي هيَ أحسنُ حتَّى يَبلغَ أشُدَّه ، وأوْفوا الكيلَ والميزانَ بالقسطِ ، لا نُكلِّفُ نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتمْ فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، و بعهدِ الله أوفوا ، ذلكمْ وصَّاكمْ به لعلكم تذكَّرون .

وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتَّبعوا السُّبلَ فتفرَّقَ بكمْ عن سبيله ، ذلكمْ وصَّاكمْ به لعلكم تَتَّقون ﴾ الأنعام/ ١٥١-١٥٣ / .

وقام الثالث وقال : إلامَ تدعو ياأخا قريش ؟ .

فقال ﷺ :[اسمع] ، ثمَّ تلا قولَه تعالى :

﴿ إنَّ اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسانِ وإيتاءِ ذي القربى ويَنهى عن الفحشاء والمنكر والبَغْيِ ، يعظكمْ لعلكم تذكرون ﴾ النحل/ ٩٠/ .

وإذْ بالثلاثة يُجيبون : إنَّ هذا ليس بكلامِ أهلِ الأرض ، ولو كان كلامَ أهلِ الأرض لعرفناه ، لقد أَفِك قومٌ كذَّبوك ، وظاهروا عليك ، وإنَّا نرى أنَّ تركَنا ديننا ، و اتِّباعَنا إيَّاك لمجلسٍ واحدٍ جلستَه إلينا ، أمرٌ غير محمود ، إنْ لم نتفكر في الأمر و ننظر في العاقبة .

ولكنَّ الجواب جاء من النبيِّ ﷺ ، وهذا دليلُ التكاملِ والتناسقِ وعدم التنافر ، قال لهم المصطفى ﷺ :

[ماأسأتمْ الردَّ إذْ أفصحتمْ بالصِّدق ، إنَّه لا يقومُ بدينِ اللهِ إلا مَنْ حاطه منْ جميع جوانبه] (١٧) .

أنْ تقولَ عن فكرةٍ ما ، إنك تؤمنُ بها لأنَّ عقلك البسيطَ وافقها ، وأنْ تقول عن فكرةٍ أخرى ، أو أمرٍ آخر ورد في القرآنِ الكريم بأنك لاتؤمن به ؛

إنَّ هذا مما يُخرجك عن الدائرة الإسلامية، فإنَّه لا يقوم بهذا الدين إلا رجلٌ أحاط به منْ كلِّ جوانبه .

إنَّها أساسياتٌ تجلَّت في دعوةِ المصطفى لهؤلاء الناس، منْ أجل أنْ يُبيِّنَ لمن بعدَه بأنَّ الأركان والثوابتَ واضحةُ المعالم . بأنَّ الأركان والثوابت بيِّنةٌ لا لَبْس فيها ولا غموض، وإذ أقول ذلك، فإنِّي أردِّد وأكرِّر، وأنا أعلم بأنَّ شبابنا اليومَ بحاجةٍ إلى رسمِ الدائرة في مُخيِّلتهم، بحاجةٍ إلى وضع الحدود في أذهانهم، ولطالما سألوني :

- كيف يكون المسلم مسلماً ؟ .
- ما هي الحدود التي تحدُّه ؟ .
- ما هي الكليَّات التي تجمع شمله ؟ .
- ما هي الأساسيات التي تميِّزه عن غيره ؟ .

ولا علمَ إلا بالكليات كما قلنا .

أقول أيُّها الشباب :

إنَّ هذه الحدود هي الحدودُ المسلَّمَة، هي الحدود التي على أساسها ستنطلقُ في هذه الأرض . وأريدكَ أنْ تُقارنَ بين ما يدعو الآخرون إليه، وبين ما أقول لك من هذه الحدود .

أنت تدعو إلى عبوديةِ الواحد القهار، وفق التصور المُسلِم، جملةً وتفصيلاً .

تدعو إلى كتابِ الله، وأنَّه القرآنُ الكريم، الذي لم يأتِه الباطل، ولنْ يأتيَه، من بين يديه ولا من خلفه .

تدعو إلى رساليّة الرسول ﷺ .

ولكنني أركّز على الأمر الرابع ، أنْ لا يكون في نظرك إلى هذه الأمور تنافرٌ، أن لايكون هنالك تشتت، وإلا خرجتَ عن الدائرة ولم تَشعر .

أدعوكَ إلى هذه الثوابت ، وإلى الدعوةِ إلى هذه الثوابت . أدعوك أيُّها الشابُّ، أيُّها المسلم، إلى تلقّي هذه الأمور، وأدعوك إلى البحثِ عن مستنداتها العقلية، وإلى البحث عن مستنداتها النصيَّة، لأنها تمثل النواةَ الأولى لوجودكِ الإسلامي، النواةَ الأولى لفكرك وعقلك، لوعيك وحركتك .

إنَّ الآخرين ينتظرون منك تكاملاً ، فقدِّمْ هذا التكامل، وقدِّم هذا التناسق، وأنا أضمنُ لك بضَمَانةِ الحيِّ الباقي، أضمن لك سيراً حثيثاً ، وأضمن لك انطلاقاً واسعاً في سبيل الله ـ عزَّوجلَّ ـ ، في سبيل إيجادِ مجتمعٍ فاضلٍ يسعى للخير، وينادي الإنسانَ من أجل أنْ يرتديَ لَبوسه الإنساني اللائقَ المناسبَ له .

هلاّ استجبتَ أخي الإنسان ؟ . هلاّ استجبتَ أخي المسلم ؟ . هلاّ وضعتَ ذلك في ذهنك ؟ .

أرجو اللهَ لك ذلك، وأسأله ـ جلَّ وعلا ـ أنْ يوفّقنا إلى كلِّ خير وأنْ يعصمنا منْ كلِّ شر .

نِعْمَ مَنْ يُسأل ربُّنا، ونِعْمَ النَّصير إلهنا .

وأستغفر الله لي ولكم .

الهوامش

(١) الذاريات / ٥٦ .

(٢) المائدة / ٣ .

(٣) البقرة / ١ ـ ٥ .

(٤) رواه مسلم في صحيحه ج ١ ص ١٣ ، و أبو داود في سننه حديث رقم / ٥٢٥ / ج ١ ص ١٤٥ .

(٥) الأنعام / ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(٦) البينة / ٥ .

(٧) الإسراء / ٢٣.

(٨) الكهف / ١ ـ ٢ .

(٩) الفرقان / ١ .

(١٠) الإسراء / ٩ .

(١١) التوبة / ١٢٨ .

(١٢) سبأ / ٢٨ .

(١٣) آل عمران / ٣١ .

(١٤) المائدة / ٣ .

(١٥) البقرة / ٨٥ .

(١٦) الإسراء / ٨٨ .

(١٧) رواه أبو نعيم في دلائل النبوة حديث رقم / ٢١٤/ ج ١ ص ٣٧١ ، وذكر محقق الكتاب أنه قد رواه الحاكم .

(١٨) الأنعام / ١٥١ ـ ١٥٣ .

الخطبة السادسة

الله مصدر عِلمنا فلنتعلم قرآنه



* يليق بهذ الخطبة أن تكون مقدمةً، أو فاتحة لـ (نظرية في المعرفة)، مِنْ وجهة نظر مسلمة.

ولقائل أن يقول: وما هي أهمية البحث في مثل هذا الموضوع؟ وما هي النتائج المرجوّة منه؟

و الجواب، وباختصار شديد هو:

أولاً ـ ما قاله بعض الفلاسفة المحدثين:

(إنّ «نظرية المعرفة» هي أساس الميتافيزيقيا)، وبناءً عليها تتحدد نظرة الإنسان لنفسه، وللكون، والحياة.

ثانياً ـ إنّ الفلاسفة المسلمين المحدثين الذين حاولوا صياغة نظرية معرفة إسلامية، كانوا في الغالب من أصحاب الاتجاه العقلي، في مواجهة الاتجاه الحسي أو الوجداني، ولقد انطلقوا في تأصيلهم لهذه النظرية من نظر عقلي فلسفي، أكثرَ من انطلاقهم من النص الإسلامي، لذلك جاءت نظرياتهم تنويعاتٍ على النظرية القائلة بأنّ العقل مصدرُ المعرفة، حتى إنّ الفيلسوف الشهيد محمد باقر الصدر، في دراسته القيمة والممتعة لهذا الموضوع في «فلسفتنا»، لما خرج بنظرية في المعرفة، وأطلق عليها اسم «النظرية الانتزاعية»، لم يكن خارجاً عن هذا الإطار.

أما فضيلة الدكتور محمود عكام، هذا المفكر الإسلامي الأصيل، فإنه ينطلق من الآية الكريمة: ﴿وعلّم آدمَ الأسماء كلها﴾، ليجعلها نواةً تأسيسية لبنيان نظري متماسك لـ «نظرية معرفية إسلامية»، إذ يُقرِّر بأن مصدر المعرفة الله عزّوجلّ.

كما يؤسِّس مسارب المعرفة وقنواتها على الآيتين التاليتين، الأولى

هي قوله تعالى : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾ ، والثانية : ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذي علم بالقلم ﴾ .

ثالثاً ـ في مقدمة الخطبة يردُّ أستاذنا ـ حفظه الله ـ الفلسفات التي قيلت في « نظرية المعرفة » إلى اتجاهين :

ـ الأول يقول بأن مصدر المعرفة العقل .

ـ والثاني يقول بل الوجدان و الإشراق .

وهنا يطالعنا السؤال التالي :

لقد ذكر أستاذنا ـ رعاه المولى ـ أنّ بعض الناس ، وعنى بهم الصوفية ، قالوا : بأن مصدر المعرفة الإشراق . فهل هذه المقولة مطابقة للواقع ؟ أم أنّ في العبارة تجوّزاً ؟ .

إنّ الصوفي أوالإشراقي يرى ـ حسب فهمنا ـ أنّ مصدر المعرفة الله تعالى ، غير أنه يقتنص هذه المعرفة بالإشراق ، أوالحدس ، أوالوجدان ، سمّه ما شئت ، ومن خلال تجربة روحية يمارسها ، يقول « أوغسطين » : (الله بالنسبة إلى عقلنا كالشمس بالنسبة إلى بصرنا ، وكما أنّ الشمس مصدر النور كذلك الله مصدر الحقيقة) .

ويقول في مكان أخر : (تصل النفس إلى إدراك الحقائق بالإشراق الباطن من الله على النفس) .

و على هذا ، لاخلاف بين « المسلم » وبين « الإشراقي » في مصدر المعرفة ، ولكنّ الخلاف في وسيلتها ، فبينما يراها المسلم ـ كما يقرر أستاذنا العلاّمة ـ من خلال قناتين اثنتين : الأولى : كتابه المنزّل ، والثانية : كونه المسخّر ؛ فإنّ الإشراقي يراها من خلال التجربة الروحية المولّدة للحدس والكشف والإشراق ، ومن هنا ، فإذا كان

عنوان نظرية المعرفة عند المسلم، كما أطلق أستاذنا : (الله مصدر علمنا، فلنتعلّم قرآنه)؛ فإنه يمكن أن يكون عنوان نظرية المعرفة عند الإشراقي : (الله مصدر علمنا، فلندخل في تجربة روحية لتنقدح المعرفة في النفس الإنسانية) .

رابعاً ـ لقد دعا أستاذنا ـ حفظه الله ـ في هذه الخطبة إلى قراءة الكون على هدي القرآن الكريم، فكيف نقوم بهذه القراءة ؟ وهل لها من داعٍ ؟ .

يمكن هنا أن نستعين بمقولة لأسبينوزا حيث يقول : « إنّ الله يتجلى في الإنسان على أساسين : نظام الأفكار وترابطها ، ونظام الأشياء وترابطها » .

وإذا أردنا أن نطبّق هذا الكلام على مقولة أستاذنا حفظه المولى فإننا نقول :

نظام الأفكار وترابطها ———————— الكتاب المنزل

نظام الأشياء وترابطها ———————— الكون المسخّر

فنظام الأفكار لا يمكن أن يكون مخالفاً لنظام الأشياء ، و نظام الأشياء لا يُعقل أن يتضارب مع نظام الأفكار ، لذا قلنا بوجوب قراءة الكون = نظام الأشياء ، على ضوء القرآن = نظام الأفكار ، وقراءة القرآن على ضوء قراءة الكون .



بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

إذا كان سرُّ الإنسان يكمن في العلم، أو إذا كان العلمُ سرَّ الإنسان، إذ يُميِّزه لينقلَه إلى ساحِ الوجودِ التكريمي، فإنَّ سرَّ هذا السرِّ يكمن في مصدر العلم .

ولقد بحثَ الإنسان والناس، مفرداً أو مجتمعين عن مصدر العلم، فقال أناسٌ : إنَّه العقل، وقال آخرون : إنَّه الوجدان أوالإشراق .

وأما الإسلام فقال كلمته الفاصلة :

مصدر العلم « الله » عزَّوجلَّ .

﴿وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها ثمَّ عرضهمْ على الملائكةِ فقالَ أنبؤوني بأسماءِ هؤلاءِ إنْ كنْتم صادقين﴾ (1) .

مصدرُ العلمِ اللهُ ولكنَّنا نتعرف على العلم منْ خلال قناتين اثنتين، تُوصلاننا إلى الله عزَّوجلَّ .

ـ أمَّا القناة الأولى : فكتابه المنزَّل .

ـ وأمَّا الثانية : فكونُه المسخَّر .

إنهما قناتان من أجل أنْ ننهلَ منهما ، عند ذلك نُحقق مصدريةَ العلم ، وأنَّها من الله عزَّوجلَّ .

فلا علمَ إلا منْ خلال القرآنِ الكريم ، ومنْ خلال قراءةِ الكون على هديِ القرآن الكريم ، لأنَّ القرآنَ الكريم حاكمٌ على الكون .

لقد رُصد بعض ما في الكون في القرآن ؛ من أجل أنْ يُذكِّر القرآنُ الناسَ إلى ضرورة قراءة الكون ، فقال الله عزَّوجلَّ :

﴿ أفلا يَنظرونَ إلى الإبلِ كيفَ خُلقتْ ، وإلى السَّماءِ كيف رُفعتْ ، وإلى الجبالِ كيف نُصبتْ ، وإلى الأرضِ كيف سُطحتْ ﴾ (٢) .

وجاءتْ آياتٌ كثيرة منها :

﴿ والأرضَ بعدَ ذلك دحاها ، أخرجَ منها ماءَها ومرعاها ﴾ (٣) .

﴿ فلينْظر الإنسانُ ممَّ خُلق ، خُلقَ منْ ماءٍ دافق ﴾ (٤) .

رُصدَ بعض الكونِ في القرآن ، ليذكِّر الناسَ إلى ضرورةِ قراءته ، لأنَّه ثاني القناتين من أجل العلم .

وأما الكونُ فقد قالت آياته :

إنَّ القرآن حقٌ ، وإنَّه حاكمٌ على ما في ذرَّات الكون ، وإنَّ هذه الذرات تشهد أنَّ القرآنَ كلامُ الله : ﴿ سَنريهمْ آياتِنا في الآفاقِ وفي أنفسهم ؛ حتَّى يَتبيَّن لهم أنَّه الحقُّ ﴾ (٥) .

وقد جاءَ في بعض التفسيرات : ﴿ أنَّه الحق ﴾ أيْ أنَّ القرآن حقٌ . فإذا ما

تبين للإنسان أنَّ القرآن حقٌ، كان على اعتقادٍ قوي أنَّ مُنزِّله الإلهُ المطلق .

موقفنا حيالَ القناة الأولى، حيال القرآن مصدرِ علمنا هو التَّعلُّم، فإذا كان اللهُ مصدرَ علمنا، وقد أنزل علينا كتاباً، فما علينا إلا أن نتعلم هذا الكتاب، وأريد أنْ أقول لكم :

إنَّ هناك فرقاً بين القراءة والتَّعلم، إنَّ هناك فرقاً بين القراءة التي نتصورها اليوم، لا كما كانت تُتصور، وبين التَّعلم .

فالقراءةُ اليوم مرورٌ عابرٌ على القرآن الكريم، عند ذلك لن تكونَ وسيلةً من أجل أنْ نكون علماء، ولكننا نطالب أنفسنا بالتَّعلم، وهذا ما عبَّر عنه المصطفى ﷺ، وكأنَّه نظرَ في سَجْفِ غيبٍ يأتي، وأنَّ أناساً سيقرؤون دون تعلُّم، فقال المصطلحين وذكر الكلمتين، ذكر القراءة والتعلم فقال رسول الله ﷺ - ولعل ما نريد أنْ نشيرَ إليه هو التعلُّم - في حديثٍ يرويه الشيخان :

[خيركمْ منْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمه] (٦) .

إنها دعوةٌ للتعلم، إلى قراءة القرآن من أجل التعلم .

ويقول ﷺ - وأرجو ونحن نسمع هذه الأحاديث أن نتبيَّنَ موقفَنا اليوم، أتُرانا نتعلم، أم نقرأ حسب ما نتصوره للقراءة من معنىً في وقتنا الراهن ؟ . أرجو أنْ نتبيَّنَ موقفَنا اليوم منْ قرآنِ ربِّنا، فإننا في أحسن أحوالنا - إلا منْ رحمَ اللهُ - قرَّاء، ولسنا بمتعلمين . يقول ﷺ :

[ما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ منْ بيوت الله - والإشارةُ إلى بيت الله إشارةٌ إلى التخصصِ في ميدان العلم، إلى أنْ يكون الإنسان قاصداً من أجل أنْ يتعلَّم، فإنَّ المكانَ له اعتباره، إنَّ ابنك يتعلم في المدرسة، ولا تقبل منه أن يتعلم في شارعك

أو في بيتك ، أو متجرك ، فالمكان له اعتبارٌ في تمحيص النية ، وحضِّها من أجل أنْ تكون حافزةً لفعلٍ صحيح ـ ما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ من بيوت الله ، يَتلونَ كتابَ الله ويتدارسونه ، إلاّ غشيتهم السَّكينةُ ، وحفَّتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمنْ عنده] (٧) .

إنَّها دعوةٌ للتدارس ، فعِلْمُنا قليلٌ ، وتائهون في مصدريَّةِ علمِنا ، ولقد حُسِمَ الأمرُ منذ أربعة عشر قرناً ، لكننا لم نحسمْه في عالم الواقع .

ولقد نزلت على رسول الله ﷺ الآيةُ الأولى في غار حراء لتحسم الأمر بالنسبة إلى مصدرية العلم :

﴿ إقرأ باسمِ ربِّك الذي خلق ، خلقَ الإنسانَ منْ علقٍ ، إقرأ وربُّك الأكرمُ ، الذي علَّم بالقلم ، علَّم الإنسانَ مالمْ يعلم ، كلا إنَّ الإنسانَ ليطغى ، أنْ رآه استغنى ﴾ (٨) .

كلا إنَّ الإنسان ليطغى ؛ حين يُعرض عن أنْ يأخذَ العلم من الله ، حين يُعرض عن أنْ يأخذَ العلم من كتابِ الله ، حين يعرض أنْ يأخذ العلم بأمرِ القرآن من الكونِ المفتوح .

﴿ كلا إنَّ الإنسانَ ليطغى أنْ رآه استغنى ﴾ ، ذلك أنَّه ظنَّ أنَّ المال بديلٌ عن العلم ، فضاع وضيَّع ، وتلك حالتُنا ، عَدَلْنا عن العلم لوجود المال بين أيدينا ، وإذا طغى الإنسانُ فإنَّه يتجاوز ، ويبتعدُ عن الحقيقة التي ينبغي أنْ يعيش تحت قبَّتها من أجل أنْ تَسلم له إنسانيته ، وأنْ تسلم له وظيفته التي وُكِلتْ إليه منْ قِبل خالقه ، جلَّت قدرته .

يا أيَّها الإنسان ، هيَّا إلى مُدارسة القرآن . يقول رسول الله ﷺ في

حديثٍ يرويه مسلم :

[لئنْ يغدوَ أحدكُم إلى المسجدِ فيَعْلَم آيتين منْ كتابِ الله عزَّوجلَّ خيرٌ له من ناقتين، وثلاثٌ خيرٌ له منْ ثلاث، وأربعٌ خيرٌ له منْ أربع] (٩) .

فتعلَّم أيَّها المسلم، أيُّها الإنسان، في أيِّ فسحةٍ منَ الأرض كنت، فتعلَّم منَ القرآن، ليكون علمُك مأخوذاً عن ربِّك، فربُّك جعلَ علمَك في كتابه الكريم :

﴿ الرحمنُ، علَّم القرآنَ، خلقَ الإنسانَ، علَّمه البيان ﴾ (١٠). فلا بيانَ يُعبِّر عن إنسانيتك، ولا بيانَ تجدُ منْ خلالِه إنسانيتك، إلا إنْ صدرتَ عن القرآن الكريم . يقول ﷺ في حديثٍ يرويه الترمذي :

[تعلَّموا القرآنَ واقرؤوه] (١١)، وهذا هو موقفنا، أما القراءةُ بحسب تصوُّرنا اليوم فلا ، لا قراءةَ بمفردها، وإنما التعلُّم معها .

ولعلك تسألني أيُّها المسلم، هل وردَ شيءٌ يتعلق بكميَّة التعلم ؟ .

لقد فتَّشتُ في أحاديث النبي ﷺ، فوجدتُ حديثاً قوَّيتُه من خلال معناه، ويرويه الحاكم على شرط مسلم، أنَّ النبيَّ ﷺ قال :[منْ قرأ عشْرَ آياتٍ في ليلةٍ ـ مع العلم طبعاً ـ لم يُكتبْ منَ الغافلين] (١٢) .

أيُّها الرجل، أيَّتها المرأة، إنَّ لأولادكمْ حصصاً في مدارسهم .

أيُّها الجامعي إنَّ لك حصصاً في جامعتك، إنَّ لك مواعيدَ لدروسك، فهل أنت على وعيٍ من مواعيدِ تعلمك ؛ منْ أجل أنْ تنهلَ منَ المصدر الصحيح في كتاب الله ؟، ولطالما قلتُ ورددَّت : .

يا شبابنا اجعلوا لكمْ في كلِّ يومٍ وِرداً منْ كتاب الله ، لتتعلموا وليس

للقراءة فحسب، فمصدرُ علمنا كتابُ الله، مصدرُ معرفتنا كتابُ الله مع الكونِ الذي نقرؤه بهديِ كتابِ الله، ومنْ لم يقرأ كتابَ الله ويتصفَّحْ صفحات الكون فهو جاهل، وإنْ ظنَّ نفسَه أنَّه يحمل شهادات .

إنَّ الشهادة أنْ تكون الإنسانَ الذي قال عنه ربُّك : ﴿ علَّم الإنسانَ مالم يعلم ﴾ [١٣] . لا أنْ يقول لك ربك : ﴿ كلا إنَّ الإنسانَ ليطغى ﴾ [١٤] .

وغاية العلم إنما تتجلَّى في تحوُّله إلى سلوك :

- إلى سلوكٍ إيماني قابعٍ في داخلك .

- وإلى سلوكٍ ظاهري مسلم، تعبِّر من خلاله جوارحُك عن علمٍ صحيح قامَ فيك . ولذلك قال ﷺ :

[منْ قرأ القرآنَ الكريم، فاستظهرَه، فأحلَّ حلالَه، وحرَّم حرامَه، شفَّعه اللهُ في عشرَةٍ من أهل بيته، كلُّهم قد وجبتْ عليه النار] [١٥] .

إنَّ العلم له غايةٌ، و له ثمرةٌ، وثمرةُ العلمِ تطبيقٌ، وثمرة العلم سلوك، ولعلنا اليوم نتحدَّث كثيراً، لكنَّ العلم قليل، لعلنا اليوم نتكلم كثيراً لكنَّ التطبيق قليل، فأين ثمرة العلم في مجتمعنا ؟ .

أين ثمرةُ العلم المحصَّل من كتاب الله في مدارسنا، في شوارعنا، جامعاتنا، ثكناتنا ؟ . أين ذلكم التطبيق لما نعلم أو لما نقرأ ؟ .

لعلنا نرى التلفازَ يُستفتحُ بآياتٍ منْ كتاب الله ؛ لكننا نؤكد على أنَّ هذه الآيات التي تُقرأ ؛ ينبغي أنْ تكون حاكمةً على البرامج بعدها منْ أجل أنْ يكون القرآنُ مطبقاً، منْ أجل أنْ يكون العلم سلوكاً نعيشه، وإلا انتابنا قولُ الله ـ عزَّوجلَّ ـ : ﴿ كبُرَ مقتاً عندَ اللهِ أنْ تقولوا مالا تفعلون ﴾ [١٦] .

إنَّها حقيقةٌ مجسَّدةٌ في عالم الإنسان، وفي عالم الزمان، وفي كلِّ ساحات الحقيقة، أينما وُجدت، هنا وهناك.

موقفُنا من مصدرِ علمنا تعلُّمٌ، ونتيجةُ تعلُّمِنا عملٌ ومُعايشة.

نريد النظافة، فهناك آياتٌ و أحاديث تعلَّمناها تتحدث عن النظافة، لكنَّ الواقعَ غير نظيف.

آياتٌ وأحاديث تتحدث عن العدل قرأناها، لكننا لمْ نتعلمْها لنفرزَ بعدها عملاً، فالجَوْر بيننا حاصلٌ وأكيد؛ الأبُ جائرٌ، و الولد جائر، والأمُّ جائرة، والبنت جائرة، والمعلم جائر، والتلميذ جائر، ويكاد الجَوْر أنْ يكون غيمةً سوداءَ تغطِّينا بسوادها وعَتَمتها، وناراً محرقةً تلفحنا بحرِّها ولظاها.

إننا بحاجة إلى أنْ نُعيد النظرَ في العلم مصدراً، وتعلُّماً، وتحققاً، وثمرةً يانعة يافعة.

فلنبحث عنْ ذواتنا، وعنْ سرِّ وجودنا، ولنبحثْ عن تحقيقِ هذا السرِّ لاعن ادِّعائه، فكفانا أن ندَّعي، وكفانا أنْ ننام على وسادة الماضي الوثيرة، إلا أنَّ الفراش ليس بذاكَ الذي يمنحنا الراحةَ والطمأنينة.

كفانا أنْ نتَّكيءَ على الماضي منْ غيرِ حاضرٍ يدعمُ الماضي، ويؤكِّد ترابطه، وتناسبَه معه، ويؤكِّد أنه خَلَفٌ لهذا السلف. كفانا أنْ نتكلمَ والواقعُ يُغاير الكلام.

هكذا فلنعش:

علمٌ مأخوذٌ منْ كتاب الله، تعلُّمٌ لا يُجاوز الأيام، لأنَّ الأيام ستشهد

علينا أوْلنا، فإن أودعناها تعلُّماً فحسبُها شرفاً، وإنْ لم نودعْها العلمَ فإنَّها وبالٌ علينا، وستشهد الساعات والدقائق والثواني أنَّها لم تكن تمرُّ على أمَّةٍ عاقلةٍ، وإنما مرَّت على أمَّة جاهلةٍ استحكمت بها الأهواء، وحولَّتها إلى متاهةٍ كبيرة واسعة .

أيُّها الإنسان :

إلى العلم، إلى كتابِ الله بأدواتٍ صحيحةٍ موثوقة، بأدواتٍ نمتلكها، وكلنا قادرٌ على امتلاكها، فلا استحقارَ لإنسان، ولا استهانة بإنسان، فكلكم قادر، وربُّكم قال :

﴿ ولقد يسَّرنا القرآنَ للذكرِ فهلْ مِنْ مُدَّكر ﴾ (١٧) . والذكر هو العلمُ والتعلُّم، ﴿ فاسألوا أهلَ الذكرِ إنْ كنتم لا تعلمون ﴾ (١٨) .

هيا فتعلَّم أيُّها الرجل الشيخ في سنِّك، أيَّتها المرأة الكبيرة المسنَّة، أيُّها الشابُّ، أيُّها الطفل، أيُّها الإنسان .

وإننا حينما نريد أنْ ندعمَ هذا بأمثلةٍ منَ التاريخ ؛ فإنَّها جاهزةٌ، منْ أجل أنْ نتحفَّز، لا من أجل أنْ نسكنَ ونكسل، وإنْ كان التاريخ منْ أجل التحفيز، فنِعْمَ التاريخُ، ونعمَ الاستذكار له، وإنْ كان التاريخ منْ أجل الإخلادِ إلى الأرض، فبئسَ منْ يتذكَّر، ولنْ أقول فبئسَ التاريخ، وإنما أقولُ بئسَ منْ يتذكَّر هذا التاريخ، إذا كان يريده منْ أجل التثبيط والقعود .

ياربَّنا، يا منْ مَنَنْتَ علينا بالعلم، فكانَ مصدرُهُ أنت . يا من مننتَ علينا بالعلم، فكان القرآنُ موادَّه . يا من مننت علينا بالعلم، فكان حبيبك محمَّدٌ ﷺ خيرَ منْ حولَّ هذا العلم إلى واقع، بسيرةٍ ناصعة شريفة طاهرة

مطهرة . مُنَّ علينا اليوم، على شبابنا، على رجالنا، على نسائنا، ليقرؤوا علماً نافعاً، فخيرُ العلم ما نفع، وخيرُ العمل ماكان مُتوَّجاً بالإخلاص، وخيرُ الإخلاص ما كان مُتَّجهاً به إلى الله عزَّوجلَّ .

ربَّنا آمنَّا بك، واتَّبعنا الرسول، فاكتبنا مع الشاهدين .
نِعْمَ مَن يُسأل أنت ، ونِعم النصير أنت .
أقول هذا القول ، وأستغفر الله العظيم .

الهوامش

(١) البقرة / ٣١ .
(٢) الغاشية / ١٧ ـ ٢٠ .
(٣) النازعات / ٣٠ ـ ٣١ .
(٤) الطارق/ ٥ ـ ٦ .
(٥) فصلت / ٥٣ .
(٦) رواه البخاري، الحديث رقم / ٤٧٣٩ / ج ٤ ص ١٩١٩ .
(٧) رواه مسلم ، الحديث رقم / ٢٧٠١/ .
(٨) العلق / ١ ـ ٧ .
(٩) رواه مسلم، الحديث رقم / ٨٠٣ / .
(١٠) الرحمن / ١ ـ ٤ .
(١١) رواه الترمذي، الحديث رقم / ٢٨٧٦ / ج٥ص١٥٦ .
(١٢) رواه الحاكم ، ج١ص٥٥٥ ، وقال صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي.
(١٣) العلق/ ٥ .
(١٤) العلق/ ٦ .
(١٥) رواه الترمذي حديث رقم / ٢٩٠٥/ ج٥ص١٧١ ، وابن ماجه حديث رقم / ٢١٦ / ج ١ ص ٧٨ ، وأحمد ج ١ ص ١٤٨ .
(١٦) الصف/ ٣ .
(١٧) القمر/ ١٧ .
(١٨) النحل/ ٤٣ .

الخطبة السابعة

صيغة التعايش الإسلامي



* عندما ندرس مصطلح « التعايش » في عالمنا العربي والإسلامي ، فإنّه يتحتّم علينا أنْ نتناوله من وجهة نظر سياسية ، وفي درجة لاحقة من وجهة نظر « معرفية » .

ذلك أنّ هذا المصطلح ـ وهو حديث التشكّل و النشوء نسبياً ـ قد برز إلى الساحة في منتصف السبعينيات يوم حمي الوطيس واستعر القتال بين الميليشيات ، والأحزاب ، بل والحزب الواحد في لبنان ، فكانت ولادة هذا المصطلح من أفواه السياسيين ، و الصحافيين أولاً ، بما هو ضرورة يجب الاستجابة لها ، ولكنْ لم تكن تُقدَّم صيغة واضحة المعالم والأبعاد لـ « التعايش » ؛ فالمهم أنْ نتعايش ، والمهم أنْ نردد كلمة « التعايش » ، حتى نبعد عن أنفسنا شبح الموت ، ونشعر بقربنا من الحياة ، إلا أنّه ما لبثت أن تلقّفت طبقة الإنتلجنسيا هذا المصطلح لتستعمله محوراً من محاور السجال ، والحجاج ، بينها وبين السلطة من جهة ، وبينها وبين بقية أطراف النزاع ممن يشاركونها ، ويديرون معها مملكة المعارضة من جهة ثانية .

وفي بداية الثمانينات ، وبارتفاع أسهم الإسلاميين إذ حققوا نجاحات عديدة في العالمين العربي والإسلامي ، سواء عبر الإطاحة بالأنظمة القائمة فيها ، أو عبر إرغامها على اللجوء إلى تنازلات جوهرية ، بدا الخطر ماثلاً للعيان ، وغدا الحديث عن « التعايش » ضرورة مرة ثانية ، يفرضها واقع جديد من أناس جدد يملكون عدة مداخل للتعايش أيضاً .

و هكذا شهدنا تحالفاً ضمنياً بين الأنظمة ، وطبقة «الإنتلجنسيا » في محاولة لسحب البساط من تحت أرجل الإسلاميين ، من خلال

البرهنة على أنّهما صِمَام أمان التعايش، وأنّه لا قوام للتعايش إلا بهما.

وراح كل واحد يحدد صيغة واقعية للتعايش ، وقد اختلفت مضامين هذه الصيغ تبعاً لاختلاف أصحابها . .

فواحد يرى أنّ مبدأ « المواطنة » ، هو المناخ السحري الذي ينمو فيه « التعايش » ، وآخر يرى بأنّ « العلمانية » هي الحل الوحيد والأكيد الذي تتحق فيه صورة التعايش المثلى ، وثالث يطرح « الليبرالية » ، ورابع يطرح « القومية » ، والكل يدّعي بأنّه يقدم المخرج الذي ينسجم مع مصلحة الجميع ، وإلا فإنّ مجازر التسلّط ، وهدر الدماء هي البديل ! .

و في خضمّ هذه الطروحات كان الصوت المسلم يعلو المرة تلو المرة مؤكداً بأنّه من الخطأ الفادح أن يُبعَد الإسلام عن صيغة التعايش .

غير أنّه كثيراً ماكان التنظير لهذه المسألة ـ من قِبل من يتبنى هذا الطرح ـ ينطبق على مصطلح «التسامح» ، أكثر مما ينطبق على مصطلح « التعايش » ، حتى لكأنّ المصطلحين بمعنى واحد .

أمّا أستاذنا ـ حفظه الله ـ و في هذه الخطبة فإنّه يرسم للتعايش خارطته ويحدد له أبعاده و يوضّح مضمونه ، ويطرح صيغته المعتمدة على الإسلام ، بمنطقية محكمة ، وتماسك داخلي متين ولعلّه ـ فيما نعلم ـ من أبرز المساهمين في بلورة هذا المفهوم ، فجزاه الله كلّ خير .

بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْمِ

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

ويبحثُ العالمُ عن مُعَايشة ، وتكاد أنْ تكونَ هذه الكلمةُ ، أو ذاك المصطلحُ ، المطلبَ الأسمى لهم .

يريدون صيغةً لهذه المعايشة ، يُفتِّشون هنا وهناك ، وكلٌّ واحدٍ منهم يقدِّم ما في جعبته على أنَّه نِتاج القرن العشرين ، وخلاصةُ تجارب البشرية ، ويُعارضُ هذا المقدِّمُ ما يقدِّمه الآخرون ، لاسيما إذا قدَّموا الإسلام ، يُعارَض هؤلاء على أنَّهم يقدِّمون الرجعية ، أو يقدِّمون غير المناسب ، أويطرحون ما لا يتناسب مع إنسان القرن العشرين .

ويمعن هؤلاء الذين يدركون في داخلهم أنَّهم جبناء ، يمعنون في رفض مايُطرح عليهم مِنْ إسلامٍ ، مُتَّهمين الطارحين بالرَّجعية كما قلنا ، ومتهمين هؤلاء الذين يريدون الإسلام بعدم المناسبة مع العصر ، ويَنْسون أنَّهم في لحظة ما ربما طرحوا مصطلحاتٍ ماتت موتاً نهائياً ، ولم تعُد الأيام

تقـبلهـا في صـفـحـاتهـا، ولكنَّهم ـ وبالرغم مِنْ كل هـذا ـ يطرحـون هذه المصطلحات ويضعونها موضعَ اعتبارٍ، وموضع قَسَم، و موضع احتفاظ .

إذا كـان هؤلاء يفـعلون هذا ؛ أفـلا يَجْـدُرُ بنا أنْ نجـيب الآخـرين عن إسلامنا، وأنْ نقدِّمَ للآخرين صيغةً إسلاميةً للتعايش الذي يرغبون ؟ .

أفلا يجدر بنا أنْ ننادي، وإنْ كنَّا في مكانٍ لا يسمعنا فيه كلُّ العالم، لكننا سنبقى ننادي، فعسى الصرخةُ تستجيب لها صرخةٌ أخرى، وعسى الصرخات تصل إلى جنبات الكون بأسره ؟ .

أيُّها الإنسان في أيِّ مكانٍ كنت، مِنْ أجلِ صيغةٍ للمعايشة، لا بدَّ لك أنْ تطلب أموراً ثلاثة :

١ ـ ابحثْ عن مضمونٍ تريده في هذه الصيغة .

٢ ـ وعن تاريخٍ تنظر إليه .

٣ ـ وعن تجربةٍ متكاملة تعيشها .

لا بدَّ مِنْ مضمونٍ يَتحدَّى، ولا بدَّ مِنْ تاريخ يُنظر إليه، ولا بدَّ مِنْ تجربةٍ واقـعيـة متكاملة تُـعايَش وتُنفَّـذ . إذا توافـرت هذه الأمـور الثـلاثة ؛ إذاً فـالصيغة يمكن أنْ تُطرح على أنَّهـا صيغةُ التعايش بين العالم وبين البشرية بأسرها . وها نحن نقدم إليك ـ أخي المسلم ـ تفصيلاً لهذه الأمور :

أولاً ـ مضمونُ صيغةِ التعايش

أمَّا مضمونُ صيغتنا فالقرآن الكريم، والسُّنَّة المطهرة، وإنَّنا لنتحدى، وإنْ كان التَّحدي لا يقبله واقعُنا الضعيف، لكننا نتحدى مِنْ خلال طروحاتِ

الآخرين، نحن نقدم مضموناً لصيغة التعايش القرآنَ الكريم والسُّنَّةَ المطهرة؛ القرآنَ الكريم الذي أثبت على مرّ الأيام نجاعتَه لكلّ مجالات الحياة لا شكَّ في ذلك، والسُّنّةَ المطهرة تلك التي شرحت القرآن، وبيّنته ووضّحته .

أمّا غيرنا فيقدّم كتباً كثيرة، لكنَّ الكتب التي يقدّمها، ما تكاد الأيامُ تمرُّ عليها إلا وترى أنَّ هذه الكتب أصبحت في عالم الذكرى، أو في عالم التاريخ .

نحن نقدّم مضموناً ونتحدى، وغيرنا يقدّم مضموناً ويصمت، وشتَّان بين مضموننا ومضمونهم ! .

شتّان بين كتاب ربِّنا وكتابٍ أفرزتْه أصابعهم ! . شتّان بين كتابٍ أنزله الله على الإنسانية مِنْ أجل أنْ تكون خيِّرةً صالحة، وبين كتبٍ يطرحها أولئك الذين لا يدركون إلا مسافاتٍ صغيرة في حياتهم، شاؤوا أمْ أبَوا .

مضمونُ صيغتنا كتابُ اللهِ وسيرةُ النبيِّ ﷺ .

وأهمُّ ميزةٍ في هذا المضمون أنّه واضح، أنّه قرآنٌ يُتلى، تُرجم إلى كلّ لغات العالم، آياتُه بيِّنات، سُوَره واضحات، كلماتُه جليَّة . وأمّا عَرْضه فقد قدَّمه سيِّدُ الكائنات تحت شمسٍ ساطعة، ليس في السراديب وليس في أمكنة مظلمة، ميزةُ مضموننا كما قال ﷺ : [تركتكمْ على البيضاءِ، ليلُها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك] [1] .

وإنَّه لَيُحَقُّ لي أنْ أناديَ الآخرين، وأنْ أطالبهم بكتابٍ يُعبِّر عن هُويّتهم، وعن صيغةِ تعايشهم، وعن مضمونهم .

أينَ كتابُكمْ أيُّها الشرقيون ؟ ، أينَ كتابُكمْ أيُّها الغربيون ؟

أينَ كتابُكمْ أيُّها الملحدون ؟ ، أينَ كتابُكمْ أيُّها العابثون ؟

أينَ كتابُكمْ أيُّها الإباحيون ؟ ، أينَ كتابُكمْ أيُّها الطالبون لصيغةِ التعايش على سطح هذه البسيطة ؟ .

أمَّا كتابنا فهاهو ، أمَّا كتابنا ففي العربية تلقاه ، وبالإنجليزية تلقاه ، وبالفرنسية تلقاه ، وبكلِّ لغات الدنيا .

وإنَّنا على تحدٍ مِنْ أنْ ينتاب هذا الكتابَ أيُّ اختلافٍ أو ريب ، أنْ ينتاب هذا الكتابَ أيُّ نقصٍ أو أيُّ زيادة ، إنَّنا على تحدٍ بأنَّ هذا الكتاب لم يكنْ بذلك الذي تناله الأيدي ، وقد حُفظ منذ أربعةَ عشرَ قرناً إلى يومنا هذا .

مضمونُ صيغةِ التعايش التي نطرحها كتابُ الله ، وإنَّنا لمُتَحدُّون .

ثانياً ـ التاريخُ المنْظورُ إليه

وأمَّا التاريخ الذي يُشكِّل الأمرَ الثاني لصيغة التعايش :

فإنَّنا ننادي الإنسانية مِنْ أجل أنْ تنضويَ تحت رايةِ آدم ﷺ ، ذاك الذي نزل عليه قوله تعالى

﴿ فتلقَّى آدمُ مِنْ ربِّه كلماتٍ فتابَ عليه ﴾ (٢) .

وغيرنا ينادي أنْ ننضويَ تحت رايةِ الشَّيطان الذي قال : ﴿ فبعزَّتكَ لأغْوِيَنَّهمْ أجمعين ﴾ (٣) .

نحن ننادي أنْ تنضويَ البشريةُ تحت راية إبراهيم ﷺ ، الذي قال عن ربِّه جلَّت قدرته : ﴿ والذي يُميتُني ثمَّ يُحيينْ ﴾ (٤) .

أمَّا غيرنا فينادي البشريةَ مِنْ أجل أنْ تنضويَ تحت راية النُّمرود الذي قال : ﴿ أنا أحْيِي وأُميت ﴾ (٥) ، وهو كاذبٌ ويعرف التاريخ أنَّه كاذب .

نحن ننادي البشريةَ مِنْ أجل أنْ تنضويَ تحت رايةِ موسى ﷺ يوم قال : ﴿ ربِّ اشرحْ لي صدري ويسِّرْ لي أمري واحللْ عقدةً مِنْ لساني ﴾ (٦) .

والآخرون ينادون البشرية أنْ تنضوي تحت راية فرعون يوم قال : ﴿ ما علمتُ لكمْ مِنْ إلهٍ غيري ﴾ (٧) ، و ﴿ أنا ربكمُ الأعلى ﴾ (٨) .

نحن ننادي البشرية أنْ تنضويَ تحت رايةِ محمَّد ﷺ ، الذي قال عنه ربُّه تعالى : ﴿ وما أرسلناكَ إلا رحمةً للعالمين ﴾ (٩) ، والذي قال عن ذاته عليه الصَّلاة والسَّلام : [إنمابُعثتُ رحمةً ولمْ أبعثْ عذاباً] (١٠) .

و الآخرون ينادون البشرية أن تنضوي ـ مِنْ خلال سلوكها ـ تحت راية أبي جهل يوم قال في غزوة أحد : « إننا لننحر الجَزور وتعزف لنا القيان ، ونشرب الخمور حتى تسمعَ العرب بمَقدمنا » .

نحن ننادي الناسَ والبشرية مِنْ أجل أن تنضوي تحت هذه الرايات ، إلى هذا التاريخ ندعو ، هذا تاريخنا ، هذا الذي نريد أنْ يقفَ الناس في ساحاته ، هذا التاريخ الذي نريد أنْ ترتفع أعلامهُ ، لكنَّ الآخرين مِنْ خلال ما يقدِّمون ، ولا نتجنَّى على أحدٍ ، ولكننا مِنْ خلال عبائرهم ومِنْ خلال مصطلحاتهم ، نرى أنهمْ يدعون إلى ما قلناه ، وما ذكرناه .

ثالثاً ـ التَّجربةُ الإسلامية

وأمَّا الأمر الثالث الذي يشكِّل الصيغةَ ـ صيغةَ التعايش ـ التي نطرحها

فهو التجربة الإسلامية . والتجربة الإسلامية ناجحةٌ، شاؤوا أم أبَوا، فحيث يُنادى بالإسلام، بالإسلام الصحيح، حيث ينادى بالإسلام العميق، حيث ينادى بالإسلام الذي يلفُّ كلَّ الإنسان، إذاً سيُستجاب لهذه الدعوة، وسيأتي الناس إلى الإسلام راغبين، لأنَّه يناديهم مِنْ فطرتهم، ولأنَّه يصرخ إليهم، يصرخ مِنْ داخلهم .

إننا إذ نقول : إنَّ تجربتَنا سليمةٌ صحيحة ؛ فذاك لأنَّنا نحمل في داخلها أموراً ثلاثةً لا يحملها الآخرون في تجربتهم، إنْ كانت شرقيةً أو غربيةً، فنحن نحمل في تجربتنا :

١ ـ عبوديةً لله عزَّ وجلَّ .

٢ ـ وإرادةَ الخيرِ للناس .

٣ ـ واستعمارَ الأرض بالمعنى الصحيح الخيِّر .

نحن نحمل في تجربتنا عبوديةً للهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ يا أيُّها الناسُ اعبدوا ربكم ﴾ [11] .

و نحمل فيها إرادةَ الخير للناس جميعاً ، ﴿ وافعلوا الخيرَ لعلكم تفلحون ﴾ [12]، ﴿ و قولوا للناسِ حُسْناً ﴾ [13] .

ونحن نحمل تجربةً صحيحة ؛ لأنَّنا نادي الناس مِنْ أجل بناءِ الأرض :

﴿ ولقدْ كتبنا في الزبورِ مِنْ بعدِ الذكرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبادي الصالحون ﴾ [14] . ﴿ ألمْ تَروْا أنَّ اللهَ سخَّر لكم ما في السَّمَوات و ما في الأرض وأسبغَ عليكمْ نِعَمَه ظاهرةً وباطنةً، ومنَ الناسِ مَنْ يجادلُ في اللهِ بغير علمٍ ولا هدىً ولا كتابٍ منير ﴾ [15] .

نحن ننادي إلى هذه التجربة، وهل يريد الناس أكثرَ مِنْ هذه العناصر؟ عبوديةٌ لله، إرادةُ الخير للناس، ثم بعد ذلك بناءٌ للكون وفقَ معطياتٍ ربّانية صحيحة تُسلّمنا مِنْ أيّةِ مهالك أو أيّة مهاوٍ.

أفلا يَجْدر بنا أنْ نُعلن للناس كافةً أنَّ صيغةَ التعايش هي الإسلامُ، والإسلامُ فقط.

إنَّ صيغة التعايش هي ما يريده اللهُ عبر كتابه الكريم، وعبر رسوله الكريم محمَّد ﷺ.

أيَّتها الإنسانية التائهة:

إنَّ صيغةَ التعايش في الإسلام، والإسلام فقط.

إنَّ صيغةَ التعايش في هذا الدين الحنيف، وفي هذا الذي أنزله الله، ولايمكن أنْ يَعدلَ عنه عاقلٌ.

أيَّتها الإنسانية الحائرة:

الدربُ واضحٌ لاحاجة للاتجاه إلى شرقٍ أو غرب، فإنَّنا عادلون، وإننا ننادي الإنسانية مِنْ أجل أنْ تعدل، وإذا عدلتْ التزمتْ الإسلامَ، وإذا عدلتْ التزمتْ القرآنَ، وإذا عدلتْ نادتْ ربَّها عزَّوجلَّ كما نادى آدمُ ربَّه يوم تلقَّى كلماتٍ منه، فتابَ عليه إنَّه هو التَّواب الرحيم.

لا نريد أنْ نخرجَ مِنْ جنَّةِ الإسلام إلى نارِ المبادىء الأخرى، فلقد أثبتَ التاريخ أنَّ هذه المبادىء لايمكن أنْ تستمرَّ، و أنَّ هذه المبادىء لا يمكن أنْ تَعُمَّ، فلا استمرارَ ولا عمومَ لها، إلا أنَّ الإسلام يحوي الاستمرار والعموم.

أيُّها المسلمون ثقوا أننا إنْ كنَّا متابعين لهذا سنكون منتصرين بعونِ الله ، وما أروعَ الكلمةَ التي قالها هرقل لأبي سفيان ! ، وإنِّي لأظنُّ أنَّ مناقشةً خلف الكواليس تجري ، كتلك التي جرتْ بين أبي سفيان يوم كان مشركاً وبين هرقل ملكِ بني الأصفر ، كما تُسمِّيه كتب التاريخ .

فلنسمع هذه المناقشة التي سجَّلها صحيح البخاري :

[يقول أبو سفيان : قال هرقل : (أدنوه منِّي - يعني أبا سفيان - وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهمْ عند ظهره) ، ثم قال لترجمانه : (قلْ لهمْ إنِّي سائلٌ هذا عن هذا الرجل ، فإنْ كَذَبَني فكذِّبوه) . فوَالله لولا الحياءُ أنْ يُؤثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه) - إنْ صدقت الجاهلية تكلَّمت الحقَّ عن الإسلام ، لكنَّها اليوم تكذب ، لأنَّها لا تتكلم الحقَّ عن الإسلام ، ولو صدقت لقالت كما قال أبو سفيان - ويتابع أبو سفيان .

سألني هرقل : (كيف نسبُه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسبٍ .

قال : فهل قال هذا القولَ منكمْ أحدٌ قطُّ قبلَه ؟

قلت : لا .

قال : فهل كان مِنْ آبائِه مِنْ ملك ؟

قلت : لا .

قال : فأشرافُ الناس يتَّبعونه أمْ ضعفاؤهم ؟

فقلت : بل ضعفاؤهم .

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟

قلت : بل يزيدون .

قال : فهل يرتدُّ أحدٌ منهمْ سخطةً لدينه بعد أنْ يدخلَ فيه ؟

قلت : لا .

قال : فهل كنتمْ تتَّهمونه بالكذب قبل أنْ يقول ما قال ؟

قلت : لا .

قال : فهل يَغْدر ؟

قلت : لا ، ونحن منه في مدةٍ لا ندري ما هو فاعلٌ فيها .

قال : فهل قاتلتموه ؟

قلت : نعم .

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟

قلت : الحربُ بيننا وبينه سِجال ، يَنال منَّا وننال منه .

قال : ماذا يأمركم ؟

قلت : يقول ـ وإنها صيغة التعايش الإسلامي ـ اعبدوا اللهَ وحدَه ، ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاةِ والصِّدقِ والعفافِ والصِّلة .

فقال للترجمان : قل له : سألتكَ عن نَسبِه فذكرتَ أنَّه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرُّسل تُبعَثُ في نسَب قومها .

وسألتك هل قال أحدٌ منكم هذا القول ؟ . فذكرتَ أنْ لا ، فقلتُ لو كان أحدٌ قال هذا القولَ قبلَه لقلتُ رجلٌ يأتَسي بقولٍ قِيلَ قبلَه .

وسألتك هل كان مِنْ آبائه مِنْ ملك ؟ . فذكرتَ أنْ لا ، فلو كان مِنْ آبائه

مِنْ ملك ؛ قلتُ رجلٌ يطلب ملكَ أبيه .

وسألتك هل كنتم تتَّهمونه بالكذب قبل أنْ يقول ما قال ؟ . فذكرتَ أنْ لا ، فقدْ أعرفُ أنَّه لم يكن ليذرَ الكذب على الناس ، ويكذبَ على الله .

وسألتك أشرافُ الناس اتَّبعوه أمْ ضعفاؤهم ؟ . فذكرتَ أنَّ ضعفاءهم اتَّبعوه ، وهمْ أتباعُ الرسل .

وسألتك أيزيدون أمْ ينقصون ؟ . فذكرتَ أنَّهم يزيدون ، وكذلك أمرُ الإيمان حتَّى يَتمَّ .

وسألتك أيرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أنْ يدخلَ فيه ؟ . فذكرتَ أنْ لا ، وكذلك الإيمان حين تُخالط بشاشتُه القلوب .

وسألتك هل يغدر ؟ . فذكرتَ أنْ لا ، و كذلك الرُّسلُ لا تغدر .

وسألتك بمَ يأمركم ؟ . فذكرتَ أنَّه يأمركمْ أنْ تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركمْ بالصلاة والصدق و العفاف .

فإنْ كان ما تقول حقاً فسيملك موضعَ قدميَ هاتين ، و قد كنتُ أعلمُ أنَّه خارج ، ولم أكنْ أظنُّ أنَّه منكم ، فلو أنِّي أعلم ـ واسمعوا أيُّها المنصفون مِنْ غير المسلمين ـ أنِّي أخْلُص إليه ، لتجشَّمتُ لقاءَه ، ولو كنتُ عنده لغسلت عن قَدمه .

فقال أبو سفيان : لقد أَمِرَ أمْرُ ابنِ أبي كبشة ، أنْ يخافَه ملك بني الأصفر] (١٦) .

نعمْ إنَّ الملوك لتَخاف ، ذلك أنَّ محمَّداً ﷺ يطرح صيغةَ التعايش .

يؤلمني أنَّ الحديثَ لا يدعمه واقعٌ ، يؤلمني أنَّ الحديث إنما هو في حيِّز

النظر . فهلْ أنتمْ مُعَاهدون ربَّكم ، يا إخوتي ، على أنْ تَدعموا النظرَ بالواقع ؟

هل أنتم معاهدون ربَّكم ، يا شباب ، على أنْ تكونوا لسانَ الحال للإسلام ، نعرضه على ملوك بني الأصفر و على أرباب الجاهلية في كلِّ مكان ؛ مِنْ أجل أنْ يستبدلوا الذي هو خيرٌ بالذي هو أدنى ؟ .

هل نحن قادرون على هذه المعاهدة ؟ .

إنَّ المسؤوليةَ في أعناقكم يا شباب الإسلام ، يا أيُّها الناس ، يا مَنْ تنادون بلا إله إلا الله . إنَّ المسؤولية في رقابكم منْ أجل دعمِ النظر .

النظرُ ثابتٌ ، والتَّصور مَصون ، والحقيقة ساطعة ، لكننا بحاجةٍ إلى واقعٍ مِنْ خلالكم ، فكونوا الواقعَ الذي يدعم ، فإننا بحاجةٍ إلى نظريةٍ وتطبيق ، إلى واقعٍ وكتاب ، إننا بحاجةٍ إلى حالٍ وقال . إننا بحاجةٍ إلى فعلٍ ، ثمَّ يكون الفعلُ رديفاً لحركةٍ قوليَّةٍ صادقة ، فهل نحن واعون ؟ .

أسأل اللهَ مِنْ كلِّ قلبي أنْ يوفِّقنا مِنْ أجل أنْ نكون شهداءَ على الدنيا بأسْرِها كما قال ربي عزَّوجلَّ ، ﴿ ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً ﴾ (١٧) .

إنني أتوسل إلى اللهِ ، بمحمَّد رسوله ﷺ أنْ يوفقنا ؛ لنكون على مستوى الطرح ، طرحِ صيغة التعايش في هذا المجتمع الذي نعيش .

يا ربَّنا لا تحرمنا الأجر . ياربَّنا أيِّدنا مِنْ أجل أنْ نتابع المسير .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) رواه ابن ماجه، الحديث رقم / ٤٣ / ، ج ١ ص ١٦ .

(٢) البقرة / ٣٧ .

(٣) ص / ٨٢ .

(٤) الشعراء / ٨١ .

(٥) البقرة / ٢٥٨ .

(٦) طه / ٢٥ ـ ٢٧ .

(٧) القصص / ٣٨ .

(٨) النازعات / ٢٤ .

(٩) الأنبياء / ١٠٧ .

(١٠) رواه البخاري في تاريخه ،كما ذكر في كشف الخفا، ج ١ص٢١١ .

(١١) البقرة / ٢١ .

(١٢) الحج / ٧٧ .

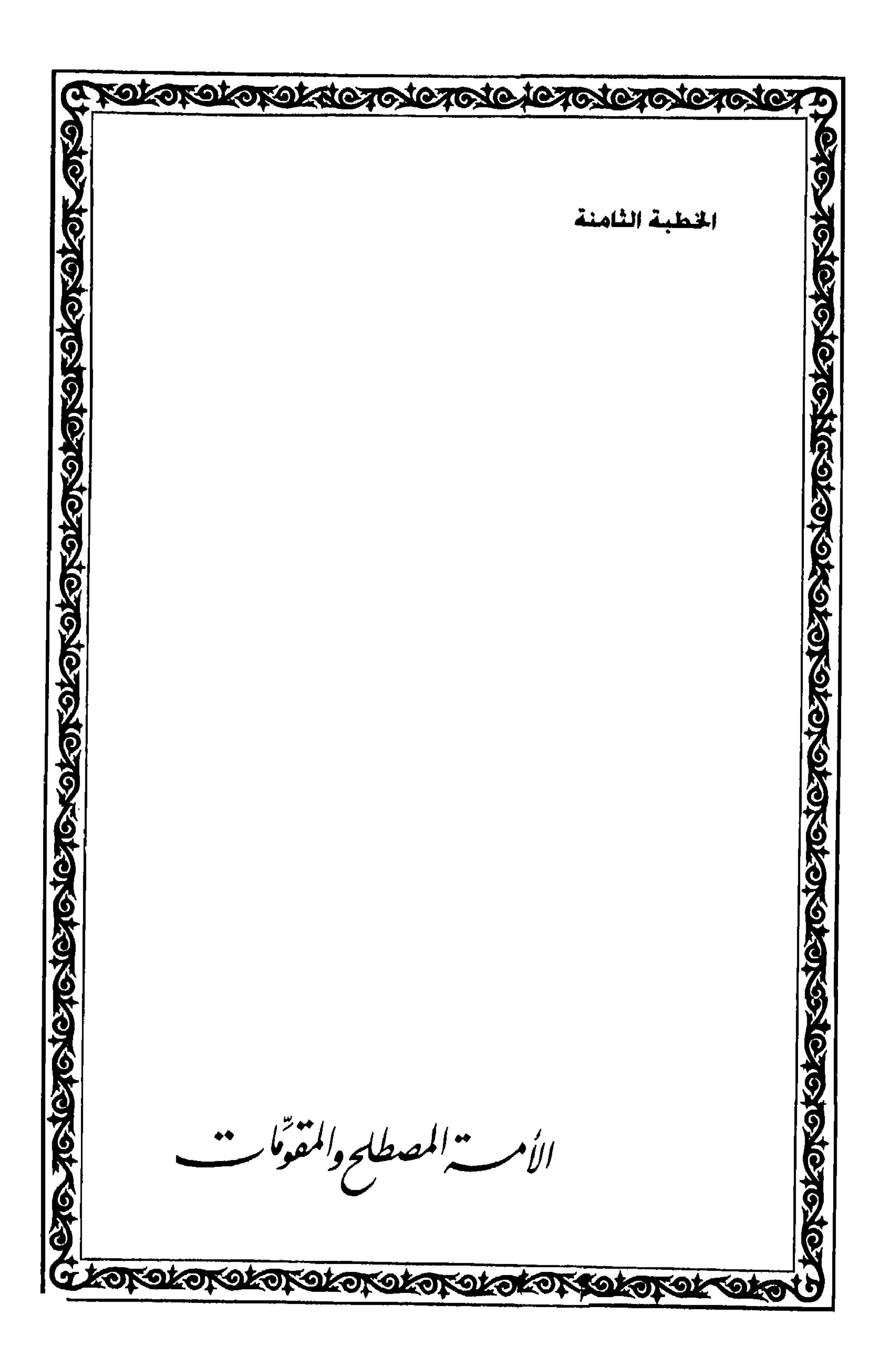
(١٣) البقرة / ٨٣ .

(١٤) الأنبياء / ١٠٥ .

(١٥) لقمان / ٢٠ .

(١٦) رواه البخاري، حديث رقم / ٧ / ، ج ١ ص ٧ .

(١٧) البقرة / ١٤٣ .



الخطبة الثامنة

الأمة المصطلح والمقوّمات



* ينطلق أستاذنا الدكتور - حفظه الله - في تحديده لمفهوم (الأمة) من الرؤية القرآنية ذاتها لـ (الأمة) بالمعنى الاصطلاحي .

و من الجدير ذكره هنا أن هذه الكلمة - الأمة - قد ترد في القرآن الكريم بمعناها اللغوي المجرد ، فتعني فيما تعنيه :

- المجموعة من الناس ﴿ و لما ورد ماء مدين وجد عليه أمةً من الناس يسقون ﴾ .

- أو التجمع النوعي للكائنات الحية ﴿ وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ﴾ .

- أو الجيل البشري في فترة زمنية واحدة ﴿ تلك أمة قد خلت ، لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ﴾ .

أما المعنى الاصطلاحي لـ (الأمة) في القرآن الكريم ، فهو يدور حول الإيمان بالعقيدة الواحدة ، والفكرة الواحدة ، وهذا المفهوم هو الذي يحدد محْوَري الصراع في تاريخ البشرية حول الخير والشر ، فالرابطة العقدية هي مدار التجمع حتى في الجماعة الواحدة حين تتعدد اتجاهاتها الإيمانية والعقدية ، ولذلك لم يجد ابن سيدنا نوح مكاناً له في السفينة ، ولم يشمله مصطلح القرآن الكريم ، رغم أنه أقرب الناس إلى قائد المسيرة الصالحة في عصره و هو النبي نوح عليه السلام ، وقد أثبت القرآن الكريم هذه الواقعة في قوله تعالى : ﴿ وقال نوح ربِّ إنّ ابني من أهلي ، وإنّ وعدك الحق و أنت أرحم الراحمين ﴾ ، فكان جواب ربه سبحانه : ﴿ إنّه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ .

وهكذا تبلور مفهوم الأمة في السفينة التي جمعت صنوف المؤمنين برسالة السماء فقط .

من هنا يأتي تعريف أستاذنا ـ حفظه الله ـ للأمة ، فالأمة :

« ولاء وانتساب قائم على الفكرة و المبدأ ، ولا علاقة له بالدم والقربى ».

إنَّ هذا التعريف ذو منطلق إيديولوجي ، لذا فهو يولّد إشكالات وحساسيات مثل أي تعريف له المنطلق ذاته ، فأنصار العرق من جهة ، وأرباب الجغرافيا من جهة ثانية ، ومتبنوا اللغة من جهة ثالثة لن يجدوا فيه مبتغاهم و متطلعهم ، كما أن هذا التعريف يرفض ـ حسب الظاهر ـ التعددية في إطار « الأمة » و يلغي الاختلاف .

إذاً فهو مفهوم لا يستطيع أن يستوعب « الأمة » في تناقضاتها والتباساتها ، فهذا التماثل المفروض في « الأمة » يؤدي إلى التذرُّر والانكماش في وحدات صغيرة اثنية ، أو مذهبية ، هي وحدها التي يمكن فيها أن يتحقق الموذج التجانس و المماثلة هكذا .

هذا الكلام قد يبدو للوهلة الأولى صحيحاً و منطقياً فيما لو كان المفهوم الذي يطرحه أستاذنا ـ حفظه الله ـ يستبطن فرض نموذج مسبق على المجتمع ، ويستدعي بالتالي أن يتكيف المجتمع مع هذا النموذج ، وفيما لو كان هذا المفهوم أيضاً لا تؤيده إلا وحدات صغيرة لن تشكل بتبنّيه سوى « كانتونات » مغلقة محصورة .

لكن الحقيقة غير ذلك ، فالمقومات التي يضعها أستاذنا للـ« الأمة » و التي حددها بـ :

١ ـ عقيدة تجمع بين أفرادها .

٢ ـ عبادة محددة الأشكال .

٣ ـ سلوك عام ينبثق عن اللفظة القرآنية والحديثية .

٤ ـ منهل تاريخي واحد .

٥ ـ اللغة الإسلامية .

إنّ هذه المقومات مستخلصة من صميم واقعنا، ومن لبّ مجتمعنا، ومن وجدان وشعور أكبر شريحة من شرائحه، إنّها ـ باختصار ـ مقومات السواد الأعظم .

و رغم ذلك فقد طالب بعضهم ببناء مفهوم سياسي للـ « الأمة »، يتجاوز الإطار الديني حتى تتم المطابقة بين الدولة والأمة ، ويقول أحد المعبّرين عن هذا الطرح : « إنّ المعنى السياسي للأمة يمكن أن يوجد التطابق بين الدولة والأمة، أمّا المعنى الديني فلم يكن قادراً على ذلك، لقد وُجد في الدولة جماعات من المسيحيين ، ومن اليهود ممّن يمكن أن تسمّى كل جماعة منهم بالأمة ، الأمة المسيحية ، والأمة اليهودية ، وهذا إلى جانب الأمة الإسلامية .

إنّ الرباط الديني يجعل المواطنين في الدولة أمماً ، وليسوا أمة واحدة » .

إنّ الثغرة في مثل هذا الطرح واضحة فهو:

أولاً : يخلط بين مفهوم « الأمة » و مفهوم « المواطنة »، بل ربما ساوى بين المفهومين .

ثانياً : إن القول بأمة إسلامية ـ كما يرى الأستاذ منير شفيق ـ لا يستتبع بالضرورة القول بوجود أمة مسيحية أو يهودية ، لأنّ مجرّد طرح الاستنتاج أنّ القول بأمة إسلامية يستتبع وجود أمة مسيحية واحدة، وأمة يهودية واحدة ، هو محاولة لمناقشة قانون تشكل الأمم ، وليس مناقشة الدعوة الإسلامية إلى تشكيل أمة واحدة تدخل فيها الأمم المختلفة بغض النظر عن لغاتها وأصولها و حدودها .

ثالثاً : إنّ التاريخ أكبر شاهد على أنّ مفهوم الأمة الإسلامية شكّل

فيما شكّل عاملاً حاسماً في تكوين هذه الأمة العربية الممتدة من المحيط إلى الخليج ، أي لو حمل الفتح العربي الإسلامي مفهوماً آخر لـ « الأمة » ، مثل المفهوم الروماني ، أو اليوناني القديم ، أو الأوربي الحديث ، لجاءت النتائج مختلفة عما حدث على أرض الواقع التاريخي الذي ارتبط بالمفهوم الإسلامي لـ « الأمة » ، ولنتج عنه ما نراه الآن أمام أعيننا .

و لقد سُئل أستاذنا الدكتور ـ حفظه الله ـ في إحدى المقابلات الصحفية سؤالاً يمس هذا الموضوع مباشرة ، فقال السائل :

(إنّ الماركسيين و القوميين و العلمانيين و الديمقراطيين والليبراليين و المتنورين في البلدان الإسلامية ، هؤلاء هم أكثر ضمانة لحرية المسلمين في مزاولة عقيدتهم من ضمانة الدولة « الدينية » لهم بمزاولة آرائهم ، وبالتالي فإنّ المخرج العلماني الديمقراطي هو مخرج ينسجم مع مصلحة الجميع ، وإلا فإنّ مجازر التسلط ، وهدر الدماء هي البديل) .

و قد أجاب أستاذنا ـ أيّده الله ـ في حينه :

(حين نذكر الإسلام نذكره مستوعباً ، وليس العكس ، فهو الإطار الجامع لشتات الآخرين ، وهكذا نريده ، وضمن حدوده العامة ـ أو ما يعبّر عنه فقهاؤنا بالنظام العام ـ تُزاول الحريات ، والمبادئ ، والديانات ، فـ ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ آيةٌ في القرآن تطبق أوّل ما تُطبّق عندما يحكم الإسلام ، و ﴿ قولوا للناس حسناً ﴾ آية أخرى تستوعب بحروفها و كلماتها الجميع ، وحديث النبي ﷺ : [الناس من آدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى .] ، أمرٌ لا يغيب عن بال القائمين على تسيير الدفة في

الدولة المسلمة .

أليست أميركا دولة علمانية في رأيك ؟ إذاً فأخبرني عن حياة الزنوج فيها ؟!

أوليست إنكلترا دولة متقدّمة في مضمار العلمانية على حدّ زعمك؟ ، إذاً فأخبرني عن سرّ دعمها الكبير لـ« آيات شيطانية » متجاوزةً بذلك شعور آلاف من المسلمين هناك .

وفي المقابل نجد القرآن الكريم يقول لأتباعه ﴿ و لا تسبُّوا الذين يدعون من دون الله ﴾ ، فمَن الشامل ومن المشمول ؟

إنّ الإسلام شكل فريد في دولته و سياسته واقتصاده ، و هكذا أراه ، ولولا ذلك لما كنت مسلماً ، لن أقول عنه « دولة دينية » ، فأنا أخاف من بقايا صور مرعبة للمصطلح ورّثتها دولة حملت الصليب زوراً ، ودخلت أراضي ليست بأراضيها عدواناً ، أو دولة أعدّت محاكم كبيرة فتّشت من خلالها عن إنسان يحمل بين جنبيه ضميراً حراً ، فأبادته .

أما الإسلام ، فيقول خلف بن المثنى عن شموله وديمقراطيته :

شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس ، لا يُعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة و هم :

١ ـ الخليل بن أحمد الفراهيدي صاحب النحو (وهو سنّي) .

٢ ـ والحميري الشاعر (وهو شيعي) .

٣ ـ و صالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي) .

٤ ـ و سفيان بن مجاشع (و هو خارجي صفري) .

٥ ـ و بشار بن برد (و هو شعوبي خليع ماجن) .

٦ ـ و حمّاد عجرد (و هو شعوبي) .

٧ ـ و ابن رأس جالوت (وهو يهودي) .

٨ ـ و ابن نظير المتكلم (و هو نصراني) .

٩ ـ و عمر بن المؤيد (وهو مجوسي) .

١٠ ـ و ابن سنان الحرّاني (و هو صابئي) .

و كلهم في رعاية إسلامية إنسانية ، فهل عرفت لذلك شبيهاً ؟) .

إنّ أهميـة هذا الطرح تبـرز من خـلال المقـارنة مع الطروحـات الأخرى ، ومن خلال التأمل في نتائجها .

فالطرح القومي العربي لم يحقق إلى الآن الدولة القومية المتطابقة مع الأمـة العـربيـة ، بل الشيء الوحيـد الذي تحـقق بدلاً من الدولة القومية هو الدولة القطرية ، وبذلك غدت الدولة القطرية هي الدولة القومية العربية .

حتى إنّ الأقليات الدينية عندما فضّلت الاتجاه القومي على مفهوم « الأمة » هذا ، رأيناها كيف انتهت في نهاية القرن العشرين إلى العيش في أكناف الدولة القطرية التي تعـاني من تلك التـمزقـات و الحروب الأهلية الفعلية والممكنة ، مما أورثها حالةَ رعب و توجُّس لم يسبق أن عانت شبيهـاً لها ، وقد رأينا جميعـاً كيف أن بعـضهـا رفع شعار الانفصال عن الأمة ، علماً بأنّ محاولات الانفصال هذه تورّطها في أخطار أشد وأدهى من البقاء في مجال الانتماء لـ« الأمة » .

إنّ هذه الأقليات بحاجة إلى تطمين نفس وتسكين روع ، وبالفعل فقد كان أستاذنا ـ حفظه الله ـ متنبّهاً لهذا الإشكال ، لذلك فقد أتبع الحـديث عن مـصطلح « الأمـة » بحـديث عن « صـيـغـة التـعـايش الإسلامي» ، وعن « التسـامح في الإسـلام : مفهوماً مصداقاً » ، وقد أوردناهما في هذا الجزء من « فكر ومنبر » ، بلحاظ هذه المناسبة .

بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْمِ

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المسلمون :

في وقتٍ كَثُرتْ فيه المصطلحات ، وتزاحمتْ على الشِّفاه، وراح الناس يُضمِّنونها ماشاؤوا من المعاني ، ويُعطونها مايريدون ، وما تملي عليهم أهواؤُهم منْ دلالات .

في هذا الوقت وجدتُني مضطراً لبيان بعض المصطلحات منْ منظورٍ أسأل اللهَ أنْ يكون مسلماً .

والمصطلحات ـ كما تعلمون ـ منفذٌ يعبِّر عن العقيدة ، ولذلك ينبغي ضبطه ومعايرتُه على شريعة الله ، وسنة المصطفى ﷺ حتى يعبِّر التعبيرَ الصادق عنْ هذه العقيدة بحق ، وعن صفائها ونقائها بصدق .

ويومَ اتخذَ اليهودُ بعض المصطلحات وسائلَ للإساءةِ إلى المؤمنين ؛ جاء القرآنُ الكريم ليمنع استخدامَ هذه المصطلحات منعاً حاسماً واضحاً ، فقال : ﴿ لا تقولوا راعِنا ﴾ ؛ لأنَّ اليهود كانوا يستخدمون هذا المصطلح

للإساءة إلى المسلمين ، وإلى رسول المسلمين ﷺ .

﴿ لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا ﴾ (1) .

ونحن أمامَ ركامٍ من المصطلحات ، لايعدو أنْ يكون موقفُنا أحدَ أمرين : إمَّا التصحيح ، وإمَّا الرفض .

ومِنَ المصطلحات التي تقتضي تصحيحاً : مصطلح الأمة .

فما هو هذا المصطلح ؟ .

وماهو مدلوله ؟ .

وما الدلالة التي ينبغي أنْ نعنيها منْ هذه الكلمة ، ونحن نتكلم أمام الناس عنها ، أونرسلها أمام أشخاصٍ ، أو أمام مناقشين ومحاورين ؟ .

الأمَّة :

ولاءٌ وانتماءٌ قائمٌ على الفكرة والمبدأ ، ولا علاقةَ له بالجنس والدَّم والقربى .

مصطلح الأمة يختلف عن كلمة القوم ، لأنَّ القوم جماعةٌ تصل بينهم وشائج القربى ، ولذلك قال ﷺ :

[وكان كلُّ نبيٍ يُبعث إلى قومه خاصَّة ، وبُعثت للناس كافة] (2) .

وقد ميَّز الله ـ عزَّوجلَّ ـ الأمة بمبادئها ، وميَّز ـ عن هذه الأمم ـ أمةَ الحبيبِ الأعظم ﷺ ، بمبادئها العقَديَّة والدَعويَّة ، فقال تعالى :

﴿ كنتمْ خيرَ أمةٍ أخرجتْ للناسِ ، تأمرونَ بالمعروفِ وتَنْهونَ عن المنكر ﴾ (3) .

ولأنَّ المسلمين ارتبطوا بالحبيب الأعظم ﷺ ارتباطَ ولاءٍ قائم على الفكرة

والمبدأ ؛ سُمّوا بـ « أمَّة محمَّد » ﷺ ، ولم يُسمَوا بـ « قوم محمَّد » عليه الصلاة والسلام . وبناءً على هذا لا بدَّ منْ ذكرِ هذه المقومات للأمة ، التي نمتلكها في ذهننا ، والتي نسعى إلى إيجادها :

أولاً ـ عقيدةٌ تجمع بين أفرادها

عقيدةٌ ـ بالنسبة إلى أمتنا الإسلامية ـ تتجلّى في أنْ يقول الواحد منَّا : أشهدُ أنْ لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، آمنتُ بالله رباً ، بالإسلام ديناً ، بالقرآن دستوراً ، بيوم القيامة موعداً من أجل الحساب .

ثانياً ـ عبادةٌ محدَّدة الأشكال

تُدلّل على العقيدة الصافية الراسخة في قلوب الناس ، فالعقيدة التي ينبغي أنْ تظهر على الجوارح ، ينبغي أنْ تَظهر عبادةً تُجسِّد وتمثل هذه العقيدة النابعةَ من القلب ، والراسخة في الوقت نفسه في الفؤاد ، في داخل الإنسان .

عبادةٌ تربط بين أفراد أمتنا محددةٌ بأشكالها ، جاء توصيفُها منْ ربٍّ العالمين ، وجاءَ تشكيلُها منْ رسول الله ﷺ . فكمْ مرةٍ قال ﷺ :

[صلُّوا كما رأيتموني أصلي] (٤) .

وقال ﷺ و هو يقوم بالحج : [لتأخذوا عنِّي مناسككم] (٥) .

وبيَّن للناس كيفية الصيام ، وكيفية الزكاة ، وكيفية الحج ، وكيفية الصلاة .

ثالثاً ـ سلوكٌ عامٌ ينبثق عن اللفظة القرآنية

وبين هذا السلوك ، وبين اللفظةِ القرآنية ، أو اللفظة الحديثية ، صلةٌ واضحةٌ قائمةٌ على فهمٍ صحيح ، فما من مسلمٍ ينبغي أنْ تخرج أفعاله عن الارتباط باللفظة القرآنية ، أو اللفظة الحديثية ، ولهذا كان علماءُ الأصول يتحدَّثون عن الأحكام التكليفية .

فلايعدو أنْ يكون تصرفٌ من تصرفاته تحت إحدى هذه الأحكام ، فإمَّا أنْ يكون مباحاً ، وإمَّا أنْ يكون حراماً ، وإمَّا أنْ يكون واجباً ، وإمَّا أنْ يكون فرضاً ، وإمَّا أنْ يكون مكروهاً ، وإمَّا أنْ يكون مندوباً . وحين تحدَّث الأصوليون أيضاً عن خطاب الله ـ عزَّوجلَّ ـ ، وعن الحكم قالوا :

(الحكم : خطابُ الله تعالى المتعلّق بأفعال العباد) .

الأمةُ يجمعها سلوكٌ موحَّدٌ منبثقٌ عن اللفظة التشريعية التي يُجسدها القرآنُ الكريم ، والسُّنة الشريفة .

رابعاً ـ منهلٌ تاريخيٌ واحد

رابعُ مقوِّمات هذه الأمَّة ـ وأحبُّ أنْ أذكرَ ذلك بشيءٍ منَ التفصيل ـ منهلٌ تاريخيٌ واحد نتَّفقُ وصُنَّاعه في الأصول التي تحدَّثنا عنها .

فتاريخُنا إنما هو تاريخُ أولئك الذين يؤمنون بالعقيدة ، ويقومون بالعبادة ، وتَنتظمْ سلوكيَّاتهمْ تحت قنطرةِ القرآن الكريم والسُّنة المشرَّفة .

هؤلاء هم الذين ننتسب إليهم ، وهم الذين ننتمي إليهم ، وهم الذين تربطنا وإيَّاهم وشائجُ قويَّة .

ولا ضيرَ - أبداً - في أنْ نفصِّل في هذه النقطة لنقول :

إنَّ تاريخنا يبتدىءُ من اللحظة التي خلَّفناها، إلى آدم عليه السلام، مادام صنَّاع هذا التاريخ يؤمنون بالأصول التي نؤمن بها، بالعقيدة التي نَدين بها، وقاموا بالعبادة التي حُددِّت من قِبَل ربِّنا عزَّوجلَّ، وسلكوا بأفعالهم ماأمرهم اللهُ تعالى أنْ يسلكوا. وعلى سبيل المثال فإننا نذكر مايلي ونقول :

إنَّ إبراهيمَ ﷺ منْ تاريخنا، لكنَّ أباه ليس منْ تاريخنا.

إنَّ امرأةَ فرعون منْ تاريخنا، لكنَّ فرعون ليس منْ تاريخنا.

إنَّ لوطاً منْ تاريخنا، لكنَّ امرأتَه ليست منْ تاريخنا.

إنَّ نوحاً ﷺ منْ تاريخنا، لكنَّ ابنَه ليس منْ تاريخنا..

﴿ قال يانوحُ إنَّه ليس مِنْ أهلكَ، إنَّه عملٌ غيرُ صالحٍ فلا تسألن ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾ [٦].

﴿ وإذ ابتلَى إبراهيمَ ربُّه بكلماتٍ فأتَمَّهنَّ، قال إنِّي جاعلكَ للناسِ إماماً، قالَ ومِنْ ذريَّتي - أولئك الذين تربطني وإيَّاهم وشائجُ الدَّم والقُربى - قالَ لاينالُ عهدي الظالمين ﴾ [٧].

إنَّ الخنساءَ - وبكلِّ بساطةٍ أقول هذا - يومَ بكتْ صخراً بكاءَ جاهلياً لم تكنْ في تلك اللحظة من تاريخِنا، يوم بكَتْهُ وأبْكَت الناس عليه فقالت :

يُذكِّرني طلوعُ الشمس صخراً	وأذكرهُ لكلِّ غروبِ شمسِ
ولولا كَثْرةُ الباكين حَولي	على إخوانِهمْ لقتلتُ نفسي

إنَّ الخنساء ، لحظتَها هذه ، لن يمتدَّ إليها تاريخنا ، تاريخ أمتنا ، ولكنْ حينما عَدلتْ الخنساء عن هذا الموقف ، إلى دخولٍ صريح تحت قنطرة الإسلام ، فرفعت يدها لتقولَ أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمَّداً رسول الله ، ولتقوم بعبادات الإسلام ، ولتجعل أفعالَها مغطاةً بتشريع هذا الدين ، عندها انقلبت إلى مُفردةٍ منْ تاريخِنا ، صنعتْ تاريخَنا ، فقالت كلمةً سجَّلناها في صحائف تاريخنا يوم قِيل لها : (إنَّ أولادك استشهدوا في سبيل الله) .

فقالت : (الحمد لِله الذي شرَّفني بقتلهم ، وأرجو الله أنْ يجعلني معهم في مستقرٍّ رحمته) .

إنَّها منْ تاريخنا ؛ يوم أعلنت الولاءَ القائم ، على أساس الفكرة والمبدأ لهذه الأمة .

لقد سمعتم شعرَ الخنساء وهي تبكي صخراً ، فاسمعوها وقد أضحتْ واحدةً منْ تاريخنا ، منْ صُنَّاع تاريخنا ، اسمعوها وهي توصي أولادها وقد غَدَوْا إلى الجهاد ، وهي التي استقبلت نبأ استشهادهم بالكلمة التي ذكرناها ، لقد أوصتْهم قبل أن يذهبوا فقالت :

(إنكم واللهِ أسلمتمْ طائعين ، وهاجرتم مختارين ، وواللهِ الذي لا إله إلا هو ، إنكم لبَنُو رجلٍ واحدٍ ، كما أنكم بنو امرأةٍ واحدة ، ما خُنْتُ أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجَّنت حسبَكم ، ولا خَتَّرت نسبَكم . وأنتم تعلمون ما أعدَّ الله من الثواب الجزيل ، في حرب الكافرين ، واعلموا أنَّ الدارَ الباقية خيرٌ منَ الدار الفانية ، اصبروا وصابروا ، ورابطوا واتَّقوا الله ،

فإنْ أصبحتم ـ إنْ شاء الله ـ غداً سالمين ؛ فاغدوا الى عدوكم مستبصرين ، وبالله على أعدائه مستنصرين ، فإذا رأيتم الحرب شمَّرت عن ساقها ، وحلَّت ناراً على أرواقها ، فيمّموا وطيسَها ، وجالدوا رئيسها ، عند احتدام خميسها ؛ تظفروا بالغُنم والكرامة ، في دار الخلود والمقامة).

إنَّها منْ تاريخنا وهي تقول مثل هذه الكلمات .

مبدؤ تاريخِنا محمَّد ﷺ ، ومبدؤه الأنبياء قبله ، لكنَّ أبا لهب وأبا جهل ليسا منْ تاريخنا ؛ ما دمنا نريد أنْ يكون التاريخ فاعلاً فينا ، لذا يجب أنْ نضع قاسماً مشتركاً بيننا وبين صنّاع التاريخ الأوائل .

خامساً ـ اللغة الإسلامية

و دعوني أُسَمِّها هكذا ، أقول اللغة الإسلامية ، وأعني بها اللغة العربية يوم تبنَّاها القرآن الكريم لغةً للتشريع الإسلامي ، يوم تبنَّاها المصطفى ﷺ منْ أجل أنْ يوصل المضامينَ والمعاني للناس .

وخذوا ـ على سبيل المثال ـ رجلاً تجمعنا وإيَّاه اللغة العربية ، لا اللغة الإسلامية :

إنَّه حينما يقرأ القرآن الكريم ، ويفسِّره لا على أساس المصطلحات الإسلامية ، وإنَّما على أساس المصطلحات العربية ، فإنَّه ربما فسَّر الصلاةَ بالدعاء ، وفسَّر الزكاة بالطهارة ، لكنه حينما يعود إلى اللغة العربية على أنَّها اللغة الإسلامية ، على أنَّها لغة القرآن الكريم ، على أنَّ مصطلحات القرآن الكريم مصطلحاتُه ، على أنَّ مصطلحات الإسلام مصطلحاته ؛

سيفسِّر الصلاةَ بالعبادة التي نقوم بها في اليوم خمسَ مرات ، وسيفسِّر الزكاةَ بالعبادة التي يدفعها الأغنياء من أموالهم طائعين مختارين للفقراء .

فمَنْ فسَّر اعتماداً على اللغة العربية فقط كلمات القرآن الكريم ؛ فقال عن الصلاة هي دعاءٌ فقط ، وقال عن الزكاة هي طهارةٌ فقط ، واكتفى بهذا لا يمكن أنْ يدخل في اطار الأمة ؛ لأنَّه لم يمتلك المقوِّم الخامس مِنْ مقومات أمتنا التي نسعى إلى بيان حدودها ، وإلى تبيان إطارها ، وإلى وضعها في المكان اللائق ، مِنْ حيث الدلالة ، ومنْ حيث المفهوم .

هذه أمَّتنا بمقوِّماتها ، وهذا هو تعريف الأمة .

أيها الإخوة :

ومن هذه الأمة التي ذكرتُ مقوماتها ؛ نستمدُّ جنسيَّتَنا ، فجنسيَّتُنا مسلمة ، جنسيتُنا تعتمد على الانتماء والولاء لأمَّة الإسلام ، لأمَّة الحبيب الأعظم ﷺ .

جنسيَّتُنا مستمدةٌ مِنْ أمةٍ جمعتْ بين أفرادها مقوِّماتُ العقيدةِ ، والعبادةِ والسلوكِ ، والمنهلِ التاريخي الواحد ، و لغةِ القرآن الكريم .

هذه الأمَّة هي التي لا تجتمع على ضلالة ، كما قال رسول الله ﷺ ورواه الطبراني :

[لاتجتمع أمتي على ضلالة] (٨) .

هذه الأمة هي التي يكون أفرادها في حالةِ تشاورٍ مستمر :

﴿ و أمرهمْ شُورى بينهم ﴾ (٩) .

أيُّها الإخوة :

و نحن نعيش صراعاً ، وما أظن الصراعَ بخافٍ عليكم ، نعيش صراع المصطلحات ، ونحن ندرك تماماً أنَّ هناك أشخاصاً يريدون من خلال النفاذ إلى تغيير المضامين لهذه المصطلحات ؛ أنْ يُغيِّروا لشبابنا وجهتَهم ، أنْ يُغيِّروا ويلبِسوا على مفكرينا أبعادَ مقوِّمات أمَّتِهم .

نحن نعلم أنَّ أشخاصاً كثيرين ينادون بالرجوع إلى قواعد العقل الأولى ، إلى معالم العقل الكليَّة ، يقولون هذا على سبيل الإجمال ، وحينما نطلب منهم أنْ يُفصِّلوا في تغطيةٍ ما لمفردةٍ سلوكية أو لمفردة اصطلاحية ، لنقول لهم :

هاتوا ما عندكم ، قدموا ما لديكم مِنْ تغطيةٍ منبثقةٍ عن العقل ، كما تزعمون ، لقضيةٍ ما ، لمصطلح الأمة مثلاً ، فإنَّهم يلزمون الصمت ، أويقدِّمون مضامين لاتتناسب وعقيدةَ الأمة .

ما هذه التفسيرات التي نسمعها لمصطلح « الأمة » ؟! ، والذي نريده أنْ يكون على الشكل الذي شرحناه .

أيُّها الإخوة :

حينما نسمع مِنْ غير المسلمين ، أو حينما نسمع أحياناً مِنْ بني جِلدتنا تغييراً لهذا المضمون ، فإنَّهم بلا شكٍ لا يسعون للخير ، و لكنْ لإخراجِ شبابنا منْ دائرة الإسلام الواسعة التي تشمل أفراداً في كل العالم ، ينتسبون وينتمون لفكرةٍ واحدة .

إنهم يريدون أنْ يفتتوا هذه الأمة من خلال ادعاءٍ سخيف ، أو وهمٍ لاجدوى فيه ، ولا رصيدَ من الصحة له ، منْ خلال تخييلٍ للناس أنَّهم

يبحثون في مصطلحاتٍ جديدة ، يريدون أنْ يضمّنوها ما يعود على المسلمين بالقطيعة بينهم وبين دينهم .

اقرؤوا ـ وسيكون هذا موضوعاً لخطب لاحقة ـ اقرؤوا ما يتحدّثون به عن الحداثة ، عن التراث ، كيف أنّهم يحاولون ـ جاهدين ـ أنْ يُعطوا هذه المصطلحات مضامينَ لا تتناسب و عقيدة الأمة ، بل إنّهم من خلال الحداثة يريدون ـ أحياناً ـ أنْ يقضوا على عقيدة هذه الأمة .

أيُّها الناس :

لقد سمعناكم تتحدثون ، ولكنْ لم نرَ لكم عملاً يسجّله التاريخ ، ولن أقول هذا اجتراراً بالنسبة إلينا ، ولكننا تحدثنا منذ أربعة عشر قرناً وإلى اليوم ، والحديثُ مازال مقبولاً لدى كلِّ العقلاء ، والحديثُ تقبله العقول الصافية ، وأكّدت ذلك وقائع لا تزال الدنيا تشهد على صحّتها .

وأكّد على ذلك وجودنا في هذا البلد ، فلولا الإسلامُ ، ولولا المصطلحات الإسلامية ، و لولا الأطر الإسلامية ، ولولا المضامين الإسلامية ؛ لم نستطع أنْ نأتيَ إلى هذا البلد .

فالذي أتى إلى هذا البلد إسلامٌ من خلال القرآن ، ومن خلال السُّنة ، ومن خلال رجالٍ حملوا القرآن على أنّه كتاب الله ، وحملوا السُّنة على أنّها مواثيقُ تُبيِّن المرادَ مِنْ كتاب اللهِ ـ عزّوجلّ ـ ، فكانوا بحق رجالاً .

إنّي ما أرى هؤلاء الذين يُناوئون مصطلحاتنا ، ما أراهمْ إلا جماعةً يريدون أنْ يشدوا البساط منْ تحت أرجلنا ؛ منْ أجل أنْ يذهبوا بالبلاد والعباد ، ليرتموا في أحضان شرقٍ يريد أنْ يقضيَ على العقيدة ، أو في

أحضان غربٍ يريد أنْ يقضيَ على الأخلاق ، وعلى الوجود الإنساني .

اللهم إنّي أسألك بحقّ القرآن و ألفاظِه ، وبحقّ القرآن وحروفِه ، وبحقّ القرآن وآياته ، أنْ تـُمتّع عقولنا بالاهتداءِ إلى شريعتك ، وأنْ تـُمتّع قلوبَنا بمحبّتك و محبّةِ نبيّك .

نِعْمَ مَنْ يُسأل ربُّنا ، ونِعْمَ النَّصير إلهنا .

والحمد لله ربّ العالمين .

الهوامش

(١) البقرة / ١٠٤ .

(٢) رواه البخاري ، حديث رقم / ٣٢٨ / ، ج ١ ص ١٢٨ .

(٣) آل عمران / ١١٠ .

(٤) رواه البخاري، حديث رقم / ٦٠٥ / ج ١ ص ٢٢٦ .

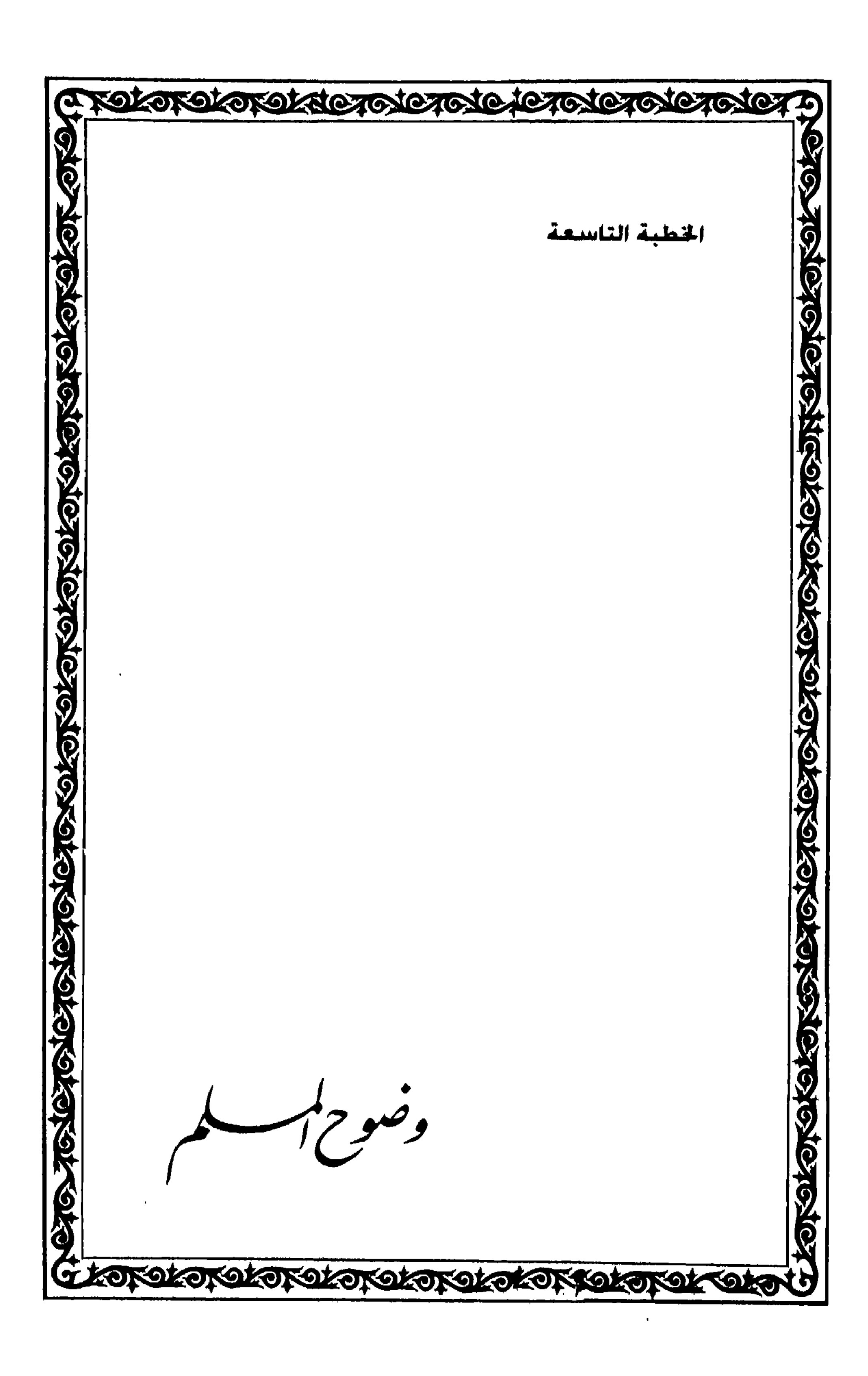
(٥) رواه مسلم حديث رقم / ٣١٠-١٢٩٧ / ج٢ص٩٤٣ ، والنسائي بلفظ « لتأخذوا مناسككم »، حديث رقم / ٣٠٦٢/ ج ٥ص ٢٩٨ .

(٦) هود/ ٤٦ .

(٧) البقرة/ ١٢٤ .

(٨) قال في كشف الخفاء : « رواه أحمد و الطبراني في الكبير وله شواهد عند الحاكم ، والترمذي ، وأبو نعيم ، وهو حديث مشهور المتن ، و له أسانيد كثيرةوشواهد عديدة في المرفوع وغيره » . أ هـ مختصراً . ج ٢ ص ٣٥٠ .

(٩) الشورى / ٣٨ .



الخطبة التاسعة

وضوح المسلم



* « الواضح رابح » ، و « من دعا على بصيرة كان عاقلاً ، وأمّا من دعا في السراديب فليس بعاقل» ، و « إنّ هذا المنبر لَيؤكد للناس في كل مكان ، وفي كل زمان ، أنّ الإسلام يتكلم من مكان واضح ، وأنّ الإسلام لا يتكلم في السراديب ».

إنّها الكلمات التي طالما ردّدها أستاذنا الدكتور في خطبته ، لتغدو كيفيةً التزمها في عمله ، ودعا إليها كل من يعمل للإسلام ، وكل ساعٍ لمبدئه .

ولَمَ يخاف المسلم وهو الواضح ؟

لمَ يخاف وهو الذي يحمل للعالم ﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى و ينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ﴾ .

ولِمَ يخاف العالمُ من المسلم ، وهو الذي يعرض كتابه بيّناً كالشمس ؟!

إنّ هذا الوضوح الذي يدعو إليه أستاذنا الدكتور ، يقف في مواجهة « السريّة» التي أورثت غموضاً ، وكانت الأسلوب المفضّل لأغلب الحركات و التيارات التي شهدتها ساحتنا العربية والإسلامية .

وإذا كنا لا ننكر ما تعرّضت له هذه الحركات من ملاحقة السلطات لها ، سواء في مرحلة الاستعمار أوما بعد الاستقلال ، إلا أنّ العمل السري لم يبقَ حالة طوارئ مؤقتة ، بل غدا منهجاً استراتيجياً أصيلاً ، وقاعدة في عمل هذه الحركات ، أمّا العمل العلني فهو استثناء ليس إلا .

وإذ يدعو أستاذنا إلى الوضوح فعلى أنّه مفرز من مفرزات الصفة الثالثة للمسلم الداعية التي حدّدها أستاذنا بقوله في خطبة له :

« لا بدَّ للمسلم من :

١ ـ معرفة الخطاب الذي هو الإسلام .

٢ ـ ومعرفة المخاطب : الذي هو الإنسان .

٣ ـ و الجرأة » .

والجرأة وليدةُ التمكن ، والثقة بالنفس ، المستمدةِ من أمرين إثنين :

أ ـ من اليقين بأهلية الرسالة ، والعلم الصحيح بها ، وهذا معنى معرفة الخطاب .

ب ـ ومن الجدارة الاجتماعية ـ بحسب اصطلاح المفكّر الكبير مالك بن نبي رحمه الله ـ وهي تعني القدرة على التواصل مع الناس باللغة ، العقل ، الأسلوب المناسب ، وهذه نتيجة لمعرفة المخاطَب الإنسان .

وإنْ سألت كيف أكون واضحاً ؟ فهذه الخطبة تقول لك :

من أجل أن تكون واضحاً حدّد لنا أموراً أربعة :

أ ـ الجهة التي ترتبط بها وتستمد منها .

ب ـ و منهاجك الذي تصدر عنه وتدعو إليه .

جـ ـ وأسلوبك الذي تدعو به .

د ـ و النظام الذي تتبناه ، ليحكم علاقتك بمن حولك ، ممن كان لك موافقاً ، أو مخالفاً .

غير أنّ هذه الخطبة لا تقول لك : إنك إن كنت واضحاً فلن تلقى من يحاربك ، أو لن تجد في طريقك من يعاديك ، ويزرع الأشواك في دربك ، ولكنها تقول لك :

إنّ الواضح رابح ، وإذ تكون واضحاً ، وفي وضوحك مقنعاً ، فسوف تصل كلمتك إلى حيث تنمو وتورق وتزهر ، وإنْ لا قيت

ضراراً وأذى ، فلن يضرك من خالفك حتى يأتي أمر الله ، ولئن تجاوز عليك أهل الباطل فلن تموت كلمتك، واعلم أنّها باقية ، وإن متّ أنت، فالحق لا يموت ولو مات صاحبه .



بسْمِ اللهِ الرَّحمَن الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة :

ما مِنْ صفةٍ تميِّز المسلمَ المؤمن أكثر من الوضوح، ذلك أنَّه يطرح نفسَه صاحبَ منهاج، ويطرح نفسَه قدوةً وأسوة، ومنْ طرح نفسَه قدوةً وأسوة عليه أنْ يكون منَ الوضوح بمكان، بحيث يَستبينُه كلُّ الناس، لا اعوجاجَ يتلبَّسه، ولا غموض يمازجه.

ذاك أنَّ الشمس في وجودها لا تهمُّ الناس، وإنما يهتمُّ الناس لإشراقها وجلائها، ويستفيدون منْ ظهورها، ومِنْ إشراقها وطلوعها .

والمؤمنُ إلى حدٍ بعيدٍ يشبه الشمس، فوجوده و إنْ كان مهمّاً، إلا أنَّ إشراقَه و ظهوره أهمُّ .

وأرجو الله ـ عزَّوجلَّ ـ أنْ يمتِّعنا بوضوح الشمس وجلائها، وألا نكون غامضين، وألانكون مستترين، وألا نكون مرتابين .

ولعلَّ الوضوح في حياة المسلم يتجلَّى في أمور :

١ ـ يتجلَّى في الارتباط .
٢ ـ يتجلَّى في المنهاج .
٣ ـ يتجلَّى في الأسلوب .
٤ ـ يتجلَّى في العلاقات .

أولاً ـ الوضوح في الارتباط

أمَّا مِنْ حيث الارتباط ، فإنَّ اللهَ الذي هو نور السموات والأرض ربُّه ، والرَّسولَ الذي وُصِف في قرآنِ ربِّنا بأنَّه نورٌ جاءَ مع الكتاب المبين رسولُهُ ، والكتابَ المبين الذي أنزله اللهُ عزَّوجلَّ لا ريب فيه كتابُه .

بهذه الثلاثة يرتبط المؤمن ، وكلُّها واضحة ، وكلُّها جليَّة ، وكلها تستقطب مَنْ فتَح عينيه مِنْ أجل أنْ يحيا إنساناً واضحاً بيِّناً سعيداً في هذه الحياة ، ليتلقَّى بعدها حياةً أفضل عند ربِّ العزة .

ثانياً ـ الوضوح في المنهاج

أمَّا مِنْ حيث المنهاج : فمنهاج المسلم المؤمن واضحٌ أيضاً ، يتجلَّى في الكتاب والسُّنَّة ، ويتجلَّى في كلِّ الفُهوم التي ترتبط بالألفاظ القرآنية ، والألفاظ النبوية ، بوسائلَ عقلانيةٍ ، ووسائلَ لغويةٍ ، ووسائلَ شرعيةٍ صحيحة .

منهاج المسلم لا تنتابه الغرابة، ولا يأتيه الباطل، ولا يمكن أنْ يزيغَ عنه إلا زائغٌ، كتابٌ واضح أنزله العزيز الكريم، فرقان أنزله الله فيصلاً بين الحق والباطل، بين الظلمات والنور، وسنَّةٌ نبويَّة مشرفة، جاءتنا بتبيان كلٌ شيء.

هذا منهاج المسلم بالإجمال والاختصار، وقد تحدَّث عن ذلك المصطفى الكريم ﷺ في حديثٍ يرويه ابن ماجه: [تركتكمْ على البيضاءِ، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك] (١).

ثالثاً ـ الوضوح في الأسلوب

أمَّا الأسلوب: فالوضوح يتجلّى فيه من خلال كلمةٍ قرآنية موجودةٍ في كتاب ربِّنا، نُسبتْ إلى المصطفى ﷺ، ولكنَّ الذي نسبها، والذي أمره أنْ يقولها هو ربُّنا تبارك و تعالى:

﴿ قلْ هذه سبيلي أدعو إلى اللهِ على بصيرةٍ أنا ومن اتَّبعني ﴾ (٢).

فطريقنا واضحة، وطريقنا لا التباسَ فيها ولا غموض، وأسلوبُنا واضحٌ، ومنهاجنا واضح.

ومَنْ أرادَ أنْ يعرفنا و أنْ يرانا، أنْ يكشف حقيقتنا، فحقيقتُنا التي نقولها على المنبر هي نفسها التي نقولها للناس؛ إنْ كنَّا في بيوتنا، إنْ كنَّا في مساجدنا، إنْ كنَّا في أيِّ مكانٍ؛ لأننا نعلم أنَّ ربَّنا الذي يراقبنا مِنْ أجل التلفُّظ بالحقيقة، موجودٌ معنا في كلِّ مكان:

﴿ وهو معكمْ أينما كنتم، واللهُ بما تعملون بصير ﴾ (٣).

رابعاً ـ الوضوح في العلاقات

أمّا العلاقات، فإنّها واضحةٌ بوضوح القواعد والشرائع التي تغطي هذه العلاقات، والتي تُقنّنها، وتجعلها في قوالبها.

وإذا كانت هذه القواعد مبثوثةً في كتاب الله، وفي سنّة رسوله ﷺ، وإذا كان كتابُ الله وإذا كانت سنّةُ المصطفى ﷺ موجودَين مبثوثين في كلّ بقاع الدنيا، ومعروضَيْن لكلّ من أرادَ أنْ يطّلع عليهما، فإنّه على الناس أنْ يفهموا أنّ علاقاتنا هذه واضحة، وإلا لما قلنا للناس، ولما أحلناهم إلى كتابٍ بيّنٍ واضحٍ موجود، وإلى سنّةٍ واضحة موجودة.

لو أننا في علائقنا كنا لسنا بواضحين؛ لما أحلنا إلى كتابٍ موجود، إلى كتاب يقرؤه الناس في كلّ بقاع الدنيا. هذا الكتاب موجودٌ هنا في المسجد، في المكتبة، في كلّ مكان، في البيت، في الوظيفة، حيثما أردتَ، فهوالذي يحوي القواعد التي تغطي تلك العلائق التي نريد أنْ نَبْنيَها بيننا وبين الآخرين.

ـ فعلاقتنا مع اللهِ، عبوديةٌ وطاعة، وهذا منشورٌ في كتاب الله.

ـ وعلاقتنا مع رسولِ الله ﷺ، اتباعٌ ومحبة، وهذا موجودٌ في كتاب الله.

ونحن لا يمكننا أبداً أنْ نحيدَ عن هذا الكتاب، أو أنْ نحيد عن هذا الوضوح الموجودِ في كتاب الله، ﴿ وقولوا للناس حُسناً ﴾ (٤)، و ﴿ ادعُ إلى سبيلِ ربِّك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ (٥)، ﴿ ومَنْ أحسنُ قولاً ممّن دعا إلى اللهِ وعمل صالحاً وقالَ إنني منَ المسلمين ﴾ (٦).

ـ علاقتنا مع المؤمنين، موجودةٌ في كتاب الله تعالى:

﴿ إنَّما المؤمنون إخوة ﴾ [٧] ، ﴿ واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرَّقوا ﴾ [٨] .

ـ علاقتنا مع أهل الكتاب، موجودةٌ في كتاب الله :

﴿ قلْ يا أهلَ الكتاب تعالَوْا إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكم أنْ لا نعبدَ إلا اللهَ ولا نشركَ به شيئاً ولا يتَّخذَ بعضنا بعضاً أرباباً مِنْ دون الله، فإنْ تَولَّوْا فقولوا اشْهدوا بأنَّا مسلمون ﴾ [٩] .

ـ علاقتنا مع العدو ، موجودةٌ في كتاب الله، قتالٌ حتى يُظهر الله الحقَّ.

ـ علاقتنا مع المغتصبين ، أنَّه مَنْ قُتلَ منَّا دفاعاً عن أرضٍ يُذكر فيها اسمُ الله سبحانه، فتلك شهادةٌ يتمنَّاها القاصي والداني، يتمنَّاها المؤمن القوي والمؤمن الضعيف :

﴿ وقاتلوا في سبيلِ الله الذينَ يقاتلونكم ولاتعتدوا ﴾ [١٠] .

ـ علاقتنا مع عالَم الغيب ، بعد أنْ أتانا مِنْ مصدرٍ موثوق، وعبر طريق صحيحة أنَّنا نؤمن بالملائكة، ونؤمن بالجنِّ، ونؤمن باليوم الآخر، ونؤمن بالجنة، ونؤمن بالنار ، ونؤمن بالصراط ،ونؤمن بكلِّ ما أخبرنا به نبيُّنا المصطفى ﷺ .

ـ علاقتنا مع هذا المال الذي بين أيدينا، موجودةٌ في كتاب الله :

﴿ ولا تأكلوا أموالكمْ بينكمْ بالباطل ﴾ [١١] .

ـ علاقتنا مع أرضنا، موجودةٌ في كتاب الله، نحبُّها ولكنْ نحبُّ الله ورسوله قبل ذلك : ﴿ قلْ إنْ كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشَون كسادَها ومساكنُ ترضونَها

أحبَّ إليكم منَ الله ورسوله ﴾(١٢) . فالأرضُ ينبغي أنْ تكون محبوبةً، إلا أنَّ حبَّ الله وحبَّ رسوله يجب أنْ يتفوَّق على ذلك . وهذا ما ندلل به للآخرين على حبِّنا للأرض، وعلى سعينا منْ أجل أنْ تكون أرضنا محتضِنةً للإنسان الذي آمنَ برسالة السماء، ودعا إلى تقويةِ إنسانيَّته، وإلى بناء إنسانيَّته عبر تعاليم السماء، وتجاربِ الأرض المستمدةَّ منْ هذه التعاليم، ولا يمكن للإنسان أنْ يحيدَ عن إنسانيته إذا رأى الحقَّ أبلج، وإذا رأى الشمسَ ساطعة، وإلا اتُّهمَ هذا الإنسان .

- علاقتنا مع كلِّ الناس، مع كلِّ الأرض، علاقتنا مع كلِّ المستويات واضحةٌ بيِّنة، ولذلك نطرح أنفسَنا واضحين .

نحن لا نريد الغموضَ لأنفسنا، ولا نريد الغموضَ أيضاً لأيِّ إنسان، نحن نقابل الناس بما نملك، بما هو في داخلنا، ولا نقابلهم بوجوهٍ مختلفة، ولذلك ينبغي على الناس أنْ يسمعوها منَّا صريحةً، وأنْ يُجِلُّونا، وأنْ يُكبروا على ذلك، فنحن ما رأينا ولا أردنا أبداً بالإنسان شراً، إنما نريد للإنسان كلَّ الخير، حيث آمنَّا بالإسلام نجاةً لنا في هذه الحياة الدنيا وفي الآخرة، حيث رأينا هذا الإسلام خيراً للإنسان حيثما وجد الإنسان .

ثم دعَونا بعد ذلك الإنسانية، وكنَّا بذلك واضحين، وكنَّا بذلك كالشمس ساطعين، كنَّا بهذا ندعو الناس إلى الخير، ومعاذ الله أنْ نريد بأيِّ إنسان شراً، وكيف يكون ذلك و ربُّنا - عزَّوجلَّ - يدعونا في كتابه الكريم أنْ نقول للناس حُسناً، وربُّنا يدعونا إلى أنْ نسعى إلى أنْ نُدخلَ الناس في

دينِ الله، لأنَّ في ذلك فلاحَهم في الدنيا، وفلاحَهم في الآخرة، لأنَّ في ذلك فوزَهم في الدنيا، ونجاتهم في الآخرة .

إنْ أردنا أنْ نقول للآخرين شيئاً؛ فإنما نقول : هذا نحن، وهذا منهاجنا، وهذا أسلوبنا، وهذه علائقنا .

وبعد ذلك، على الآخرين أنْ يتأكدوا، فنحن ـ وربِّ الكعبة ـ لا يمكننا أنْ نَحيدَ عن كتاب الله، ولا عن سنَّة المصطفى ﷺ، وما أعتقد أنَّ عاقلاً يقول بضميره وقلبه خلافَ هذا الكلام .

لنْ أنسى تلك القصة الرائعة التي يرويها صاحب الإصابة، يوم جاء النبيَّ ﷺ رسولان منْ رجلٍ يُسمَّى أكثمَ بن صيْفيٍّ، قال لهما هذا الرجل : إذهبا إلى محمَّد فاسألاه : من أنت ؟ وما أنت ؟ وما الكلمات التي تدعو بها ؟ . فجاء الرسولان إلى النبي ﷺ، فقالا له : من أنت ؟ .

فقال النبي ﷺ : [أنا محمَّد بن عبد الله] .

وهذه تعني الكثير، فهو النبيُّ الطاهر مِنْ سلالة الطاهرين، مِنْ سلالة أشخاصٍ حُفظوا من السِّفاح، وحفظوا من الفساد وحفظوا من الفاحشة، ومَنْ سمع مِنْ قريش ، ومِنْ غير قريش هذه الكلمة أدرك أنَّ النبي ﷺ أوسطُ الناس نسباً .

وحين سألاه : ما أنت ؟ وما الكلمات التي تدعو بها ؟ .

قال : [عبدُ الله ورسوله، وأمَّا الكلمات التي أدعو إليها فهي قول الله تعالى : ﴿ إنَّ الله يأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاء ذي القربى، ويَنهَى عن الفحشاءِ والمنكر والبغي، يَعظكم لعلَّكم تذكَّرون ﴾] .

فلما سمع الرسولان هذه الأمور، عادا إلى أكثم بن صيفي، فقال لهما: أخبراني. فقالا له:

أمَّا مِنْ حيث النَّسب، فهو واللهِ زاكي النسب، وأمَّا ما هو ـ مِنْ حيث الماهية، منْ حيث الهوية، من حيث الحقيقة ـ فهو رسول الله ﷺ.

وأما مِنْ حيث الكلمات، فقد ردَّد علينا كلمات طلبنا منه أنْ يُعيدها حتى حفظناها فاسمعْها منا: فتلَوْها عليه.

وإذ بأكثم ـ وهنا أحبُّ منْ خلال أكثم، أنْ تكون هذه الكلمة موجهةً لكلِّ منْ يريد الخيرَ بهذا البلد، ولهذا الانسان ـ إذ به يقول لرسوليه:

(إنَّ هذا النبيَّ يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن سفْسافها، أسرعوا بالدخول في دين محمَّد حتى تكونوا فيه رؤوساً، ولا يسبقنَّكم إليه أحد، ولا تكونوا فيه أذنابا) (١٣).

إنَّها كلمةٌ منْ عاقلٍ سمع الوضوح، سمع الحقيقة، إنَّها كلماتٌ رائعة، فأيُّ عاقلٍ يرفض هذا الذي ذكره النبي ﷺ.

إنني أرجو أنْ نكون واضحين في علاقتنا، وإنني أدعو المسلمين كافةً إلى الوضوح، وإلى تبيان ما يعتقدون دون التباس، ولعلَّ الآخرين يطلبون منَّا أنْ نكون واضحين، ونحن وربِّ الكعبة أوضح منْ أنْ يُطلب منَّا أنْ نكون واضحين. نحن واضحون، ونحدِّد الطريقة، ونحدِّد المنهاج.

القرآنُ والسُّنة منهاجنا، وعلى بصيرةٍ ندعو إليهما، واللهُ ربُّنا، ومحمَّدٌ ﷺ رسولنا، والقرآنُ كتابنا، والأخلاقُ الفاضلة الإنسانية مبتغانا، والوصولُ إلى خير الإنسان ـ حيثما وجد الإنسان ـ دعوتنا، ومنْ أجل ذلك

نحيا، ونرجو اللهَ عزَّوجلَّ أنْ يُثبِّتنا على ذلك، وأنْ يُحيينا على ذلك .

نقول هذه الكلمات باختصار ؛ من أجل أنْ تغدوَ هويةً لنا، من أجل أنْ يقولها كلُّ فردٍ منَّا :

اللهُ والرَّسول، القرآنُ والسُّنَّة ، الدَّعوةُ على بصيرة، العلائقُ موجودةٌ قواعدُها في كتاب الله وسنةِ رسوله، وغيرُ ذلك لا يمكن لنا أنْ نقول، أو أنْ نصرِّح، أو أنْ نُعبِّر .

هذه هي حقيقتنا، و هذا هو وضوحنا، وهذه هي شمسنا، وهذا هو كلُّ الذي نملكه، وكلُّ الذي ندعو إليه . ترى هل يقف المسلمون من أجل أنْ يَتَنادوا إلى هذا الوضوح، إلى هذه الإشراقة ؟ .

اللهمَّ إنني أسألك أنْ توفِّقنا لخدمة ديننا، لخدمة بلدنا من خلال ما نعتقد، لخدمة الإنسان ، حيثما وجد الإنسان .

وفقنا يارب، من أجل أنْ نستلهمْ قواعدَ العلائق من كتابك، من سنة نبيِّك ومن منهاجه .

وفقنا يارب، من أجل أنْ نقوى على قتال أولئك الذين يريدون بنا كلَّ شرٍ، يريدون منَّا أنْ نستكين لهم، الذين يُصرِّحون بأنَّهم يريدون بلادنا منَ الفرات إلى النيل .

لا وربِّ الكعبة سيخسأون، لا وربِّ الكعبة سيكونون داخرين، لا وربِّ الكعبة، فإنَّ أطفالَنا هناك في الأرض المحتلة، سيهبُّون يعلنون الرفضَ - كلَّ الرفضِ - لأيِّ أمرٍ يريد أنْ ينالهم، أنْ ينالَ أرضَهم، أنْ ينال دينَهم، أنْ ينال عقيدتهم .

وفِّقنا ياربُّ، واجعلنا ممَّن يُبرهن على إرادة الخير للأمة ، منْ خلال خدمةِ أرضنا هناك ، من خلال خدمةِ فلسطين ، خدمةِ هذه الأماكن المقدسة التي يَعيث فيها عدونا الفسادَ والقهر .

وفقنا لذلك ، وأرِنا يا ربُّ الحقَّ حقاً ، وارزقنا اتِّباعه ،

وأرِنا الباطلَ باطلاً ، وألهمنا اجتنابَه ،

وإنْ أردتَ فتنةً بقومٍ فتوفَّنا غير مفتونين .

ربَّنا آمنَّا بك واتَّبعنا الرَّسول ، فاكتبنا مع الشاهدين .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) رواه ابن ماجه في السنن عن العرباض بن سارية، حديث رقم/ ٤٣ / ج١ص١٦ .

(٢) يوسف/ ١٠٨ .

(٣) الحديد/ ٤ .

(٤) البقرة/ ٨٣ .

(٥) النحل/ ١٢٥ .

(٦) فصلت/ ٣٣ .

(٧) الحجرات/ ١٠ .

(٨) آل عمران/ ١٠٣ .

(٩) آل عمران/ ٦٤ .

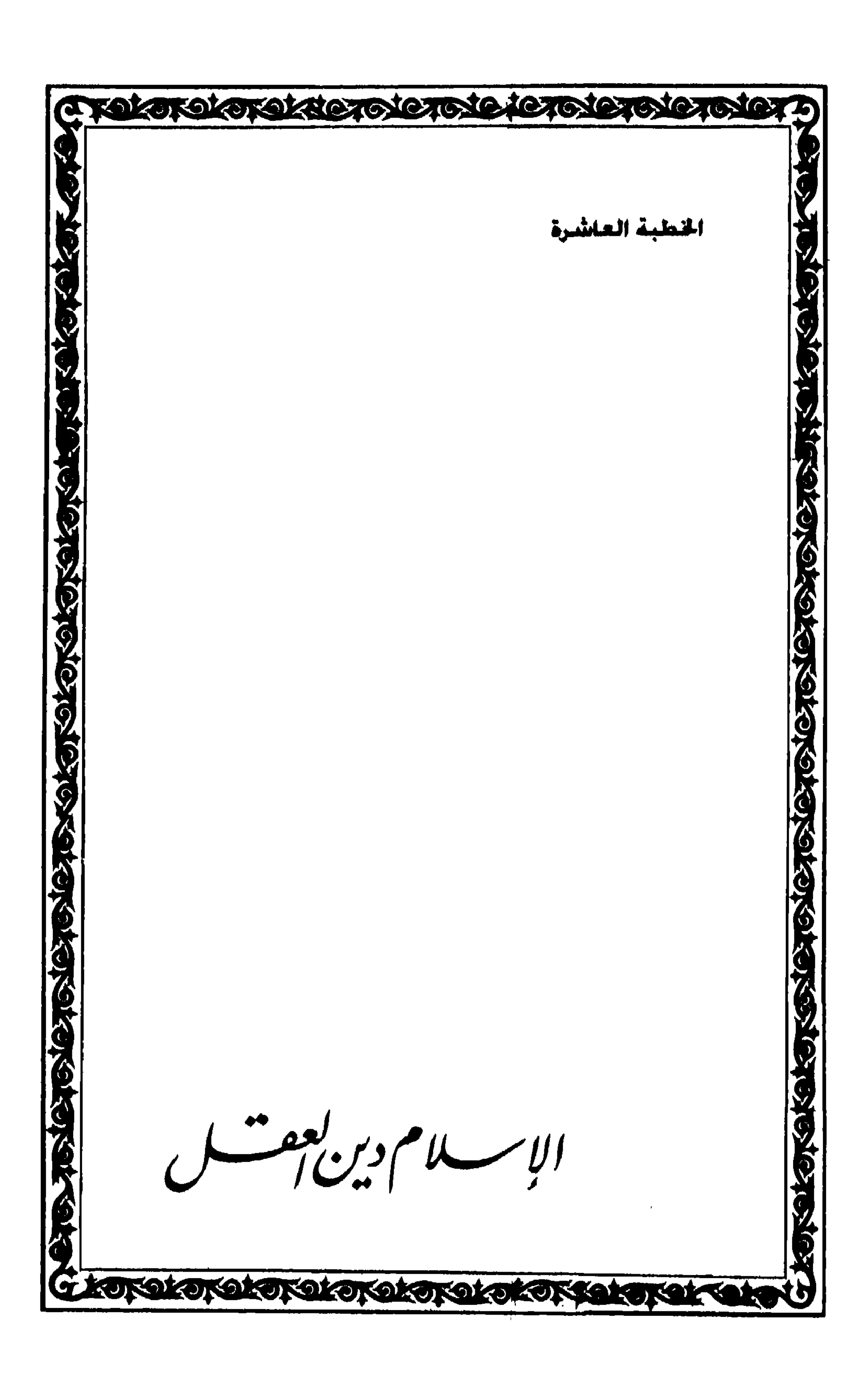
(١٠) البقرة/ ١٩٠ .

(١١) البقرة/ ١٨٨ .

(١٢) التوبة/ ٢٤.

(١٣) الإصابة لابن حجر العسقلاني ج ١ ص ١١٠ .





الخطبة العاشرة

الإسلام دين العقل



* رغم البحوث الكثيرة التي كتبها العلماء المسلمون عن العقل ، إلا أنَّ معظمها كانت تهدف إلى التوفيق بين ما اعتبرته اختلافاً ظاهرياً بين قناتين من قنوات المعرفة ، هما العقل والوحي .

ويعتبر كتاب الإمام ابن تيمية رحمه الله « موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول » مثالاً على هذه الدراسات القيِّمة ، ومِنْ قبله كتاب أبي الوليد بن رشد رحمه الله « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال » .

ولم يكن واحدٌ من هؤلاء العلماء يتصور أن يتحدَّث متحدِّث عن الإسلام ليقول عنه : إنَّه منافٍ للعقل ، أوكابتٌ لقدراته .

يقول ابن رشد :

(وإذا كانت هذه الشريعة حقاً ، وداعيةً إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحقّ ، فإنَّا معاشر المسلمين ، نعلم على القطع ، أنَّه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع ، فإن الحقَّ لا يضادُّ الحقَّ ، بل يوافقه ويشهد له) . فصل المقال / ص٣١ .

إلا أنَّ غياب التفكير العلمي ، وشيوع النظرة الخوارقية ، والذهنية التبريرية في المجتمعات الإسلامية فتح المجال أمام بعضهم ليطعن في عقل المسلمين .

و لا شكَّ في أنَّ الإسلام الذي أطلق أكبر القدرات الإبداعية عبر مسيرة الحضارة الإنسانية لا يتحمَّل وزر ذلك ، وإنما تتحمَّله جملة ظروفٍ سياسية وعسكرية واجتماعية واقتصادية مرَّت بها مجتمعاتنا ، ولاتزال خاضعةً لكثير منها .

ونحن ندعو الباحثين في هذه المسألة إلى التركيز على القرون

الخمسة أو الستة الأخيرة ، إذ فيها ظهرت للعيان معظم عوامل هذا التخلف .

وربما كان كتاب المرحوم العلامة النابه الشيخ عبد الرحمن الكواكبي « أمُّ القرى » ، محاولةً مبكرة ومبدعة في هذا المجال .

لقد غدت عتيقةً تلك المقولات التي تزعم « لا عقلانية الإسلام » ، وهذه الخطبة ، دعوةٌ لأصحاب هذه المزاعم إلى تدارك ما فاتهم من وقت ، والاهتمام بما هو أكثر فائدة لشعوبنا المسكينة المقهورة ، التي تنتظر من أصحاب العقول فيها أن يعملوا على تنمية الروح العقلية والتفكير العلمي ، من خلال دراسات وإسهامات عملية واقعية .

لقد كانت مسيرة أستاذنا الدكتور الفكرية عامةً ، وفي خطبة الجمعة بشكل خاص ، نموذجاً يُحتذى في هذا المجال ، وقد قدَّمنا في دراستنا لملامح التجديد عند أستاذنا الدكتور ، وعند استعراضنا لهموم وقضايا خطبة الجمعة عنده ، شيئاً من إسهاماته حفظه المولى في رعاية هذا الجانب الخطير .

بالإضافة إلى ذلك ، تشكل هذه الخطبة تفريعاً على الخطبة الهامة : « الله مصدر علمنا فلنتعلم قرآنه » ، بما هي تأكيد على دور الإنسان في تأكيد صلاحية الكتاب بشكل عملي ، من خلال إعمال العقل - الذي هو الأمانة التي اختصَّ الخالق تعالى بها الإنسانَ وحده - وتشغيله في فهم حقيقة « الوجود » ، ودور « الإنسان » فيه ، على ضوء الحقائق اليقينية التي جاء بها « الكتاب » .

لقد أسهم الخطاب « الإسلامي الشعبي » في تعميم الرؤية الخوارقية ، والنظرة الغيبية التي لا تستند إلى نقل موثق صحيح ، وهو خطاب ينبغي على العلماء والمثقفين المسلمين الوقوف في وجه حامليه

بحكمةٍ مع صبر طويل ، وقد ألمحنا إلى ما قدَّمه أستاذنا الدكتور من مساهمةٍ فعالة ، بواسطة خطبة الجمعة ، في تعميم لغةٍ علمية مستندة إلى الحقائق القرآنية ، مع كونها في نفس الوقت لغةً شعبية ،ليس بينها وبين إنساننا العادي أسوار أوحواجز. بحيث استطاع أستاذنا حفظه الله أن يقدِّم لجمهوره حتى أعقد القضايا التي تتعلق بأمتنا ، تاريخاً وحاضراً ومستقبلاً .



بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

منذ أيام ؛ التقيت رجلاً غيرَ مسلم، فقال لي :

إنِّي أرى تجافياً بين العقل والدِّين، وكأنَّ الذين يَتدينّون يبتعدون عن العقل، أو كأنَّ العاقلين غير كثيرين في عالم التَّدين، و راح يأتي ببعض الأدلة على ذلك مِنْ خلال الواقع، كما ظنَّ أو ادَّعى أو وَهِم .

قلت له ـ وهذا ما أحببتُ أنْ أعرضَه عليكم ـ قلت له :

لئنْ كان العقل بعيداً عن ساحة الدِّين، فإنَّما ينطبق هذا الأمر على الدين الذي تتصوره أنْت، أمَّا على الإسلام، فإنَّ الإسلام دين العقل، وإنَّ العقل ليجد أبعادَه بكلِّ نواحيها في ساحة الإسلام، وإليك الأدلة :

١ ـ إنَّنا حين نذكر القرآنَ الكريم، ونتصفَّحه، بل نقرأ آياته وسورَه، فإنَّنا واجدون أنَّ القرآن الكريم يذكر العقل بمادَّته ـ بالعين والقاف واللام ـ أكثر منْ خمسين مرَّة .

ويذكر اللُّبَّ ـ واللبُّ بمعنى العقل وإنْ كان هنالك خلاف ـ ستَّ عشْرة مرة، ويذكر النُّهى مرتين، ويذكر الحِجْر ـ وهو العقل ـ مرةً واحدة .

إضافةً إلى أنَّ القرآن الكريم يكثِر منْ ذكر التَّفكر والتفكير، والعلم والتعليم ، والفكر والتعلُّم ؛ وهذه إنَّما هي منْ وظائف العقل، بل منْ حركته، والآيات التي تتعلق بالفكر والتفكير، والتعلُّم والتعليم والعلم كثيرةٌ جداً ، بل إنَّها تكاد أنْ تكون العمودَ الرئيسي في كتاب الله عزَّوجلَّ .

٢ ـ وبعد ذلك، فإنَّ الإسلام جعل العقلَ مناطَ التكليف، فلا تكليفَ من غير عقل، والإنسانُ الذي لاعقل له لايكون مكلَّفاً في عالم الإسلام، فلقد قال ﷺ كما جاء في مسند الإمام أحمد :

[رُفع القلم عن ثلاث : عن النائم حتى يستيقظ، وعن الطفل حتى يَشبَّ، وعن المجنون حتى يبرأ] (١) .

ولا أريد أنْ أستعرضَ بالتفصيل كلَّ ما قلتُه، لكنِّي أذكر أمامكم خلاصةَ الأمر .

٣ ـ وإنَّ للعقل مهمةً، فما مهمة العقل عندك يا سائلي ؟ .

مهمةُ العقل عندنا :

أنْ يصل هذا العقل إلى الإيمان بالله عزَّوجلَّ، وإلى الإيمان بالرُّسل الكرام، وأنَّهم صادقون فيما يُبلِّغون عن الله، وإلى أنْ يصل إلى أنَّ القرآن كلام الله، ورسالةُ الله إلى الإنسان، مهمة العقل أنْ يؤمن بالله ورسله وملائكته وكتبه وباليوم الآخر .

فما مهمة العقل عندك من أجل أنْ تكتمل تصوراته ؟ .

إذا كانت هذه مهمة العقل، إذاً فنحن الذين نحترم العقل، ونريد أنْ يسلك طريقَه ليصل إلى تحقيق مهمَّتِه .

يا سائلي، الإسلامُ دينُ العقل .

يا سائلي، العقل يجد في الإسلام ذاتَه .

يا سائلي، مَنْ لاعقلَ له لا دينَ له .

يا سائلي، الإسلامُ عاقل، بل إن الإسلام يُعقِّل، ﴿ وقالوا لو كُنَّا نسمع أو نعقل ما كنَّا في أصحاب السعير ﴾ (٢) .

وعندما يَعدل العقلُ عن مهمَّته ؛ لنْ يكونَ أمام الإنسان إلا الهوى، فمنْ لمْ يكنْ عاملاً لعقله، أو مُعملاً لعقله، فإنَّه عند ذلك لا يَتَّبع إلا الهوى، لأنَّ المشركين لم يكونوا يتَّبعون عقلَهم، وإنَّما اتبعوا أهواءهم .

﴿ فإنْ لمْ يستجيبوا لك فاعلمْ أنَّما يتَّبعون أهواءَهم ﴾ (٣) .

حينما يعدل العقل عن مهمته، إذنْ يتَّبعَ العقلُ الهوى، لاجدال في ذلك . ﴿ أفرأيتَ من اتَّخذَ إلهَهَ هواهُ وأضلَّه اللهُ على عِلْمٍ ﴾ (٤) .

إنَّه عَلِمَ وعَقِل، لكنَّه عدل بالعقل عن مهمته، فكان مُتَّبعاً لهواه ليس إلا .

يا سائلي، أوَتريد دعوةً لاستخدام العقل في القرآن الكريم، تعال انظر معي كيف دعا القرآنُ الكريم إلى استخدام العقل ، وإلى التفكير الذي هو وظيفة العقل :

﴿ ما اتَّخذ اللهُ مِنْ ولدٍ، وما كانَ معه مِنْ إلهٍ إذاً لذهبَ كلُّ إلهٍ بما خلقَ ولعلا بعضُهم على بعض ﴾ (٥) .

هذه محاكمةٌ عقلية، هذه محاكمةٌ تُقدَّم لعقلك، هيَّا مِنْ أجل أنْ تُعمل عقلك أيُّها الإنسان :

﴿ لو كان فيهما آلهةٌ إلا الله لفسدتا ﴾ (٦) .

هذه مادةٌ من أجل أنْ تُعْمِل عقلك، فالعقل قوةُ محاكمة، تَنظر أمامها القضايا منْ أجل أنْ تصل إلى النتائج، فهذه مادةٌ تقدَّم في القرآن الكريم لعقلك، فهل يستطيع عقلك أنْ يعدل عنها ليقدِّم قضيةً أخرى ؟ .

يا سائلي، اسمع مني، لقد جاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، وأتى بعظمٍ قد رُمَّ، ففتَّته أمامه، وقال له : يامحمَّد أتزعمُ أنَّ ربَّك يَبعث هذا بعدما رُمَّ ـ بعدما أضحى رميماً ـ ؟ . وظنَّ الرجل، كما ظننتَ، أنَّ الإسلام يعطِّل العقل، وأنَّ الإسلام يقول للإنسان : اعتقدْ من دون عقل، لا . وإذ بالآيات تنزل على الحبيب الأعظم ﷺ لتخاطبَ هذا الرجل مِنْ خلال قناةِ عقله :

﴿ وضربَ لنا مثلاً ونسيَ خلقه قال مَنْ يُحيي العظامَ وهي رميم، قلْ يُحييها الذي أنشأها أولَ مرةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم، الذي جعلَ لكمْ منَ الشَّجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه تُوقدون، أوَليس الذي خلقَ السَّمَوات والأرضَ بقادرٍ على أنْ يخلقَ مثلهمْ، بلى، وهو الخلاق العليم ﴾ (٧) .

هل هذه مخاطبةٌ عقلية، أمْ أنَّها مخاطبةٌ تُسلسل العقلَ بسلسالٍ لا تجعله يفكر ؟ .

لا يا سائلي، الإسلام دين العقل شئتَ أمْ أبيت، وإنَّه رقي بالعقل من أجل أنْ يتَّخذ له مهمةً، وأنْ تكون له وظيفة، وإلا صدِّقني، وأيْمُ الحقِّ لن

تجد مثل الإسلام في تعامله مع العقل، وفي تقديره للعقل، وفي تكريمه للعقل، وإنَّ نبينا ﷺ جاءه رجل يسمى الحصين فقال له : ما هذا الذي بلغني عنك ، أنك تشتم آلهتنا وتذكرهم ؟ .

فقال النبي ﷺ : [يا حُصين ، كم تعبد من إله] .

فقال حُصين : سبعاً في الأرض وواحداً في السماء، .

فقال النبي ﷺ : [فإذا أصابك الضرّ من تدعو ؟].

فقال حُصين : الذي في السماء .

فقال النبي ﷺ :

[فيستجيب لك وحده وتشركه معهم ، أرضيتَه في الشّكرِ أم تخافُ أن يغلب عليك ؟ !] .

فقال حُصين : ولا واحدة من هاتين .

فقال النبي ﷺ : [يا حُصين أسلم تسلم] .

فقال حُصين : إنَّ لي قوماً وعشيرةً ، فماذا أقول ؟ .

قال النبي ﷺ : [قل : اللهمَّ إنّي أستهديك لأرشد أمري ، وأسألك علماً ينفعني] .

فقالها حصين ، فلم يقم حتّى أسلم ، فقام إليه ابنه عمران فقبَّل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأى ذلك النبي ﷺ بكى (٨) .

إنَّه توجُّه لمحاكمةٍ عقلية يجد العقل فيها مداه .

وهاهو خالد بن الوليد لما أسلم ، وأتى النبي ﷺ، قال له النبي ﷺ قولته المعروفة المشهورة :[يا خالد، قد كنت أرى لك عقلاً رجَوْتُ ألاّ يُسلمكَ

إلا إلى خير] (٩) .

العقل لا يُوصل إلا إلى الإسلام، والعقل لا يأتي إلا بخير مِنْ خلال كتاب الله، ومن خلال ما أتى به المصطفى ﷺ .

إنَّها حقيقةٌ ينبغي أنْ تتفجَّر في داخلنا، وأنْ نفجِّرها على صفحات كتبنا، وأنْ نُقرِئها كلَّ مَنْ يسكن الكون .

إنَّ العاقل ليُسلم، وإنَّ غير العاقل ليلحد، إنَّها حقيقةٌ لا مجال للنكران فيها، ولا مجال للارتياب، ولا مجال للشك .

اسمع منِّي يا سائلي، يقول أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه، كما جاء في حياة الصحابة : (أخذني والدي أبو قحافة إلى أصنامٍ لما ناهزت الحلم، وقال لي : يا عبد الله، انظر ؛ هذه آلهتك، وآلهة آبائك الشُّم، وخلاّني وذهب، فنظرت إلى هذه الأصنام، واقتربت منها، وقلت لواحدٍ منها : إنِّي جائعٌ فأطعمني، فلم يردَّ، ثمَّ قلت له : إني عارٍ فاكْسني، فلم يردَّ، قال أبو بكر : فحملتُ حجراً بيدي فضربت بها وجهه، فخرَّ لِتَوِّه) .

أرأيتَ أبا بكر، إنَّه عقلٌ يفكر، إنَّه رجلٌ عاقل قبل أنْ يُسلم، وعقلُه أوصله إلى إسلامه، وعقلُه هوالذي جعله يقول لهؤلاء المشركين الملحدين يوم قالوا : يا أبا بكر إنَّ محمَّداً يزعم أنَّه ذهب إلى بيت المقدس، أو أسري به في ليلة واحدة، فقال كلمته العاقلة : (إنْ كان قالها فقد صدق) .

هذا رجلٌ عاقلٌ يا أخي :

وإذا لمْ تَرَ الهلالَ فسَلِّمْ   لأناسٍ رأوْهُ بالأبْصار

سلِّمْ لعقلاء الأمة، سلِّمْ لأنبياء الله، سلِّمْ لرسل الله .

ويحك يا سائلي، أتسلِّمُ قيادَك لفرعون وهامان، أو لقارون ؟! ، أتسلِّم قيادتك لأبي جهلٍ وأبي لهب ؟ ، أتسلِّم قيادك إلى أولئك الذين يسيرون على خطِّهم إلى يومنا هذا .

أمْ تسلِّم قيادك إلى آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّد وأبي بكر وعمر وعلي وعثمان و الأشعري والباقلاني والغزالي والرازي ؟ ، وهؤلاء كلهم، أعلنوا لربهم استسلاماً ، فكانوا مؤمنين مسلمين، وكانوا متديِّنين واعين .

أفأنْت تعلِّمهم العقلَ، أم أنَّك تسلخ عنهم التفكير ؟ .

أنْت يا سائلي تحتاج لرويَّةٍ منْ أجل أنْ تصدر أحكامَك . لعلك تُصدر أحكامك على ما تعرف، فلا تعمِّم معرفتك يا أيُّها السائل .

إنَّ العلاء بن الحضرمي أرسل رسالةً إلى عظيم الفرس، فقال له عبر كلماتٍ طويلةٍ ختمها بقوله : (إن ما أتى به محمَّدٌ ﷺ جاء على أمنيتَيْ أهل الفكر، وفكر أهل النظر) .

يا سائلي، دخل أعرابي إلى النبيِّ ﷺ، فخرج مؤمناً ، فقيل له : لمَ آمنتَ ؟ . فقال الأعرابي : (واللهِ، ما أمرَ بأمرٍ قال العقل ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيءٍ قال العقل ليته أمر به).

إنَّ العقل ليجد ذاته في شريعة ربِّي، في قرآن ربِّي، في سيرة رسوله المصطفى ﷺ .

يا سائلي : أمِنَ العقل أنْ نحرِّم الزنى، أم أنْ نحلله ؟ .

يا سائلي : أمِنَ العقل أنْ نحرِّم الطهر، أمْ أنْ ندعو إليه ؟ .

يا سائلي : أمِنَ العقل أنْ ندعوَ إلى العفاف ، أمْ أنْ ننادي بالفجور والعُهر ؟ .

يا سائلي : أمِنَ العقل أنْ ندعوَ إلى الخمر ، أمْ أنْ ننهى عنه ؟ .

يا سائلي : أمِنَ العقل أنْ نتبعَ سيرةَ فلانٍ وفلان ، أمْ أنْ نتَّبع سيرة المصطفى ﷺ ؟ ، هذا الرجل الذي أثبت اللهُ رسالته ، وصدَّقت الإنسانيةُ واقعَه ، وشهدتْ بأسْرِها بإمكانيةِ كونهِ قدوةً لكلِّ البشريَّة ، أينما كانت ، وعلى مدار التاريخ :

﴿ وما أرسلناك إلا كافةً للناس بشيراً ونذيراً ﴾ (١٠) .

يا سائلي ، هيَّا إلى اتِّباع مَنْ أوصلك عقلك إلى اتِّباعه .

أخبرني مَنْ تتبع في حياتك ؟ ، منْ الشَّخصيةُ التي تسكن داخلك ؟ ، مَنْ الذي تسير على خطاه ؟ ، أرني نتاجَ عقلك مِنْ خلال أسوتك ، مِنْ خلال قدوتك ، مِنْ خلال الشخص الذي تَتَرسَّم خطاه .

يا سائلي ، أمِنَ العقل أنْ يجتمع الناس هنا وهناك ؛ مِنْ أجل أنْ يستخرجوا وصايا تمليها عليهم الدولةُ الفلانية ، أمْ الدولة الفلانية ؟ . هل هذا من العقل ، أم أنَّ العقل يتطلَّب منَّا أنْ نجتمع تحت رايةِ القرآن ، لنتواصى بما في القرآن ، إنْ في مصر أوفي سورية ، أو في أيِّ مكان ؟ .

يا سائلي ، يا أيُّها الأخ ، إننا بحاجةٍ إلى أنْ نعيد النَّظر فيما يصدر عن عقولنا .

يا سائلي ، أمِنَ العقل أنْ نعقد صفقةَ اتفاقٍ مع « إسرائيل » ، أنْ نكون مسالمين لدولةٍ معتدية ؟ ، هل هذا من العقل ؟ .

أمِنَ العقل أنْ نقول للمعتدي : حللت أهلاً ، ونزلت سهلاً ، في ربوع بلادٍ إسلامية ، فتحها إسلامُنا ورجالنا ؟ ، هل هذا من العقل ؟ . لا وربِّ الكعبة .

أمِنَ العقل أنْ نجلس مِنْ أجل أنْ نتواصى في مؤتمرٍ كبير عريض ليخرج هذا بفكرة ، وآخر بفكرة ، أم أنَّ العقل أنْ نقول لهؤلاء : ادرسوا القرآن الكريم ، فإنْ وجدتم فيه ما يناقض العقل فأتونا به ؟ . وإني معتقد سلفاً بأنَّ القرآن الكريم ثبتتْ نسبتُه لربِّ العزَّة ، فلا مجال لإنكار هذه النسبة .

إنَّ من العقل أنْ نقول لهؤلاء : انظروا كتاب الله ، فإنْ وجدتم فيه ما يخالف العقل ، فناقشونا به ، القرآن الكريم يدعو إلى الزواج ، وينفي الإباحية ، ويحرِّم الزنى ، ويحرِّم الفواحش ، القرآن الكريم يدعو إلى النشاط ، وإلى العمل ، وإلى الجدِّ ، وإلى الكفاح ، ولا يريد منَ الناس أنْ يعيشوا على غرار البهائم ، مِنْ أجل إباحية يتراءى خيالها فيما بينهم ، لا ياسائلي ، الإسلام عاقلٌ ، بل إنَّ العقل فيه ، ولنْ تجده في سواه .

يا سائلي :

ليس هذا كلُّ ما لديَّ ، لكنني أريد أنْ أقول لك كلمةً واحدة :

إنْ درستَ أكثر ممَّا درست ، وإنْ وعيْتَ أكثر ممَّا وعيت ـ واعذرني إنْ خاطبتك بهذا ـ فإنك ستصل إلى ما قاله ربِّي للمصطفى ﷺ :

﴿ فاعلمْ أنَّه لا إله إلا الله ﴾ (١١) .

هذه حقيقةٌ لا تقبل الشَّك ، لا تقبل الريب ، لا تقبل المجادلة ، لا تقبل الحوار ، إنها حقيقة تنبثق من كلِّ ذراتك .

إنْ أردتَ أنْ تكون على مستوى التفكير ﴿ فاعلم أنَّه لا إله إلا الله ﴾، واعلم أنَّه لا حُكم إلا من الله، واعلم أنَّه لا صلاحية إلا مِنْ خلال سلوكِ درب القرآن الكريم: ﴿ قلْ هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومَن اتبعني ﴾ (١٢). فمَنْ دعا على بصيرةٍ كان عاقلاً، أمَّا من دعا في السراديب فليس بعاقل.

إنَّ هذا المنبر ليؤكِّد للناس بكلِّ مكان، وفي كل زمان، أنَّ الإسلام يتكلم منْ مكان واضح، وأنَّ الإسلام لا يتكلم في سراديب؛ مِنْ أجل أنْ يوقع في أذهان الناس ما لا يقبله العقل، إنَّ المسجدَ ليشكِّل المنطلق منْ أجل فكرنا، والمسجدُ علامةٌ بارزة في ممرَّات التاريخ، ذلك لأنَّه مفتوح الأبواب لكلِّ منْ أراد أنْ يدخله، وإنَّ المتكلم فيه إنَّما يتكلم بلغةٍ واضحة، قِوامها القرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية الطاهرة.

فهل وجدتَ، يا سائلي، بعد دراستك ما يناقض العقلَ في القرآن الكريم، أو في السيرة المشرَّفة أو في السُّنَّة النبوية المطهَّرة، هل وجدت ذلك يا سائلي؟، قدِّمْ لي معلومةً واحدة تناقض العقل!.

إنَّ العقل ليسجد راضياً في محراب الإسلام، ولا يسجد العقل أبداً في غير محراب الإسلام.

إنَّ العقل ليَسجدُ راضياً مقتنعاً مُجِلاً مُكبِراً معتقداً في محراب الإسلام؛ ليس إلاَّ.

وإنَّه لينهزم منْ أيِّ مكان لا يُعلن فيه الإسلامُ ديناً، وإنَّه لينهزم منْ أيِّ مكان لا يُعلن فيه الإسلام شريعةً حاكمة، سلوا كلَّ مَنْ جرَّب، فإنَّهم

يخبرونكم عن هذه الحقائق التي تتجلّى يوماً بعد يوم .

ولعلك يا سائلي، لعلك ترى نماذجَ غير مقنعةٍ في عالم الإسلام، فإيَّاك وأنْ تحكمَ على الإسلام من خلالهم، إيَّاك وأنْ تحكم على الفكر منْ خلال بعض الأشخاص الذين يطبِّقون الفكر تطبيقاً سيئاً . ما كان هذا تفكيرَ عاقل .

إيَّاك وأنْ تحكم على الإسلام منْ خلال بعض المسلمين، فليس هذا بحكمِ العقل، وإنَّما العقل ليَحكُم على الفكر مِنْ خلال مقوِّماته، ويحكم على الأشخاص مِنْ خلال التزامهم بهذا الفكر، وإلا فحكمك جائرٌ، وحكمك غُيِّبَ فيه العقل .

بعد هذا، هل يمكن أنْ ننصاع لوصايا تَصدر عن غير كتاب الله ؟، هل يمكن أنْ ننصاع لقرارات تُتَّخذ منْ غير معين كتاب الله ؟، هل يمكننا أنْ نتبع مراسيمَ يمكن أنْ تكون صادرةً عن منهلٍ غير كتاب الله ؟ .

لا وربِّ الكعبة .

﴿ فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكِّموك فيما شَجَرَ بينهم، ثمَّ لا يجدوا في أنفسهم حرَجاً ممَّا قضيتَ، ويسلِّموا تسليماً ﴾[١٣] .

إسلامُك وتسليمك عنوانُ عقلك، فاستمرَّ على إسلامك منْ أجل أنْ تؤكِّد عقلك .

إسلامك واتِّباعك لقرآن ربِّك عنوانُ عقلك، فاستمرَّ على قرآن ربِّك منْ أجل أنْ تبرهن على عقلك . يا سائلي الكريم :

هذا بعض ما في الجَعبة، وأرجو اللهَ ـ عزَّوجلَّ ـ أنْ يوفقنا منْ أجل أنْ

نسيرَ على درب العقل، لأنَّ دربَ العقل يوصلنا إلى الإسلام، إلى العبودية لله، إلى اتّباع القرآن الكريم، إلى التأسّي بخير أسوةٍ للبشرية جَمعاء بالمصطفى الكريم ﷺ.

يا ربَّنا أيِّدنا بتأييدٍ مِنْ عندك .

أكرمنا مِنْ أجل أنْ نكون عقلاء ، في كلِّ تفكيرنا ،

في كلِّ سلوكنا ، في كلِّ اعتقادنا .

والحمد لله ربِّ العالمين

الهوامش

(١) رواه أبو داود حديث رقم / ٤٣٩٨/ ج٤ص ٣٩ ، وأحمد ج٦ص ١٠٠ و الحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٢٥٩ ، كلُّهم مِنْ حديث السيدة عائشة رضي الله عنها .

(٢) تبارك / ١٠ .

(٣) القصص / ٥٠ .

(٤) الجاثية / ٢٣.

(٥) المؤمنون / ٩١ .

(٦) الأنبياء / ٢٢ .

(٧) يس / ٧٨ ـ ٨١ .

(٨) رواه ابن خزيمة ، كما ذكر فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين في كتابه : « هدي القرآن إلى الحجة والبرهان ».

(٩) رواه ابن سعد في الطبقات الكبرى ، ج٤ص٢٥٢.

(١٠) سبأ / ٣٨ .

(١١) محمد / ١٩ .

(١٢) يوسف / ١٠٨ .

(١٣) النساء / ٦٥ .



الخطبة الحادية عشرة

الشباب ربيع الأمة



* لا حاجة إلى استحضار أيّ نوع من الأدلة لتأييد الفكرة التي تنطلق منها هذه الخطبة ، وهي مسألة « الشباب » ، ومسؤولية الأمة ـ ممثلةً بأصحاب القرار خاصة ـ نحو الشباب استيعاباً وتوجيهاً .

وما تهدف إليه هذه الخطبة ، ينتظم ضمن خطة وضع اليد على الجرح ، والإشارةِ إلى مكمن الداء من جسد الأمة ، وهي خطة تندرج تحتها خطب كثيرة من خطب أستاذنا الدكتور حفظه الله ، منها سلسلة خطب « أمراضنا » ، و « مظاهر الخواء الروحي » ، و« الإسلام والأسرة » ، وهذه الخطبة « الشباب ربيع الأمة » ، و غيرها .

إنّ كون أمتنا أمّة فتيّة حسب المقاييس السكانية ، إذ تتجاوز نسبة الشباب عتبة الـ ٦٠٪ من إجمالي عدد السكان ، يدعو إلى التساؤل حول خمول وهمود هذه الفئة العظمى من الأمة ، وقصورها الواضح في الإنتاج و الإبداع ، سواءً في النواحي العلمية أو العملية .

ويشكّل ما يعرضه أستاذنا الدكتور من ملامح استيعاب الإسلام للشباب و تغطيته لوجودهم باطناً ،وظاهراً ، وحركة ، يشكل ذلك جرعاتٍ مضادة للعوامل التي أورثت شبابنا خمولهم ، ولا إنتاجيتهم ، ولا فاعليتهم .

إنّ روحاً غيوراً كتلك التي تكتنف كلمات أستاذنا ـ حفظه الله ـ لا بدّ أن تلاحظ عمليةَ التهميش الكبيرة ، والإقالةَ التي يتعرّض لها شبابنا اليوم ، ويمكننا أنْ نحدد أدوات التهميش فيما يلي :

١ ـ إثارة النوازع ، للقضاء على الأخلاق ، وتشجيع المادية الاستهلاكية ، وتزيين التحلل من القواعد الإيمانية و المُثُل الإنسانية .

٢ ـ إشاعة الفوضى في السلوك ، حتى لا يكون هناك عملٌ ،

ولا إنتاجٌ يسدُّ حاجةً، أو يسهم في تقدُّم .

٣ ـ إحلال الغوغائية ـ كما بيَّنا معناها في مقدمة هذا الكتاب ـ محلَّ الفكر ، للقضاء على العلم ، والتزهيد في قيمة التحصيل العلمي ، والتيئيس من ثماره .

٤ ـ إماتة الطموح ، وترويج الأحلام الصغيرة ، فلا التزامَ برسالة أو دعوة ، ولا طموحات كبيرة ، وإنما أهداف عاجلة لا تتعب في مرادها الأجسام .

وتأتي هذه الخطبة في مواجهة أدوات التهميش هذه ، فالإيمان أساس الأخلاق ، وأصل كل فضيلة ، والعمل حربٌ على الفوضى ، والعلم غذاءٌ للعقل ، وميزان الفضل ، وأداة النهوض الكبرى ، والشجاعة والجهاد و التضحية هي التوظيف الصحيح لطاقات الشباب في خدمة الآمال والطموحات الكبيرة ، يُغلِّف ذلك كله الإخلاص ، الذي يعني تحديد الوجهة العليا ، والهدف الحاكم على المسيرة ﴿ وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون ﴾ .

هذا هو الشباب ، ربيع الأمة ، وشبابنا اليوم ـ إناثاً وذكوراً ـ مدعوون معاً ليكونوا ـ بما قدَّمه إسلامهم لهم ـ على مستوى ما تنتظره أمتنا ، فهم وحدهم من يبني لها غدها .

بسْمِ الله الرَّحمَن الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المسلمون :

والرَّبيع هو الشباب ، ومِنْ هنا أحببت الحديث عن الشباب .

وإذا كانت أهميَّةُ الأشياء تتجلّى في وسطها ، فإنَّ ذلك ينطبق على الإنسان في شبابه عمراً وزمناً . فالشباب قدوةٌ لمنْ بعدهم ، ومعتَمدٌ لمن قبلهم ، وإذا استقام الشباب ، استقام بنيان الإنسان ، أعني نوعه . و إذا سقط الشباب ، سقط الإنسان .

ومِنْ هنا قيل : حياةُ الأمم بشبابها ، وموتُ الأمم بشبابها . إنْ كان شباب الأمم شباباً أقوياء عاشت الأمم ، وإلا ماتت .

ولاغرْوَ أنْ نجد وسط القرآن الكريم ومنتصفَه سورةً تحكي عن شباب ، عن فتيةٍ آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى ، لاغرو أنْ تكون سورة الكهف السورة التي تقع وسط القرآن ، ولعل الاستئناس بذلك يدفعنا لقول ما قلنا ، مِنْ هنا جاء سرُّ توجيه الخطاب للشباب .

وإذا كان الشباب طاقة، فلا بدَّ مِنْ استيعابها حركةً دائبة، ولا بدَّ مِنْ توجيهها تطلُّعاً نحو هدفٍ واضح مبين.

١ً ـ وما أروع الإسلام ! يوم نصبَ الهدف واضحاً، ويوم استوعب الشبابَ حركةً، فقال يحدد الهدف في أكثر مِنْ موضع :

﴿ ربِّي الله﴾، ﴿ والله خيرٌ وأبقى ﴾ (١)، [اللهمَّ أنْت ربِّي لا إله إلا أنْت خلقتني وأنا عبدك] (٢)، ﴿بل الله فاعبد وكنْ من الشاكرين ﴾ (٣).

نصب الهدف واضحاً؛ مِنْ أجل أنْ يستوعب تلك الحركةَ الدائبة القوية التي لا تعرف الملل، فلا مجال ـ بعد هذا الوضوح ـ لأي تردُّد في إصابة الهدف، ولا مجال ـ بعد هذا الوضوح ـ لأيِّ تشكُّك في معرفة هذا الهدف.

٢ً ـ وإذا ما انتقلنا إلى الاستيعاب، فإنَّا نجد أنَّ الإسلام غطاك أيُّها الشاب، غطاك تغطيةً رائعة بدعوةٍ صريحة في أثناء كتابه الكريم، وعلى لسان رسوله الكريم ﷺ، وعبر أسوةٍ صحيحة تجلَّت في حياته ﷺ، وفي سيرة أولئك الذين ساروا على دربه، فكانوا ـ بحقٍ ـ أروعَ الأمثلة التطبيقية التي تُضرب اليوم، لشبابٍ يَسْعَوَن لبناء أمتهم بناءً يتناسب والإنسان، بناءً يتناسب والحقيقة التي مِنْ أجلها وُجِد هذا الكون، بناءً يصعد بالإنسان إلى سدَّة قيادة هذا الكون، ليوجِّهه نحو مساره الصحيح، وضِمْنَ هدفه الصادق الذي إنْ عدل عنه كان الكون خراباً، وقُضِي على أصل الإنسان فكان تافهاً حقيراً.

لقد استوعبك الإسلام أيها الشاب :

أ ـ استوعب داخلك بالإيمان والإخلاص .

ب ـ واستوعب ظاهرك بالعمل والعلم .

ج ـ واستوعب نشاطك وقدرتك بالشجاعة والتضحية .

وانظر آيات القرآن الكريم تخبرك عن كلّ ما ذكرنا .

أ ـ استوعب داخلك

وأنْت الذي تبحث عن شيءٍ يقبع في داخلك ، يسدِّد داخلك ، يجعل منك إنساناً متماسكاً في داخلك ، فما أقسى أنْ يبقى الإنسان وداخلُه في ضياع ! ، وما أصعب أنْ يعاني الإنسان فراغاً في داخله ! ، وما أشدَّ مشقَّة ذلك الإنسان الذي ينظر داخله فلا يرى شيئاً ! ، فيحاول عبثاً أنْ يملأه بأنواع اللهو ليحقق بذلك دماراً ، شاء أم أبى .

استوعب داخلك بالإيمان ، فقال : ﴿ الذين آمنوا بالله ورسله ﴾ [٤] ، بالإيمان الراسخ ﴿ إنَّما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثمَّ لمْ يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللهِ ، أولئك هم الصادقون ﴾ [٥] .

سلْ عن تطبيق ذلك ، أيُّها الشابُّ المسلم .

سل المصطفى ﷺ ، ولا أريد أنْ أذكر لك القصص وحسبي أنْ أشيرلها إشارة .

سلْ مصعباً عن إيمانه الراسخ .

سلْ سعداً عن إيمانه أمام أمِّه .

سلْ بلالاً ، والحجر يُوضع على صدره ، وكلمة الإيمان التي انبثقت عن داخله ، تتردَّد على لسانه قويةً صارخة ، تُتْعب الذين أمامه تقول : أحَدٌ، أحَدٌ .

سلْ هؤلاء ، وسل دار الأرقم ، تلك التي حوَت الشَّباب ، إذ كان رسول الله ﷺ في ذلك الوقت قد بلغ الأربعين مِنْ عمُره ، وأبوبكر بلغ السابعة والثلاثين ، وعمر في السابعة والعشرين ، ومِنْ بعدهم كثيرون أولئك الذين كانوا شباباً .

ب ـ بالإخلاص غطِّ داخلك

اقرأ كتاب الله : ﴿ وما أمِروا إلا ليَعبدوا اللهَ مخلصينَ له الدِّين حنفاءَ ويُقيموا الصَّلاة ، و يؤتوا الزكاة وذلك دينُ القيِّمة ﴾ (٦) .

سلْ إخلاص هؤلاء .

سلْ هؤلاء كيف اخلصوا لله ـ عزَّوجلَّ ـ ؟ .

سلْ خالد بن الوليد يوم جاء عزله فقال : (أنا لا أقاتل مِنْ أجل عمر ، بل أنا أقاتل مِنْ أجل ربِّ عمر) .

سل علياً بن أبي طالب يوم لحق المشركَ .

سل أخي المسلم يوم جِيء إلى عمر ، كما يروي ابن جرير ، بسيفِ كسرى مِنْ ذهب ، وبزينة كسرى التي تَعْدل الكثيرَ الكثير ، ووضِعتْ أمام عمر ، فقال عمر : (إنَّ قوماً أدوا هذا لذوو أمانة) ، فقال علي : (يا أمير المؤمنين عففتَ فعفَّت رعيَّتك) .

سلْ جابرَ عثَراتِ الكرام . .
أيُّها الشابُّ سلْ هؤلاء كيف غطّاهم الإسلام شباباً ؟ .

ج ـ غطَّى ظاهرَهم بالعمل

ومَن الذي دعا إلى العمل كدعوة الإسلام ؟ .

اقرأ آيات العمل في القرآن الكريم : ﴿وقل اعملوا فسيرَى اللهُ عملَكم ورسوله والمؤمنون﴾ [٧] ، بل اقرأ أروعَ مِنْ ذلك : ﴿ فإذا فرغتَ فانصبْ، وإلى ربِّك فارغب﴾ [٨]، عملٌ مستمرٌ دؤوب لايعرف الكلل، ولا يعرف الملل .

سلْ تطبيق ذلك في سيرة أولئك ، وفي سيرة مَنْ سار على نهجهم .

سلْ عقبة بن نافع يوم وقف على المحيط الأطلسي ليقول : (اللهمَّ لو أنِّي أعلم أنَّ بلاداً خلف هذا البحر لخضته ، اللهمَّ اشهد أنِّي لاأقول ذلك إلا ابتغاء مرضاتك) .

سلْ قتيبة يوم وقف على حدود بلاد الصين ، فقال له ناصح مثبِّط ، وما أكثر المثبِّطين ، قال هذا الناصح لقتيبة : لقد أوغلتَ يا قتيبة في بلاد الأعاجم ، وأنتَ بين أجنحة الدهر ، لا تعرف ماذا تأتيك مِنْ حوادث . بمعنى ارجع ، ودعك مِنْ هذه الأمور ، فقال له قتيبة : (بثقتي بالله توغَّلت ، و إذا انقضت المدَّة لم تنفع العُدَّة) ، فأجابه : امضِ يا قتيبة فعزيمتك هذه لا يكلُّها إلا الله .

د ـ غطّى ظاهرهم بالعلم

سلْ عن تغطية الإسلام للشباب في ظاهرهم حين دعاهم للعلم، وماأروع دعوة الإسلام للعلم ! ، ومن ذا الذي دعا الآخرين للعلم كما دعا الإسلام أتباعه .

سلْ آيات القرآن كم ذكرت العلم، أكثر مِن ثلاثمائة مرة .

سلْ أحاديث المصطفى ﷺ، بل سلْ طلب ربِّنا ، وأمرَه لرسوله ﷺ : ﴿وقل ربِّ زدني علماً ﴾ (٩).

إسلامنا يحثُّ على العلم، وفي تاريخنا العلماء، وبعدما كان الشعراء يسيطرون بمادةٍ شعريةٍ سخيفة، وجدتَ فيهم أصحاب التشريع، وجدت فيهم ابنَ مسعود، من يُكتب عنه اليوم في ميدان التشريع، ليس على مستوى بلادنا وإنَّما على مستوى العالم .

أصبح فيهم ابن عمر .

أصبح فيهم أبو حنيفة، ذلك الرجل الذي لولا الإسلام ماكان شيئاً، إمَّا أنْ يكون رجلاً يقف على الأطلال يندب الماضي، وإمَّا أنْ يكون رجلاً يتغنَّى بالشعر، كما فعل امرؤ القيس، فبالخمر تارةً، وبالسيف أخرى .

ولكنَّ الإسلام حينما دعاهم للعلم، وجدوا في داخلهم صدىً لهذه الدعوة، في داخل إنسانيتهم استجابةً لهذه الدعوة، فاستجابوا مسرعين، وأقبلوا على ذلك ملبِّين، فوجدتَ فيهم المشرِّع والعالم والفقيه .

أيها الشاب :

سلْ أولئك الذين يكتبون القانون اليوم، ولقد قلت لكم إنَّ عالماً بالقانون

في بلاد الغرب يقول : « لو وكِل إليَّ اليوم أنْ أضع قانوناً مدنياً لتوجَّهت إلى مدوَّنة الإمام مالك، ففيها سأجد كلَّ شيء » .

إنَّ الإسلام غطاك أيها الشاب يوم تريد لعقلك أنْ يتفتَّح .

إنَّ الدراسة اليوم تجري لتعمل مقارنة بين أبي حنيفة وبين أفلاطون، ولكنَّ أبا حنيفة يمتلك مواد تشريعية أكثر مِنْ أفلاطون ؛ لأنَّه اعتمد على معطيات السماء، على القرآن الكريم .

سل الإسلامَ أيُّها الشاب كيف يؤدِّي رسالته إليك ، حينما تريد لعقلك أنْ يكون قوياً ، إنَّه يغطيك بالعلم .

هـ ـ غطَّى قدرتك ونشاطك الجسماني المادي

غطى الإسلامُ، أيُّها الشابُّ، قدرتك ونشاطك، توجُّهَك وتطلعك الجسمانيَّ المادي ؛ حينما دعاك للشجاعة، للتضحية .

دعاك إلى عدم الخوف إلا منَ الله عز وجل :

﴿ ولا يخشونَ أحداً إلا الله ﴾ (١٠) .

﴿ أمْ حسبتمْ أنْ تدخلوا الجنة ولمَّا يأتكمْ مَثَلُ الذين خَلَوْا مِنْ قبلكم، مسَّتْهم البأساءُ والضرَّاء وزُلزلوا حتَّى يقولَ الرَّسول والذين آمنوا معَهُ متى نصرُ الله ، ألا إنَّ نصرَ اللهِ قريبٌ ﴾ (١١) .

أيُّها الشاب :

إنَّ الإسلام دعاك لأنْ تكون شجاعاً ، تَذود عن الوطن الحقِ بسيفك بقلمك بتطلُّعاتك، دعاك لأنْ تكون مضحياً .

وسلْ أولئك، كيف ضحَّى الواحد منهم بكلِّ ما يملك . .

سلْ صهيباً، ذلك الرجل الذي ضحَّى بماله ليعود إلى رسول الله ﷺ .

سلْ زيد بن حارثة، الذي تلقَّى الحجارة عن رسول الله ﷺ في الطائف، وهو يقول : (نفسي فداءٌ لك يارسول الله) .

سلْ أولئك الذين كانوا يقفون مدافعين عن دينهم، يضعون صدورَهم دريئةً لسهام الكافرين .

سلْ أولئك الذين وقفوا، وقد صُلِبوا، والواحدُ منهم كان يردِّد :

ولستُ أبَالي حينَ أقْتَلُ مسلماً   على أيِّ جَنْبٍ كانَ في اللهِ مصرعي

من الذي يعرف سيرةَ الأبطال كتاريخ الإسلام ؟

من الذي غذَّى أمهات الأبطال، بلبنِ القوة كما غذَّاها الإسلام ؟

من الذي أرضعَ الصِّبية، الذين نريد أنْ يكونوا في المستقبل حُماةً لدينهم، حُماةً لوطنهم، كهذا الإسلام ؟ .

إنَّ المرأة في تاريخنا كانت تُرضع الطفل، وفي الوقت نفسه ترضعه الشجاعة ، التضحية، ليس مِنْ أجل امرأةٍ فاجرة، أو أمرٍ دنيوي، إنَّما مِنْ أجل دين الله ـ عزَّوجلَّ ـ .

إنَّ أم أيمن لما بكتْ على فقدان رسول الله ﷺ، سُئلت ما الذي يبكيك ياأمَّ أيمن ؟ . فقالت :

(لا أبكي على فقدان جسم رسول الله ﷺ، ولكنْ أبكي على الوحي انقطعَ من السماء) .

إنَّها امرأةٌ إنْ أرضعتْ ؛ أرضعتْ لبناً صافياً، و إنْ أعطتْ ؛ أعطتْ قوةً

صافية، إنَّها امرأةٌ إنْ ربَّتْ ؛ ربَّتْ جيلاً كان مِنْ جملتهم ابن الزبير، وكان مِنْ جملتهم مَنْ ذكرنا .

أيُّها الشاب : إنَّ الإسلام غطَّاك بكليَّتك .

وبعد ذلك، قلْ لي بربِّك : ما الذي يدعوك للابتعاد عنه ؟! . اللهمَّ إلا في حالةٍ واحدة ، إنْ أردت الهروب مِنْ تَبِعات الإنسان، عند ذلك إنْ رضيت لنفسك هذا التبرير فابتعدْ عن الإسلام، ولن يدخل الإسلامَ إنسانٌ يبحث عن الهروب مِنْ تَبِعات الإنسانية .

إنَّ الذين يهربون مِنْ الإسلام إنَّما يهربون لجهلٍ تركَّز في داخلهم، أولعداوةٍ تأصَّلت في أفئدتهم، جرَّاء منفعةٍ خُدعوا بها، جرَّاء منفعةٍ لُوِّح بها أمام أعينهم، فحسبوا الدنيا خارجةً عنهم إنْ لم يحوزوها، وما علموا أنَّ الدنيا ستنتهي وإنْ طالت .

سل التاريخ كيف يحكم على الكثيرين أمثالك، كيف لفَّهم بثوبه، وأنت ستُلَفُّ بأحد ثوبين :

إمَّا ستُلَفُّ بثوبِ النقاء والطهر، بثوب الشجاعة، بثوب التضحية ؛ وهنيئاً لك مهما عشت .

وإمَّا ستلفُّ بثوب الوقاحة، وثوب الحقارة والدناءة والسواد، عند ذلك يا حسرتاه على ما فرَّطتَ في جنب الله، وعند ذلك لاتَ ساعةَ مندم .

أيُّها الشباب :

تذكروا أنَّكم بالإسلام ستجدون ذاتكم، تذكروا أنَّكم بالإسلام ستجدون هويتكم .

تذكَّروا أنَّ الذي يمنحكم قوة الشباب ونشاطه ، إنما هو ذلك الذي ولِد في الربيع ﷺ، وماكانت ولادته في الربيع عبثاً ، ولكن مِنْ أجل أنْ يفكِّر الشباب يوماً بعد يوم، ساعةً بعد ساعة، لحظةً بعد لحظة :

إنَّ حياةً لا يكتنفها الإسلام، ولاترفرف فيها رايات القران

إنَّما هي حياةٌ فارغة .

قولوا نحن مسلمون ،

وسلوا الله أنْ يثبِّتكم على ذلك ، في الدنيا والآخرة .

نِعْمَ مَنْ يُسأل ربُّنا، ونِعْمَ النَّصير إلهنا .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) طه / ٧٣ .

(٢) رواه البخاري، حديث رقم/ ٥٩٤٧/ ج٥ص٢٣٢٥ .

(٣) الزمر / ٦٦ .

(٤) النساء/ ١٥٢ .

(٥) الحجرات/ ١٥ .

(٦) القيمة/ ٥ .

(٧) التوبة/ ١٠٥ .

(٨) الشرح/ ٧ ـ ٨ .

(٩) طه/ ١١٤ .

(١٠) الأحزاب/ ٣٩٠ .

(١١) البقرة/ ٢١٤ .



الخطبة الثانية عشرة

حب الحسين حب للشهادة



* إنَّ الحق ثابت مصون ، ومحفوظٌ بنفسه ، وواضحٌ لمن أراده ، غير أنَّ الفكرة إذ تتجسَّد في إنسانٍ يحملها و يتمثلها ، ويدافع عنها ، فإنَّها تصبح أقربَ للناس وأكثر التصاقاً بهم وأشد ثباتاً .

ولقد سُئلتْ السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ فقالت : « كان خُلُقه القرآن » ، أي لقد كان فكرةً متحركة تعيش بين الناس ، ويلاحظونها بكل حواسِّهم ، في مقابل « القرآن » ، الذي هو الفكرة نفسها ، مكتوبةً أومتلوَّة .

وإنَّ هذا الحبُّ الذي أمرنا به رسول الله ﷺ حيال آل بيته الكرام عليهم السلام ، إنما هو الحبُّ للمبدأ ، الحبُّ للإسلام ، الذي رُؤيَ فيهم أقوى ما يكون فهماً ، ومعايشةً ، ودعوةً ، وجهاداً في سبيله ، واستشهاداً .

وإنَّها لرؤيةٌ تجد منطلقاً لها في هذا الاقتران بين القرآن الكريم وآل البيت ـ عليهم رضوان الله ـ الذي أعلنه رسول الله ﷺ :

[كتاب الله وعترتي أهل بيتي ، لن يفترقا حتى يَردا عليَّ الحوض]

ومن هنا كان عنوان هذه الخطبة : « حبُّ الحسين حبٌّ للشهادة » ، إذ الشهادة قمةُ ما يمكن أن تصل إليه علاقة الإنسان بالمبدأ ، وحبُّ الحسين عليه السلام ، حبٌّ لما مثَّلته هذه الشخصية الرائدة من قيم سامية ، وأفكار إنسانية نبيلة . فلقد كانت حياته ـ عليه السلام ـ سلسلةَ مواقف جريئة تنتظم كلها في خط الدعوة إلى الحق ، والدفاع عنه ، وفي سبيل ذلك كان استشهاده ، إنَّه الحسين بن فاطمة وعلي عليهم بركات الله ، حامل لواء المظلومين ، والذائد عن حياض المساكين ، وجذوة ثورات المقهورين .



بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْم

أمّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

باجتنابِ المعاصي تُدفع النَّارُ، وبفعلِ الفرائض تُنال الجنَّة، وبالحبِّ نحظى بالقرب، ومَنْ حظيَ بالقرب كان موضع عنايةٍ إلهيةٍ ورعايةٍ ربانية .

[فإذا أحبَبْته - هكذا يقول الله جلَّ وعلا في الحديث القدسي الصحيح - فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمع به ، وبصرَه الذي يُبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجلَه التي يمشي بها ، ولئنْ سألني لأعطينَّه ، ولئن استعاذني لأعيذنَّه] (١) .

نعم بالحبِّ تحظى ، أخي المسلم ، بالقربِ منَ الله - عزَّوجلَّ - ، ولعلك تسألني عن موضع الحبِّ ، وعن موضوعه ، فإنِّي أقول :

والحبُّ ما لمْ يكنْ لله أعظمُه لا خيرَ فيه ، فلولا الله ما عُرِفَا

فإنِّي قائل لك : أحبَّ الله ، أحبَّ رسوله ، أحبَّ آل بيتِ رسوله ، أحبَّ الصحابة ، أحبَّ الأنبياء ، أحبَّ الصالحين ، فإنَّك بذلك ستصل إلى القرب

بفضل الله، وعطائه ومَنِّه وغفرانه ورضوانه ومحبَّته .

مِنْ بين هؤلاء الذين أُمِرنا أنْ نحبَّهم، اخترتُ واحداً منهم فعساي، عساي أنْ أنقل حبَّه لقلبي، وأنْ أثبِّته فيه، وأنْ أنقل حبَّه لقلوبكم، وإنِّي أعلم بأنَّكم تحبُّون، وأنْ أثبِّته فيكم .

إنَّه حبُّ الحسين رضي الله عنه وأرضاه، ولقد اخترتُه لسببين اثنين :

أمَّا السبب الأول :

فلأنَّني تشرَّفت بزيارة روضهِ في القاهرة، والحسينُ، هناك رضي الله عنه وأرضاه .

وأمَّا السبب الثاني :

فلأنَّ ذكرى مولده ستكون خلال أيام الأسبوع القادم .

إنَّهما سببان منْ أجل الحديث عن حبِّ الحسين ـ رضوان الله عليه ـ وسلاماته عليهم جميعاً .

أيُّها المحبُّون لرسول الله وآل بيته :

ما أروع أنْ نبدأ حبَّه، حبَّ الحسين، بحبِّ آل البيت! لنذكر الحديث الذي يُروى في الصحاح يوم خرج رسول الله ﷺ وعليه عباءة مرجَّلة (٢) منْ شعرٍ أسود، فجاءه الحسن فأدخله فيها، وجاءه الحسين فأدخله فيها، وجاءه عليٌّ فأدخله فيها، وجاءته الزهراء فأدخلها فيها، وقال :

[اللهمَّ هؤلاء أهل بيتي و خاصَّتي، أذهب عنهم الرجسَ وطهِّرهم تطهيراً] (٣) . ﴿ إنَّما يريد الله ليُذهبَ عنكم الرِّجس أهلَ البيتِ ويطهِّركم تطهيراً ﴾ (٤) .

إنَّه الحبُّ لآل بيت رسول الله عليهم السلام ؛ وبعد ذلك إذ ننتقل إلى ضرورةِ الحبِّ فلقد أمِرنا بذلك .

وها هو النبي ﷺ يقول :

[أحبُّوا الله لما يغذوكم من نِعَمه ، وأحبُّوني لحبِّ الله ، وأحبُّوا آل بيتي لحبِّي] (٥) . إنَّه حديثٌ في الترمذي .

ويقول ﷺ :

[و الذي نفسي بيده ، لايدخل قلبَ رجلٍ الإيمانُ حتَّى يحبَّكم ـ يعني أهل البيت ـ لله ورسوله] (٦) .

إنَّها دعوةٌ ، من أجل أنْ ننفيَ عن أنفسنا النفاقَ والكفر والبغضاء ، حتى ننظرَ قلوبنا ، من أجل أنْ نوجِّهها لحبِّ آل بيت رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم وعليهم سلاماته .

ويقول ﷺ كما في الترمذي :

[مَنْ أحبَّني ، وأحبَّ هذين ، وأباهما ، و أمَّهما ؛ كان معي في درجتي يوم القيامة] (٧) .

إنَّها مسيرةُ الحبِّ الظافرة ، فمنْ لم يَعشْ الحبَّ لربِّه ، ولرسوله ولآل بيته ، وللأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين ، فلا يمكن أنْ يكون ظافرَ المسيرة .

أمَّا أنت أيُّها الإمام ، يا أبا عبد الله يا سيِّد الشهداء ، فما أروع المقالات فيك ! مقالاتِ المصطفى جدِّك ﷺ يوم قال عنك وعن أخيك الحسن ـ رضي الله عنكما ـ : [إنَّ الحسن والحسين هما ريَحانتاي من الدنيا] (٨) ،

وإنَّه لحديث في البخاري . ويقول ﷺ : [الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنة] [٩] .

وأمَّا عنك بالذات، يا أيُّها الإمام ، ياأبا عبد الله، يا سيِّد الشهداء، فإنَّه يقول ﷺ، كما في النسائي ومسند الإمام أحمد : [منْ سرَّه أنْ ينظرَ إلى سيِّدِ شباب أهل الجنة ؛ فلينظر إلى الحسين] [١٠] .

ويقول ﷺ، في حديث يرويه النسائي والترمذي :

[حسينٌ منِّي، وأنا منْ حسين] [١١] .

ويقول ﷺ عن الحسن والحسين، كما في مسند الإمام أحمد :

[اللهمَّ إنِّي أحبُّهما فأحبَّهما وأحبَّ منْ يُحبُّهما] [١٢] .

ولقد كان الحسين ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ مدللاً عند المصطفى ﷺ، فلقد كان يأتي النبيَّ ﷺ وهو صغيرٌ ليجلسه المصطفى ﷺ في حِجره، وتدخل أصابعُ الحسين لحيةَ المصطفى ﷺ، ويقوم المصطفى ﷺ فيفتح فمَ الحسين، ويضع فمَه في فم الحسين، ويقول :

[حسينٌ منِّي وأنا من حسين، أحبَّ اللهُ منْ أحبَّ حسيناً، حسينٌ سبطٌ من الأسباط] [١٣] .

إنَّه الإمام الشهيد، سيِّد الشهداء، إنَّه أبو عبد الله، ناصر الحق، والدَّاعي إليه، إنَّه الإمام الذي ينبغي أنْ يكون قدوةً أمام شبابنا ، في عالمٍ يحتاج إلى الاقتداء بالحسين.

وإنَّ شباباً لايلتفتون إلى سيِّد شباب أهل الجنة، إلى مَنْ حبُّه فرضٌ علينا ؛ شبابٌ ينبغي أنْ يُنبَّهوا في كلِّ وقتٍ، وفي كلِّ آن .

يا أيُّها الشباب :

إنَّ قدوةً تعني الحسين ، هي قدوةٌ رائعة ، إنَّ التأسِّي حينما يعني تأسياً بالحسين هو تأسٍ رائع .

يا شبابنا :

الحسين كان سيداً في هذه الحياة الدنيا ، وسيؤول إلى مقام الشهادة في الجنة .

ياشبابنا :

نحتاج إلى قراءةِ قدوتنا ، إلى قراءةِ الأسوة ، إلى قراءةِ مَنْ أمرنا الله أنْ نسير على دربهم ، وأنْ نحبَّهم .

ياشبابنا :

إنَّ أبابكر الصديق - رضي الله عنه - وأرضاه قال كما في البخاري :

(ارْقُبوا محمَّداً ﷺ في أهل بيته) (١٤) .

ويقول رضوان الله عليه :

(واللهِ إنَّ قرابةَ رسول الله أحبُّ إليَّ مِنْ قرابتي) (١٥) .

إنَّه أبو بكر - رضي الله عنه - الفاهم العاقل .

ياشبابنا :

إنَّ أردتم البطولة ، ففي صفحات سيرة الحسين ، إنْ أردتم الرجولة ، ففي صفحات سيرة الحسين ، إن أردتم ياشبابنا أن تعلموا كيف تكون الثورة ، منْ أجل الله - عزَّوجلَّ - ، ومن أجل الانتصار لكرامة الإنسان ؛ ففي صفحات سيرة الحسين .

ياشبابنا :

إنْ أردتـم المثاليَّة في مسيرةِ الشباب ، والتضحيةَ منْ أجل المبدأ ، منْ أجل الحقِّ ، منْ أجل الخير ، منْ أجل الفضيلة ، ففي صفحات سيرة الحسين .

[حسين منِّي وأنا مِنْ حسين] ، هكذا يقول ﷺ .

حسين منِّي نسلاً واتِّباعاً والتزاماً وذريةً ، وأنا مِنْ حسين ولاءً ورعايةً ، أنا مِنْ حسين مكانةً وتقديراً ، أنا مِنْ حسين ، مِنْ أجل أنْ يكون امتداداً لخطِّي الذي تركتُ الأمةَ عليه :

[و أنا تاركٌ فيكم الثَّقلين ؛ كتابَ الله وعِترتي أهلَ بيتي] (١٥) .

أيُّها الشباب :

هل منْ عودةٍ ، منْ أجل حبِ ظافر؟ منْ أجل مسيرةِ حبِ فاعل ؟ .

هل منْ عودةٍ ، منْ أجل أنْ نضع في أذهاننا أولئك الرجال الذين سطَّروا أروع الأمثلة في كلِّ مجالات الخير ، فكانوا السَّادةَ في الدنيا ، وكانوا السَّادة في الآخرة ؟ .

أيُّها الشباب :

هل منْ عودةٍ منْ أجل أنْ نقرأ سيرة أولئك ، حتى نعيش وأذهانُنا ملأى بأولئك الذين صنعوا لنا التاريخ المنوَّر ؟

إنَّ أذهان شبابنا تحتاج في كلِّ عصر ، وفي كلِّ آوان إلى اتِّقاد ، تحتاج إلى نورانية ، تحتاج إلى ضياء ، وذلك مِنْ خلال ملْئها ـ ياشبابنا ـ بسيرة أولئك الذين ارتضاهم اللهُ ـ عزَّوجلَّ ـ لنا أسوةً وقدوة ، ودعانا إلى حبِّهم ، ودعانا إلى السَّير على دربهم وطريقهم .

أيُّها الشباب :

الحسين سيبقى رائداً ، فهيَّا على طريق الحسين .

أيُّها الشباب :

إنَّ الحسين رضي الله عنه وأرضاه سيبقى النموذجَ لشبابنا لن نعدل عنه ، ولن نرضى به بدلاً .

أيُّها الإخوة ، أيُّها الشباب :

إلى قراءةِ سيرة أولئك ، إلى قراءة سيرة أولئك الذين نوَّروا لنا التاريخ ، بأروعِ السجلات وأجمل الصفحات ، إلى قراءة سيرة أولئك ، منْ أجل أنْ ننهضَ مِنْ وهدتنا ، فقلوبنا غطَّت عليها كثافةُ المادة ، فلم نَعدْ نشعر بالحبِّ ولم نعدْ إلا مِنْ أولئك الذين يسعون لتدبير شؤون الحياة بمعزلٍ عن الآخرة ، وإنَّ الآخرة قريبةٌ منَّا ، وإنْ لم نتفكَّر بها ، ونحن نعيش ذكرى أولئك ، فإنَّ الأمر قاسٍ ، ورب الكعبة ، وإنَّ الأمر شديد .

ألا أيُّها الإخوة ، يا شبابنا : فلنستيقظ بعد أنْ كدنا نموت .

فلنستيقظ ياشبابنا على التضحية والفداء .

فلنستيقظ ياشبابنا على الحبِّ والوفاء .

فلنستيقظ ياشبابنا على القرآن والسُّنة .

فلنستيقظ يا شبابنا على بناء الوطن ، مِنْ خلال محبَّتنا لربِّنا ، ولرسوله ، ولآل بيته ، ولصحابته ، وللصالحين .

فلنستيقظ ياشبابنا ، قبل أنْ يأتي غيرنا ليمارس علينا كلَّ ما تدفعه إليه المادةُ الطاغية .

أيُّها الشباب :

إنَّ الحسين لا يرضى منَّا أبداً أنْ نطأطئ الرأس لأولئك الذين يعتدون علينا .

إنَّ الحسين لا يرضى منا استسلاماً .

إنَّ الحسين لا يرضى منَّا أنْ نكون مخاتِلين في حياتنا .

إنَّ الحسين يريد منَّا وضوحاً في الحق لنقول لكلِّ الدنيا : لاتنازلَ عن حقٍ ولا استسلام ، ونحن نستمسك بعروة الحق .

إنَّ الحسين يدفعنا منْ أجل أنْ نقول للمعتدين ، لإسرائيل ، لكلِّ منْ يعتدي على أراضينا :

أيَّتها الباغية ، أنتِ باغيةٌ في أراضينا ، أيَّتها الفاجرة ، أنت فاجرةٌ في سلوكك ، أيَّتها المعتدية ، أنت معتدية في مكانك هناك ، ولا يمكن أبداً أنْ نعيش ونحن نرفع راياتِ الذلِّ معك ، وإنَّما عَيْشُنا معك جهادٌ ، رسم معالمه لنا سيِّدُ الكائنات ﷺ ، وطبَّقه وسار عليه إمامنا الحسين رضي الله عنه وأرضاه .

أيُّها الإخوة :

إنْ سُئِلنا إلى مَنْ ننتمي ، فنحن منتمُون لديننا .

وإنْ سُئِلنا عنْ كتابنا ، فنحن منتمون للقرآن الكريم .

وإنْ سُئِلنا عن رجالنا ، فنحن منتمون لأبي بكر وعمر ، ولعليٍّ والحسين والحسن وحمزة ، نحن منتمون لهؤلاء ، لزين العابدين وجعفر .

نحن منتمون لأولئك الذين كانوا قناديل الدنيا ، كانوا الشمسَ في سماء

هذه البسيطة، كانوا الضياء، وإنَّهم ليقدِّمون المثال تلوَ المثال، حتى تمضيَ هذه الأمة، وهي ظاهرةٌ على الحق لتلقى الله وهو عنها راضٍ .

تذكَّروا ما قاله النبي ﷺ في الحسين، وهو يخاطب الدنيا بأسرها :

[اللهمَّ إنّي أحبُّ الحسين فأحبَّه، وأحبَّ مَنْ يحبُّه] .

اللهمَّ إنَّا نُشهدك أنَّا نحبُّك، ونحبُّ رسولك، ونحبُّ آل بيته

ونحبُّ الصحابة، ونحبُّ التابعين،

ونحبُّ الحسين صاحبَ الذكرى .

اللهمَّ اشهدْ بأنّنا نحبُّ الحسين، اللهم اجعلنا كما قال رسولك،

ممَّن يموت على حبِّ آل بيته ، حتى نكون شهداء .

نِعْمَ مَنْ يُسأل ربُّنا، ونِعْمَ النَّصير إلهنا .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) رواه البخاري ،حديث رقم / ٦١٣٧ / ج ٥ ص ٢٣٨٤ .

(٢) مرجلة : يعني مرسلة .

(٣) رواه الترمذي حديث رقم / ٣٨٧١ / ج ٥ ص ٦٩٩ وقال حديث حسن و أحمد ج ١ص ٣٣١ .

(٤) الأحزاب / ٣٣ .

(٥) رواه الترمذي حديث رقم/ ٣٧٨٩/ ج ٥ ص ٦٦٤ وقال حسن غريب، والحاكم في المستدرك ج٣ص١٤٩ .

(٦) رواه الترمذي حديث رقم / ٣٧٥٨ / ج ٥ ص٦٥٢ وقال حسن صحيح وأحمد ج ٤ ص ١٦٥ .

(٧) رواه الترمذي حديث رقم / ٣٧٣٣ / ج٥ص١ ٦٤ وقال حسن غريب و أحمد ج ١ ص ٧٧ .

(٨) رواه البخاري حديث رقم / ٣٥٤٣ / ج٣ص٣٧١، والترمذي حديث رقم / ٣٧٧٠/ ج ٥ ص ٦٥٧ .

(٩) رواه الترمذي رقم / ٣٧٦٨/ ج٥ص٦٥٦ ، والحاكم ج٣ص١٦٦ .

(١٠) أخرجه أبوحاتم كما في ذخائر العقبى ص ١٢٩ ، وأبو يعلى في مسنده كما في مجمع الزوائد، وقال سنده صحيح ، ج٩ص٣٠٠ .

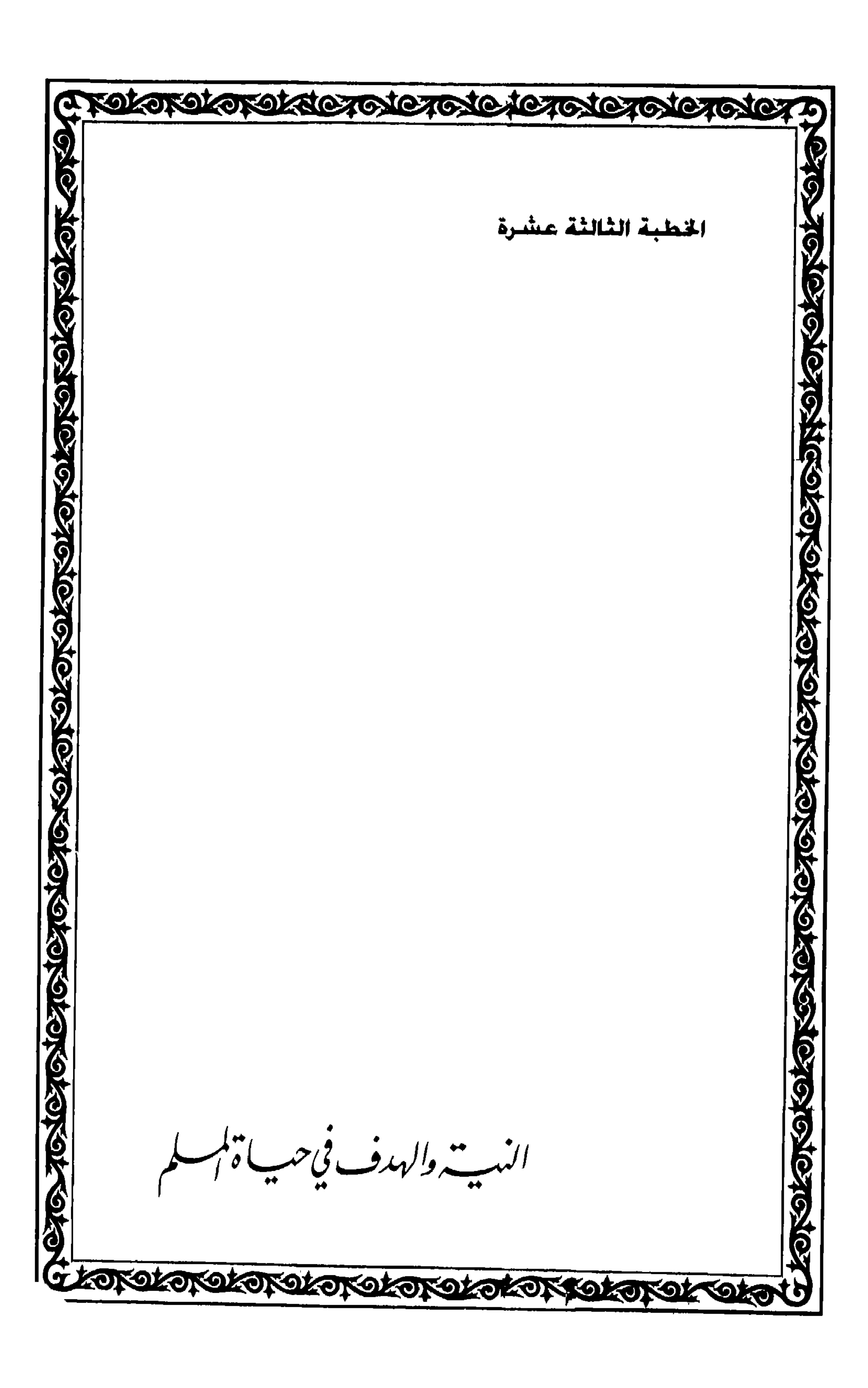
(١١) رواه الترمذي رقم / ٣٧٧٥ / ج٥ ص ٦٥٨ ، و أحمد ج ٤ ص١٧٢ .

(١٢) رواه الترمذي رقم / ٣٧٦٩ / ج ٥ ص٦٥٦ . والحاكم في المستدرك ج٣ص١٦٦

(١٣) رواه الترمذي، حديث رقم / ٣٧٧٥ / ج ٥ ص ٦٥٨ .

(١٤) رواه البخاري، حديث رقم / ٣٥٤١ / ج ٣ ص ١٣٧٠ .

(١٥) رواه مسلم حديث رقم / ١٧٥٩ / ج٣ ص١٣٨٠ ، والترمذي حديث رقم / ٧٨٨ / ج ٥ ص٦٦٣ ، وأحمد ج٤ص٣٦٦.



الخطبة الثالثة عشرة

النية والهدف في حياة المسلم



* إن هذه الخطبة، بالإضافة إلى الخطبتين الرائعتين : « هدف التعليم » ، و « أين تكمن إنتاجية الإسلام » تشكل مخططاً فريداً لنهوض مَرْجوٍّ ، ورقيٍّ منشود ، وانطلاقةٍ واعية .

غير أن هذه الخطبة التي نحن بصددها الآن ، هي العمود وعليها البناء، وفيها نجد تأصيلاً متيناً لنظرية الإخلاص الإسلامية ، والتي لم نعهد أنّ أحداً من المفكرين الإسلاميين قام بمثل هذا الطرح المتّسم بالعمق والبساطة في آنٍ واحد .

وفيها التأكيد على قيمة الدين المركزية في حياة الإنسان ، فالدين هو الذي يعطي للحياة المعنى والقيمة ، إذ يَخطّ للإنسان الهدف ، والطريق إلى الهدف .

وهنا نجد ، ولأول مرة التفريقَ الدقيق بين مصطلح « الهدف »، ومصطلح « الغاية »، وبذلك يكون لوجود الإنسان معنى ، فلا تبدو الولادة والموت ، وما بينهما ، ومابعدهما ، ألغازاً ؛ بل حلقاتٍ في سلسلة الحياة اللامتناهية .

وربما كانت هذه القضية بالذات نقطةَ علام جوهرية، تبرز أهمية الإسلام وضرورته ، فالوضعية المادية ـ كما يقول محمد أركون ـ قد قلّصت عالم الأشياء والبشر إلى مجرد وقائع وقوانين ، وفي مواجهة ذلك ترسم لنا هذه الخطبة الهدفَ وتحدد الغاية .

(نحن نعلم أنّ التكنوقراط يطرحون دائماً مسألة : كيف ؟ ، ولا يطرحون أبداً مسألة : لماذا ؟ ، ولكن ينبغي أن نذكرهم ، أنّ التقنية من أجل التقنية ، والعلم من أجل العلم، والفن من أجل الفن، والحياة من أجل اللاشيء ؛ كل ذلك يعني النسيان القاتل للمبدأ الأساسي

التالي : « ضرورة إخضاع الوسائل للغايات » ، وليس العكس ، إنَّ العودة لهذا المبدأ ، و الإلحاح على أهمية « المعنى » و « الهدف » يعني استذكار الله) .

محمد أركون : « الإسلام والأخلاق والسياسة »، ص / ٢٢٤ / .

بسْمِ الله الرَّحمَن الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

العمل ، وأعني به العملَ الإنساني يتكون مِنْ : هدفٍ وسلوكٍ ونيَّةٍ ، وإنْ شئتم الترتيب قلت : يتكون مِنْ نيَّةٍ وسلوكٍ وهدفٍ . و إنَّ عملاً مِنْ دون نيَّةٍ عملٌ مبتور ، وإنَّ عملاً مِنْ دون هدفٍ عملٌ مهجور ، والنيَّةُ والهدف حاكمان على العمل صحةً وخطأً ، وجوداً وعدماً .

﴿ وقَدِمْنا إلى ما عملوا مِنْ عملٍ فجعلناه هباءاً منثوراً ﴾ [1] . لأنَّه لم يكن بنيَّةٍ صحيحة ، ولم يتَّجه إلى هدف قوي .

وإذا ما أردنا أنْ نتحدث عن النيَّة والهدف تعريفاً ، أي مِنْ حيث التعريف ضمن قوالبِ الإسلام وقواعده قلنا :

١ ـ إنَّ النيَّة هي المنطلقُ الداخلي للسُّلوك ، والباعثُ الذي يقبع قبل بداية السُّلوك ، ويستمرُّ معه إلى نهايته .

هذا المنطلق ، وهذا الباعث وبكلٍّ وضوح هو الله عزَّوجلَّ ، ومِنَ الله ينطلق السُّلوك، ومِنَ الله يبتدأ .

٢ ـ والسُّلوك أمرٌ نظريٌ وعمليٌ، والله ـ عزَّوجلَّ ـ يقول : ﴿ إقرأ باسم ربِّك الذي خلق ﴾ (٢)، لتكنْ البداية للقراءة مِنْ ربك، وليكن العمل الذي يأتي ترجمةً للقراءة ـ مِنْ بابٍ أولى ـ مِنْ ربك أيضاً ، فهذه هي النيَّة .

٣ ـ أمَّا الهدف فهو الأمر الذي يُراد تحقيقه بعد السُّلوك في الدنيا والآخرة .

ـ أمَّا في الدنيا، فإنَّ هدف الإنسان حين يعمل ، أنْ يكون سلوكه هذا قد وقع وفْقَ التَّصور الصحيح المنبثق عن الأمر الإلهي، و النابع عن التكليف الذي جاء عن أمر ربِّنا ، بصورتَيْه القرآنيَّة والحديثية الشَّريفة ، هذا في مجال الدنيا .

﴿ اتَّقوا الله وقولوا قولاً سديداً ﴾ (٣)، أيْ موافقاً لما أمر الله عزَّوجلَّ، مِنْ خلال القول، ومِنْ خلال العمل، ومِنْ خلال اللفظ، ومِنْ خلال السُّلوك، ومِنْ خلال الحديث، ومِنْ خلال التحرك .

ـ وأمَّا في الآخرة، فلا يعدو أنْ يكون هدفنا حينما نعمل، ولا يعدو أنْ يكون هدفنا حينما نسلك ؛ إلا القبولَ المرجوَّ، ونرجو الله ـ عزَّوجلَّ ـ أنْ يكون سلوكنا، وأنْ يكون عملنا مقبولاً عنده، والثوابُ بعد القبول حاصلٌ غير مقصود .

إنَّما نهدف أنْ يكون العمل مقبولاً ، فإذا ما قبل الله أعمالنا فقد حقَّقنا هدفنا بلاشك ، وإذا ما قبل الله لنا أعمالنا فقد حقَّقنا الهدف النبيل ، الذي

يحقِّق بذلك إنسانيتَنا ووجودنا .

هذه النيَّة وهذا الهدف، مِنْ خلال الترجمة الإسلامية لهما، ومِنْ خلال التعريف الإسلامي لهما، نستطيع أنْ نتحدَّث عنهما بشيءٍ منَ التفصيل أيضاً :

نستطيع أنْ نتحدث عن النيَّة التي تشكل جزءاً أساسياً منَ العمل، كما ألمحنا في بداية الحديث، نستطيع أنْ نتحدث عن النيَّة ،تلك التي إذا صُبَّت في قوالب الإسلام غدت مِنْ حيث المصطلح إخلاصاً، والله عزَّوجلَّ حينما قال: ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا اللهَ مخلصين له الدِّين ﴾ (٤)، أراد بذلك أنْ يتوجَّه إلى النيَّة التي تشكل جزءاً من العمل .

والمصطفى ﷺ دعا إلى أنْ تكون النيَّة جزءاً أساسياً منَ العمل، بل الجزء الأهم منْ هذا العمل، مِنْ خلال حديثٍ صحيح صريح يرويه البخاري ومسلم، وكلنا يعلمه :

[إنَّما الأعمال بالنيَّات وإنَّما لكلِّ امرىءٍ ما نوى] (٥) .

والفقهاء في كتبهم يقولون: منْ صلَّى بدون نيَّة فلا صلاة له، ومَنْ صام مِنْ دون نيَّة فلا صيام له، ومَنْ حج مِنْ دون نيَّة فلا حج له، ومَنْ قام بأيِّ أمرٍ عباديٍّ مِنْ دون نيَّة فلا يمكن أنْ يحقِّق الهدفَ المرجوَّ من الأمر العباديِّ ذاته، المنبثق عن قرآن ربِّه، عن حديث مصطفاه ﷺ .

أيُّها الإخوة المؤمنون :

هذه هي النيَّة ، وهذا هو الهدف، واليوم ـ لن أقول ويحَ اليوم ـ يتخبَّط الناس في الشرق والغرب، يتعثرون، يبحثون عن نيَّة سابقةٍ للسلوك،

وعن هدف يُراد تحقيقه بعد السُّلوك، فلا يجدون شيئاً.

في عالم اليوم، وبكلٍّ بساطة، سلوكٌ منفصلٌ عن النيَّة والهدف، وإنْ وجدا فهما قاصران، لأنَّ الإنسان لايمكن أنْ يحدد نيَّةً لإنسان مثله، إذ الإنسان في وجوده المادي صغيرٌ وصغير جداً، ولكنَّه بانتمائه مِنْ خلال نيَّته لله عزَّوجلَّ، ومِنْ خلال هدفه لله ـ عزَّوجلَّ ـ، يكبر ويكبر حتى يغدو محبوباً لربِّ العزة جلَّت قدرته.

وإذا ما أحبَّه الله إذاً فما أكبرَه! وما أعظمه! وما أجمله! وما أروعه!.

أخبروني أيُّها البشر عن نيَّة لسلوككم، وعن هدف لسلوككم، فإنْ وُجِدت النيَّة، ولا بدَّ، فليست كبيرةً، كما هو الله، وإنْ وجِد الهدف فليس عظيماً كما هو القبول عند ربِّ العزة ـ جلَّت قدرته ـ الذي خلقك فسوَّاك فعدلك.

إنْ وُجِدتْ النيَّة، ولا بدَّ، وقد يتحدَّث غير المسلمين، غير الذين يؤمنون بالله، عن النيَّة، فإنْ تحدَّثوا عنها، فستجدونها أيُّها العاقلون صغيرة، إنْ لم تكن حقيرة.

وإنْ تحدَّثوا عن الهدف، وجدتموه محصوراً في حدود هذه الدنيا، ولم يتجاوزوها إلى آخرةٍ هي أقوى مِنَ الدنيا، في الوجود، وهي أقوى مِنَ الدنيا في نسبة الحياة فيها:

﴿وإنَّ الدارَ الآخرة لهِيَ الحيوان لوكانوا يعلمون﴾ (٦).

أيُّها الشباب المسلم:

مِنْ خلال نيَّة حدَّدَ معالمَها الإسلام، ومِنْ خلال هدفٍ حدَّدَ قواعدَه

الإسلام، وحقّق رؤيتَه الإسلام، تستطيع أنْ تكون إنساناً فريداً، ومِنْ هنا كان سلوكك متميزاً، ومِنْ هنا كان عملك متميزاً، ومِنْ هنا أيُّها الإنسان المسلم كنت متميزاً، لأنَّ الآخرين لن يصلوا إليك، ماداموا بعيدين عن الله عزَّوجلَّ، بعيدين عن ربط النيَّة والهدف بالله عزَّوجلَّ.

أيُّها الإنسان:

بالنيَّة و الهدف الإسلاميَّين تقضي على ترددك، فكم مِنْ سلوكٍ ضاع لأنَّه لا نيَّة له، ولا هدفَ له! وكم مِنْ سلوك تبعثر لأنَّ النيَّة فيه ضائعة، ولأنَّ الهدف فيه ضائع!.

كم مِنْ عملٍ إنساني كان بنيَّته الإسلامية، وبهدفه الإسلامي يمكن أنْ يحقق للإنسان وجوداً رائعاً! وما كلامنا عن التجارب بمنعزل، فالتاريخ الإسلامي خيرُ شاهد على ذلك، والمسلمون - حتى في تفرقُّهم - مِنْ خلال النظر إلى أفرادهم خيرُ شاهدٍ على ذلك أيضاً.

أيُّها الإخوة:

يتردَّد الناس ويتغيَّر الناس، فهنالك تنافر بين النيَّة التي يضعونها، والسُّلوك الذي يسلكونه، والهدف الذي يرسمونه، لا انسجامَ بينهم، هنالك تبَعثرٌ، هنالك تنافرٌ، وبالتالي هنالك ضياعٌ.

أمَّا المسلم فما أجمل انسجامه! وما أروع هذا الانسجام بالنيَّة الموافقة، والسُّلوك الموافق، والهدف الموافق!

﴿ وإنَّ لنا للآخرةَ والأولى، فأنْذرتكمْ ناراً تلظَّى، لايصلاها إلا الأشقَى، الذي كذَّب وتولَّى، وسيُجنَّبها الأتقى ﴾

سلوكه : ﴿ الذي يُؤْتي ماله يتزكَّى ﴾
نيَّته : ﴿ وما لأحدٍ عنده مِنْ نعمةٍ تجزى إلا ابتغاءَ وجهِ ربِّه الأعلى ﴾
هدفه : ﴿ ولسوف يرضى ﴾ (٧) .

سيرضيك ربُّك بقبول عملك ، وإذا رضيَك ربُّك ، وأرضاك ربُّك ، إذاً فياهَنَاك ، يا سرورك ، يا لروعةِ الوجودِ فيك إذا أرضاك ربُّك .

سيدنا معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ يقول : (قِوام هذه الأمَّة الإخلاص ، وهو الفطرة فيها) .

والله عزَّوجلَّ يقول :

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله ﴾ ـ الذي انطلقتم مِنْ رضاه ـ ﴿فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستُردُّون إلى عالِم الغيب والشهادة ﴾ ـ هناك سيتحقق الهدف في صورته الأخروية ـ ﴿ فينبِّئكم بماكنتمْ تعملون ﴾ (٨) .

أيُّها الإنسان :

نيَّتك وسلوكك وهدفك في إسلامك ـ بلاشكٍّ ـ خيرُ دواءٍ لتنافرك ، لتعثُّرك ، لضَياعك ، هيَّا التزم الإسلامَ نيَّةً ، هيَّا التزم الإسلامَ سلوكاً ، هيَّا التزمْ الإسلام هدفاً .

إنَّ وحدة النيَّة والسُّلوك والهدف خيرُ دواءٍ ـ أيضاً ـ مِنْ أجل أنْ تكون متقناً لعملك ، وإنَّ التنافر بين هذه المقوِّمات للعمل ، سيعود على العمل بعدم الإتقان .

أيُّها المسلم :

اسمع ما رواه ابن جرير عن قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وأرضاه، يوم جاءه الفاتحون الذين أرسلهم إلى كسرى، عادوا إليه بسيف كسرى وياقوته، ووضعوه أمام عمر في جملة الغنائم، وإذا بعمر يقول:

(إنَّ قوماً أدَّوْا هذا لذوو أمانة)، فالتفت إليه عليٌّ رضي الله عنه وقال:

(يا أمير المؤمنين - إنَّها نتيجةٌ طبيعة - لقد عففتَ فعفَّت الرَّعية).

وأنا أقول لك: رضي الله عنك وأرضاك، فلقد كان عملك منسجماً بنيَّته، إذ انبثقَ عن ربِّك، وبسلوكك إذ انبثق عن أمر ربِّك، وبهدفك إذ انبثق أيضاً عمَّا أراد لك ربُّك، فكنتَ بعملك معياراً رائعاً، فكانت رعيَّتك على طريقك.

ويروي ابن ماجه، أنَّ رجلاً كان له دَينٌ على النبي ﷺ، فجاء إليه وأخذ بتلابيبه، وقال: يا محمَّد اقض لي ديني.

فقال الصحابة - رضي الله عنهم - مستعظمين ذلك: ويحك أتدري مَنْ تكلم؟ - هو يعلم بلاشك، وقد قال يامحمَّد - وأرادوا أنْ يعنِّفوه، وإذ بالنبي ﷺ يقول لهم:

[لا، هلاَّ مع صاحب الحقِّ كنتم؟].

ثم أرسل إلى خولة بنت قيس، وقال لها:

[إنْ كان عندك تمرٌ فأقرضينا، حتى يأتينا تمرنا فنقضيكِ]

فأرسلته إليه، وأعطاه النبي ﷺ بدوره لهذا الأعرابي، وإذا بالأعرابي يقول أوفيتَ يا رسول الله، أوفى الله لك. فقال النبي ﷺ:

[إنَّه لا قدِّستْ أمةٌ لا يأخذ الضعيفُ فيها حقَّه غير متعتع] (٩)، أي مِنْ دون أنْ يصيبه قلق.

أيُّها المسلم :

لمثل هذا نريد أنْ نَـدعو النَّـاس ، للقضاء على التردد ، للوصول للإتقان .

أيُّها المسلم :

أريدك أنْ تكـون مـتـمـاسكا ً في نيَّـتك ، في سلوكك ، في هدفك ، وإلا فـالضيـاع أمامك وإنْ أصـابتك الشـهرةَ ، وإلا فـالتيـه أمامك وإنْ لمع نجـمك ، وإنَّنا حريصون على الناس في أي عمل يعملونه ، أنْ تكون نيَّتهم منبثقةً عن ربِّهم ، وأنْ يكـون سلوكـهم موافـقا ً لأمر ربِّهـم ، وسنَّة نبيِّـهم ، وأنْ يكون هدفهم قبولا ً في الآخرة عند ربِّهم .

﴿ يومَ لا ينفع مالٌ ولا بَنون إلا مَنْ أتى اللهَ بقلب سليم ﴾ (١٠) .

يا ربَّنا لذلك أيِّدنا .

نِعْمَ مَنْ يُسأل أنْت ، ونعمَ النصير أنْت .

أقول هذا القول وأستغفر الله العظيم .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) الفرقان / ٢٣ .

(٢) العلق / ١ .

(٣) الأحزاب / ٧٠ .

(٤) البينة / ٥ .

(٥) رواه البخاري، حديث رقم / ١ / ج ١ ص ٣ .

(٦) العنكبوت / ٦٤ .

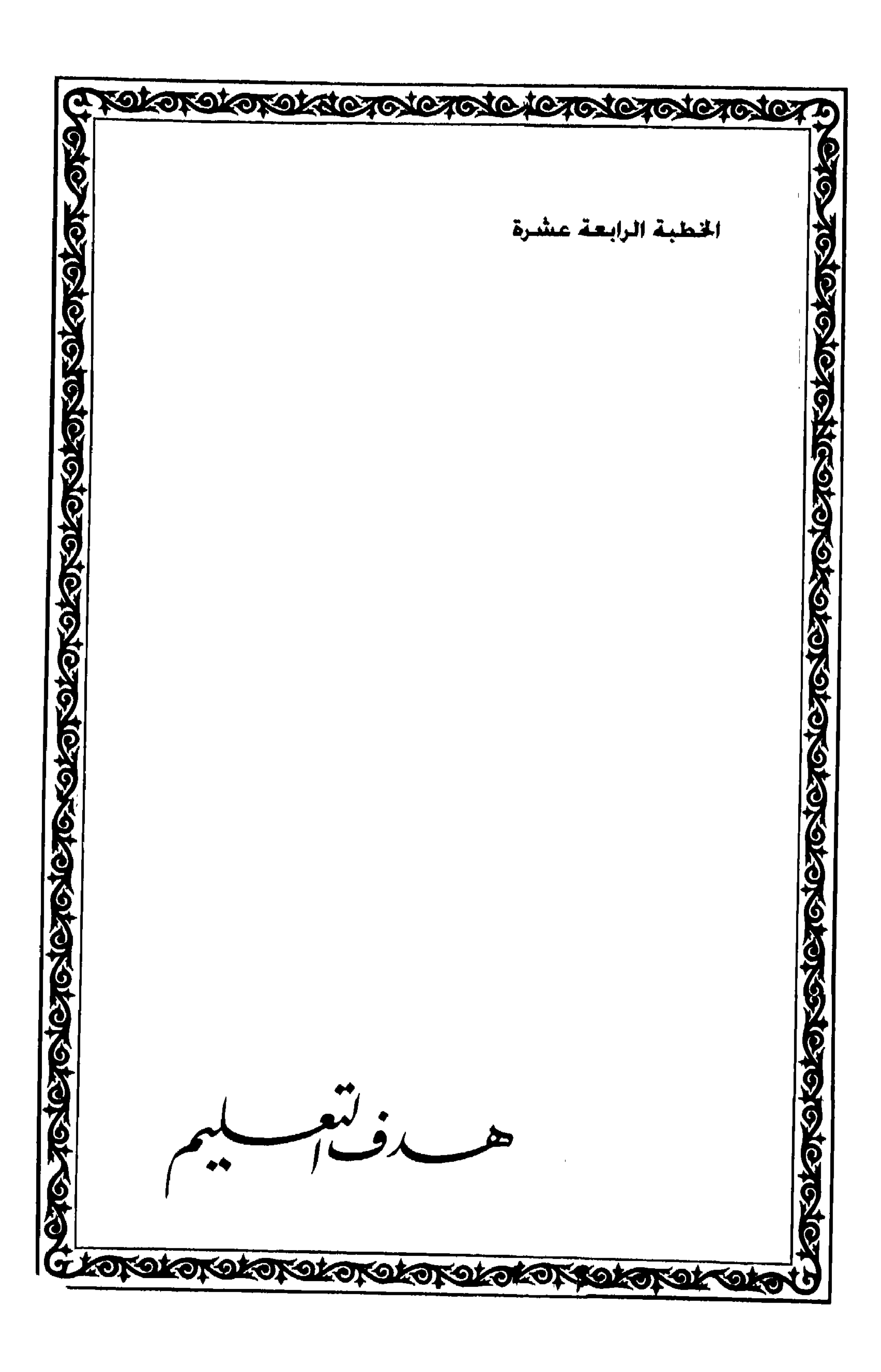
(٧) الليل / ١٣ ـ ٢١ .

(٨) التوبة / ١٠٥ .

(٩) رواه ابن ماجه، حديث رقم / ٢٤٢٦ / ج ٢ ص ٨١٠ .

(١٠) الشعراء / ٨٩ .





الخطبة الرابعة عشرة

هدف التعليم



* تقع هذه الخطبة في صلب موضوعٍ خطير ، يمسُّ العملية التربوية في العالم الإسلامي بأجمعه، بل ربما تصل إشعاعاته إلى الساحة الإنسانية العامة .

ويجدر بنا هنا، أن نشير إلى بعض النقاط الهامة التي ترتبط بالموضوع ، والتي تضعه في سياقه التاريخي ، الذي جاء لإرواء ضرورة ، وسدَّ احتياج ، فكثيراً ما تساءل القائمون على أمر التربية والتعليم ، عن « نقطة البدء » التي يتعيَّن الانطلاق منها ، في مسيرة اصلاح التربية والتعليم ؟

ويوضِّح شيخنا الدكتور محمود عكام ـ حفظه الله تعالى ـ في هذه الخطبة ، نظريته في هذا المجال : فـ« التعليم في أولى مهماته ينبغي أن يتوجَّه إلى توضيح الهدف » ، وبعدما يعرض أستاذنا لأهداف التعليم عند الآخرين نظرياً وسلوكياً ، وبعد أن يبرهن بالدليل على القصور الفعلي في هذه الأهداف، إذ غالباً ما تتخلف الممارسات الفعلية عن الأهداف النظرية، بعد ذلك يطرح أستاذنا مضمونَ الهدف الإسلامي، وهو بكل بساطة وصراحة « الوصول إلى عبودية الله سبحانه » ، مشيراً إلى تطبيقاته الناجحة ، المبرهنة على صحته .

إنَّه تصحيحُ مسار التعليم، ليكون ذا معنى ، ضمن إطار الوضعية الثقافية ، و الروحية الحديثة القائمة ، لأنَّ مهمة التعليم في المحصلة هي : إقامة نظام تربوي قوي ،ومنتج ، و قابل للحياة ، يتلاءم مع حاجات المجتمع ، ويعكس تاريخَه و مثله العليا .

لكننا نرى أنّه بعد عملية تحديث التعليم ضاع الهدف الأساس ، إذ تُبُنّي النمط الغربي « التعليم المستورد » ، فأدّى إلى نسف التكامل

الأصيل الذي نسعى إليه .

وهكذا عجزت التربية عن إيتاء ثمارها ، حتى إنّ الباحث الباكستاني فضل الرحمن في كتابه « الإسلام وضرورة التحديث » يرى أنّ « الجهود المبذولة من أجل وَسم الطلاب الشبان بالطابع الإسلامي ، لن يكون من شأنها أن تنجح إذا ما بقيت حقول التعليم العليا علمانية كلياً ، بل إنّ الغرب نفسه قد فشل بدوره في محاولاته لوسم شخصية الطلاب الشبان ، وذلك لأن هؤلاء الفتيان والفتيات حين يكبرون يكتشفون أنّ كافة مرافق الحياة من حولهم أضحت علمانية .

وهكذا تخيب آمالهم إزاء التوجّه الذي كانوا قد تلقّوه في طفولتهم ، والذي يتخذ سمةً تجعله يبدو و كأنه مجرد « كذبة ورعة » ، وهم في الواقع غالباً ما يترعرعون بعد ذلك ، وقد طبعتهم رغبات انتقامية ، فيصبحون أكثر علمانية من آبائهم ، والشيء نفسه يُقال عن الأطفال المسلمين » . ص / ١٩٦ / .

لذلك ، ومن هنا ، يرى أستاذنا الدكتور أنّ مسعى المسلمين لأسلمة حقول التعليم ، لن يكن له أن يتحقق على أرض الواقع ، مالم يقم المسلمون فعلاً بمحاولة الوصول إلى ترسيخ نظرة إسلامية شمولية للعالم ، و بأداء المهمة العقلية الصعبة التي تقوم بصياغة ميتافيزيقيا إسلامية تنطلق أساساً من القرآن الكريم ، ومن هنا أيضاً تبرز أهمية المطالبة بتصحيح مسار التعليم ليصبّ في الهدف النبيل ، والذي يحفظ لنا الأجيال القادمة غير متنكرة لربّها ، ولوطنها ، و لشعبها .

بسْمِ الله الرَّحمَن الرَّحيْم

أيُّها الإخوة المؤمنون :

قيل : « إذا وَضَحَ الهدفُ سَهُلَ العمل » .

و بقدر ما يكون الهدف جلياً ودقيقاً ، بقدر ما يكون العمل سريعاً ومحكماً ومتيناً ، والزمن الذي يضَعه الإنسان غُرْماً ـ مرةً واحدة ـ في توضيح الهدف ، يحصده غنماً ـ عشرات المرات ـ في سهولة العمل وإتقانه وإنجازه ، والعكس بالعكس ؛ فإذا اكتنف الهدفَ غموضٌ أصاب العملَ شللٌ ، وإذا ما لفَّ الهدفَ تعميةٌ وغبار ، فلابدَّ أنْ يلتفَّ العملُ أيضاً بطبقات كثيرة كثيفة .

أيُّها الإخوة المسلمون :

صاحبُ الرسالة ﷺ قضى الفترة الأطولَ في مكة ، والأصلُ في هذه الفترة ، أنْ يُوضِّح الهدف ، وقضى الفترة الأقلَّ في المدينة ، و الأصل في هذه الفترة ، أنْ يُنْجز العملَ . وكانت آيات مكة تتوالى مِنْ أجل توضيح الهدف ، فـ ﴿ لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ [1] نزلت في مكة ، و ﴿ قل هو الله

أحد، الله الصَّمد ﴾ [٢] في مكة نزلت أيضاً، وكلُّ الآيات التي تدور حول التوجُّه إلى الله بالعبادة، وتفردِّه سبحانه بذلك، نزلت في مكة .

وأمَّا في المدينة فكانت الآيات حول العمل، ﴿ كُتِبَ عليكم القصاصُ في القتلى ﴾ [٣]، ﴿ يا أيُّها الذين آمنوا إذا تداينْتم بدَينٍ إلى أجلٍ مسمىً فاكتبوه ﴾ [٤]، وغيرها من الآيات التي تبحث في العمل و طبيعتِه وإنجازه وإتقانه .

أيُّها الإخوة :

تكلَّمت في الأسبوع الماضي عن أسباب ضياع المسلمين، وبخاصَّة المثقفين، وقلت : إنَّ سبب ضياعِهم في الأساس هو التعليم المستورد .

وأنا أقول اليوم :

إنَّ التعليم في أولى مهمَّاته، ينبغي أنْ يتوجَّه إلى توضيح الهدف، والإنسان لا يمكن أبداً أنْ يكون محلَّ مسؤوليةٍ ، أو توجيهٍ للخطاب إذا كان هدفه غير واضح، والتعليمُ ينبغي أنْ يتوجَّه في أولى أهدافه ومهمَّاته إلى توضيح الهدف مِنْ وجودك أنت أيُّها الإنسان، والتعليم كما يقال إنَّما هو الوجه النظري للتربية . فهدف التعليم ينبغي أنْ يتوجه لتوضيح هدفك :

من أنت ؟ .

لماذا خُلقتَ ؟ .

ما الهدف مِنْ تربيتك في الوجه العملي ؟ .

ولقد أدرك علماء الشرق والغرب ذلك، فوضعوا أهدافاً للتعليم . على سبيل المثال، ومن الماضي، قال أفلاطون، ذلك الرجل المقدَّس عند

الكثيرين : « إنَّ الهدف منَ التعليم تزويد الإنسان بما يمكن من الكمال والجمال » .

ويقول واحد من الفلاسفة المعاصرين وهو إنكليزي :

« إنَّ الهدف منَ التعليم أنْ يحيا الإنسان حياةً كاملة » .

و يقول آخر منْ ألمانيا :

« إنَّ الهدف منَ التعليم هو تكوين الإنسان الكامل » .

إنَّهم على المستوى النظري ، قد حدَّدوا الهدف وهو أنْ يكونُوا إنساناً كاملاً ، ولكنْ على المستوى التطبيقي ، كيف يسعَوْن لإيجاد الإنسان الكامل؟ . لقد وقفوا في حَيْرة ، وقفوا يبحثون عن المنهج الذي يحقِّق هذا الهدف .

إذاً كيف نقبل منهم هذه الأهداف ؟! ، وهم لا يجدون لها صِيَغاً للتطبيق . إذ ليس هناك توجيهٌ تطبيقيٌ لهذه الأهداف النظرية ، ولكنهم أوهموا الآخرين ، فأهل الشرق ـ ممَّن ذكرنا ـ قالوا لأتباعهم : لقد وصلتم إلى مرحلة الكمال ، و قد حققتم الهدف مِنَ التعليم ، وأصحاب الغرب قالوا لأتباعهم : لقد وصلتم أنتم فقط إلى مرحلة الكمال ، وحققتم الهدف مِنَ التعليم .

لكنهم لم يُرونا أمثلةً للتطبيق ، فإذا ما سألهم إنسان : أنتم تقولون إنَّ هدف التعليم الإنسان الكامل ؛ فهل هناك نموذج ، أو دعوةٌ تطبيقية لهذا الهدف الشكلي أو النظري ؟ .

الجواب : إنَّهم لا يجدون ، بل حتى إنَّ الذي ينادي بهذا ويقول : إنَّ

الهدف هو الإنسان الكامل ؛ إذا ما نظرت إليه، لن تجد فيه الكمال، فكلُّه نقصٌ و عيوب .

وأنا هنا أستطيع أنْ أقول : أنا لا أؤمن بهذه الأهداف، إذا كانت الدعوة إليها نظريةً ولا يوجد لها نموذجٌ عملي، أنا لا أؤمن بهذه الأهداف كلها، إذا كانت مجرد كلام ، ولا يوجد لها نموذجٌ تطبيقي، ومِنْ هنا أنادي :

أين النموذج الكامل يا دعاة التربية ، يا دعاة التعليم، يا واضعي أهداف التعليم ؟ .

أين نموذجكم العملي الذي يتجلّى فيه الهدف النظري واضحاً ؟ .

أقول لكم أيُّها الإخوة، وباختصار : هذا ما يدعو إليه الآخرون، وأمَّا تعليمنا، وأعني به التعليمَ الإسلامي، فإنَّه يهدف إلى توضيح هدفٍ على المستوى النظري، هذا الهدف ملحوظٌ في كتاب ـ الله عزَّوجلَّ ـ ، محدَّد بشكلٍ صحيح تام كامل .

اسمعوا مثلاً إلى المحاورة التي جرتْ بين موسى وربِّه، لقد حدَّد الله عزَّوجلَّ لموسى عليه السلام الهدفَ الأمثل على المستوى النظري، موسى يذهب لا قتباس النار ؛ وإذ بربِّه عزَّوجلَّ يقول له : ﴿ إنِّي أنا ربُّك فاخلعْ نعليك إنَّك بالوادِ المقدَّس طوى، وأنا اخترتك فاستمعْ لما يوحى، إنَّني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصَّلاة لذكري ﴾ (٥) .

الهدف على المستوى النظري منَ التعليم ، أنْ تُوجِّه العباد إلى معرفة خالقها ﴿إنِّي أنا ربك ﴾، فلا تلتفتْ للنار، لا تلتفت للقبَس، التفتْ إلى ربِّك الذي خلقك، ﴿ فاخلع نعليك إنَّك بالواد المقدَّس طوى، وأنا

اخترتك ﴾، وأنا الذي اصطفيتك، ﴿ لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ على المستوى النظري، ﴿ و أقمْ الصلاة لذكري ﴾ على المستوى العملي، حقّقْ هذا الهدف مِن خلال الصلاة، كُن النموذجَ الطيّبَ الصالح، الذي يطبّق النظريّ، منْ خلال الصلاة .

هذا الهدف في القرآن الكريم ، ومِنْ خلال آياتٍ كثيرة، طُبّق مِنْ خلال المصطفى ﷺ، فمحمّدٌ عليه الصلاة والسلام النموذجُ التطبيقي للهدف النظريّ المرادِ منَ التعليم الذي نسعى إليه .

إنَّ التعليم يقول لك في حيّز النظر : ينبغي أنْ يكون هدفك لله عزّوجلّ، فأين التطبيق ؟

إنّه مِنْ خلال رسول الله ﷺ، و منْ خلال سيرته الشريفة، وسنّته المطهّرة .

وأنت أيُّها الناظر والرائي، هل ترى اختلافاً بين ما يقوله محمّد ﷺ نظرياً، و بين ما يدعو إليه تطبيقياً ؟ .

إذاً لامجال في أنْ نفكر ،أو أنْ نبحث عن التعليم وأهدافه ، في طيّات كتبٍ أخرى، وقد حُدّد هدفنا في أثناء كتاب الله واضحاً مقروءاً .

أقول هذا الكلام وأنا أدين كلَّ إنسانٍ يقوم على التعليم، مِنْ خلال وضع المناهج، ومنْ خلال التدريس، ومنْ خلال التطبيق، وأقول لهم :

إيّاكم وأنْ تَضيعوا أوتُضيّعوا، إياكم وأنْ تتيهوا أو أنْ تجعلوا الآخرين في تيهٍ عظيم، منْ خلال بحثكم اللامفيد عن الهدف، في طيّات الكتب الأخرى، فهدفكم واضحٌ منْ خلال كتابكم، فهدفكم بيّنٌ على المستوى

النظريِّ، منْ خلال هذا الدُّستور الذي أنزله الله عزَّوجلَّ، والهدف أيضاً واضحٌ عملياً، منْ خلال سيرة المصطفى ﷺ، ومنْ خلال حياته الشَّريفة .

لذلك أدعو إلى وضع المناهج و الكتب وفق هذا الهدف، منْ أجل أنْ نصل بالإنسان في مجتمعنا الآن إلى عبوديةِ الله عزَّوجلَّ، ليس في مجال التربية الإسلامية فحسب، ولكنْ في مجال العلوم الآخرى .

نحن ندرس الفيزياء والكيمياء و التشريح والرياضيات، ندرسها منْ أجل هدفٍ محدَّد ؛ من أجل الوصول إلى عبوديةِ ـ الله عزَّوجلَّ ـ، لا نريد منَ الرياضيات ـ وبكلِّ صراحةٍ و جرأة ـ أنْ تكون عاملاً منْ أجل صنع آلةٍ لا نعرف كيفية استخدامها، وفقَ هدفٍ موضوع منْ قِبَل ربِّنا ـ عزَّوجلَّ ـ، أو منْ أجل صنع سلاحٍ لا نعرف كيف نوجِّهه .

ينبغي أنْ نوجِّه هذا التعليم نظرياً، لنقول للناس إنَّ الهدف منَ التعليم واضح : عبوديةٌ لله عزَّوجلَّ، انصياعٌ و توجُّه وتَبتلٌ إليه سبحانه ! .

والتطبيق العمليُّ لهذا الهدف النظريِّ في سيرة المصطفى ﷺ، فاقرؤوها واضحةً جليَّة .

يقف الرسول ﷺ في لحظةِ انفراد، وكلُّنا يعلم ذلك، فيقول :

[اللهمَّ إنْ لم يكن بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي] (٦)، العبادة هدفي، وكلُّ شيءٍ يصيبني، ولا يؤثِّر في هذا الهدف، فهو لايؤثِّر فيَّ، وكلُّ شيءٍ يصيبي ويؤثِّر في هذا الهدف، يؤثِّر فيَّ .

إنْ كان هذا الذي يصيبني يؤثِّر فيَّ مادياً وجسمياً، ولكنه يفيدني في عبادتي، اللهمَّ فأهلاً وسهلاً به، وإنْ كان هذا الذي يأتيني يفيدني جسمياً

ومادياً، ولكنَّه يَضرُّني في التوجُّه إلى الهدف، فلا مرحباً، ولا أهلاً ولاسهلاً به . هذا ماعلَّمه رسول الله ﷺ لأصحابه الكرام رضي الله عنهم .

الهدف النظريُّ عبوديةٌ الله عزَّوجلَّ، وأيُّ شيءٍ يصيبها أو يهدف إلى إنقاصها مرفوض، واسمعوا إلى رسول الله ﷺ ، حينما يرى أبا ذرٍ يقول لبلال : « يابن السوداء » .

إنَّه تصرفٌ عمليٌّ لا يؤيِّد العبودية « الهدف النظري » . ويستدعي رسول الله ﷺ أبا ذر :

[يا أبا ذر، أعيَّرته بأمِّه ؟! ، إنَّك امرؤٌ فيك جاهلية] (٧) . لقد خدشتَ الهدفَ النظري الذي نسعى إليه « العبودية لله عزَّوجلَّ »، ما الذي يجب أنْ يفعله أبو ذر من أجل أنْ يصحِّح الهدف، من أجل أنْ يصحِّح التطبيق، يضع أبو ذر رأسه على الأرض، ويقول لأخيه بلال :

(والله لا أقوم حتى ترفع رجلك فتضعها على صفحة خدِّي) .

هذا التصحيح - بشكله - يضرُّ بجسم الإنسان، يضرُّ بكرامته حسب الظاهر، ولكنْ - في الحقيقة - هذا الشكل يقوِّي و يُعيد العلاقةَ الصحيحة، والهدفَ الصحيح للإنسان، يعيد العبودية إلى مكانها الصحيح، إذاً فأهلاً وسهلاً به .

اسمعوا أيضاً إلى صفية عمة رسول الله ﷺ (٨) ، تذهب في معركة أحد، وقد أخبِرت أنَّ أخاها الحمزة - رضي الله عنه - قُتِل، وتعلمون ما فُعِل به، لقد لاكت كبدَه هند .

إنَّ صفية هذه كانت قويةَ من النساء، انطلقت لترى أخاها، وفي كلِّ مرةٍ

يأتي الرجال ليمنعوها، وهي تقول لهم : دعوني، وترمي بالرجال منْ حولها. ورسول الله ﷺ يراها على البعد فيقول لأصحابه :

[قولوا لها إنّ رسول الله ﷺ يقول لك : قفي].

يأتيها الرّسولُ منْ رسول الله ﷺ وهي مندفعةٌ كالسهم تجابه البشر، وإذ بأذنها تسمع الكلمة : يا صفية، رسولُ الله ﷺ يقول لك قفي . ما إنْ سمعتْ هذه الكلمة حتى وقفتْ في مكانها، وقالت : (أما وأنّ رسول الله ﷺ قال، فأقف)، حتى لا أركض وراء هدفٍ وضعتُه لنفسي، وأنسى الهدف الذي وضعه رسول الله ﷺ، وهو الذي يتكلّم باسم الله عزّوجلّ .

هي تهدف الآن إلى هدفٍ شخصي، ورسول الله ﷺ يقول لها الهدفَ الصحيح و يحدّده لها، أنتِ الآن في مصارعة، في صراع بين هدفك وهدف رسول الله ﷺ، أيّهما سينتصر سلوكاً وتطبيقاً ؟ .

إنّه هدف رسول الله ﷺ .

وأنتم اليوم ـ أيُّها الشباب ـ بين أهدافٍ متناحرة، تتصارعون في داخلكم، وتتقاتلون في داخلكم، وتتجاذبكم أمورٌ كثيرة في الشرق والغرب، كلها تدعوكم لهدف، ورسول الله ﷺ يدعوكم لهدف، فاختاروا أيّ الهدفين عبر السلوك العملي .

أوَ تقولون لرسول الله ﷺ لن نقف، أم تقولون للآخرين لن نقف ؟ .

أوَ تفضّلونَ هدف رسول الله ﷺ، أم تفضّلون هدف الشرق والغرب ؟ .

هل ستقولون لرسول الله ﷺ : نعم مادمتَ أنتَ القائل، فإنّا واقفون ؟، أم ستقولون للآخرين ما دمتمْ قلتم هذا فنحن لكم متابعون ؟ .

أنتم اليوم أيُّها الشباب ـ وإنَّني أخاطبكم باسم حقيقةٍ أرتئيها ـ أنتم اليوم مخاطبون ، و مدعوُّون لتحديد الهدف منْ تعليمكم .

أيُّها الطالب في طبٍّ، أو في هندسةٍ، أو في آدابٍ، أو في شريعةٍ، أوفي فلسفةٍ ؛ أنت اليوم بين اختيارين :

إمَّا أنْ تنساق عملياً للهدف النظريِّ الموضوع في كتاب الله عزَّوجلَّ ، والذي قيل لموسى، ولعيسى، ولمحمَّد، صلَّى الله عليهم أجمعين ﴿ لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾، وإمَّا أنْ تكون في اختيارك الآخر تابعاً ـ أيُّها المسلم ـ لأهدافٍ نظرية أخرى ، وضعها أشخاصٌ مثلك ، وعلماء مثلك، ولن ترى فيهم تطبيقاً عملياً .

ربما كنتَ أنت الضحية، فهم يقولون ما لايفعلون، وهم يحدِّدون مناهجَ للناس لا يسلكونها، ولا يتَّبعونها .

انظروا في التعليم النظريِّ ، وأهدافِه في بلاد المعسكر الشرقي، إنَّهم وضعوا قاعدةً كبيرة في تساوي الناس، لقد وضعوها نظريةً، ولكنَّ التطبيق العملي يكذِّب ذلك، فلا تساويَ ولا مساواة بين الناس، انظروا إلى مآدبهم، هل هناك مساواة ـ حسب القاعدة النظرية التي وُضِعت في التعليم ـ بين مأدبةِ الفقير وغير الفقير ؟! ، بين مأدبة الرئيس ، وبين مأدبة غير الرئيس ؟! ، بين مأدبة الموظف البسيط ، وبين مأدبة الموظف الكبير ؟! إنَّه افتراقٌ بين واقع وهدف، ما دام الهدفُ النظريُّ يضعه رجالٌ مثلنا .

أمَّا الأهداف التي تقال في البلاد الغربية عن التعليم، فأنْ يكون الإنسان حراً ، فهل تعتقد أنْ الحرية تطبَّق و تمَارَس في بلاد الغرب اليوم ؟

لا أظنُّ ذلك .

وهل تعتقدون أنَّ حريةً تمَارَس اليوم في الولايات المتحدة ؟ أو أنَّ حرية تمَارَس في البلاد الأخرى منْ بلاد الغرب؟

إنَّها حريةٌ ناقصة، ليست متوافقةً مع الهدف الموضوع نظرياً مِنْ قِبَلهم أنفسِهم، فالفرق واسعٌ، والبَوْن شاسعٌ بين النظرية والتطبيق .

ولكنَّ الهدف الذي وُضع في قرآننا، الذي وُضع في سنَّة نبيِّنا ﷺ، الذي وُضع في كتب صالحينا، منَفَّذٌ ومطبَّق، مِنْ خلال نموذجٍ رفيع عالٍ، مِنْ خلال رسول الله ﷺ، ومِنْ خلال جيلِ التجربة الأول، و أجيالٍ متلاحقة أخرى، وأنا أقول لكم ـ اليوم ـ كلمةً قرأتها منذ أيام :

« إنَّ المسلم الذي وضع هدفاً نظرياً له مِنْ خلال القرآن الكريم، هذا الإنسان بالرغم مِنْ كلِّ تطبيقاته الناقصة، وبالرغم منْ كلِّ تقصيراته ـ ولا أقول أيُّها الإخوة هذا الكلام منْ أجل أنْ أطمِّع المسلمين، فإنَّ رجاء الله يدفعنا للطمع في عفوه أكثر ـ هو أكثر منطقيةً وتماسكاً من ذلك الشخص الذي وضع منهاجاً لنفسه، ثم ترى تطبيقاتِه مغايرةً لنظرياته، ترى بَوْناً واسعاً، أوسعَ من البَوْن الذي تراه بين أقلِّ مسلم، وبين الهدف النظريِّ له » .

هذا ما يقوله واحدٌ منهم، يقول إنَّ أي مسلم يطبِّق مِنْ أهدافه النظرية أكثر مما يطبقه « سبنسر »، أو مما يطبِّقه « فرويد »، الذي وَضعَ الهدفَ بنفسه، ذلك أنَّ هذا المسلم اقتنع قناعةً كاملة أنَّ هدفه الموضوع إنَّما رسمه له خالقه، بينما ذلك الآخر لم يقتنع بعدُ بنفسه، فهو لا يزال يرى

الاضطرابات في داخله، إذاً كيف نُوفّق بين هذا و ذاك ؟ .

أيُّها الإخوة المسلمون :

ليس المجال الآن لكلام كثير، ولكنني أكرِّر التنبيه، وأكرِّر النصيحة لكلِّ شاب، أقول له :

استرحْ أيُّها الشاب، اطمئن أيُّها الشاب، هدفك موجودٌ نظرياً في كتاب الله عزَّوجلَّ، و التطبيقُ العملي لهذا الهدف موجودٌ في سيرة النبي ﷺ، لاتعدل أخي الشابَّ، لا تتبنَّ الآراء الأخرى، ولا تتبنَّ النظريات الأخرى. إذا أتتك النظريات تدعوك، فالتفتْ إلى رسول الله ﷺ، وقل :

يا رسول الله أنت دعوتني، ودعوتك أنفعُ لي مِنْ كلِّ دعوةٍ أخرى .

يا رسول الله ،أما وقد قلت لي أقْبِل ؛ فإنَّني مقبلٌ عليك، ومدبرٌ عن كلِّ نظرية، وكلُّ هدف يُراد منْ وراء التعليم لا يَصبُّ في هدفك .

يارسول الله، هدفي هدفك .

يارسول الله، كتابي كتابك .

يارسول الله، منهجي منهجك .

يارسول الله، قناعتي قناعتك .

يارسول الله، سيرتك هي القدوة المثلى لي .

يا رسول الله، سأبقى وراءك، لأن الأيام تُثبتُ يوماً بعد يوم، وساعةً بعد ساعة ؛ أنَّ كلَّ إنسان يتبع الشرق أو الغرب، بعيننا نراه ينهار، أمَّا الإنسان الذي يتبع محمداً ﷺ فهو في أمان واطمئنان .

ويقول بعضهم وهو كاتبٌ غربي : أيُّها الناس إنني أقول لكم أمراً واحداً،

إنَّ الإسلام تراثٌ ليس للعرب فحسب ، إنَّه تراثٌ لكلِّ الشعوب التي تريد أنْ تنهض بحالها ، لكلِّ مَنْ يريد أنْ يصل إلى الحقيقة ، مادامت الحقيقة فيه تتجسَّد أبهى تجسُّدٍ ، وتظهر بأجلى منظر ، وتتجلَّى للعيون بأروع أشكالِ التجلِّي ، ما دامت الحقيقة فيه لا تفرِّق بين إنسان وآخر ، و تخاطب الناس كافة ﴿ إنَّا خلقناكمْ مِنْ ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ (٩) .

اللهمَّ اجعلْ هدفنا في كتابك ، واجعل هدفَ تعليمنا عبوديةً محضة لك ، واجعل الهدفَ يتراءى لنا في شخصية المصطفى ﷺ .

اجعل تعليم شبابنا من أجل أنْ يحققوا هدفاً أردته لهم في كتابك ﴿لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ ، واجعلهم يتأثَّرون في تطبيق هذا الهدف ، بسيرة سيِّد البشر محمَّد ﷺ .

وفقنا ياربِّ لذلك ،

وأوقعْ هذا الأمر في ذهن كلِّ مسلم ، كلِّ شابٍّ ، وكلِّ شابَّة ،

وكلِّ معلم ، وكلِّ مربٍّ ، يبتغي لمجتمعه خيراً ،

و يبتغي لحياته استقراراً ، واطمئناناً ،

ويبتغي لوطنه تقدماً وازدهاراً وحضارة .

ياربَّنا وفقنا لذلك ، وأيِّدنا لذلك ، واجعلنا له أهلاً .

أقول هذا القول واستغفر اللهَ العظيم .

الهوامش

(١) طه / ١٤ .

(٢) الإخلاص / ١ ـ ٢ .

(٣) البقرة / ١٧٨ .

(٤) البقرة / ٢٨٢ .

(٥) طه / ١٢ـ ١٤ .

(٦) سيرة ابن هشام، ج١/ ص٤٢٠ .

(٧) رواه البخاري، الحديث رقم / ٣٠ / ج١ص٢٠ .

(٨) سيرة ابن هشام، ج٢ص٩٧ .

(٩) الحجرات / ١٣ .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الخطبة الخامسة عشرة

مظاهر الخواء الروحي

* إذا كان الإنسان ـ على حدّ تعبير أستاذنا ـ بين جوهر ومظهر، أو بين مبنىً و معنى ، يحكم الثاني منهما الأولَ ويوجّهه ، فإننا نرى أنّ مسيرة الإنسان اليوم ، يحدق بها أكبر الخطر ، وأفظعه .

ذلك أنّ سرائرنا قد أصابها العطب ، وأصبحت معانينا ودواخلنا قاصرةً عن أن تحكم ظواهرنا في المسار الذي يُرقّي الإنسانَ ، و ينمّي فيه الصفات الداعمة لإنسانيته .

وإذا كان للإنسان مساران اثنان : أفقيٌ ممتد ، و عموديٌ صاعد ، الأولُ يربط الإنسان بأبناء جنسه ، والثاني يصله بخالقه ، فإنّ مظاهر الخواء الروحي في مجتمعنا ـ كما تشخّصها هذه الخطبة ـ تشمل كلا المسارين ، فنحن :

ـ نعبد من غير حبٍّ .

ـ ونتفقّه من غير إحسان .

ـ ونفقّه من غير تزكية وربانية .

ـ ونتلاقى من غير رابط .

ولقد بدأ أستاذنا ـ حفظه الله ـ حديثه عن مظاهر الخواء الروحي بالتركيز على « الحبُ » لأنّه أساس العلاقة مع الله ، بل هو هذه العلاقة كلُّها ، وهكذا تكون ﴿ فليعبدوا ربَّ هذا البيت ، الذي أطعمهم من جوع ﴾ ، هي نفسها : [أحبُّوا الله لما يغذوكم من نعمه] . ويكون جزاء « العبادة » من جنسها : [ولا يزال عبدي يتقربُ إليّ بالنوافل ، حتى أحبَّه] .

ويرحم الله ذلك العاشق محمد إقبال ، يوم نظر ، و بحث ، وفتّش

عن مكمن الداء و مصدره ، فوجد أنَّ معين الحبِّ قد جفَّ في قلوبنا :

لا في لهيبِ تراثِ العُرب من رَصَدَ

يُرجى ، ولا في غناء الفرس من نَغَمِ

هل في الحجاز حسينٌ من بني مضرٍ

و هل هنالك محمودٌ من العجمِ ؟!

أما لهم مِنْ بَقايا الحبِّ باقيةٌ ؟

وهم سلالةُ أهلِ الحبِّ و التَّيَمِ

أستغفر اللهَ ، هل للدين مِنْ قيمٍ

بغير حبٍّ ، وهل للشعب من قِيَمِ ؟

بالحبِّ قدَّمَ إبراهيمُ واحدَهُ

وابنُ الحسين على كفِّ الحسين رُمِي

بسْمِ الله الرَّحمَن الرَّحيْم

أيُّها الإخوة المؤمنون :

ويسألني أخٌ كريمٌ عن خَواءٍ روحيٍ نعيشه ، وعن فضاءٍ داخلي يؤثّر في ظاهرنا ، يجعلنا في حالةِ عطشٍ لساعةٍ نكون فيها مطمئنِّين .

فما السبب أيُّها الإخوة ؟ .

لقد قرأتُ عبارةَ المفكر الإسلامي محمَّد إقبال رحمه الله ، يوم سئِل مثلَ هذا السؤال فقال :

« الصفوفُ معوجَّةٌ منشقَّة ، والقلوب خائرةٌ حائرة ، والسَّجْدة هامدةٌ خامدة ، لا شوقَ فيها ولا حرارة ، فلقد انطفأتْ شعلةُ القلب ، وخمدتْ جمرةُ الفؤاد » .

وقال رجلٌ آخر مِنْ بلاد الهند ـ عندما سُئِل السؤالَ نفسه ـ :

« إنِّي لأسمعُ الخطيب فتعجبني عبائرُه ، ولكنِّي لا أرى في عيونه بريقَ الحبِّ ، ولا أقرأ في وجهه نورَ الإيمان ، ولا سيماءَ الحنان والتقوى

والازدهار. تلك هي مشكلتنا يا سائلي :

نعبد مِنْ غيرِ حبٍّ، ونتفقَّه مِنْ غير إحسانٍ، ونفقِّه مِنْ غير تزكيةٍ وربَّانيَّة، ونتلاقى مِنْ غير رابط .

١ ـ نعبد مِنْ غير حُبٍّ

فلقد أضحتْ عبادتنا مادةً لا روحَ فيها، وأضحتْ صَلاتنا شكليةً لا نورَ يسري في أوصالها ولا حياةَ تدبُّ فيها، أصبحت عبادتنا جوفاءَ لاتنبع منْ حبٍّ لله، وإنما نقيمها على أساسٍ من الواجب الثقيل، ولقد قال علماء النفس والفلسفة إنَّ أعلى مراتب الفعل الإرادي يومَ تقوم به وأنت تستشعر الحبَّ يدفعك لهذا . وما أروع كلمةَ المصطفى ﷺ ! يوم وقف بعد الطائف بعد أنْ لاقَى مالاقى ؛ رفع يدهَ الطاهرة البيضاءَ إلى السَّماء، وقال :

[إنْ لمْ يكنْ بكَ غضبٌ عليَّ فلا أبالي] (١) .

سلْ قلبك أيُّها المسلم . هل تستشعر حبَّ الله فيه ؟، هل يخبرك عن حبٍّ، أم أنَّك تتعامل على أساسِ العادة، أم أنَّك تتعامل على أساس التصرُّف الذي انعدمت فيه الروح ؟ .

سلْ تصرفاتك وأفعالك، سلْ شؤونَك وسلوكك، سلْ صلاتك وصيامك، سلْ دعاءَك، سلْ تربيتَك لأولادك، سلْ عملك في معملك، مادامت كلُّ هذه الأمور عبادة ؛ فينبغي أنْ يدفعها حبٌّ لله جلَّت قدرته، وإلا لنْ تنتج ثمارَها، ولن تؤتيَ أكُلَها .

والفرقُ بين عبادتنا وعبادة أولئك الذين نتغنَّى بأمجادهم، بين عبادتنا

وعبادة الجيل الرائد، أنَّ عبادتهم كان الدافعَ فيها حبٌّ، وأمَّا عبادتنا فلا حبَّ فيها . ماأروعَ قول الشاعر يوم قال لمن يحبُّ ! :

إنْ كان سرَّكمُ ما قال حاسدنا فما لجُرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ

وما أروعَ السلوك الذي نستشعر مِنْ خلاله الحبَّ، يوم وقف النبيُّ الكريم ﷺ يدعو ربَّه، ويبتهل إليه، ويسجد له، ويصلّي منْ أجله، وقد قام الليل الطويل ؛ حتى إنَّ قدميه لتخرجُ منها الدماء، وعائشة تنظر إليه برأفة : يارسول الله لقد غفرَ الله لك ما تقدَّم منْ ذنبك وماتأخَّر، يارسول الله لمَ هذا ؟ . فأجابها النبي ﷺ :

[يا عائشة، أفلا أحبُّ أنْ أكونَ عبداً شكوراً] (٢) .

هل نستشعر الحبَّ الذي أُمرنا به ؟ .

يقول المصطفى ﷺ كما جاء في الترمذي : [أحبُّوا اللهَ لما يَغذوكم مِنْ نِعمه، وأحبوني لحبِّ الله، وأحبُّوا آل بيتي لحبِّي] (٣) .

يوم يُنْعم عليك فلانٌ، ويوم يوجِّه إليك نعماءَ فلانٌ آخر، تشعر أنَّ قلبك غدا يُرسل خيوط الحبِّ لهذا أو لذاك، لكنك لم تُنْعِم النظر في النِّعم التي تتقلَّب فيها، في ساحتها، في ظلالها، تلك التي توَّجك بها ربُّنا عزَّوجلَّ، منْ أجل أنْ تنظر كلَّ شيءٍ منْ خلاله .

إنْ شئتَ في فلكٍ أوْ شئتَ في مَلكٍ
أوْ شئتَ في حجرٍ أوْ شئتَ في مَدَرِ
فالكلُّ يَشهدُ أنَّ اللهَ خالقُه
فهو المليك وربُّ النَّفع والضَّرر

٢ ـ نتفقَّه مِنْ غير إحسان

نعبد منْ غير حبٍّ، ونتعلَّم منْ غير إحسان .

[منْ يرِد الله به خيراً يفقّهه في الدِّين ويلْهِمه رشدَه] (٤) . هكذا قال رسول الله ﷺ .

وقال ﷺ كما جاء في الطبراني :

[إذا أتى عليَّ يومٌ لا أزداد فيه علماً يقرِّبني إلى الله فلا بُورك لي في شمس ذاك اليوم] (٥) .

واسمحوا لي أنْ أخاطب طلابنا في أيٍّ مستوىً كانوا، ولأيٍّ علمٍ يدرسون :

هل تراقبون الله ؟ .

هل تعبدون الله ؟ .

هل تتفقَّه وأنت تستشعر مراقبةَ الله لك ؟ .

فلئنْ كنتَ لاترى الله فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يراك، إنَّ الطلاب بين يدَي المعلم تقوم بأداء الواجب ، على خير ما يرام، فما بالك وأنت بين يديْ ربِّك جلَّت قدرته ؟ .

أيُّها الطالب أين كنت، ولأيٍّ مادةٍ درست ؛ فلتدرس بإحسان، والإحسان يعني الإتقان، لأنَّ الله يراقبك، ولأنَّ الله أمرك بالإتقان .

نحن نتفقَّه منْ غير إحسان، فللإتقان آثاره، ولو كنَّا محسنين في تفقُّهنا للفيزياء وللكيمياء وللعلوم وللتفسير وللحديث وللُّغة ؛ لظهرت آثارها في مجتمعاتنا، فمجتمعاتُنا متأخرةٌ متخلفة ؛ لأنَّنا نتعلَّم منْ غير إحسان،

لأنّنا نتعلم منْ غير أنْ نراقب اللهَ ، في التلقّي ، وفي التنفيذ .

علامَ الابتعادُ عن الإحسان في تعلُّمنا ، في تفقهنا ؟! ، وهوالذي يؤثّر في مسيرتنا ، وهوالذي يؤخّر بلادنا ، وهو الذي يؤخّر مجتمعاتنا ، فمجتمعٌ غابت فيه رقابة الله ، لا يمكن أنْ يكون ذا بُعْدَين أساسيين :

١ ـ لا يمكن أنْ ينجح على مستوى الدنيا .

٢ ـ لا يمكن أنْ ينجح على مستوى الآخرة .

ولئن نجحَ على مستوى الدنيا ، إلا أنّه لنْ ينجح على مستوى الآخرة ، والمجتمع الناجح هو الذي يراعي هذين البعدين .

ما أحوجَنا إلى أنْ يقول طفلنا وهو يتعلّم : اللهُ أكرَمني بآليةِ التعلم ، فالشكر له إذ أكرمني ، وما أحوجنا لأنْ نعلّم أولادنا هذه المقولة في كلّ أحوالهم حتى يقولوا :

الحمد لله الذي وفقني ، وأرجوالله أنْ يجعلني مفتاحاً للخير ، مغلاقاً للشر .

قلْ يا منْ تدرس الفيزياء ، قلْ يا منْ تدرس الطبَّ والهندسة ، قل وأنت تتابع دراستك :

اللهمَّ اجعلني مِنَ المحسنين في التلقّي وفي التنفيذ ، اللهمَّ إنّي أسألك أنْ تجعلني مفتاحاً للخير مغلاقاً للشرّ ، اللهمَّ استعملني في طاعتك ، اللهمَّ فارحمني بترك المعاصي ما أبقيتني ، وارحمني مِنْ أنْ أتكلّف ما لا يعنيني ، وارزقني حُسنَ النظر فيما يرضيك عنّي .

٣ ـ نفقّـه مِنْ غير تزكية

مشكلتنا أنَّنا نعبد منْ غير حبٍّ، نَتفقَّه منْ غير إحسان، نُفقِّه منْ غير تزكية، منْ غير ربَّانية، وقد كان رسولنا ﷺ يُعلِّم الكتاب والحكمة ويزكِّي، فأين تزكية مدرِّسينا لطلابنا ؟! .

أنت يا مَنْ تُعلِّم، تقوم بعمليَّةالتعليم، ولكنك لا تُغلِّف هذه العملية بتوجيهٍ لهذا الجيل الذي هو أمانةٌ في عنقك .

منْ أجل أنْ تكون سالكاً درباً صحيحاً في هذه الحياة، أطالِبك وأسائِلك أين التزكية ؟ .

أيُّها المعلمون أين التزكية ؟ .

أيُّها المدرِّسون، أيُّها الموجِّهون أين التزكية ؟ .

التزكية تعني التطهير، تعني أنْ يكون الإنسان مطهَّراً منْ رجس الفساد، منْ رجس الخيانة، منْ رجس الخوف الذي يعود علينا بالتقهقر، منْ رجس كلِّ شيءٍ يمكن أنْ يؤثِّر في مسيرة حياتنا الصافية الرائعة .

أين التزكية في ثكناتنا، منْ أجل أنْ يتطهَّر جنديُّنا منْ كلِّ شيءٍ يعيقه عن مسيرة الجهاد لله عزَّوجلَّ ؟ .

أين التزكية في مدارسنا، منْ أجل أنْ يقف هذا الطفل الذي ننشِّئه ليكون ـ في المستقبل ـ رافعاً لواء الحقِّ في بلده، وليقف أمام أعداء الله بكلِّ قوةٍ وصرامة لينادي : أنْ هلمُّوا يا أبناء وطني إلى البناء، أنْ هلموا يا أبناء وطني، لنكون حلقةً في سلسلةٍ ابتدأها المصطفى ﷺ بآيةٍ : ﴿ اقرأ باسم ربِّك الذي خلق ﴾ [٦] ؟ .

أين التزكية التي يقوم بها الآباء، والأمهات في البيوت ؟، والمدرِّسات في المدارس ؟ .

نحتاج أنْ نُعلِّم بتزكية، إلى وسيلةٍ نطهِّر بها مجتمعنا منَ الخيانة، فإنَّ مجتمعنا شئنا أمْ أبينا يعيش حالةَ خيانةٍ، يعيش حالةَ نفاقٍ، يعيش حالةَ تقهقرٍ، يعيش حالةَ فساد .

أقولها وبصراحة، لسنا على مستوى التزكية، لأنَّنا لسنا لطفاء في شوارعنا، ولسنا لطفاء في بيوتاتنا، ولسنا لطفاء في محالنا، ولسنا على مستوى أنْ نقدِّم الخدمة لبلادنا لتكون في مصافِّ البلاد المعطاءة الخيِّرة، التي تتعرف على ربِّها منْ أجل أنْ تحسِّن مسيرتَها .

نعمْ نحن نفقه منْ غير تزكية .

٤ ـ نتلاقى مِنْ غير رابطة

ما هي الرابطة التي تجمعني وإيَّاكم ؟ .

أيُّها الإخوة :

ربُّنا يقول : ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ (٧) .

وربُّنا يقول : ﴿ واعتصموا بحبلِ الله جميعاً ولا تفرَّقوا ﴾ (٨) .

والرَّسول ﷺ يقول، كما جاء في سنن أبي داود : [مثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ واحد تداعَى له سائر الجسد بالسَّهر والحمَّى] (٩) .

والنبي ﷺ يقول كما جاء في صحيح مسلم : [المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان

المرصوص يشدُّ بعضُهُ بعضاً] (١٠) .

أين الرابطة أيُّها الإخوة ؟ .

في مجتمعنا فئاتٌ تترابط فيما بينها، وتتقاطع مع الفئات الأخرى، في مجتمعنا فئاتٌ وفئات، جماعاتٌ وجماعات لا صلةَ بينها، قطعنا الأخوَّة فيما بيننا وبين المسلمين، ورحنا نقزِّم أنفسَنا، من أجل أنْ ننصهر في بواتقَ صغيرةٍ، فلكلٍّ منَّا جماعةٌ خاصة به يريد أنْ يعيش منْ خلالها حياته الخاصة، ولا يستشعر العلاقةَ الكبرى والأساسية التي تربط بين المسلم الذي يعيش في الشرق وبين الآخر الذي يعيش في الغرب، وبين ذاك الذي يعيش في الشمال وذاك الذي يعيش في الجنوب .

أين الرابط بيننا أيُّها الإخوة ؟ .

نحن نتلاقى لكنَّ الرابطَ مفقودٌ، لكنَّ الرابطَ معدومٌ، لكنَّ الأخوَّة تستحي أنْ تظهر فيما بيننا، لأنَّنا لم نؤهِّل قلوبنا لذلك .

هل سمعتم أنَّ الجيل الرائد الناجح في هذه الأمة التي ارتقتْ واستلمتْ زمام الحياة ؟ هل سمعتم أنَّه شكَّل فئات تتقوقع كل واحدةٍ منها على ذاتها، وتناطح كل فئةٍ الفئة الأخرى ؟! .

هل سمعتم بذلك إلا في مجتمعنا هذا، إلا في هذا الوقت الذي نعيشه؟! فههنا جماعةٌ وهناك جماعة، وفي المكان الآخر جماعةٌ، وكلُّ جماعةٍ قد سنَّت ألسنتها منْ أجل أنْ تقدِّم كلَّ كلامٍ حلوٍ فيما بين أفرادها، وكلَّ كلمةٍ سيئةٍ للجماعة الأخرى، هذه مشكلتنا، هذه مآسينا، هذه معاناتنا، فإلى متى؟ إلى متى سنظلُّ نعبد منْ غير حبٍّ، ونتفقَّه منْ غير

إحسان، ونفقةٌ من غير تزكية، ونتلاقى منْ غير رابط؟ ! .

لقد أثَّر ذلك فينا، وأضحت المادة ملاذنا، وأصبح الإنسان يوجِّه لأخيه الإنسان ـ في مجتمع ندَّعي أنَّه مسلم ـ يوجِّه له النصيحة : لا تأمنْ أحداً، لاتأمنْ إلا جيبك، ولا تتوجَّه إلا لقرشك، لا تتوجَّه إلا للمال الذي بين يديك، فهو الذي ينفعك .

لقد قطعت هذه الكلمات والعباثر العلائقَ التي ينبغي أنْ تكون بيننا، وأضحى الواحد منَّا يسمع هذه الكلمات فيستذكرها أولاً، ولكنَّها تغدو بعد ذلك نصيحةً على لسانه يوجِّهها للآخرين ! .

ما الذي أصابنا أيُّها المسلمون، حتى أضحينا نعيش هذه الوقائع ؟، التي إنْ دلَّت على شيءٍ فإنَّما تدلُّ على هوَّة سحيقةٍ، بيننا وبين قرآن ربِّنا الذي جاء منْ أجل أنْ يقرِّب الفجوات، وأنْ يقرِّب الأرواح، وأنْ يُوجِد الصِّلات، وأنْ يُحسِّن العلائق ! .

كثيراً ما أسمع، وتسمعون، أنَّ إنساناً بحاجةٍ إلى أمرٍ ما، يذهب يميناً ويذهب شمالاً، وليس مِنْ مُسْعِف، عند ذلك سيقف ليعلن أنَّه لا يوالي هؤلاء المسلمين .

كم سمعنا بأسَرٍ تموت في بيوتاتها، تموت بأمراضها، في عقَدها !، ذلك أنَّها تعيش حالةً اجتماعية بائسة، يستشعر الإنسان فيها أنَّ أخاه يرميه في ظهره بسهامٍ قاسية، تحمل كلماتٍ قاسية، أهْوَنُها الاتهامُ بالكفر والفسق والخروج والمروق ! .

إنَّنا لانتمتع بالجرأة، لنكون متناصحين على أساسٍ من الحبِّ، ولانتمتع

بالعاطفة منْ أجل أنْ نكون متحابّين، لنقدّم النصيحة ثمرةً منْ ثمار هذه المحبّة .

أؤكد على أنَّنا ينبغي أنْ نتلاقى على أساس الأخوة، والأخوَّة لاتعني المداراة، الأخوَّة لاتعني المجاملة، الأخوَّة لاتعني المحاباة، الأخوَّة لاتعني أنْ أستِّر عليك، وأنْ أقول لك عن السيِّئ الذي يصدر عنك إنَّه حسن، فالأخ الذي يَصْدُقُك، وليس الأخ الذي يُصَدِّقك، ويهزُّ رأسَه أمامك موافقاً على كلِّ فِعلةٍ تفعلها .

الأخوَّة أنْ نكون في وجوه بعضنا أقوياءَ بنصيحتنا، نقدِّمها على طبقٍ مِنَ الحبِّ، الأخوَّة أنْ يستوعب كلٌّ منَّا أخاه، الأخوَّة أنْ ننقد بعضَنا، فكفانا مجاملة، حتى أصبح النقد في عُرفنا أمراً معيباً، ولكنَّ الغيبة والنميمة حلَّت محلَّ النقد في عالمنا .

لأنَّنا تركنا النقدَ الصَّريح الصَّحيح، القائمَ على المحبَّة، حلَّت محلَّه الغيبةُ والنميمة، فعشنا مغتابين، وعشنا نمَّامين، يغتاب بعضنا بعضاً، ويقدِّم بعضنا لبعض كلاماً عن أولئك الغائبين لا يناسبهم، وربِّ الكعبة .

قفْ أمام ربِّك في صلاتك، واستشعر أنَّك ستقف أمامه يوم القيامة فـ: [ما مِنْ إنسانٍ إلا سيخلو به ربُّه ليس بينه وبينه أحد] (١١)، وأمام كتابٍ ﴿ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها، ووجدوا ماعملوا حاضراً، ولايظلم ربُّك أحداً ﴾ (١٢) .

كفانا انقساماً أيُّها الإخوة، و كفانا قلةَ تزكية، كفانا أنَّ الواحد منَّا بدأ يَضعف في ذاته ؛ لأنَّ المجتمع مِنْ حوله يريد أنْ يُظهره بهذا المظهر .

كفانا أنَّنا حوَّلنا سهامَ العداوة عنْ « إسرائيل » إلى ما بيننا، لنقضيَ على كلِّ علاقةٍ خيِّرةٍ يمكن أنْ تنشأ عن براءةٍ في داخلنا، عن براءةِ الفطرة، فإلى متى ؟ إلى متى سنعيش هذه الحالة ؟ .

فلنكن صرحاء، ولنكن جريئين، ولنكن في كلِّ ما نتكلَّم به صادقين، فذاك الذي يخرجنا مِنْ وَهْدةٍ وقعنا فيها، ومنْ هوَّةٍ نعيش غفلتَها، ونشعر أنَّنا نتنسَّم الهواءَ العليل، والواقع أنَّنا نتنسم هواءً فاسداً مُسَرطناً، نعيش أمراضاً خبيثة، على مستوى النفس، وعلى مستوى الاجتماع، وعلى مستوى الصحة الداخلية، بل وأصابنا أيضاً شيءٌ ممَّا يصيب الجسد، لأنَّ الجسد يتأثر بالنفس .

أرجو الله ـ عزَّوجلَّ ـ أنْ نعبد عن حبٍّ، وأنْ نتفقَّه عن إحسان، وأنْ نفقِّه عن تزكية، وأنْ نتلاقى عن أخوَّة .

وإنِّي أعلن أنَّ الأخوَّة عنواني، بيني وبين كل المسلمين، على اختلاف تفكيرهم، على اختلاف أحوالهم.

أعلن أنَّ الأخوَّة عنواني، في التقائي مع المسلمين كافة، لا فرق بين جماعةٍ وجماعة، وإذا كانت الجماعة تريد أنْ تُحَجِّر نفسها فإني بريءٌ منها، ومنْ فَعلتها هذه، وأعلن بالتالي ؛ أنِّي لا أسامح أيَّ علاقةٍ تقوم على غير علاقة الأخوَّة، التي تتمظهر في مظهرين اثنين :

في مظهر النصيحة، وفي مظهر الحبِّ .

وماعدا ذلك، فصنِّفْ نفسك مع غيرنا، وضعْ نفسك في صفحةٍ ليس فيها اسمنا، بل ضعْ نفسك في كتابٍ لا ذكر فيه لنا . فلا نريد أنْ نعيش

ونحن في حالةِ غموض، ولا نريد أنْ نعيش في حالةِ جَهالةٍ للإنسان الذي أمامنا، وللإنسان الذي خلفنا، لا نريد أنْ نعيش متوفزِّين خائفين ممَّن يقول مثل قَولتنا ، ويصلّي معنا، و بجانبنا .

لا نريد أنْ نعيش في حالةِ توجُّسٍ منْ هذا الذي يعلن كما نعلن، و يقول لاإله إلا الله محمَّد رسول الله، بل إنَّه ليقدِّم السلام لنا، ويقول السلام عليكم حينما يدخل علينا .

أرجو الله -عزَّوجلَّ- أنْ يوفـِّقنا منْ أجل أنْ نعيَ حياتنا،
ومنْ أجل أنْ نعيَ آخرانا، ومنْ أجل أنْ نعيش عبادتنا بحبٍّ،
وتفقُّهَنا بإحسانٍ ، وتفقيهنا وتعليمنا بتزكيةٍ ، ولقاءاتنا بأخوَّة .
نِعْمَ مَنْ يُسأل ربُّنا، ونِعْمَ النَّصير إلهنا .
والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) سيرة ابن هشام ، ج١ص٤٢٠ .

(٢) رواه مسلم ، الحديث رقم / ٧٩-٢٨١٩ / ج٤ص٢١٧١ .

(٣) رواه الترمذي رقم / ٣٧٨٩/ ، ج٥ص٦٦٤ وقال حسن غريب .

(٤) رواه البخاري ، الحديث رقم / ٧١ / ج١ص٣٩ .

(٥) رواه ابن عدي والطبراني و أبو نعيم ، عن عائشة رضي الله عنها ، بسند ضعيف ، كمافي كشف الخفا ج١ص٧٤ .

وفي مسند أحمد ج٦ص٣٠٥ عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا صلى الصبح ، حين يسلّم :

[اللهمَّ إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وعملاً متقبّلاً].

(٦) العلق / ١ .

(٧) الحجرات / ١٠ .

(٨) آل عمران / ١٠٣ .

(٩) رواه البخاري ، الحديث رقم / ٥٦٦٥ / ج٥ص٢٢٣٨ .

(١٠) رواه البخاري ، الحديث رقم / ٢٣١٤ / ج٢ص ٨٦٣ .

(١١) رواه البخاري ، الحديث رقم / ٦١٧٤ / ج٥ص٢٣٩٥ .

(١٢) الكهف / ٤٩ .

الخطبة السادسة عشرة

مفهوم السعادة



* « السعادة » ، لا شك في أنَّها كلمة جذابة، بل وساحرة ، ألم يفتتن بها ، ويسعى إليها أقلُّ الناس حظاً من العلم ، وأكبر الفلاسفة ؟ .

ولكن أيُّ شيءٍ هي ؟ ومن أين نستمدُّها ؟ . ههنا المشكلة .

إنَّ أستاذنا الدكتور محمود عكام حفظه الله ، يقدِّم لك إجابة واضحة على هذا السؤال ، في تعريفٍ جديد، ويمكننا أن نرى في تعريفه هذا عدَّة جوانب تستحقُّ الإعجاب والثناء :

١ـ إنَّ أستاذنا إذ يعرِّف السعادة بأنَّها « طمأنينة الداخل ، وتنظيم الظاهر » ، فإنَّه يربطها بالمادي والمعنوي من حياتك ، فمن الوهم أن تظنَّ أنَّ سعادتك هي في التجرد والعزلة بحثاً عن خلاص الروح ، كما وهمَ من قال : إنَّ السعادة حسيةٌ ، مرتبطة بالمادة فقط .

٢ ـ إنَّه تعريف محددٌ ومضبوط ، يصلح لوضوحه ودقَّته، أن يكون مقياساً يعود إليه كل واحد منَّا، ليحكم بشكلٍ موضوعي : أشقيٌ هو أم سعيد ؟ .

وهكذا يكون التعريف الدقيق ، الذي يمنحك شعوراً بالراحة ، فهو يعطيك أداةَ قياس واضحة ، تتعلق بموضوع شديد الأهمية بالنسبة إليك .

٣ ـ وهو تعريفٌ يصلح لكي تخاطب به كل الناس ، مهما تباينت اعتقاداتهم ، لأنه يخاطب فيهم تطلعاتٍ أصيلة ، ويقدِّم جواباً على سؤالٍ إنساني عام ، ويروي فيهم حاجةً ، يتفق الجميع على أنَّها غاية عليا .

ويمكنك أن تترجم هذا التعريف إلى أيَّة لغة أخرى ، ولا شكَّ في

أنَّك ستكون مقبولاً عندما تعرضه على الآخرين .

٤ ـ ويتوِّج أستاذنا الدكتور تعريفه للسعادة ، بربطه بمصطلحين قرآنيين مركزيين ، هما : الإيمان و الإسلام .

إنَّ ربط الأفكار الجديدة بالقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، ومصطلحاتهما ، سمةٌ واضحة عند أستاذنا الدكتور ، حرص عليها ودعا إليها ، وهي مسألة جديرة بالعناية ، فالقرآن الكريم هو متن فكرنا ، والحامل لأساسيات تصوراتنا ، وكلُّ جديدٍ لا ينتمي إليه ، ولا يصدر عنه ، فلا خيرَ فيه ، ولا فائدة أبداً .

بسْمِ الله الرَّحمَن الرَّحيْم

أيُّها الإخوة المؤمنون :

وكلُّ الناس يسعى للسَّعادة، وما هي إلا مطلبٌ يَهيم فيه الناس، ويريدون أنْ يحوزوه، لكنَّها بالنسبة إلى بعضهم، أمرٌ ذاتيٌّ يريد أنْ يحققه، وبالنسبة إلى بعضٍ آخر، سرابٌ واهمٌ يعيش الإنسان خلفَه، وربما كانت بالنسبة إلى فئةٍ ثالثة، أمراً دنيوياً لا يلامس كلَّ الإنسان؛ وإنَّما يلامس بعضه، في وقتٍ شعر الإنسان بحاجته .

ولعلَّ قائلاً يقول : أما لهذه الكلمة مِنْ تحديد، أما لهذه الكلمة مِنْ تعريف، أما لهذا المصطلح مِنْ حَدٍ يمكن أنْ نراه، ويمكن أنْ نعبِّر عنه، ويمكن أنْ يكون مقبولاً لدى كلِّ الناس العقلاء حينما يعملون عقولهم، ويتوجَّهون بتفكيرهم لقضايا مهمةٍ أساسية .

لقد فتَّش الإنسان عن معاني هذه الكلمة يمنةً ويسرة، ولكنه نسيَ في لحظةٍ من اللحظات، أو تناسى مصدراً أساسياً مِنْ أجل أنْ يأخذ عنه

المعاني، نسيَ مصدراً ينبغي أنْ يستقيَ منه، نسي مصدراً ينبغي أنْ يتعايش معه، وكأنّي بالقرآن الكريم يقول لهذا الإنسان اللاهث الباحث :

﴿ يا أيُّها الإنسان ما غرَّك بربِّك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك، في أيِّ صورةٍ ما شاءَ ركَّبك ﴾ (١) .

إلى أينْ أنت سائرٌ أيُّها الإنسان ؟! .

إلى أين أنت ذاهبٌ أيُّها الإنسان ؟، معرضٌ عن ربِّك، معرضٌ عمَّن خلقك فسواك، معرضٌ عمَّن يعلم نَفْسك أكثر مِنْ نفسك، معرضٌ عمَّن يقدِّم لك ما يُسعدك في الدنيا والآخرة، وهي تمام السَّعادة !، ﴿ ماغرَّك بربِّك الكريم ﴾ .

لماذا أعرضت عنه أيُّها الإنسان ؟، أفلا يجدر بك بعد تفكيرٍ بسيط قصير، أنْ تعود إلى ربِّك منْ أجل أنْ تأخذ عنه ؟ . أفلا يجدر بك بعد هذا البحث الطويل ، أنْ تتذكر نداءَ داخلياً في جوفك يلاحقك :

يا أيُّها الإنسان ، أنت مخلوقٌ لربٍ خالق، وعلى المخلوق أنْ يأخذ من الخالق، أفلا يجدر بك أيُّها الإنسان أنْ تفكر بهذا الأمر بشكلٍ جادٌ .

وعندما يفكِّر الإنسان سيجد ربَّه ـ عزَّوجلَّ ـ و قد حدَّد له معالم السَّعادة ، وبيَّن له ملامحها ، ووضَّح له مقوِّماتها، و إنَّها حينما تُدْرس من هذا الكتاب الكريم تكاد أنْ تكون بين أمرين اثنين لا ثالثَ لهما، والقضية مطروحةٌ للنقاش :

إنَّ السَّعادة في أمرين اثنين، طمأنينةُ الدَّاخل ، وتنظيمُ الظاهر .

إنَّ السَّعادة تعني راحةَ الداخل و استقراره، وتعني تنظيمَ الظاهر

والجوارح، وتنظيمَ ما يصدر عن هذه الجوارح .

وإذا أردتَ أنْ أرْجِعَ هذين الأمرين، منْ أجل أنْ يستظلا بمصطلحين قرآنيين، وبمصطلحين أساسيين في ديننا، قلتُ:

إنَّ السَّعادة في الإيمان والإسلام:

- فالإيمان، لداخلك.

- والإسلام، لظاهرك.

- والإحسان، كيفيةٌ تؤدِّي من خلالها الإيمانَ على الوجه الأكمل، والإسلامَ على الوجه الأتمِّ؛ ذلك أنَّ الإحسان يقول لك أنْ تتوجَّه بإيمانك وإسلامك إلى الله الذي يراك، وإنْ كنت لاتراه، إلى الخالق الذي يراك، فاعبده كأنَّك تراه، فإنْ لم تكن تراه فإنَّه يراك .

وحينما نريد أنْ نوضح وأنْ نشرح هذين الأمرين نقول :

أولاً ـ طمأنينة الداخل

سلوا أولئك السعداء بحسب الظاهر، هل داخلهم في طمأنينة ؟، أم أنَّهم يريدون أنْ يُغطُّوا مافي داخلهم مِنْ قلقٍ بظواهرَ لاتمت إلى الإنسان بصلة ؟ .

سلوا هؤلاء السعداء الذين تلعب بهم الملاهي والأيام، هل هم على سعادة تنبثق منْ داخلهم، وتنبع منْ ينبوع جواهم ؟ أمْ أنَّهم يريدون بما يفعلون ظاهراً أنْ يُسكتوا قلقاً يخرج منْ داخلهم ساعةً بعد ساعة، وثانيةً بعد ثانية، ودقيقةً بعد دقيقة ؟ .

ليست السَّعادة بما يكتسب الإنسان منْ ماديات مفرحة في ظاهرها، والدليل على ذلك الإنسان ذاته، الدليل على ذلك هذا الإنسان الذي تراه ظاهراً راقصاً ولكنَّ رقصه إنَّما هو منَ الألم، إنَّما يدفعه إليه الألم، كالطير يرقص مذبوحاً منَ الألم .

لا نقول هذا الكلام اجتراراً ولا ادِّعاءً، ولا أريد أنْ نكون خطابيين في حديث نلقيه بين أيديكم ، وعلى أسماعكم، ولكننا نريد وصولاً إلى مفاهيم ، عسانا أنْ نتَّخذها أموراً متفقاً عليها ، ليُصار بعد ذلك إلى تطبيقها .

الإيمان راحةٌ داخلك، والإسلام تنظيم ظاهرك، وتنظيم خارجك يكون عندما تتوجَّه إلى الله بداخلك ﴿ ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب ﴾ [٢]، ولا يمكن أنْ تطمئنَّ بذكرِ غيره .

حينما تذكره على أنَّه المعبود، حينما تذكره على أنَّه الرزاق، حينما تذكره على أنَّه الفعَّال المطلق، الذي لا يمكن أنْ يعْقب أمرَهُ أمرٌ، حينما تذكره على أنَّه المتوجِّه إليك بالرحمة، على أنَّه المتوجِّه إليك بالخلق، والإيجاد، والنعمة، والإمداد، ﴿ ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب ﴾ .

وحينما نجد هذا المصطلح الإيماني في حالةٍ مطبَّقة عبر التاريخ، فلن نجدَ أروع من المصطفى ﷺ يوم كان هذا الإيمان يُطمئن داخلَه، وهو في حالةٍ ظاهريةٍ قاسية، يلاحقه المشركون إلى الغار ، ويريد المشركون أنْ يقتلوه، وأنْ يقتلوا منْ معه، وهو في الغار مُتَابَع مُلاحَق، يخاطبه أبوبكر :

(يا رسول الله، لو نظرَ أحدهم إلى أخمصِ قدمه لرآنا) .

وإذ بالنبي عليه السلام يقول:

[ما ظنُّك باثنين، اللهُ ثالثهما] (٣).

وسرت السَّعادة إلى أبي بكر، فاطمأنَّ أبو بكر.

ويقف رسول الله ﷺ ليعلن هذا الشطرَ منَ السَّعادة، يوم هاجر إلى قومٍ ضربوه بالحجارة وأدمَوْا قدميه، و منْ أجل أنْ يدلَّل على داخلٍ مطمئنٍ رفع يديه وقال:

[اللهمَّ إنْ لمْ يكنْ بك غضبٌ عليَّ فلا أبالي] (٤).

شطر السَّعادة في طمأنينة الداخل: ﴿ طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرةً لمن يخشَى ﴾ (٥)، ﴿ فأنذرتكمْ ناراً تلظَّى، لا يَصلاها إلا الأشقى، الذي كذَّب وتولَّى، وسيجنَّبها الأتقى، الذي يُؤْتي ماله يتزكَّى ﴾ (٦).

إنَّ شطر السَّعادة في طمأنينة الداخل، ولا يقدِّم هذا ولا يحقِّق هذا إلا الإيمان بالله، فافحصوا إيمانكم صباح مساء، وافحصوا صلتكم بربكم. أتُرانا على طمأنينةٍ قوية في داخلنا؟، أمْ أنَّ الإيمان يكاد أنْ يخبو ضوؤه في داخلنا؛ ومنْ أجل ذلك لا نُحسُّ بالسَّعادة الحقيقية؟.

ثانياً ـ تنظيم الظاهر

أمَّا الشرط الثاني منَ السَّعادة فتنظيم الظاهر. ويبحث الناس اليوم عن أنظمةٍ منْ أجل أنْ تُطبَّق، ومنْ أجل أنْ تغطيَ علائقهم ـ فيما بينهم ـ على المستويات كافةً التي يمكن أنْ يكون الإنسان عليها.

أيُّها الإنسان :

الإسلام جاء فغطّى هذا الإنسان ، جاء فنظّم علاقة الفرد بالفرد ، ونظّم علاقة الفرد بالمجتمع ، وعلاقةَ المجتمع بالفرد ، وعلاقةَ الحاكم بالمحكوم ، وعلاقةَ الإنسان بالأشياء المادية ، وعلاقةَ الزوج بزوجه ، وعلاقةَ الأخ بأخيه ، وعلاقةَ الإنسان بكلِّ إنسانٍ ، في أيِّ صورةٍ وُجِد فيها الإنسان .

فما أروعها منْ سعادةٍ ! يوم أشعرُ أنَّ وشاحاً تشريعياً من الخالق وُضع على صدرِ هذا الزمن ، على صدر هذا الإنسان ، منْ أجل أنْ يكون الإنسان سعيداً .

لنْ يشقى الإنسان بإسلامه ، لنْ يشقى الإنسان بتنظيم ربِّه ، الذي خلقه فسوَّاه فعدله .

أيُّها الباحثون عن نظام للإنسان ، كفاكم بحثاً ، فلقد قيل منذ أربعة عشرَ قرناً على لسان مخلوقٍ نقلَ كلامَ الخالق :

﴿ إنَّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ (7) .

أيُّها الباحثون عن السَّعادة ، كفاكم بحثاً عن نظام ظاهري ، عن نظامٍ خارجي ، عن نظامٍ منْ أجل جوارحكم وعلائقكم ، فالإسلام قال ـ منذ أربعة عشر قرناً ـ على لسان شخصيةٍ لا يزال الناس يشهدون بعقلها ، يشهدون برفعتها ، يشهدون بصدقها ، على لسان هذا النبي ﷺ يوم وقف وقال :

[إنَّما مثَلي ومثَلُ ما بعثني الله به ، كمثَلِ رجلٍ أتى قوماً ، فقال : يا قوم إنِّي رأيت الجيش بعيني ، و إنِّي أنا النذير العُرْيان ، فالنَّجاء

النَّجاء. فأطاعه طائفةٌ منْ قومه ؛ فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجَوْا . وكذَّبتْ طائفةٌ منهم ؛ فأصبحوا مكانهم، فصبَّحهم الجيش فأهلكهمْ واجتاحهم، فذلك مَثَلُ منْ أطاعني فاتَّبع ما جئت به، ومثل منْ عصاني وكذَّب ما جئت به منَ الحق] (٨) .

﴿ استجيبوا لله وللرَّسول إذا دعاكم لما يُحييكم ﴾ (٩) .

والحياةُ سعادةٌ، ولكنها مشروطةٌ أنْ تكون حياةً كاملة حتى تتوفر فيها السَّعادة، وإلا فهي وَهْمُ حياة. وهكذا يعيش الناس اليوم في وَهْم حياة، فلا الداخل بمطمئن، ولا الظاهر بمنظَّم ، وإنْ شهدنا ادعاءاتٍ على مستوى الداخل ، وعلى مستوى الظاهر .

أيُّها المثقفون، أيُّها الدارسون، أيُّها المنظِّمون، أيُّها المقنِّنون :

هل قرأتم كتابَ الله، فوجدتموه عاجزاً عن أنْ يُمدَّكم بقوانين ، فعدلتم عنه ؟ .

هل قرأتم سيرةَ النبيِّ ﷺ ، فوجدتم فيها خللاً يلامس الإنسان ، فتركتموها ؟ .

أيُّها الجادُّون في البحث عن سعادة الإنسان :

إنَّه نداء قد لا يصل إلى أسماع الكثيرين، ولكننا نأمل أنْ يبلِّغه الحاضرون.

أيُّها الباحثون، أيُّها المثقفون :

سعادتنا بإسلامنا، سعادتنا بإيماننا، ولئن اشرأبَّت عنقٌ منَّا تتطلع إلى سعادةٍ مأخوذة من غير هذا الدين الذي ارتضاه الله لنا، فإنَّما ذلك شيطانٌ

حـفـزَ واحـداً منَّا، من أجل أنْ يـتطفَّل، ومنْ أجل أنْ يتطلّع إلى سـرابٍ خادع.

نريدكم أنْ تفكروا بجِديَّةٍ بالغة، منْ أجل أنْ نبـدأ الطريقَ الـواعي، منْ أجل أنْ نبـدأ المنهجَ الشامل، منْ أجل أنْ نعيش، ونحن واضحون، ونحن مبصرون، ولا نريد أنْ نكون أدواتٍ بأيدي غيرنا، يقلبوننا صباح مساء، ويضعوننا مواضعَ التجريب لمبادئهم ولأفكارهم.

لقـد قلت لصديقٍ لي يختصُّ بشؤون الاجتـماع والأسرة: انطلقْ منْ خلال ما أتى به الإسلام؛ فستجد أنَّ النواة الأساسية لعلمك هذا إنَّما هي في طيَّات هذا القرآن، وفي أثناء ما قاله النبي ﷺ، فانطلق من هذا.

لا أريد أنْ يقول أحد منكم: إنَّ هذا الكلام مجمَل. إنَّها حقيقةٌ، ولكنَّ الموقف يقتضي الإجمال، ولو أردنا التفصيل لوقفنا ساعاتٍ وساعات، منْ أجل أنْ ندلل على أنَّ الإسلام إنَّما هو اللَّبوس الصالح للإنسان، منْ أجل أنْ يكون الإنسان سعيداً.

لا سعادةَ في غير ديننا، لا سعادةَ في أيِّ شيءٍ يلوح لنا هنا وهناك، لا سعادةَ في يمينٍ ولا سعادة في يسار، إنَّما السَّعادة في هذا الطريق، في هذا الدِّين الذي ارتُضِيَ لنا، منْ قِبَلِ خالقنا، مِنْ قِبَلِ منْ قال لنا:

﴿ اليومَ أكملتُ لكمْ دينكَم وأتممتُ عليكمْ نعمتي ورضيتُ لكم الإسلام ديناً ﴾ (١٠).

عَوداً إلى دراسةِ مصطلحاتٍ تَلوح أمامنا، وتُعْرَض علينا منْ أجل أنْ نقدِّم لها مضامين موضوعيةٍ، تلامس الإنْسان، أينما وجِد الإنسان، ولعلَّ

أعلى هذه المصطلحات « السَّعادة » ومن اعترضَ فنحن جاهزون لاعتراضاته .

واللهِ لا نقول هذا منْ أجلِ الإسكات ، وإنَّما هذا منْ أجلِ تبيان سيادةِ الاقتناع .

إنَّ الإنسان لن يجد غير هذا التعريف ، حينما يُعمل عقله ، وحينما يعمل فكره ، وحينما يرجع إلى فطرته ، وحينما يستلهم نداءاتِ فطرته التي تنبثق منْ داخله ، فالفطرة تقول لك :

أيُّها المخلوق ، الخالق أدرى بك .

أيُّها المخلوق ، الخالق أعلم بك .

﴿ ألا يَعلمُ مَنْ خلقَ وهو اللطيف الخبير ﴾ (١١) .

وربُّنا لا يريد لنا الشقاء ، وإنَّما يريد ويرضَى لنا السَّعادة ، و قد بيَّن لنا ملامحها وطريقها وسبيلها ومنهاجها .

فهيَّا إلى السَّعادة ، إلى طمأنينةِ الداخل بالإيمان ، ونظامِ الظاهر بالإسلام ، هيَّا إلى الإحسان ، منْ أجل أنْ نحوزَ السَّعادة بأكمل صورها وبأعلى درجاتها .

ياربَّنا ، كما أسعدت نبيَّك محمداً ﷺ ، وكلُّنا يقرُّ بذلك ، فمحمدٌ ﷺ أسعدُ السُّعداء ، أسْعدنا يا ربَّنا بإيمانٍ في داخلنا ، وإسلامٍ على ظاهرنا ، وأسلوبيةٍ تُسمَّى الإحسان ، نطبِّق ـ منْ خلالها ـ الإيمان والإسلام .

أيُّها الدارسون ، أيُّها العاقلون :

إنْ عقدتم مقارنةً فاجعلوها للتاريخ بين محمَّد ﷺ وبين منْ وقف أمامه

منْ كفارٍ وغيرهم، مَنْ كان السعيدَ منهما ؟ .

أقيموا مقارنةً لكلّ المتقابلين منْ رجال التاريخ، وستجدون أنَّ السعداء هم الذين ندعو لأنْ نسير على خطّهم .

ستجدون أنَّ سعداءَهم آدم عليه السلام ، ومنْ بعده منَ الأنبياء، إلى آخر صالحٍ ، وإلى آخر مسلمٍ ندعوا إلى أنْ نسير على خطواته، ومَنْ عدا ذلك ـ اللهمَّ لا تجعلنا مثلهم ـ أشقياء .

نتوجَّه إليك ياربَّنا أنْ تجعلنا سعداءَ بدينك ، سعداء بك .

نِعْمَ مَنْ يُسأل ربُّنا، ونِعْمَ النَّصير إلهنا .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) الإنفطار / ٦ ـ ٨ .

(٢) الرعد / ٢٨ .

(٣) رواه البخاري ، حديث رقم / ٣٤٥٣ / ج ٣ ص ١٣٣٧ .

(٤) انظر سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٤٢٠ .

(٥) طه / ١ ـ ٣ .

(٦) الليل / ١٤ ـ ٢١ .

(٧) الإسراء / ٩ .

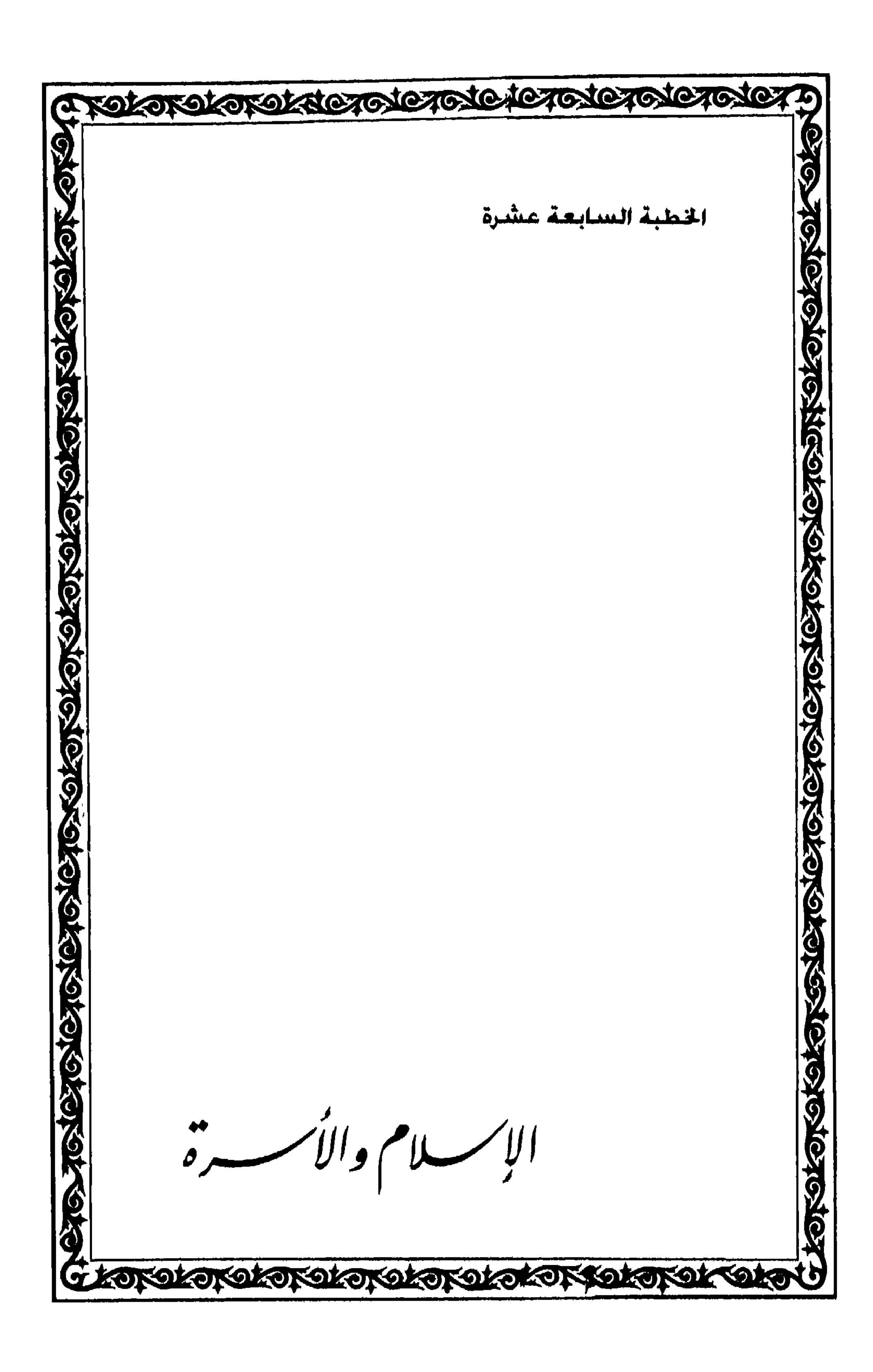
(٨) رواه البخاري، حديث رقم / ٦٨٥٤ / ج ٦ ص ٢٦٥٦ .

(٩) الأنفال / ٢٤ .

(١٠) المائدة / ٣ .

(١١) الملك / ١٤ .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الخطبة السابعة عشرة

الإسلام والأسرة



* الأسرة بنيةٌ اجتماعية لها الدور الكبير في توجيه سير المجتمع ، وحالتها تعبِّر عن حالة هذا المجتمع بأسره ، وتمثِّله تمثيلاً صادقاً ، إنْ في ارتقائه أو انحداره .

وإسهاماً من أستاذنا الدكتور محمود عكام في العمل على رفع مستوى الأسرة في بلادنا ، فقد اعتنى في خطبٍ كثيرة بالتأصيل لوضعية أسَرِيَّة صحية ، مستمدةٍ من المعالم الخيرة لديننا الحنيف ، وقد شملت هذه العناية كلَّ ما يتعلق بالأسرة من حيث بناؤها ، وأسس الزواج الناجح ، والتشريعات الضامنة لاستمرارها سليمةً مصونة ، ومن حيث بيان حقوق، وواجبات، كل فرد من أفراد الأسرة ، من الأب والأم والأولاد ، ومن حيث تقديم النموذج الواقعي، المتمثل في أسرة النبي ﷺ ، وحياته في بيته .

وهل كان توجُّه النبي ﷺ لبيان مقومات الأسرة القويمة بياناً مفصلاً ، إلا لكونها البيئة الأهمَّ، التي يتشكل فيها الفرد ، ويكتسب توجهاته الأولى :

[كلُّ مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهوِّدانه ، أو ينصِّرانه ، أويمجِّسانه] .

وكانت مسألتا « المرأة » و « الطفل » ، الموضوعَين الأكثر رعاية من بين قضايا الأسرة ، عند أستاذنا الدكتور حفظه الله :

آ ـ فواقع المرأة المسلمة اليوم ، والشروط الاجتماعية التي تعيش تحت سلطتها ، يشكلان علامةً على انحطاط مكانة الفرد في مجتمعنا كـ « إنسان » قبل أيَّة صفةٍ أخرى ، وانخفاضِ الإحساس بالإنسانية ، كمظهرٍ يستلزم التقدير والتكريم في ديننا .

ويعطي هذا الواقع المترديّ في الوقت نفسه ـ كما بيَّن أستاذنا الدكتور ـ مثالاً على خضوع سلوكياتنا لتأثير العادة المستحكمة ، حتى وإن كانت مخالفة للمبدأ « الإسلام » ، ومؤشراً على تأخر مستوى التعامل الواعي مع النصوص الشرعية ، والعدولِ عن التفكير فيها من خلال نظرةٍ كلية شاملة ، إلى نظرة تجزيئية تبريرية .

بالإضافة إلى كون موضوع المرأة مجالاً لدراسة جوانب التطرف في مجتمعنا ، إن يميناً أو يساراً ، وعلى حدِّ تعبير أستاذنا الدكتور حفظه الله : (بين أولئك الذين يذبحون المرأة بتبرير من نصوص الشرع دون تفكيرٍ فيها ، وبين أولئك الذين يقولون إن فقه المرأة عندنا فقهٌ يهودي) .

ب ـ وأما ضعف الإحساس بالمسؤولية الشرعية، التي نبَّه إليها رسول الله ﷺ تجاه أطفالنا ، وقلة الاهتمام العلمي ، وتخلفُ الدراسات الخاصة بالطفل المسلم ، أو فقدانها نهائياً في كثير من المجالات ؛ فحدِّثْ عنها ولا حرج ، وعمَّا يخلفه ذلك من سوء فهمٍ عام لحاجات الطفل، وعن القصورِ الفظيع في توفير الأجواء الصحية، إنْ في البيت، أو في المدرسة، أوفي الملعب، لتربيته التربية الصحيحة .

وهذا موضوعٌ تناولته خطبة أستاذنا الدكتور، واهتمَّت به الاهتمام الذي يستحقه، كما في سلسلة خطب « طفلي الحبيب ».

وقد غدت مشهورةً عبارة أستاذنا :

(نحن نريد طفلاً يعادل طفلين، ولانريد طفلين يعادلان طفلاً) .

بسْمِ الله الرَّحمَن الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

لقد رعى الإسلامُ الإنسانَ في كلِّ تجليَّات وجوده، فرداً كان أو أسرة، مجتمعاً كان أو دولة، ورعايةُ الإسلام تعني :

أولاً ـ التأسيس ، مِنْ خلال التكوين .

ثانياً ـ والاستمرار ، عبر الحماية والعناية .

ثالثاً ـ والتوريث ، بواسطة التَّنفيذ الواعي، الذي يُوجِده النَّموذجُ المقنع .

كلُّ ذلك في إطارٍ مستوعِبٍ من الإيمان بالله ـ عزَّوجلَّ ـ : ﴿ ألا يعلم مَنْ خلقَ وهو اللطيف الخبير ﴾ (١) .

وحين نتوخَّى المرحلةَ الأهمَّ في تجليَّات وجود الإنسان التي ذكرنا، تبرز الأسرةُ حالةً هامَّة فاعلة خطيرة، تحتضن الفرد في أبعاده وتطلُّعاته ودوافعه

واندماجه في مجتمعه، وتشكّل في الوقت ذاته منطلقاً لمجتمع متراصٍّ متماسك، وكأنّي بها وهي صالحة، يصلح بها الفرد والمجتمع، وكأنّي بها وهي خائبةٌ، يخيب المجتمع والفرد من خلالها .

وإذا ماأردنا الحديث، عن التكوين، والحماية والعناية، والتنفيذ الواعي، في مجال الأسرة، فإنّنا نتحدث عن :

أولاً ـ التأسيس مِنْ خلال التكوين

الذي يتجلّى مِنْ خلال مقوّماته :

١ ـ أمّا المقوّم الأول لتكوين الأسرة، وتأسيسها التأسيسَ القويَّ، فهو الاختيار السليم، مِنَ الرجل للمرأة، ومِنَ المرأة للرجل، ومِنْ أجل هذا، فقد جعل الإسلام الاختيارَ مبدئيّاً، فقال ﷺ للرجل وهو يختار المرأة :

[تُنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها و جمالها و دينها، فاظفر بذات الدِّين تَرِبَتْ يداك] . رواه البخاري (٢)، وفي رواية أحمد :

[فخذ ذاتَ الدِّين، والخلق تربت يداك] (٣) .

ووجّه المرأة كما وجّه الرجل، فقال للمرأة وهي تختار وتبحث :

ليكن اختيارك مبدئيّاً، فلقد ورد في سنن الترمذي، أنَّ النبيَّ ﷺ قال :

[إذا أتاكمْ مَنْ ترْضَون دينه وخلقه فزوِّجوه، إلا تفعلوا؛ تكنْ فتنةٌ في الأرض وفسادٌ عريض] (٤) .

وأنتِ ـ أيّتها المرأة ـ يا صاحبة المبدأ، يا مَنْ اعترف ديننا الإسلام بحقك، أنت التي تختارين .

وها هي القصة التي يرويها ابن ماجه و أحمد، تعبّر عن مدى احترام الإسلام لاختيار المرأة، يوم جاءت فتاة إلى النبيّ ﷺ، فقالت له :

(يا رسول الله، إنَّ أبي زوَّجني ابنَ أخيه، ليرفعَ بي خسيسته، وأنا له كارهة) . فخيَّرها النبي ﷺ، أيْ جعل لها الخيار في أنْ تقبل ذلك أوترفضه، فقالت : (يا رسول الله قد أجَزْتُ ما صنع أبي، ولكنْ أردتُ أنْ يعلم الناس أنْ ليس إلى الآباء مِنْ الأمر شيء) (٥) . أيْ في الاختيار الذي ينبع مِنَ الفتاة المسلمة، صاحبة المبدأ .

٢ ـ وأمَّا المقوِّم الثاني بعد الاختيار، ومنْ أجل تكوينٍ سليم يعني التأسيسَ القوي، تأتي قضية المهر، ولقد دعا الإسلام إلى عدم التغالي في المهر، وقال ﷺ يوم سمع بإنسان أصْدقَ زوجتَه خمسَ أواقٍ منْ فضة :

[لو كنتم تغرفون مْن بُطحانٍ مازدتم !] (٦) .

وقال ﷺ في حديث آخر :

[مِنْ يُمْنِ المرأة تيسير صَداقها] (٧) . هذه هي مرحلة التكوين .

ثانياً ـ الاستمرار عبر الحماية والرعاية

أما الحماية والرعاية اللتان تُوجِدان الاستمرار، فبالحماية والرعاية تستمرُّ الأسرة أسرةً معطاءة، منْ أجل أنْ تقدِّم النموذجَ الخيِّر، ولذلك فقد حماها الإسلام بتشريعاتٍ وقوانين ؛ كانت لها رائعة .

أ ـ فقال لها أولاً :

أيَّتها الأسرة، أيُّها الزوج، أيَّتها الزوجة : لتكونوا في حِمْيةٍ مِنْ أفعالٍ

تؤثّر في مسار هذه الأسرة :

ـ فلا طلاقَ، والطلاق في ساحة البغضاء وضعه الله ـ عزو جلَّ ـ .

ـ ولازنى، لأنَّه معْولٌ يهدم الأسرة، وليس مِنْ معولٍ يهدم الأسرة أخطر مِنَ الزنى، إذ يهدم الأسرة بكل كيانها، ليأتي بعد ذلك على هدم المجتمع .

ب ـ ورعَى الإسلام الأسرةَ بعد ذلك، فقدَّم لها تشريع عناية :

ـ إذ قال للزوجة :

أيتها الزوجة، هيا مِنْ أجل أنْ تتحلَّي بالطاعة الواعية الهادفة للزوج، فلقد ورد في الطبراني، أنَّ امرأةَ جاءت إلى النبيِّ ﷺ وقالت : (يا رسول الله، أنا وافدة النساء إليك، الرجال يجاهدون معك ولا جهاد لنا)، فقال لها النبيُّ ﷺ : [أبلغي مَنْ لقيتِ منَ النساء أنَّ طاعة الزوج، واعترافاً بحقِّه يعدل ذلك] (٨) .

ـ وقال للزوج وهو يعتني بالأسرة :

أيُّها الزوج كنْ صاحب خُلقٍ حسن مع زوجك في بيتك، فلقد قال ربُّنا سبحانه وتعالى : ﴿ وعاشروهنَّ بالمعروف ﴾ (٩) .

وقال النبيُّ ﷺ :

[استوصوا بالنساء خيراً]. رواه البخاري (١٠) .

و يروي الترمذي، أنَّ النبيَّ ﷺ قال :

[خيركمْ خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي] (١١) .

وقال ﷺ، كما يروي الترمذي : [إنَّ مِنْ أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً، وألطفهم بأهله] (١٢) .

وتابع الإسلام طريق العناية مِنْ أجل استمرارٍ رائع، مِنْ أجل مسيرة أسرةٍ، تشكّل النواةَ الخيِّرة لمجتمع فاضل متكامل، فقال للأولاد:

هيَّا أيُّها الأولاد إلى برِّ آبائكم، هيَّا إلى برِّ أمهاتكم:

﴿وقضى ربُّك ألا تعبدوا إلا إيَّاه وبالوالدين إحساناً﴾ (١٣).

ويروي البيهقي، أنَّ النبيَّ ﷺ قال:

[ما مِنْ ولدٍ ينظر إلى أبيه أو أمِّه نظرةَ رحمة إلا كتبَ الله له بهذه النظرةِ حجةً مبرورة].

فقال رجلٌ: (يا رسول الله، أرأيتَ إنْ نظرتُ إليه مئة مرةٍ في اليوم؟).

فقال ﷺ:

[نعمْ، الله أطيبُ وأكرم] (١٤).

وتتابع العناية ليتوجَّه الإسلام إلى الآباء، منْ أجل عطفٍ وحُنُوٍّ على الأبناء، ويقول الإسلام لهؤلاء الآباء:

هيَّا وتجلببوا بجلباب الرَّحمة والإحسان، بجلباب العطف على الأولاد.

وما أروعَ القصة التي يرويها البخاري! يوم جاء الأقرع بن حابس إلى النبيِّ ﷺ، فرآه يُقبِّل الحسين رضي الله عنه فقال: (يا رسول الله، إنَّ لي عشرَةً منَ الأولاد، ما قبَّلتُ واحداً منهم أبداً)، فقال النبيُّ ﷺ:

[أوَ أملكُ لك أنْ نَزع الله مِنْ قلبك الرَّحمة؟ . مَنْ لا يَرحم لا يُرحَم] (١٥).

ويروي البيهقي، أنَّ رجلاً كان جالساً بقرب النبيِّ ﷺ، فدخل على

الرجل ابنٌ له، فقبَّله ووضعه في حِجْره، ثمَّ دخلتْ عليه ابنةٌ له، فوضعها إلى جانبه، ولم يقبِّلها، فقال له النبيُّ ﷺ:

[ألا سوَّيتَ بينهما] (١٦).

إنَّها الحماية، إنَّها الرعاية، تُثبِّتان الاستمرار الرائع.

ثالثاً- التوريث بواسطة التنفيذ الواعي

ويأتي بعد ذلك التوريث، الذي يظهر ويتجلَّى عبر النموذج المقنع، وهاهو النبيُّ ﷺ يشكِّل هذا النموذج، هاهم صحابته، وهاهم العاملون، وهاهم المؤمنون الصادقون، يَبنون نماذجَ رائعة، و يشكِّلون أسوةً ستبقى محلَ إكبارٍ وإعجاب، لكلِّ أولئك الذين يَنشدون أسَراً طيبة خيِّرة، تشكِّل مجتمعاً طيباً خيِّراً.

وإنْ سألنا عن أسرة الحبيب الأعظم ﷺ ، عن روعتها، عن نموذجيَّتها، عن أسوتها، إذ بنا نقرأ ملامحها في طيفٍ ملَّون رائع، يأتي قوساً منوَّراً لكلِّ منْ ادلهمَّ به الظلام، أووقع في الغياهب والسراديب.

ومَنْ أراد عرضاً لهذه الملامح الكريمة، فليقرأ ما قالته السيدة عائشة رضي الله عنها، كما في الطبقات، حينما وصفتْ النبيَّ ﷺ، فقالت:

(كان ألينَ الناس بسَّاماً ضحَّاكاً) (١٧).

وحين نسأل أنس بن مالك، يقول لنا:

(ما رأيت أحداً كان أرحمَ بالعيال مِنْ رسول الله ﷺ) (١٨).

وحينما نسأل هذه الأسرة الكريمة عن سلوك الزوجة، يطالعنا التاريخ

بكلماتٍ ستبقى الطغراء في صفحة الحياة، حين قالت السيِّدة خديجة ـ رضي الله عنها ـ للمصطفى ﷺ، يوم جاءها ترتعد فرائصُه، لما هبط عليه الوحي، قالت هذه الزوجة الرائدة الرائعة الواعية:

(كلا، واللهِ ما يخزيك الله أبداً، إنَّك لتصل الرَّحم، وتحمل الكلَّ، وتكْسِب المعدوم، وتُعين على نوائب الحق)[١٩].

ويجلل كلَّ ذلك الحبُّ، فلا أسرةَ مِنْ غير حبٍّ، ولا مجتمعَ مِنْ غير مودَّة.

وإنَّ الأسرة التي انهزم منها الحبُّ، وإنَّ المجتمع الذي حادَ عن مسيرةِ الحبِّ، مجتمعٌ وأسرة ينبغي أنْ ينظرا نظرةً فاحصة في واقعهما.

الحبُّ سيبقى الغيمةَ الخيِّرة المدرَّة للمطر الخيِّر، منْ أجل أنْ تُنْبتَ هذه العلائق والصلات كلَّ ملامح الخير، وكلَّ معالمه، وكلَّ ثماره التي تنفع الناس.

وحياةٌ وأسرةٌ ومجتمعٌ مِنْ غير حبٍّ، مجتمعٌ لا ثمرَ فيه، ولا ماءَ فيه، ولا حياة فيه.

وإنِّي لأرجو الله، وأنا أتحدَّث عن هذه الخليَّة، أتحدث عن هذه النواة، أتحدث عن الأسرة، أنْ يجعل ربِّي بلدنا، أنْ يجعل ربِّي سوريةَ الحبيبة، أسرةً تكون النموذجَ والقدوة لكل البلاد، وعلى مستوى كلِّ بقاع الأرض، على مستَوى كلِّ الدُّول التي تَسعَى مِنْ أجل أنْ تكون معطاءةً خيِّرة مبدئيَّة.

أرجو الله أنْ يجعل مِنْ سورية أسرةً خيِّرةً بعطائها، باحترام صغيرها

لكبيرها، وبعطفِ كبيرها على صغيرها، وبأنْ تكون دائماً مرعيَّةً بقيادةٍ مؤمنة، لتشكِّل ـ وهذا الذي نصبو إليه ـ وطناً نظيفاً، يستظلُّ بظلِّ دينٍ حنيف .

عنوان أسرتنا في سورية :

وطنٌ نظيفٌ يستظلُّ بدينٍ حنيف .

أسأل اللهَ أنْ يوفِّقنا جميعاً، حيثما كنَّا، لنكونَ على مستوى العطاء في أسَرنا، وفي مجتمعاتنا .

آمين .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) الملك / ١٤ .

(٢) رواه البخاري، حديث رقم / ٤٨٠٢ / ج ٥ ص ١٩٥٨ .

(٣) رواه أحمد، ج ٣ ص ١٨ .

(٤) رواه الترمذي حديث رقم / ١٠٨٤ / ج٣ ص٣٩٤ . وابن ماجه الحديث رقم / ١٩٦٧ / ج ١ ص ٦٣٢ .

(٥) رواه ابن ماجه رقم / ١٨٧٤ / ج ١ص ٦٠٢ ، وأحمد ج ٦ ص ١٣٦ .

(٦) رواه أحمد، ج٤ص ٤٤٨ ، وعبد الرزاق في المصنف ج٦ص١٧٧ .

(٧) رواه أحمد، ج ٦ ص٧٧ ، والحاكم ج٢ص١٨١ .

(٨) نقلاً عن الترهيب والترهيب ج٣ص٥٣ .

(٩) النساء / ١٩ .

(١٠) رواه البخاري، حديث رقم / ٤٨٩٠ / ج ٥ ص ١٩٨٧ .

(١١) رواه الترمذي، رقم / ٣٨٩٥ / ج ٥ص ٧٠٩، وقال حسن غريب .

(١٢) رواه الترمذي، رقم / ١١٦٢ / ج٣ ص ٤٦٦ ، وأحمد ج ٦ ص ٤٧ .

(١٣) الإسراء / ٢٣ .

(١٤) رواه البيهقي، عن ابن عباس ، كما في الدر المنثور ج٥ص٢٦٤ .

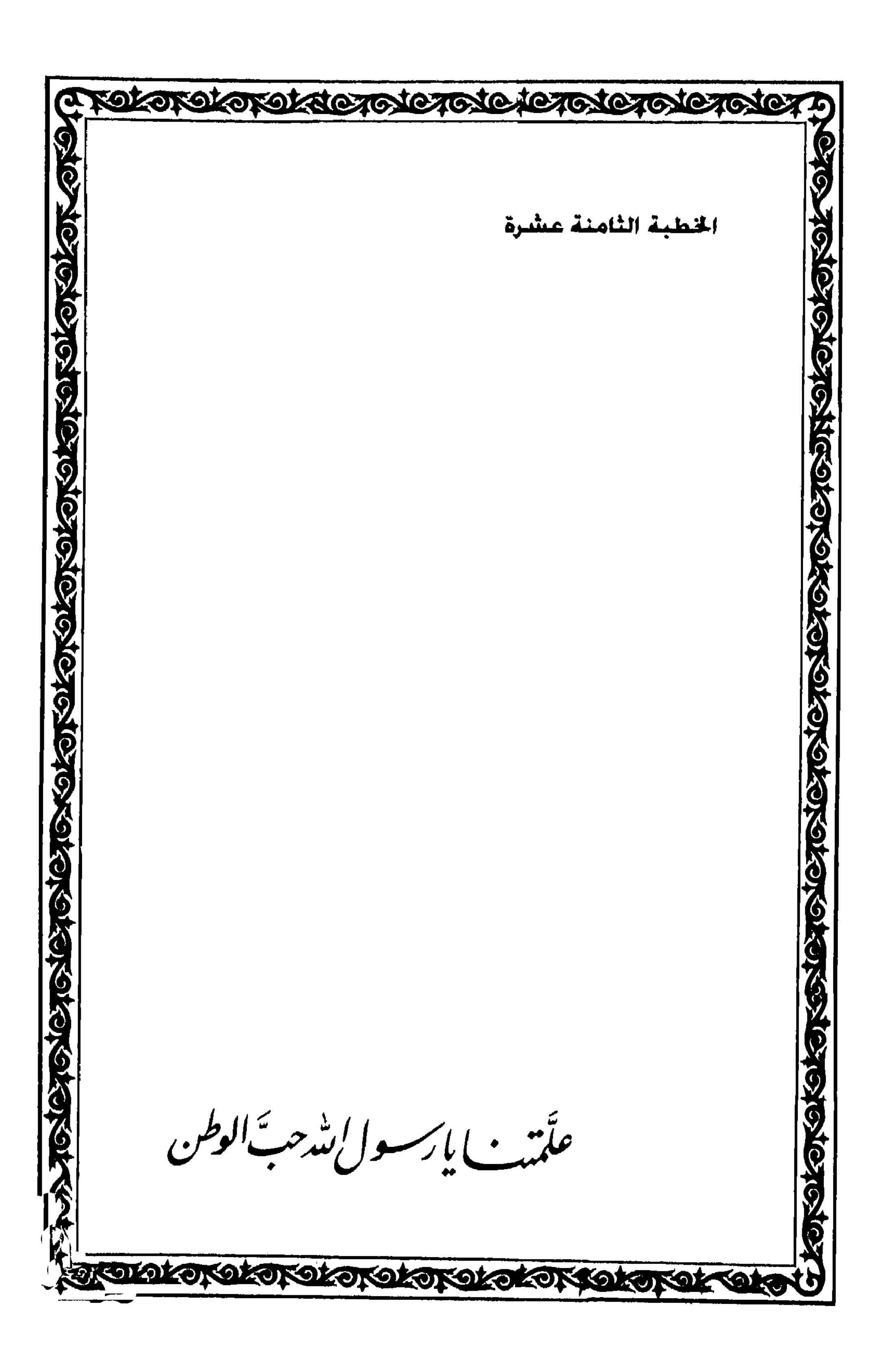
(١٥) رواه البخاري، حديث رقم / ٥٦٥١ / ج ٥ ص٢٢٣٥ .

(١٦) رواه البزار، كما في مجمع الزوائد رقم / ١٣٤٨٩ / ج٨ص٢٨٦ .

(١٧) نقلاً عن فضيلة الشيخ عبد الله سراج الدين، من كتابه « محمَّد رسول الله ﷺ ».

(١٨) رواه أحمد، ج٣ص١١٢ .

(١٩) رواه البخاري، حديث رقم/ ٣/ ، ج ١ ص ٥ .



الخطبة الثامنة عشرة

علّمتنا يارسول الله حبّ الوطن



* يقول أستاذنا الدكتور حفظه الله :

(الوطن غالٍ ، وهو محل تشخيص الفكر ، وتحويله إلى سلوك عملي ، يتراءى للناس نجاحُه ، ومَنْ لا وطنَ له يدافع عنه ، لا فكرَ له ينادي به) .

وعنوان هذه الخطبة « علمتنا يا رسول الله حب الوطن » ، هو كلمةٌ أطلقها أستاذنا ـ حفظه الله ـ قديماً من على المنبر . فمَنْ أولى من المسلم بحبِّ الوطن ، والقتال والجهاد في سبيله ، والعمل والكفاح في سبيل رقيِّه ، وسعادة أبنائه ؟! .

والوطن لغةٌ أصيلة ، كانت حاضرةً في خطب أستاذنا الشيخ دائماً ، لم يتنازل عنها أبداً ، لأنه ينطلق فيها من إيمانه وإسلامه ، وهاهو يقول في خطبته « هكذا فلتكن تربيتنا الوطنية » ،التي نقدمها في هذا الكتاب أيضاً ، بعد هذه الخطبة مباشرة :

(سيبقى الوطن غالياً في قلوبنا ما حَيينا ، ولِمَ لا ؟ ، والوطن جزءٌ مِنْ أرضٍ ممتدة ، تشكل بالنسبة للمسلم مسجداً) .

وتشكل هاتان الخطبتان : « علمتنا يا رسول الله حبَّ الوطن » ، و« هكذا فلتكن تربيتنا الوطنية » ، علامةً على نوعيةِ التزام أستاذنا الدكتور بالوطن فهو :

١ ـ التزام إيماني ، نابعٌ ـ كما سبق ـ من الالتزام بالإسلام ، الذي كان رسوله الكريم ﷺ النموذج الأروع في حب الوطن :

ولا يمكن أن يكون الالتزام بالوطن صادقاً إن لم يكن نابعاً عن الإيمان ، ولذلك فقد تخلّت عنه فئاتٌ احتكرت لنفسها وحدها حق التكلم باسم الوطن في فترةٍ سابقة ، وذلك التراجع أمر مفهوم ، إذ لم

يكن للإسلام أثر في لغتها ولا إعلان للولاء له في مبادئها .

وما نشهده اليوم ، من حوارات وندوات ينظمها « القوميون » حول « الإسلام والعروبة » ، ليس إلا نتيجةً لإدراكهم استحالةَ تجاوز الإسلام في هذه المسألة ، بل إنه هو الحافظ الأكبر لها ، فهو عنوان هذه الأمة وروحها ، وبه حضورها .

ولذلك يدعو أستاذنا الدكتور المسلمين إلى تلافي ما بدر منهم من تقصير في هذا المجال ، فيقول في كتابه « سمات العمل الإسلامي في مستقبل منشود » :

(إنّ الوطن ـ حسب قاعدة « لحن الخطاب » الأصولية ـ أمانةٌ أكيدة ، ما دمنا مسؤلين عن بيوتاتنا الصغيرة وأسرنا الصغيرة .

وقد أهملت الحركات الإسلامية الفكرية في وثائقها الصادرة ـ إلا قليلاً ـ هذا الأمر ، مع أنه ذو صلة أساسية وثيقة بديننا الذي يرعى الوطن ، ويحضُّ على حبّه والتفاني من أجله ، ومن قُتل دونه ، لاشك شهيدٌ .

إنّ الحركات الفكرية لم ترث الاهتمام بالوطن ، بالزخم نفسه عن الحركات التحريرية الثورية التي قامت في أراضي الوطن العربي والإسلامي ، وهذه مثلبةٌ في اللاحقة ، لا أعتقد أن لها تفسيراً مقبولاً ، سوى الانشغال بما هو جزئيٌ عمّا هو كليٌّ عام) .

٢ ـ التزام واقعي مشخّص لا يعيش في الخيال :

لذلك فهو يتحدث عن حلب مدينته التي عاش فيها ، عن رجالها وعلمائها ومَنْ عمل لها ، عن أهلها وما يحتاجونه ، عن أشجارها وهوائها ، عن نظافة شوارعها .

وهو يتحدث عن سورية بلداً يحمل هويته ، وجوازَ سفره إلى

العالم مرفوع الهامة مفتخراً ، يسعى لتقدمها ويحرص على اتقائها ، ويهتم لسعادة أبنائها ، ويتحدث في قضاياها التي لا تنفصل عنده عن قضايا الوطن العربي ، والعالم الإسلامي كله ، فسورية قطرٌ منه وإليه ، ووحدة هذا الوطن وعزته هدفٌ لنا جميعاً .

٣ ـ التزام مبرمج محدد : لا يردد الشعارات فقط ، ونرى مثالاً على هذا التحديد في خطبة « هكذا فلتكن تربيتنا الوطنية » ، من خلال البنود الثلاثة التي صاغها أستاذنا الشيخ حفظه الله ، لتعبِّر عن واجبنا تجاه سورية ، وهو واجب كل مسلم حيال قطره الصغير الذي يعيش فيه ، ووطنه الكبير الذي ينتمي إليه . وهذه البنود هي :

آ ـ حب و وفاء : يسكن الفؤاد ويقتدي بحب رسول الله ﷺ لوطنه مكة المكرمة .

ب ـ بذل وعطاء : يترجمان الحبَّ إلى عمل ، في كل ساحة يدعونا الوطن للعمل من أجله فيها ، وكلٌّ بحسب موقعه واختصاصه وقدراته .

جـ ـ تضحية وفداء : عندما يحتاج الوطن لمن يدافع عنه ، حفاظاً على كرامته ، ودفاعاً عن حريته واستقلاله .

٤ ـ وإذا كان أستاذنا الدكتور حفظه الله يرفض « العروبة » كبديل للإسلام أو قسيمٍ له ، فإنه يؤكد على الانتساب إلى « العروبة » كلغةٍ ومظهرِ انتساب ، نعلن من خلالها إسلامنا ، وهو يقول مخاطباً المفكرين الذين التقوا في مؤتمر « الإسلام والعروبة » في السودان :

(العروبة بالنسبة لي مظهر شرفٍ أعلن من خلالها إسلامي ، ومن قال بأن الإسلام لا يمت إلى العروبة بصلة ؟ . فهو دينها ، وهي مظهره بلغتها وريادتها المتجلية في الجيل الأول ، جيلِ محمد ﷺ .

وليكنْ شعار كلٍّ واحدٍ منّا في وطنه :

وطنٌ نظيفٌ، ودينٌ حنيف .

نلتقي بعدها بأوطاننا في دائرة الإسلام الجامعة .

ولنتذكر قَوْلَة عبد الرحمن بن المهدي : « لا شيع ولا طوائف ولا أحزاب ، ديننا الإسلام ، ووطننا السودان » ، وقول ابن باديس :

شعب الجزائر مسلم ۞ وإلى العروبة ينتسب) .

بسْمِ الله الرَّحمَن الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة الأحبَّة :

أيُّها الإخوة المحبُّون لرسول الله ﷺ :

في شهر ربيع الأول ، تبقى المناجاة طيِّبة ، وتبقى المناجاة لذيذة .

سيِّدي رسولَ الله ، سيدي يا أبا الزهراء ، حبُّك منارةٌ نهتدي بها في لجَّة هذه الحياة ، واتِّباعك سفينةٌ نركبها لتوصلنا إلى برِّ الأمان وشاطىءِ السلام .

١ ـ أمَّا حبُّك فلأنَّك المصطفى ، وأمَّا اتِّباعك فلأنَّك القدوة الحسنة ، وهل يَعدلُ القلب عن حبِّ مَنْ اصطفاه الخالق ؟! . وهل يميل العقل عن اتباعِ مَنْ سمَّاه الله القدوة الحسنة ؟ .

لاواللهِ ، لاوربِّ الكعبة ، حبُّ رسولِ الله واتِّباعه ، هما في الحياة منارةٌ ، وسفينةُ ضياءٍ ، ووسيلةُ نجاة .

ومَنْ يستطيع أنْ يقول كما قلتَ يا سيِّدي ، يا رسول الله؟ حين تحدَّثتَ عن اصطفائك ، وعن اصطفاء ربِّك لك ، كما جاء في البخاري ومسلم :

[إنَّ الله اصطفَى مِنْ ولدِ ابراهيمَ اسماعيل ، واصطفَى مِنْ بني اسماعيل بني كنانة ، واصطفَى مِنْ بني كنانة قريشاً ، واصطفَى مِنْ بني قريشٍ بني هاشم ، واصطفاني مِنْ بني هاشم] (١) .

مَن الذي يستطيع أنْ يقول هذا الكلام ؟ .

وإذا العنَاية لاحظتكَ عيونُها نَمْ ، فالمخاوفُ كلُّهنَّ أمانُ

٢ ـ وأمَّا القدوة الحسنة مِنْ أجل الاتباع ، فربُّك قال :

﴿ لقد كانَ لكمْ في رسولِ الله أسوةٌ حسنةٌ لِمَنْ كان يَرجو اللهَ واليومَ الآخر وذكرَ الله كثيراً ﴾ (٢) .

وأنت الذي قلت يا حبيب الله ، يا رسول الله ، كما في الحديث الصحيح الذي جاء في مسلم :

[أنا نبيُّ التوبة ، أنا نبيُّ الرَّحمة ، أنا الماحي يمحو الله بيَ الكفر] (٣) .

فنِعْمَ القدوةُ أنت ، ونعمَ الأسوة أنت ، ونِعْمَتِ السفينة سفينةُ اتِّباعك ، ونعمت المنارة منارة حبِّك ، وستبقَى يا سيِّدي ، يا رسول الله ، ستبقَى يا حبيب الله ـ بالحبِّ وبالاتِّباع لك ـ ستبقَى القائد ، وستبقَى المُتَّبَع ، وستبقَى القدوةَ والأسوة ، وستبقَى المحبوب ، فجزاك الله خيرَ ما يجزي نبياً عن أمَّته ، ومعلماً عن أمَّته ، ومبلغاً عن أمَّته ، وقائداً عن أمَّته ، وصاحب مسيرةٍ عن أمَّته .

جزاك الله يا خيرَ خلقِ الله، مِنْ قلوبٍ أفْعِمتْ بمحبتك .

جزاك الله يا أعظم الخلق عند الله، مِنْ ألسنةٍ عرفتْ الحقَّ مِنْ مشكاة هَدْيك .

جزاك الله يا سيِّدي يا رسول الله، مِنْ أعينٍ لمعَ بريقها يوم أنْ نظرتْ هديَك وشريعتك .

جزاك الله يا مَنْ أضأتَ لنا الطريق، وبيَّنت لنا السبيل، وكنتَ كنتَ الأسوة والقدوة والمحبوب .

سيِّدي يا أبا الزهراء :

علَّمتنا الكثير، وأرشدتنا لكثير، فهل تسمح لي - سيِّدي - أنْ أذكر بعضَ ما علَّمتنا، في هذه المواقف، في مناسبة مولدك، في ذكرى ميلادك .

علَّمتنا يا رسول الله حبَّ الوطن، فإنَّا أحببناه .

علَّمتنا يا رسول الله الوفاءَ للوطن، فإنَّا أوفياء .

علَّمتنا يا رسول الله أنْ نكون خدَّاماً لبلادنا، فنحن على العهد يارسول الله .

علمتنا يا حبيب الله، وأرشدتنا إلى أنْ نميط الأذى عن الطريق في رحاب أوطاننا، وربطتَ هذا بالإيمان، فقلتَ - كما جاء في الحديث الصحيح في البخاري ومسلم - :

[الإيمان بضعٌ وسبعون شعبة، فأعلاها لاإله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان] (٤) .

فمَنْ الذي يستطيع أنْ يقول هذا إلا أنت ؟، يامَنْ أوحى الله إليك، يامَنْ

أرسل اللهُ إليك جبريلَ بالقرآن الكريم، لتبلِّغه للناس كتابَ هداية، كتابَ إرشاد، كتابَ اعتبار، كتابَ تبيان، كتاباً يفصل بين الحقِّ والباطل، كتاباً يريد الله به أنْ يفتح أعيناً عُمياً، وقلوباً غُلْفاً، وآذاناً صمّاً.

نعم، يا سيِّدي، يا رسول الله، علَّمتنا حبَّ الوطن، حبَّ الأرض، فوالله ما أحبَّ الوطنَ إلا مسلمٌ، ووالله ماكان وفياً للوطن إلا ذاك الذي اتَّخذك قدوةً وأسوة، وإلا ذاك الذي اتخذ كتابَ ربِّك منهاجاً.

لا والله يا سيِّدي يا رسول الله، ما رأينا مثلك مَنْ يحبُّ الوطن، ولا رأينا نظيرك ممنْ يمكن أنْ يقدِّم للوطن. أمَا وأنَّك وقفتَ أمام مكة يوم أخرجك أعداؤك أعداءُ الله، وقفتَ أمام مكة بدموعٍ حرَّى، فقلتَ لها:

[والله إنَّك لأحبُّ بلادِ الله عندي، ولولا أنَّ قومك أخرجوني لما خرجت] (٥).

أيُّها الأخوة المؤمنون:

إنَّ الإسلامَ شريعةٌ ينبغي أنْ تحكم مسيرتنا.

سنبقى نعلن وبكلِّ وفاءٍ أنَّنا بإسلامنا نريد للوطن خيراً، وأنَّنا بقرآننا نخلص في خدمة الوطن، وأنَّنا باتِّباعنا لنبيِّنا سنحمل الوطنَ على أكتافنا.

وسيبقى الوطن موضعَ خدمةٍ بالنسبة لنا، نسعى لخدمته ما حَيينا، أوليس هذا إيماناً؟.

نعمْ، وربِّ الكعبة، إنَّه إيمان.

إنَّ مكة أحبَّها النبيُّ ﷺ، وإنَّ سوريا سنبقى نحبُّها، وستبقى حلب

بعطائها ،بأهلها ، بشعبها ،بشبابها ، بمثقفيها ، ستبقى مسلمةً تعلن ولاءَها لدين ربِّها ، لعقيدة إلهها، لكتاب ربِّها .

ستعلن حبَّها لمحمَّد ﷺ . ستنادي بكلِّ ذرَّاتها ، بكل قطراتها ، بكلِّ شمسها ، بكلِّ زهرها ، بكلِّ وردها : يا رسول الله إنَّما بلدتنا هبةٌ منك لنا ، وسنحافظ عليها ما حَيينا .

سنحافظ عليها تتبع الإيمانَ .

سنحافظ عليها تعتنق الإسلامَ .

سنحافظ عليها بأبنائها البررة ، يطبِّقون دين الله ، في كلِّ ساعة مِنْ ساعات حياتهم .

أيُّها الأحبَّة المؤمنون ، يا إخوة الإيمان ، يا أبناء هذه البلدة الطيبة :

إنَّنا آمنَّا بربِّنا ، واتَّبعنا الرَّسول ، ونرجو الله أنْ يكتبنا مع الشاهدين .

يا شباب هذه البلدة ، يا رجالها ، يا نساءَها :

إنَّما هو الإسلام ارتضاه الله لنا ، وسيبقَى سبيلنا ، وسيبقَى طريقنا .

مَنْ الذي يستطيع أنْ يَعرض علينا حبَّاً يشابه حبَّنا لبلدنا ، لوطننا ؟ .

دمتَ أيُّها الوطن . دمتَ أيُّها البلد في رعاية الله ، محفوظاً بعنايته ورعايته .

دمتَ يا بلدي ، وأنت تسير مسيرةَ إسلام ، وفِقَ منهاج ربِّك ، وفق سنَّة نبيِّك المصطفى ، و رسولك المجتبى ﷺ .

دمتَ يا بلدي ، وأنت تريد أنْ تكون النموذجَ والقدوة لكلِّ بلاد الدنيا ، لتعلن أنَّك مؤمنٌ بربِّك ، وأنَّك محبٌّ لرسولك المصطفى ﷺ ، ظهر

ذلك، ووَضَح ذلك، في كلِّ مجال.

وأنتمْ يا أبناءالوطن، وأنتمْ تقدِّمون خدمة الوطن، ضعوا ـ دائماً ـ نُصبَ أعينكم أنكم مأمورون مِنْ قِبَلِ ربِّكم بذلك، وأنَّ نبيكم يرضَى عنكم وأنتم تفعلون ذلك.

وإنَّني على يقينٍ بأنَّ الأعمال تعرض على الله بلا شك، ويعرضها ربِّي بطريقة لا يعلمها إلاهو على رسوله المصطفى ﷺ. ولئنْ عُرضتْ على رسول الله ﷺ أعمالنا ونحن نعلن ولاءَنا للوطن ووفاءَنا للبلد، مِنْ خلال القرآن والسنَّة، إذاً نِعْمَ العمل هذا.

وإنْ كان ـ والعياذ بالله ـ إنْ كان الولاء ادعاءاً، و الادعاء يعني أنَّنا نخدم الوطن، أو نظنُّ أنَّنا نخدم الوطن عبر غير القرآن والسنَّة، فلا والله ليس هذا بخدمة، فلا والله ليس ذاك بسبيلٍ مِنْ أجل نجاح الدنيا، وفلاح الآخرة، فلا والله ليس هذا بمنهاج يمكن أنْ يُورَّث للأجيال.

أيَّتها الأجيال المؤمنة السابقة.

أيُّها العلماء العاملون السابقون، رضي الله عنكم وأرضاكم.

علَّمتمونا كيف نعيش لديننا، ونحن نحبُّ وطننا، ونحن نحبُّ بلدَنا، فالوطنُ عينٌ والدِّين ضياؤها، الوطن عينٌ والدِّين هو البصر، الوطن جسمٌ والدِّين هوالروح.

الوطن هو الشمس، والدِّين هوالضياء الذي ترسله الشمس، وعينٌ مِنْ غير بصرٍ لا قيمةَ لها، وشمسٌ مِنْ غير ضياءٍ لا قيمةَ لها.

فيا أيُّها الإخوة:

على طريق رسول الله ﷺ فلنتابعْ، ولنناد بأنَّ هذه الدولة، بأنَّ هذه البلدة، بأنَّ هذا الوطن سيبقَى ينادي باسم الإسلام، وسيبقى أتباعه على مجاهدةِ أعداءِ الله .

هناك في فلسطين، حيث إخواننا يجابهون أعداء الله، سيبقَى شبابنا هنا يعلنون لإخوانهم في فلسطين، لإخوانهم في البوسنة، أنَّنا معكم في قتالِ عدوٍ لدود ، يتربَّص بنا الدوائر، ويريد حشرنا تحت خيامٍ سود .

سيبقَى أبناء وطني يحبُّون الجهادَ في سبيل الله . سيبقَى أبناء وطني يعلنون الولاءَ عبر مسيرة القتال، وعبر مسيرة الدعوة، في كلِّ مكانٍ مِنْ أمكنةِ الدنيا، إنَّنا ندعو إلى الله على بصيرة، ونجاهد في الله بكلِّ قوانا، بكلِّ طاقتنا، بكلِّ أبعادنا، ولا نخشَى في الله لومةَ لائم .

وما على الآخرين وإنْ شاؤوا أنْ يفعلوا ما يفعلون، ما على الآخرين إلا أنْ يأخذوا الدرس مِنْ أولئك الذين وقفوا أمام موسى عليه الصلاة والسلام، يوم وقف أمامهم مستعلياً بإيمانه ـ وإنَّما الاستعلاء بالإيمان ـ وقف أمام السَّحَرة، وهم لا يحملون شيئاً وإنَّما يحملون وهماً :

﴿ فأوجسَ في نفسه خيفةً موسى، قلنا لا تخفْ إنَّك أنت الأعلى، وألقِ ما في يمينك تلقفْ ما صنعوا، إنَّما صنعوا كيدُ ساحرٍ ولا يفلح الساحر حيث أتى ﴾ (٦) .

أيُّها الإخوة :

أعداؤنا في فلسطين كيدُ ساحر .

أعداؤنا في البوسنة كيدُ ساحر .

أعداؤنا في كلِّ مكان كيدُ ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى .

لكنَّ الصبر والمصابرة، لكنَّ الإيمان، لكنَّ اليقين، لكنَّ الحبَّ لرسول الله ﷺ ولآل بيته ، ولصحابته ، وللعلماء العاملين ، لكنَّ الحبَّ لهؤلاء سيبقى الجذوة المتقدة التي تشعُّ، والتي تظهر ذلكم الضياءَ في كلِّ مكان، ادلهمَّ الظلام أم لم يدلهم .

يا إخوتي :

وطننا غالٍ علينا، وطننا نحبُّه، ونتمنَّى، بل ونسأل اللهَ أنْ يجعل هذا الوطن في تقدُّمٍ وازدهار، يعيش في ظلال الإيمان، ويعيش في ركاب الاتِّباع للنبي ﷺ .

ومَنْ أراد لهذا الوطن خيراً ، فنسأل الله له الخير، ومَنْ أراد لهذا الوطن شراً ، فنسأل الله أنْ يصلحه، فإنْ لم يصلحه ، فنسأل الله أنْ يأخذَه أخذَ عزيزٍ مقتدر .

نسأل الله لهذا الوطن الحفظَ والحماية والرِّعاية، في ظلِّ دينٍ حنيف .

نسأل الله لوطننا أنْ يكون دائماً سبَّاقاً في مضمار العقيدة، في مضمار البناء، في مضمار الاقتصاد، في مضمار الاجتماع، في مضمار الثقافة، وكلُّ ذلك مِنْ منبعٍ واحد، مِنْ معينِ القرآن الكريم والسنة المطهرة .

اللهمَّ إنِّي أسألك، وأتوجَّه إليك ، في هذا اليوم الطيِّب المبارك ، مِنْ هذا الشهر المبارك، أسألك ـ يا ربَّنا ـ أنْ توفقنا جميعاً لخدمة بلدنا، على خطة رسولك، على منهاج نبيِّك ﷺ .

يا ربَّنا وفقنا مِنْ أجل أنْ نعيش سعداءَ في ظلِّ دينك الحنيف .

يا ربَّنا أيِّدنا مِنْ أجل أنْ نسيرَ على الخطة خطةِ محمَّد ﷺ .

يا ربَّنا وفِّقْ مَنْ أراد بالمسلمين خيراً إلى الخير ، ومَنْ أراد بالمسلمين شراً إلى كلِّ ما يمكن أنْ يعودَ عليه بالوبال .

يا ربَّنا أنت المستعان . يا ربَّنا أنت الملجأ .

يا ربَّنا أنت الملاذ . يا ربَّنا أنت المعتمد .

يا ربَّنا أنت مَنْ يُتوكَّل عليك .

يا ربَّنا إلى مَنْ تكلنا ؟! ، إلى عدوٍ يتربَّص بنا الدوائر ، أم إلى صديقٍ كسولٍ خامل ، إنْ لم يكنْ بك غضبٌ علينا فلا نبالي ، لكنَّ عافيتك هي أوسع لنا .

يا ربَّنا أسألك لكلِّ مَنْ أراد الخير أنْ توفقه للخير .

يا إخواني :

في صلاتكم ، بعد صلاتكم ، أثناء افطاركم ، بعد صيامكم ، ادعُوا لوطننا أنْ يحفظه الله . ادعوا لبلدنا أنْ يرعاها الله . ادعوا لأبناء وطننا أنْ يردَّهم الله إلى دينه رداً جميلاً . ادعوا لمثقفينا ، ادعوا لأبنائنا ، لطلابنا ، لنسائنا ، أنْ يردَّ الله الجميع إلى ساحِ دينه ، إلى تطبيق دينه .

أيُّها الإخوة المؤمنون الأحبَّة (*) :

أشكركمْ ، أشكر بَسْمتكم ، أشكر نضارةَ وجوهكم ، أشكر

(*) يتوجَّه أستاذنا الدكتور محمود عكام هنا بالشكر إلى أبناء حلب ، الذين أبدوا تجاهه كلَّ المحبة والرعاية ، عقب انسحابه من الترشيح لمجلس الشعب ، وعلى ما أظهروه من التأييد والمساندة خلال الحملة الانتخابية .

تعاونكم، أشكر العطاءَ الذي لمستُه في قلوبكم، أشكر كلَّ إشعاعٍ رأيتُ منه ضياءَ خيرٍ انتهى مِنْ عيونكم، فصُبَّ في قلبي، فكان رابطةً بين العيون والقلوب، كان رابطةَ حبٍّ شعرتُ بها ولمستُها، وأرفع إلى الله يدي قائلاً:

يا ربَّنا أدمْ الحبَّ بيننا، يا ربَّنا اجعل الحبَّ موظفاً لخدمةِ دينك.

ذاك الذي لمستُه، ذاك الذي شعرتُ به. بوركتمْ يا أخوتي، جزاكم الله خيراً.

إنْ كانت الفقراءُ لا تجزيكمُ فاللهُ يجزيكمُ عن الفقراءِ

ياأيُّها الأحبَّة:

مَنْ خرج منَّا في أيِّ مكان، أسأل الله له أنْ يوفقه لإسلامٍ صحيح مطبَّق، أسأل الله لكلِّ مَنْ كان في أيِّ موقع، في أيِّ مجال، أنْ يوفقه الله لخدمة الإسلام، فنحن مسلمون. وثمَّ بعد ذلك أقول مسامحاً لكلِّ أبناء وطني:

مَنْ نَال منِّي أو علقتُ بذمَّته سامحتُه لله، راجيَ منَّته

كي لا أعوِّق مؤمناً يوم الجزا ولا أسوءَ محمَّداً في أمَّته

أقول هذا القول، وأستغفر الله.

نِعَمَ مَنْ يُسأل ربُّنا، ونِعْمَ النَّصير إلهنا.

الهوامش

(١) رواه مسلم، حديث رقم / ١ ـ ٢٢٧٦ / ج٤ ص١٧٨٢، والترمذي رقم / ٣٦٠٥ / ج٥ ص٥٨٣ .

(٢) الأحزاب / ٢١ .

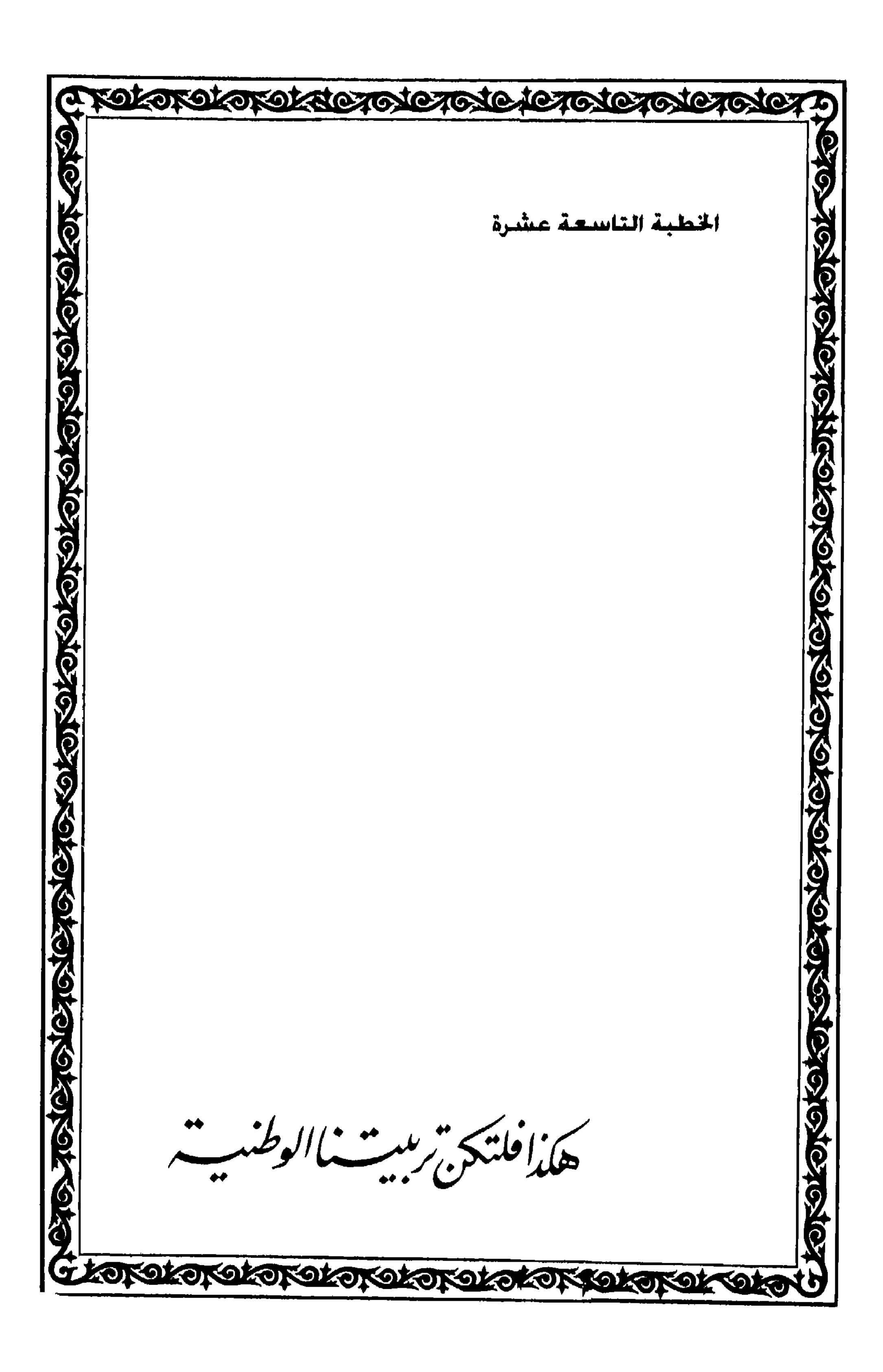
(٣) رواه مسلم، حديث رقم / ١٢٤ ـ ٢٣٥٤ / ج٤ ص١٨٢٨ .

(٤) رواه البخاري ، حديث رقم / ٩ / ج١ ص١٢ ، ومسلم ، حديث رقم / ٨٥ ـ ٣٥ / ج١ ص٦٣ .

(٥) رواه الترمذي حديث رقم / ٣٩٢٥ / ج٥ ص٧٢٢ وقال حسن غريب صحيح ، وابن ماجه رقم / ٣١٠٨ / ج٢ ص١٣٠٧ .

(٦) طه / ٦٧ ـ ٦٩ .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)



الخطبة التاسعة عشرة

هكذا فلتكن تربيتنا الوطنية



بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

و يتتابع الحديث عن « التربية » ، وتتوارد الأسئلة عن محاور هذه التربية، هلاَّ تحدثتَ لنا عن التربية الوطنية ؟ .

وهل هناك ما يسمَّى بالتربية الوطنية في حديثك ، إذ تتكلم عن أفكارٍ تستلهمها منَ الإسلام ؟ .

أيُّها الإخوة المسلمون :

ما أظنُّ أحداً يمكن أنْ يتحدَّث عن الوطن حبّاً ووفاءً وكرامة كالمسلم، فالمسلم هو الذي يتحرك في الوطن ، وقد ربط حبَّه بعقيدته ، المسلم هو الذي يحمي الوطن ، وقد ربط حمايته بكلِّ ما يمكن أنْ يؤمن به مِنْ أركانٍ للإيمان، وأركانٍ للإسلام، وأركانٍ للإحسان .

ما مِنْ شكٍ في أنَّ الإسلام رعى حبَّ الوطن ، في داخل الإنسان ، وهو فطرة ، واستنبتَ هذا الحبَّ استنباتاً حسناً ، ففاض عطاءً ووفاءً للوطن

الذي يعيش فيه ، ولذلك نحن بحاجة إلى أنْ يذكِّر بعضنا بعضاً بواجباتنا حِيَال وطننا ، وأنْ يذكِّر بعضنا بعضاً ، بواجبات طلابنا حيال وطنهم ، وأنْ يذكِّر بعضنا بعضاً بواجبات كلِّ أولئك الذين يعيشون على أرض هذا الوطن، لضرورة الحفاظ عليه والقيام بواجباتهم حياله .

سيبقى الوطن غالياً في قلوبنا ما حيينا . ولِمَ لا والوطن جزءٌ مِنْ أرضٍ ممتدةٍ تشكِّل بالنسبة إلى المسلم مسجداً ، فلقد قال المصطفى ﷺ ، كما جاء في الحديث الذي يرويه الإمام البخاري :

[وجُعِلتْ ليَ الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيُّما رجلٌ مِنْ أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ] [١] .

وما دامت الأرض كلُّها مسجداً ، فإنَّ وطننا الذي نعيش فيه ـ بكلِّ مساحاته ـ ماهو إلا جزءٌ مِنْ هذا المسجد الكبير ، مِنْ هذه الأرض الكبيرة .

أيُّها الإخوة :

نحن الذين نريد أنْ نتحدَّث عن الوطن ، لكننا لا نريد أنْ يبقى الحديث دعايةً ، ولا نريد أنْ يبقى الحديث كلاماً لا يُحوَّل إلى ترجمةٍ عملية يعيشها هذا المواطن ، ولا نريد للحديث أنْ يبقى فضفاضاً ، لكننا ننادي كلَّ فرد في هذا الوطن : أنْ يا أيُّها المواطن ، هذا هو الوطن ، فقدِّم له كلَّ ما مكَّنك ربِّي ـ عزَّ وجلَّ ـ منه ، مِنْ رعايةٍ ، وعناية ، و حماية ، وحبٍّ ، فذلك والله عبوديةٌ تتوجَّه مِنْ خلالها إلى ربِّ العزَّة ـ جلَّتْ قدرته ـ ، فتحقِّقُ مِنْ خلال ذلك ما مِنْ أجله خُلقتَ ، يوم قال ربُّك لك :

﴿ وما خلقت الجنَّ والإنس إلا ليعبدون ﴾ [٢] .

أيُّها الإخوة :

واجبنا حيال الوطن ، وبالتحديد حيال سورية ، فلا نريد أنْ نتحدَّث بشكلٍ واسع نتجاوز مِنْ خلاله حدوداً نعيش ضمنها ، فسورية لن تكون أغلى على غيرنا منها علينا ، ولنْ يتعلَّق بها أحدٌ تعلُّقَنا بها ، فنحن الذين نريدها مصونة ، ونحن الذين نريدها مَحميَّة ، ونحن الذين نريدها أنْ تكون مجاهدة تقف أمام أعداء الله ، أولئك الذين يريدون أنْ يستلبوا أرضها ، وأنْ يعيثوا فيها فساداً ، منْ أجل أنْ تدحر كلَّ غاشم ، كلَّ مفسد ، كلَّ مضلِّل .

واجباتنا حيال سورية :

حبٌّ ووفاء ، بذلٌ وعطاء ، تضحيةٌ وفداء .

١ ـ حبٌّ ووفاءٌ

حبٌّ ووفاءٌ ، علَّمنا إياه رسول الله ﷺ ، يوم وقف أمام وطنه مكة ، حالَ إخراجِه منها ووداعِه لها :

[والله إنَّك لخير أرضِ الله ، وأحبُّ أرض الله لي ، ولولا أنَّ قومك أخرجوني منكِ ما خرجت] (٣) .

ولما ذكِرتْ أمامه مكة ، مِنْ قِبَل رجلٍ يسمَّى أصَيْل الغفاري ، كما جاء في الطبراني ، بكى ، وقال له :

[إيه أصيل ، أبكيتني وإنِّي لمكة لمشتاق] (٤) .

علَّمنا مصطفانا ﷺ حبَّ الوطن يوم وقف أمام جبلٍ منْ جبال الوطن

الذي يعيش فيه ، و يسمى الجبل أحداً ، وقف وأعلن للملأ ، كما جاء في الحديث الذي يرويه الإمام البخاري ومسلم :

[أحدٌ جبلٌ يحبُّنا ونحبُّه] (٥).

إنَّه حبٌّ ووفاء ، ولابدَّ مِنْ أنْ يترجَم هذا الحبُّ بعد ذلك إلى :

٢ ـ بذلٌ وعطاءٌ

إنَّ المصطفى ﷺ قال في حديثٍ يرويه البخاري ومسلم :

[الإيمان بِضْعٌ وسبعون شعبة ، فأعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق] (٦).

وإنَّ الشُّعَب بعدها لتتدرَّج لترعى كلَّ شيءٍ في هذا البلد حيث يعيش المسلم ، وربُّنا عزَّوجلَّ ركَّز في داخلنا حبَّ البلد ، ونرجوه جلَّ وعلا أنْ يمتِّعنا دائماً بالتطلُّع إلى رعاية الوطن الذي نعيش فيه .

أيُّها المسلمون :

تذكَّروا أنكم مطالَبون وأنتم توجِّهون أولادكم ، وأنتم توجِّهون طلابكم، وأنتم توجِّهون تلاميذكم ، وأنتم توجِّهون عمالكم ، وأنتم توجِّهون جنودكم ؛ أنَّه ينبغي على الجميع أنْ يحافظوا على هذه البلد، على أخلاقها ، على إسلامها ، أنْ يحافظوا على أنْ تكون بلدةً خيِّرةً معطاءة تنادي بكلِّ ذراتها :

أنَّ ربِّي الله ، وأنَّ كتابي القرآن ، وأنَّ المصطفى ﷺ هو الشارح لكتاب ربِّي ، وهو القائد ، وهو الذي سنسير وراءه ، و هو الذي يقدِّم لنا ما به

نسير في دروب العزَّة والكرامة .

ألا مَنْ قدَّم خيراً لهذه البلد ؛ أسأل اللهَ عزَّوجلَّ أنْ يوفّقه ، ألا مَنْ قدَّم خيراً لدين هذا البلد ، لأخلاق هذا البلد ، لكلِّ خيرٍ يمكن أنْ يَنعمَ به أهل هذا البلد ؛ أسأل اللهَ أنْ يمدَّه ويكافئه ، و يُجْزِلَ له الأجر والثواب .

٣ ـ تضحيةٌ وفداءٌ

فنحن نعطي وطننا كلَّ ما يطلبه منا ، نعطي لسورية ، نعطي لحلب ، نعطي لكلِّ مكان نعيش فيه ، مُهَجَنا و أرواحنا ، ونعلم علمَ اليقين أنَّ الأرواح حينما تُبْذل دفاعاً عن الأرض ، فإنَّ صاحبها سيكون في عداد الشُّهداء الذين هم أحياءٌ عند ربِّهم يرزقون .

سوريةَ ، لنْ يتغنَّى أحدٌ كتغنِّينا بكِ .

سوريةَ ، أيَّتها البلد الذي نسعَى منْ أجل أنْ يكون في مرابع النهضة ، والاطمئنان ، والاستقرار .

سوريةَ ، لا نريدك أنْ تكوني مع «إسرائيل » ، ولا نريدك أنْ تكوني مخدوعةً بكلامٍ ، مِنْ أولئك الذين يحاولون جاهدين أنْ يحشرونا تحت خيامٍ سود .

سوريةَ ، نريدك أنْ تكوني دائماً عزيزةً أبيَّةً ، ونريد لأفرادك ، نريد لمواطنيك أنْ يستلهموا هذا الحبَّ منْ ديننا ، منْ إسلامنا ، فلا يمكن أنْ يمدَّنا بالحبِّ لك أيَّتها البلد الغالية إلا ديننا ، إلا قرآننا ، إلا نبيُّنا ﷺ .

مَنْ قتِل دونك يا سورية فهو شهيد : [ومنْ قتِل دون أهله فهو شهيد ،

ومنْ قتِل دون ماله فهو شهيد] (٧) .

وإنَّنا لنتطلَّع إلى كلِّ أولئك الذين يعيشون على تراب هذا البلد ، من أجل أنْ يحافظوا عليه ، أنْ يحافظوا على كرامته ، أنْ يحافظوا على استقلاله ، أنْ يحافظوا على أخلاق المواطنين فيه .

وإنَّنا لننادي أنفسنا من أجل أنْ نقدِّم كلَّ ما تحتاجه هذه البلاد ، ليتمَّ الخير فيها ، فلئن قال عن سورية غيرنا إنَّها بريقُ العيون ، فإنَّنا نقول عن سورية بأنَّها عيوننا ذاتها .

أسأل اللهَ أنْ يزيدنا حبّاً ووفاءً ، و أنْ يزيدنا بذلاً وعطاءً ، و أنْ يزيدنا تضحيةً وفداءً لبلدنا ، لكي نكون أقوياء بانتسابنا لهذا البلد .

إنَّ الآخرين يحققون انتساباً خيِّراً لبلادهم ، وإنَّ الآخرين بالرغم منْ باطلهم الذي يعيشون على فُتاته ، يحاولون أنْ يقدموا وفاءً لبلدٍ لا ينتسبون إليه تاريخاً وحقاً وعدلاً ، وإنما ينتسبون زوراً وبهتاناً .

إنَّ « إسرائيل » تنادي بحبِّ فلسطين ، وفلسطين ليست بلداً لهؤلاء الذين يعيثون فساداً ، والذين يقتلون فيها أطفالنا ، والذين يستحْيون فيها نساءَنا .

إنَّ « إسرائيل » ليست كما قال هذا اللعين الآثم ، رئيس وزرائهم ، في خطبةٍ وقف ليعلن فيها شراسته :

« ستبقى القدس عاصمةً أبديَّة لإسرائيل » .

لا يا أيُّها الإخوة ، ولكنَّنا نريد أنْ نتعلَّم درساً لا يمكن أنْ ننساه :

إنَّ أهل الباطل في باطلهم يحاولون أنْ يزوِّروا التاريخ في حقائقه ،

ويحاولون أنْ يلملموا كلماتٍ لا تستند إلى مصداقية في عالم الواقع ، فنحن أولى وأجدرُ بأنْ ننادي :

إنَّ فلسطين ستبقى مسلمةً وعربية ، و إنَّ سورية ستحافظ على هويَّتها الإسلامية ، من أجل أنْ تكون خيِّرةً معطاءة ، نموذجاً يُقدَّم من خلاله كلُّ خير ، وكلُّ عطاءٍ وحبٍّ .

إنَّ الأرض لنا مسجد ، وإذا كنا نرى للمسجد حُرْمة ، فللأرض حرمةٌ كحرمة المسجد ، ما دام النبي ﷺ قد أعطى لها صفةَ المسجديَّة .

يا إخواني إذاً فلنشمرّ عن ساعد الجِدِّ لنبنيَ هذا البلد .

أنت أيُّها التاجر :

اسعَ من أجل أنْ نبني هذا البلد ، ولعلك تسألني عن القانون الذي تراعيه ، والذي تسير وِفقَه وأنت تبني هذا البلد ، فإنِّي قائل لك :

إنَّ القانون ، وإنَّ النموذج هو ما قاله وما فعله المصطفى ﷺ .

وأنت أيُّها الجنديُّ :

بوركتْ سواعدك و أنت تستلهم القوةَ منْ كتاب الله .

بوركتْ سواعدك وأنت تستلهم العزَّة منَ الله .

بوركتْ سواعدك وأنت تحاول في سلوكك أنْ تكون مقتدياً بالمصطفى الكريم ﷺ .

أنت أيُّها المعلم :

بورك تعليمك وأنت تبني سورية ، وأنت تبني هذا البلد ، وتستلهم البناءَ ، ومعالمَ البناء منْ كتاب ربِّنا ، ومنْ سنَّة نبينا ﷺ .

وأنت أيُّها العامل :

بارك الله بيدَيْك اللتين تعملان ليلَ نهار من أجل بناءِ هذا البلد ، بالخلق الحميد المستمدِّ منْ كتاب الله ، وبالسعي الحثيث المستلهم منْ آيات الله ، وبكلِّ صفةٍ خيِّرةٍ تُؤخَذ منْ معالم وملامح سيرة المصطفى ﷺ .

أيُّها الأطفال :

مِنْ بسمتكم البريئة ، نريد أنْ نتطلّع ، ونريد أنْ نستقرئ مكامنَ الخيرِ الذي أضحككم .

أيُّها الأطفال :

والذي جعلكم تبتسمون لتنيروا لنا مستقبلاً زاهراً ، إنَّما هو الله .

والذي جعلكم تبتسمون ، هو الذي سيجعلنا نبتسم في حياتنا ، ما دمنا معه ، وما دمنا نستلهم كلَّ تشريعاته التي جاءت في كتابه الكريم ، وعلى لسان نبيِّه العظيم محمَّد ﷺ .

أيَّتها البلد أكرِّر دعائي وأقول :

رعاك الله ، وأرجو الله أنْ يحفظك منْ كل كائدٍ و أثيم ، ومنْ كلِّ غاشم ، ومنْ كلِّ فاسدٍ ، ومفسدٍ مضلِّل .

رعاك الله ، يا بلدتنا ، يا وطننا ؛ وأنت تقدِّمين لنا العلماء ، وتقدِّمين الشهداء ، وتقدِّمين الأبطال والحرَّاس .

رعاك الله ، وأرجو لمن رأى منك الخيرَ وحرص عليه ، أنْ يُوفَّق للخير ، وأرجو الله لمن أراد بك شراً أنْ يدحرَه الله ، وأنْ يقضيَ عليه بالطريقة التي يريدها .

اللهمَّ مَنْ أراد بهذا البلد خيراً مستلهَماً مِنْ ديننا ،

وإسلامنا فوفقه لكلِّ خير ،

ومنْ أراد به شراً فخذه أخذَ عزيزٍ مقتدر

إنَّك على ما تشاء قدير وبالإجابة جدير .

والحمد لله ربِّ العالمين .

الهوامش

(١) رواه البخاري ، حديث رقم / ٣٢٧ / ج١ص١٢٨ .

(٢) الذاريات / ٥٦ .

(٣) رواه الترمذي ، حديث رقم / ٣٩٢٥ / ج٥ص٧٢٢ .

(٤) رواه الطبراني .

(٥) رواه البخاري ، رقم / ١٤١١ / ج٢ص٥٠٤ ، ومسلم ج٢ص١٠١١ الحديث رقم / ٥٠٣ ـ ١٣٩٢ / .

(٦) رواه البخاري حديث رقم / ٩ / ج١ص١٢ ، ومسلم رقم / ٥٨ ـ ٣٥ / ج١ص٦٣

(٧) رواه الترمذي ، رقم / ١٤٢١ / ج٤ص٣٠ .

الخطبة العشرون

في ذكرى الجلاء: عبوديتنا لله سرّ استقلالنا

* تحاول هذه الخطبة أنْ تفسر ظاهرة « الاستعمار » باعتماد المعيار العقدي ـ الإيديولوجي ـ ، وقد يَعتبر بعضُ من تأثّر بالمناهج الغربية في البحث، أنّ في اتخاذ مثل هذا المعيار جنوحاً عن العلمية ، لأنّ مفهوم العلمية في عرفهم مقصور على هذا المنهج أو ذاك من المناهج الغربية في البحث .

لذلك فقد رأينا كثيراً من الدراسات تفسّر أسباب الحروب الاستعمارية و أهدافها ـ بدءاً من الحروب الصليبية ، وانتهاءً بالاستعمار الأوربي الحديث ـ بأبعاد اقتصادية ، أو بأخرى عسكرية ، أو حتى بأسباب سياسية ، وتطمس في المقابل بعدها العقدي الحضاري الاستراتيجي .

و لا ندري إلى الآن ما هو سرُّ هذا الإصرار والعناد على هذا الموقف بالذات ؟ أهوَ السذاجة ؟ ! أم المكر ؟ ! لا سيما وأنّ الأقنعة كلها سقطت على أعتاب « سراييفو » ليسطع الدليل مرة ثانية ، بل ثالثة ، ورابعة ، على أنّ الصراع في عمقه ، صراع مع الإسلام ، عقيدة ، وأفكاراً ، ومعايير ، و مفاهيم ، ونهجَ حياة .

بسْمِ الله الرَّحمَن الرَّحيْم

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المسلمون :

إذا كان للإنسان وجودان : شكليٌّ، وارتباطي . فإنَّ الاستقلال يتجلَّى في الوجود الثاني، في الارتباط .

ولا يعني الاستقلال الفصلَ أوالقطع، وإنَّما يعني تحوُّلاً في جهة الارتباط، ومجاهدةً من أجل انتزاع دفته مِنْ يد خوَّان أثيم لا يرعى إلاً ولاذمة، سمَّى نفسه زوراً وبهتاناً « استعماراً »، وهوفي حقيقته استخرابٌ وضلالٌ وتضليل .

الاستقلال يعني المجاهدة من أجل انتزاع دفة الارتباط من هذا الخَوَّان، وتسليمَها إلى جهةٍ أمينة، لها منَ الخير علينا السوابق، ولنا منَ الأدلة على وجوب الارتباط بها الكثير الكثير، إنَّها جهة السماء علواً، وجهة المعيَّة التي لاتنفصل ؛ كينونةً ووجوداً . إنَّه الارتباط بالله عزَّوجلَّ .

كان هذا مضمونَ الاستقلال الذي طرحه محمَّد ﷺ، في أول صيحةٍ

للاستقلال لدى العرب، شاء العرب أم أبَوا، كان هذا هو المضمون الذي طرحه رسول الله ﷺ، يوم رفض الفرسَ والرومَ جهاتٍ للارتباط، وقال القرآن الكريم:

﴿ لا تتخذوا الكافرين أولياء ﴾ (١).

وقال في القرآن الكريم:

﴿ قل يا أيُّها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون، ولا أنتم عابدون ما أعبد، ولا أنا عابدٌ ما عبدتم ﴾ (٢).

و يوم طرح ذلك رسول الله ﷺ عبوديةً لله عزَّوجلَّ رفض الفرسَ والرومَ جهاتٍ للارتباط، طرح ارتباطاً بالله عزَّوجلَّ قائماً على العبودية، منادياً أهل الأرض:

﴿ يا أيُّها الناس اعبدوا ربكم ﴾ (٣).

منادياً أهلَ العقل، في سورة نقرؤها و نتدبَّرها:

﴿ الحمد لله ربِّ العالمين، الرَّحمن الرَّحيم، مالكِ يوم الدِّين، إيَّاك نعبد وإيَّاك نستعين، اهدنا الصِّراط المستقيم، صراط الذين أنْعمتَ عليهم، غير المغضوب عليهم و لا الضَّالين ﴾ (٤).

١ ـ لقد طرح رسول الله ﷺ مضمونَ الاستقلال بكلِّ أبعاده، ورسم لنا كيفيته، ورسم هذا الارتباط، مِنْ خلال كتابٍ تركه للناس، فقال ﷺ صادقاً، كما يروي الإمام مالك في موطئه:

[لقد تركت فيكم شيئين لنْ تضلُّوا ما إنْ تمسكتم بهما، كتابَ الله وسنتي] (٥).

وقال في القرآن الكريم :

﴿ وأنَّ هذا صراطي مستقيماً فاتَّبعوه ولاتتبعوا السُّبل فتفرَّق بكم عن سبيله ﴾ (٦) .

إنَّه الارتباط ، إنَّه تحديد الجهة في الوجود الارتباطي ، إنَّه تحويل الجهة مِنْ يدٍ خائنةٍ ، إلى أيدٍ أمينة ، خلقت السَّموات والأرض ، وخلقت العالمين ، وأسبغت علينا النِّعم الظاهرة والباطنة ، ثم تفرَّدت بعد ذلك بوجوب التوجُّه إليها باسم العبادة المعلَنة بقوله تعالى :

﴿ إنَّني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني ﴾ (٧) .

الاستقلال إنْ عشنا ذكراه الأمسَ ، فإنَّنا ينبغي لنا أنْ نعطيَه مضمونه ، وإنَّ مضمونه يتجلَّى في الوجود الارتباطي ، وهذا الوجود ينبغي أنْ يحدِّدَ جهةَ الله له ارتباطاً ومرتكزاً ، ويوم تُتَّخذ غير جهة الله مرتبطاً ؛ فلا قيمة لهذا الوجود ، ولا قيمة لهذا الاستقلال .

٢ ـ أمَّا طريق الاستقلال فقد طرحه رسول ﷺ أيضاً ، طرحه يوم قال القرآن الكريم :

﴿ ولتكنْ منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهَون عن المنكر ﴾ (٨) .

طرحه أولَ ما طرحه سلمياً ، ثم بعد ذلك ، إنْ وقف الناس في طريق هذا المضمون للاستقلال ، إنْ وقفوا مجابهين ؛ فما علينا إلا أنْ ننطلق امتثالاً لقول الله عزَّوجلَّ :

﴿ أذِنَ للذين يقاتَلون بأنَّهم ظُلموا ، وإنَّ الله على نصرهم لقدير ﴾ (٩)

هذا هو طريق الاستقلال بين دعوة سلميَّة وجهاد قتالي.

أيُّها الإخوة المسلمون:

ارتباطٌ بالله مضمون الاستقلال، وكيفية الارتباط تتجلّى في كتاب الله، طريق الاستقلال دعوةٌ سلمية بالمنطق والعقل، فإن جوبه هؤلاء الذين يدعون؛ اتخذوا السيف لهم وقايةً وعلاجاً، من أجل أنْ يسيروا في طريق الاستقلال.

و لكنْ أيُّها الإخوة:

إنَّ المستعمر - وأسميِّه مستعمراً تجاوزاً، وإلا فهو داعٍ للخراب - إنَّه عندما رأى هذا المضمون، وقف يترصَّد لحظات ضعف، بين أولئك الذين تبنوا هذا المفهوم للاستقلال، بين الذين اتخذوا القرآن الكريم طريقاً من أجل هذا الارتباط، بين الذين قاموا يدعون إلى الله عزَّوجلَّ، وقف يستغلُّ لحظة الضعف بين هؤلاء و بين مضمونهم الذي طرحه رسول الله ﷺ، وهنالك علاقة سببية - شئنا أم أبينا - بين الاستعمار وبين ضعف هذا الارتباط؛ بين المفهوم وبين الكتاب وبين الطريق، فحينما يرى المستعمر لحظة ضعف، يهبُّ ليضع نفسه مُرتَبَطاً بدل جهة السماء، وانظروا التاريخ ليحدثكم.

عندما جاءت الحروب الصليبية، كان العرب، بل المسلمون قد تخلَّوا عن مفهوم الاستقلال المطروح من قبل محمَّد ﷺ، جاءت هذه الحروب في لحظة ضعفٍ، في فهم المضمون المحمَّدي، وفي فهم الطريقة المحمدية، وفي فهم الكتاب الذي أنزله ربُّنا - جلَّ وعلا - على محمَّد ﷺ، وحمل

الباغي حملته الشعواء، و دخل البلاد تحت اسم الحروب الصليبية، وأراد أنْ يطرح نفسه في الوجود الارتباطي، وكأنَّه خاطب العرب والمسلمين في لحظة ضعفهم تلك:

أيُّها العرب! لا يمكن أنْ ترتبطوا إلا بنا، فنحن الحماية لكم.

حاولوا أنْ يُوجِدوا هذا المفهوم في الأذهان، لكنَّ المسلمين انتبهوا من جديد، وظهر فيهم صلاحٌ للدين، وعاد الارتباط بالمفهوم قوياً، وعاد الارتباط بجهة السماء قوياً، واتَّخذَ الكتاب طريقةً صادقة ومصدقة، من أجل تحقيق هذا الارتباط، واتَّخذ الطريق الصحيح بسلمه وحربه، من أجل هذا المضمون، و ظهر صلاح الدين، ولم يكن اسم صلاح الدين عبثاً، لكنَّه كان يمثِّل الحقيقة التي أدركها المسلمون حينذاك، تلك الحقيقة البيِّنة المشرقة:

أنْ لا مجال لكم أيُّها الناس لاستعادة الارتباط، ولاستعادة الاستقلال إلا بصلاح الدين.

قمْ يا صلاح الدِّين عاد عدوُّنا عادت جحافلهُ بلونٍ ثاني

انتهت الحروب الصليبية، و عاد المسلمون بصلاح دينهم إلى القمة التي ينبغي أنْ يقفوا عليها، عادوا بعبارة واضحة للاستقلال.

و توالت السُّنون، ووقف المستعمر متحفِّزاً، ينتظر لحظةَ ضعفٍ أخرى، ومرَّت الأيام وإذ بالمسلمين يقعون في لحظةٍ ضعف أخرى، وإذ بالمستعمر يحلُّ مرتبطاً بدل الإسلام من جديد، وإذ بالمستعمر يقف ليأخذ خيرات البلاد باسم الاستعمار، زوراً وبهتاناً!.

وكـان لا بدَّ للمـسـلمين من جـديدٍ أنْ ينظروا المفـهـومَ الأول لمعنَى الاستقلال الذي طرحه رسول الله ﷺ:

لا فرسَ ولا روم، وإنَّمـا الارتباط بالله عـزَّوجلَّ، يقدِّم كيفيَّته كتاب ربِّنا، عن طريق رجالٍ يدعـون إليـه، وعن طريق رجال يشترون الجنَّة بأرواحهم و أموالهم.

وعاد المستعمر، وبدأت النظرة من جديد للعودة لهذا المضمون، وهبَّت الثورات في كلِّ أصقاع العالم، بعد أنْ دخل المستعمر بأسمائه المختلفة، الإنكليزي، والفرنسي، والإيطالي، و قام أولئك الذين أرادوا أنْ يعيدوا المسلمين إلى ارتباطهم الصحيح بالثورات، وهي تستخدم الإسلام، من أجل أنْ يجلوا المستعمر عن أرضنا.

قامت باسم الإسلام، واسألوا واحداً منهم، اسألوا ذلك الرجل الذي نسجِّل اسمه في ثورتنا في سورية، اسألوا إبراهيم هنانو رحمه الله، يوم وقف فقال بالحرف الواحد، يوم وقف ليعيد الارتباط بالإسلام من جديد، وليبيِّن للناس أنَّ الارتباط بالله يعني الاستقلال بكلِّ معانيه، وقف يخاطب الناس من خلال الإسلام، و قال: (يا حُمَاة الدِّيار، ياأبطال الوغى، يا أيُّها الناس انطلقوا، وجاهدوا، عملاً بقول الله عزَّوجلَّ ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ (١٠).

هكذا وقف هذا الرجل يخاطب الناس، لأنَّه يدرك أنَّه حينما يَطرح مضموناً للاستقلال تتقبله النفس، وتتقبله الفطرة، فإنَّ هذا الإنسان سينزع إليه بكلِّ قوته، أمَّا حينما نطرح مضموناً للاستقلال لا تتقبَّله الفطرة،

ولايتقبله الإنسان، فلا يمكن أنْ يكون الإنسان من ورائه مجاهداً .

و طرح هذا المضمون صلاح الدين الصبَّاغ، في العراق، يوم قال :

(أيُّها الناس، أيّها العراقيون، لمَّا تناسيتم أنَّكم أرْسِلتم من أجل أنْ تتمِّموا مكارم الأخلاق، تناسيتم قرآنكم المجيد، وتاريخكم العريق، عند ذلك حلَّ المستعمر بكم، ولاحلَّ إلا باستعادة ما ضعَّفه المستعمر فينا، إلا باستعادة النظرة إلى كتاب الله المجيد، على أنَّه مجيد، واستعادة النظرة إلى تاريخنا العريق، على أنَّه العريق) .

وآخر مسلمٌ من الهند، يسمَّى « أبو الكلام آزاد »، وقف أمام المستعمر قائلاً :

(أنا مسلم، ولأنَّني مسلم ينبغي أنْ أحمي وطني وبلادي) .

أنا أريد لهذا الوطن أنْ يرتبط بالله عزَّوجلَّ، لاأن يرتبط بغرب أوبشرق، وهذه هي استقلاليته وكرامته .

أيُّها الناس :

وثورة الجزائر، و بعضكم عايَشها، قامت داعيةً للاستقلال بالمعنى الذي طرحه محمَّد ﷺ، وقال قائلهم :

شَعبُ الجزائر مسلمٌ　　　والى العُروبة يَنتسبْ

وإذا كان مسلماً فلا بدَّ أنْ يأخذ بالمضمون الذي طرحه محمَّد ﷺ .

لقد وقف مراقبٌ فرنسي وقال : (لقد اشتغلنا / ١٣٠/ عاماً من أجل أنْ نفكَّ الارتباط بين الجزائريين وبين دينهم، و لكنني أفاجأ في لحظةِ النزوح والجلاء، بالنساء الكبيرات العجائز، وهنَّ متحجبات يخاطبن الجزائر

قائلات : مبروكٌ يا محمَّد عليك ، الجزائر رجعت إليك . عند ذلك أدركتُ أنَّه لا قيمة لنا في أمةٍ تريد أنْ تتَّخذ الإسلام لها ديناً) .

أيُّها الإخوة المسلمون :

من خلال الارتباط بهذا المفهوم ، ينبغي أنْ نفهم استقلالنا ، ومن خلال هذا المفهوم ينبغي أنْ نسعى لاستقلالنا .

لئن كنَّا قد أجلينا الاستعمار بشكله عن أرضنا ، فإنَّنا نريد أنْ نثبِّت المضمون الاستقلاليَّ الذي طرحه محمَّد ﷺ من خلال العبودية لله عزَّوجلَّ :

﴿ ياأيُّها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (١١) .

و ثقوا يا إخوة ، أنَّ المستعمر لن يدخل فينا ، ولن يسعى ليضع أنفَه بيننا ، إلا حينما يرى من خلال جواسيسه أنَّ نفوسنا قد ضَعف اتصالها بهذا الدين ، وأنَّ نفوسنا اتخذت هذا القرآن ظهرياً ، وأنَّ قلوبنا لم تعدْ مرتبطةً بالله ـ عزَّوجلَّ ـ ، وهذا ما يحدث ، وسيحدث باستمرار :

﴿ فطرة الله التي فطرَ الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ﴾ (١٢) .

أيُّها الإخوة :

لا مجال للتعليق ، فأنتم تسمعون صباح مساء ، أنَّ تلك الدولة الكبيرة التي تسمَّى « أمريكا » تقوم اليوم ، وقد رأتْ ضعفاً في قلوب الناس تجاه قرآنها ، وتجاه إسلامها ، فقامت لتضرب ، وهي دولةٌ كنا نعتقد أنَّها لا يمكن أنْ تدخل في قتالٍ مع دولة صغيرة ، ولكنَّ العناد ، ولكنَّ فرضَ السيطرة

الذي لايحوي مضموناً حملها على أنْ تضرب .

وأنا أقول لجميع المجابهين، وعلى كل مكان يقفون، أقول لهؤلاء الإخوة في ليبيا :

لا مجال لأنْ تقفوا أمام أمريكا ، إلا كما وقف إخوانكم وجيرانكم الجزائريون أمام فرنسا، لا مجال أمام هؤلاء إلا بتبنِّي المضمون الصحيح الذي طرحه محمَّد ﷺ يوم رفض الفرس والروم جهاتٍ للارتباط، ويوم أعلن العبودية مبدأ للارتباط باللهعزَّوجلَّ ، وإلا باتخاذ القرآن الكريم طريقاً واضحاً ، يبيِّن لكم كيفيَّةَ الارتباط بالله عزَّوجلَّ .

ثقوا بالله أنَّ أمريكا وغيرها ـ و لا نقول هذا الكلام اجترارا ًولكننا نقوله عن تجربة تاريخية ـ إنَّ أمريكا وغيرها يرعبها أنْ ينطلق المسلمون باسم الإسلام لمجابهتها، إنَّ أمريكا وغيرها يرعبها أنْ يغدوا المسلمون صفاً واحداً، من أجل مقاتلها، لأنَّنا نمتلك تجربة قيل عنها بأنَّها ناجحة ، وهم يمتلكون تجربةً خائبة .

لقد كان أجدادنا ـ وإنَّني أحمل الأسف أحياناً يوم أقول كان أجدادنا ، ولكن ليس لي مِنْ سبيل إلا أنْ أستشهد بالتاريخ ـ لقد كانَ أجدادنا يحبُّون الموت يا أيُّها المستعمر كما تحبُّ الحياة أنت .

فياشباب :

وجِّهوا الناس للارتباط بهذا المفهوم للاستقلال . وجِّهوا الناس من أجل أنْ يعلنوا الولاء العموديَّ لله عزَّوجلَّ ، ومن أجل أنْ يرفضوا الجهات الأخرى مُرتَبَطاً لهم، ومَوْثقاً .

قابلوا أمريكا بهذا، قابلوها مسلمين متَّحدين، قابلوها متَّفقين، قابلوها رافعي قرآنِ ربكم عزَّوجلَّ، قابلوها وأنتم تَنْشدون وتقولون الحقيقة، قابلوها وأطفالكم ونساؤكم تزغرد مِنْ ورائكم قائلاتٍ كما قالت نساء الجزائر بالأمس:

مبروكٌ يا محمَّد عليك، لقد رجع الشباب إليك، لقد عاد المسلمون إليك، من أجل أنْ يدحروا كلَّ إنسان يريد أنْ يقف أمام دعوتنا، وأمام طريقنا.

و ما أظنُّ أنَّ أمريكا سوف تكون حجرَ عثرةٍ، يوم نرى من رجالنا ربْعيّاً، ومصعباً، وعقبة، وعمر المختار، وهنانو.

يا أبطال المغرب:

ياشباب ليبيا:

ياشباب سورية الحبيبة:

اتبعوا محمَّداً ﷺ فأنتم مستقلون، وما دمتم تتَّبعون غير محمَّد ﷺ، فأنا أقول لكم بأنَّكم غير مستقلين.

يا شباب:

استقلالنا و فرحنا بجلاء المستعمر عن أرضنا، يتبغي أنْ نحوله إلى فرحةٍ عمليَّة، ومن خلال هذه الفرصة سنقف أمام الله - عزَّوجلَّ - قائلين:

يا ربِّ ستتعلَّق في وجودنا الارتباطي بك.

يا ربِّ ستتَّخذ القرآن الكريم كتاباً من أجل أنْ نتبيَّن كيفية الارتباط بك.

يا ربِّ وفقنا لتجعل منَّا دعاة إليك، مجاهدين في سبيلك من أجل أنْ

نحرِّرَ الأرض، ومن أجل أنْ نحررَ القلوب.

الدُّعاة تحرِّرُ القلوب، والمجاهدون يحرِّرون الأراضي، وما لم تتماسك الدعوتان فلا يمكن أنْ يدخل الإسلام.

دعاةٌ للقلوب حينما يفهم القلب، ويريد أنْ يفهم . و دعاةٌ للجهاد والنضال حينما تقف السدودُ أمامنا منْ أجل مَنْعِنا، مِنْ أنْ نبلِّغ الناس مفهومَ الاستقلال الصحيح، ومفهوم الجلاء الصحيح.

يا شباب الإسلام، يا شباب ليبيا، يا شباب تونس، يا شباب الجزائر، ياشباب المغرب، الإسلام هو المخلِّص الوحيد.

يا شباب سورية:

من أجل تحرير القدس، ومن أجل انتشالها من أيدي أولئك الذين عاثوا فيها فساداً، الإسلام هو المخلِّص الوحيد، لأنَّه يعطي مفاهيمَ صحيحة، ولأنَّه يبيِّن مضامين قويةً وجريئة.

أيُّها الشابُّ المسلم:

الاستقلال يوم تعود نفسك مِنْ وضعٍ غير طبيعي إلى وضع طبيعي صحيح، يوم تعود إلى خطِّها الفطري الصحيح، ممتثلةً ومتمثلة قولَ ربِّها عزَّوجلَّ:

﴿ يا أيَّتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربِّك راضيةً مَرضيَّة فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ (١٣).

أيَّتها النفس:

ستكونين مستقلةً إذا رجعت إلى طريقك الصحيح، إلى طريق ربِّك

راضيةً مرضيَّة .

اللهمَّ وفِّقنا في وجودنا الشكلي ، وفي وجودنا الارتباطي ، لكي نكون مرتبطين بك .

اللهمَّ وفقنا من أجل أنْ ننهج طريق محمَّد ﷺ ، ومن أجل أنْ نتَّخذ مضمون الاستقلال الذي جاءنا به رسول الله ﷺ طريقاً ومنهاجاً ، وعند ذلك خَسِئت يا أميركا ، ويا أيَّتها الدُّول الأخرى التي تريدين انتشال خيراتنا ، والتي تريدين أنْ تستغلي لحظات الضَّعف في شبابنا ، لاعودَ لك بعد اليوم ، إنْ شاء الله ، ما دام فينا شبابٌ يقولون : نحن أتباع الرسول محمَّد ﷺ .

بوركتم يا أيُّها الشباب .

بوركتم يا أيُّها المستقلُّون .

بوركتم وأنتم تسيرون وراءَ مضمون الاستقلال الصحيح .

بوركتم وبورك يومكم هذا ، لتتابعوا الطريق تحت لواء محمَّد ﷺ .

اللهمَّ اجعلنا مستقلين عن غيرك ، مرتبطين بك ،

فعبوديتُنا ـ يا ربِّ ـ هي سرُّ استقلالنا ،

امنحنا الاستقلال ، وامنحنا حقيقة الاستقلال .

أقول هذا القول واستغفر الله .

الهوامش

(١) النساء / ١٤٤ .

(٢) الكافرون / ١ ـ ٤ .

(٣) البقرة / ٢١ .

(٤) الفاتحة / ١ ـ ٧ .

(٥) رواه الإمام مالك ، ج٢ص٨٩٩ .

(٦) الأنعام / ١٥٣ .

(٧) طه / ١٤ .

(٨) آل عمران / ١٠٤ .

(٩) الحج / ٣٩ .

(١٠) التوبة / ٤١ .

(١١) البقرة / ٢١ .

(١٢) الروم / ٣٠ .

(١٣) الفجر / ٢٧ ـ ٣٠ .



الخطبة الحادية والعشرون

مقوّمات الذكرى في رمضان

* ما مِنْ شهرٍ يعبق برائحة التاريخ كرمضان ، ويكفيه مجداً يوم بدر ، وفتح مكة .

ويريد أستاذنا الدكتور من التاريخ أن يكون لنا « ذكرى »، كما قال الله تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أوألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

وإذ يُقال عن أمتنا : إنَّها الأمة الأكثر استحضاراً لتاريخها بين الأمم ، فهو عائش في حاضرها ، حاضر في أحلام مستقبلها .

فإنه لقولٌ مبشِّرٌ يدعو للاطمئنان لمسيرتها ، لكنه اطمئنانٌ متعلقٌ بالكيفيَّة التي نستحضر بها تاريخنا ، وقد ألمحنا في تقديم هذا الكتاب إلى العقلية الواعية التي تحلّى بها تعامل أستاذنا الدكتور مع التاريخ ، وهذه الخطبة « مقوّمات الذكرى »، تشكل تتمةً في موضوعها لجواب السؤال : « كيف نتعامل مع التاريخ ؟ » .

إنَّها خطبة تعبِّر عن شيءٍ مما تحلَّت به أفكار أستاذنا الدكتور مِنْ بُعْدِ النظر ، والواقعية ، وهي انموذجٌ لرؤيةٍ جديدة في التعاطي مع مواضيع مستمرة ، كمواضيع المناسبات ، ومنها شهر رمضان .


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْمِ

أمَّا بعد :

أيُّها الإخوة المؤمنون :

إنَّ مقوِّماتِ الذكرى لدى الإنسان أربعة :

« ماضٍ خيِّرٌ مجيد، وحاضرٌ معْطاء وطيد، ومستقبلٌ مبشِّر سعيد . ويصل بين هذه الأمور سعيٌ جادٌّ أكيد »، وقد أضفت إلى ذلك : « أنْ يكون هذا السَّعي من عبدٍ يستمدُّ إرادتَه منَ الله الفعَّال لما يريد » .

ويقول بعضهم أيضاً ، وبالمعنى نفسه مع اختلاف في اللفظ :

مقوِّمات الذكرى : « ماضٍ للعلياء ، و حاضرٌ بنَّاء، وأملٌ ورجاء »، ونضيف إليه : « أنْ يكون منَ الحيِّ الباقي الذي ما بعده رجاء » .

و ما أروع رمضان ! . . . ما أروع هذا الشهر في تحقيق هذه المقوِّمات ! ففي رمضان، فيك أنت يا شهر القرآن ،يا شهر الله، فيك ماضٍ خيِّرٌ مجيد، و فيك حاضرٌ معطاء وطيد، وفيك مستقبلٌ مبشِّر سعيد، وفيك سعيٌ جادٌّ أكيد .

١ ـ ماضٍ خَيِّرٌ مجيد

حينما أذكر الماضي المجيد الخيِّرَ فيك، أحيِّيك و أكْبِرك، أحيِّي فيك المنهجَ السليم، المرتضى منْ قِبل الخلاق للإنسان.

أحيِّي فيك القرآن الكريم من خلال ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن.

أحيِّي فيك المنهج الذي يدلُّ الإنسانَ على ما فيه خيره، في دينه ودنياه.

إنْ ذكرتُ الماضي المجيد، أحيي فيك أيضاً ـ يا رمضان ـ الفتحَ العظيم، يوم جاء خبر السماء، على لسان خاتم الأنبياء ﷺ:

﴿ وقلْ جاءَ الحقُّ وزهقَ الباطلُ إنَّ الباطل كان زهوقاً ﴾ (١).

أذكر فيك الماضي المجيد، وأحيِّي فيك النصرَ القويم في بدر، يوم أقسم الله بأنَّ المسلمين انتصروا:

﴿ ولقد نصركم الله ببدرٍ وأنتم أذلة ﴾ (٢).

أذكر فيك الماضي المجيد يا رمضان، ومَنْ منَ الشهور، وأيُّ الشهور يستطيع أنْ يقدِّم لنا ماضياً مجيداً، كهذا الذي قدَّمته يا شهر الله ؟.

أيُّها الوافد الحبيب، أيُّها الزائر الرفيع، أيُّها الشهر المصون، يا شهر قرآنِ ربِّنا، يا شهر صلاةِ نبيِّنا ﷺ، يا شهر تعبُّدِ وتبتُّل صالحينا، فيك الماضي المجيد، يا رمضان.

٢ ـ حاضرٌ معْطاءٌ وطيد

ولئنْ سألتَني عن الشقِّ الثاني للذكرى، عن الحاضر المعطاء الوطيد، فإذ أذكر يا رمضان فيك الحاضر الوطيد المعطاء؛ فمنْ أجل أنْ أؤكِّد لزوم

القرآن الكريم، لزوم آياته آناء الليل وأطراف النهار، منْ أجل أنْ أؤكّد لأمةٍ تتخبّط اليوم في دياجير الظلام، تنزلق في مهاوٍ منَ الردى، من أجل أنْ أؤكّد لهؤلاء لزومَ وضرورة تمسكِهم بكتاب الله.

فيا شباب:

في هذا الشهر فلتلتزموا كتاب الله، لاسيما وأنَّ المعركةَ اليوم - ومهما عمَّم الآخرون، ومهما تحدثوا - معركةُ منهاج، المعركةُ اليومَ معركة كتاب.

وفيك يا رمضان، فيك كتابُ الله، وإنّي أؤكّد منْ خلال الحاضر الوطيد، أؤكّد لزوم شبابنا للقرآن.

وإذ أذكر فيك الحاضر الوطيد، أؤكّد أيضاً صيامَ أيامك لشبابنا، منْ أجل أنْ تكون أعمالهم خالصة، فمَنْ صام أيامك إيماناً واحتساباً غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه، ومَنْ أحْوَج منَّا إلى أنْ تُغفر ذنوبه؟.

أيُّها الشاب:

أدعوك - من خلال الصيام لأيام رمضان - إلى الحاضر الوطيد، فهلا استجبت؟ هلا استجبت لمعركةٍ بينك وبين نفسك، ونحن اليوم أحوج ما نكون إلى رجال انتصروا على أنفسهم، مِنْ أجل أنْ ينتصروا هناك، في كلّ مكان يقاتِل فيه المسلمون، ويقاتَلون فيه.

وإذ أقول هذا، وأتحدَّث عن الحاضر الوطيد، فإنّي أذكر وبصراحة أنَّ شعباً انهزم في معركةٍ تدوم ساعات بينه وبين نفسه في أيام رمضان، فلا يصوم، ولا يؤدّي واجب الله عليه؛ لجديرٌ بالخيبة يوم يقف أمام أعداء الله.

ما أحوجنا لمعركةٍ ممهِّدةٍ لمعركة فاصلة، وإنَّ إنساناً لا يصوم يعني أنَّه

إنسـان لا يريد الانتـصـار على أعداء الله ، يعني أنَّه يسـاعد أعـداء الله ، مِنْ حيث لا يدري .

رمضانُ حاضرٌ معطاء وطيد ، وإنَّ الشباب الذين لا يصومون ، لا يمكن أبداً أنْ نعتمد عليهم في المعركة التي ستنادينا إليها الألسنة والقلوب ، لتقول لنا : يا خيل الله اركبي .

إنَّ شباباً لا يصومون ، لا ينتصرون على أنفسهم ، في معركة الساعات القصيرة ، و لا يمتنعون عن المفطرات ؛ إنَّ هؤلاء لا يمكن أبداً أنْ نستند عليهم .

فياشبابنا صوموا من أجل المعركة الفاصلة ، ويا جنودنا صوموا من أجل المعركة الفاصلة ، يا عمالنا ، يا موظفينا ، يا طلابنا صوموا من أجل تلك المعركة الفاصلة . ومهما كانت الدعوات لغير الصيام ؛ فلن تؤثّر في بناء حاضر وطيد ، ينتظر مستقبلاً مبشِّراً سعيداً .

أدعوك أيُّها الإنسان ، أدعوك مِنْ خلال الحاضر المعطاء الوطيد ، بعد الالتزام بكتاب الله ، و صيام أيام رمضان ، أدعوك إلى قيام لياليه ، ومَنْ أحوَجُ منَّا إلى أنْ يرفع يديه إلى السماء ، في أيامٍ مباركة ، في أيامٍ انتصر فيها المسلمون في الفتح وفي بدر؟ .

ونحن نقاتل اليوم عدواً لدوداً ، يذبِّح أبناءنا ، ويستحيي نساءنا ، في فلسطين ، و في لبنان ، و في أفغانستان ، بل في كل مكان ، ماأحوجَنا إلى رفع الأيادي في هذه الليالي؟ ، بعد الالتزام بالمنهج ، وبعد الصيام للأيام أنْ نرفعها للعلي القدير ، بأرواحنا وقلوبنا لنقول له :

يا ربَّنا انصرنا على أعدائنا، ما أحوجنا و كلُّنا يعاني منَ الغلاء والبلاء مايعاني، ومَن الذي لا يعاني منْ غلاء قاهرٍ يكاد أنْ يطحنه ؟، مَن الذي لايعاني منكم مِنْ فجورٍ سافر يكاد أنْ يقضي على عرضه ؟، مَن الذي لايعاني منكم مِنْ أشياء تكاد أنْ تسحقنا أمام أمم الأرض ؟، فنحن إذاً بحاجةٍ إلى رفع الأيدي إلى ربِّ العزة، لنبني حاضراً معطاء وطيداً .

٣ ـ مستقبلٌ مبشّرٌ سعيد

أمَّا الشقُّ الثالث في عالم الذكرى، فالمستقبل المبشِّر السعيد .

وإنِّي لألمح ذلك، إنِّي لألمح ذلك بنصر الله ووعده، بتأكيد ربِّنا في قرآنه الكريم :

﴿ إنَّا لَنَنصر رسلَنا و الذين آمَنوا ، في الحياة الدنيا ويومَ يَقوم الأشْهاد﴾ (٣) . ألمح تمسُّكاً بإسلامنا وديننا .

إنَّ المستقبل المبشِّر لهو مستقبلٌ يقوم على التَّمسُّك، على الوحدة حول منهاج قويم، وربُّنا يقول لنا :

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ﴾ (٤) .

إنَّ المستقبل المبشِّر السعيد يقوم على نصرٍ موعودٍ به مِنْ قبل الله عزَّوجلَّ :

﴿ ولاتَهِنوا ولاتحزنوا، وأنتم الأعلونَ إنْ كنتم مؤمنين ﴾ (٥) .

إنَّ مستقبلنا ليَقوم أيضاً على استقرارٍ في الاقتصاد، على توازنٍ بين الجسم والروح، على تعاملٍ خيِّر بنَّاءٍ بين أفراد الأمة الواحدة، وإنَّ شباباً لا يعيشون رمضان ، لا يمكن أنْ يُبصروا هذا المستقبل، إنَّ شباباً لا يعيشون

رمضان لا يمكن أبداً أنْ يستمتعوا بوعد الله :

﴿وإنَّ جندنا لهم الغالبون﴾ (٦) .

إنَّ شباباً بعيدين عن هذه القيم التي تُوجِد في الإنسان رفعةً وقوة واندفاعاً ؛ لا يمكن أبداً أنْ يُبصروا وعد الله عزَّوجلَّ في كتابه ، الذي أنزله في رمضان .

يا شباب :

إنَّ المستقبلَ المبشِّرَ لَمبنيٌّ على هذه الأسس ، إنْ نظرنا إليه مِنْ خلال رمضان ، كان المستقبل واعداً ، وإنْ لم ننظر إليه من خلال رمضان ، كان السعي متجهِّماً عابساً .

٤ ـ سعيٌ جادٌّ أكيد

وأمَّا السَّعي الأكيد فإنِّي أقول للشباب ، أقول للرجال ، أقول للنساء :

إنَّ الأمر يستلزم منَّا سعياً جادَّاً أكيداً حيال هذه الأمور التي ذكرناها ، متمثلين سيرةَ أشرف إنسانٍ على هذه البسيطة ، محمَّدِ بن عبد الله ﷺ ، ملتزمين أيضاً سيرة أولئك الذين لازلنا نفتخر بنسبتنا إليهم ، ولا زلنا نذكر أسماءً كثيرة ، لنعلِّم أبناءنا سيَر هؤلاء الأبطال ، من أجل أنْ يقوى أبناؤنا هناك في الانتفاضة ، من أجل أنْ تبقى أرواحنا مؤدَّاة في سبيل الله .

لنتمثلْ رجالَ رمضان ، الذين صاموه إيماناً واحتساباً .

لنتذكر أولئك الذين خاضوا في أيامه ، في ساعاته ، غزوة بدر ، وغزوة الفتح .

لنتذكر أولئك الذين كانوا يعيشون على القليل، لبناءِ أمةٍ تستحق أنْ تكون القدوة والأسوة.

وإذ أذكر هذا، فلست أنسى يوم نودي سعيد بن المسيب إلى جهادٍ في سبيل الله، في رمضان، وكانت قد ذهبت إحدى عينيه، فخرج ملبّياً، فقيل له: يا سيدي إنّك عليل، وإنَّ الله أعفاك. فقال لهم سعيد: إنَّ الله استنفر الخفيف والثقيل ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ [٧]، وإنّي وإنْ لم أستطع الحرب، كثَّرتُ السواد، وحفظت المتاع. إنَّه رجل.

لن أنسى يومَ سقط أحد أولئك الذين صاموا رمضان وقاموا ليله إيماناً واحتساباً، يوم سقط في أرض المعركةوقد سمع حديث رسول الله ﷺ:

[للصائم فرحتان، فرحةٌ عند فطره، وفرحة عند لقاء ربّه] [٨]، فقال: ﴿ وعَجِلتُ إليك ربِّي لترضى ﴾ [٩].

لن أنسى أبداً أولئك الذين كانوا لرمضان صائمين، ولليالِيه قائمين، وللجهاد فاعلين.

لن أنسى أبداً ذلك الرجل عبد الله بن الزبير الذي وقفت أمُّه أسماء لتقول له، وأنا أقول مثل هذه الأم للشباب:

(يا عبد الله إياك وأنْ تبيع خصلةً مِنْ دينك مخافةَ القتل).

وإذ بعبد الله يجيبها شعراً:

أسماءُ إنْ قُتلتُ لا تبكيني لمْ يَبقَ إلا جَنَّتي وديني
وفارمٌ لانَتْ به يَمِيني

إنَّ رمضان شهر القرآن و الصيام، والقيام، شهر الجهاد، شهر الفتح،

ولن يمكن لإنسان أنْ يقود إلى النصر إلا مِنْ خلال رمضان، وصيام رمضان، وقيام رمضان.

نطرح هذا الشهر لكلِّ الناس، لكلِّ العرب، لكلِّ الذين يريدون حمايةَ وطنهم، لكلِّ الذين يتباكون على فلسطين، لكلِّ الذين يريدون أنْ يدحروا عدواً لدوداً، نطرح رمضان منهاجاً، نطرح رمضان نموذجاً، نطرح رمضان عنوان بدايةٍ خيِّرة لماض مجيد، وحاضر وطيد، ومستقبل سعيد، وسعي جادٍّ أكيد. فهل يطرح الآخرون دورةً كرمضان ؟.

وإذ أذكر ذلك، فإنِّي أحترز عن أولئك الذين يصومون؛ و لكنهم لايسجِّلون في كلِّ يومٍ الفوائد التي جنَوها من رمضان، أريد منَ الشباب أنْ يدخلوا رمضان وأنْ يخرجوا منه كما يخرج الإنسان منْ دورةٍ تدريبية صارمة.

أريد منَ الشباب أنْ يخرجوا منْ رمضان ؛ وقد شعروا في قرارة نفوسهم أنَّ الله غفر لهم، وإذا ما غفر الله لك إذاً يا دنيا غُرِّي غيري، إذاً يا دنيا عليكِ السلام، إذاً مرحباً بالموت في سبيل الله.

يا شباب:

إلى هذه الدورة، استقبلوا الوافد الحبيب، استقبلوا شهر الله، بتذكُّرِ ماضيه المجيد، بالعمل لحاضره الوطيد، بالنظر بالأمل إلى مستقبلٍ للأمةِ سعيد.

ولنْ يطرح أحدٌ ما للأمة مِنْ خيرٍ إلا المسلمون، فهم القادرون وحدَهم على أنْ يطرحوا للأمة ماضياً وحاضراً و مستقبلاً، ونحن نقول للآخرين:

هيَّا اطرحوا، وإنَّا لطرحكم لمنتظرون.

يا ربَّنا بحقِّ رمضان، وبحق القرآن، سلِّمنا لرمضان، وسلِّم رمضان لنا، وتسلَّمه منَّا مقبولاً.

نِعْمَ مَنْ يُسأل أنت، ونعمَ النصير أنت.

الهوامش

(١) الإسراء / ٨١ .

(٢) آل عمران / ١٢٣ .

(٣) غافر / ٥١ .

(٤) آل عمران / ١٠٣ .

(٥) آل عمران / ١٣٩ .

(٦) الصافات / ١٧٣ .

(٧) التوبة / ٤١ .

(٨) رواه البخاري ، الحديث رقم / ١٠٨٥ / ج٢ص٦٧٣ .

(٩) طه / ٨٤ .

الخطبة الثانية والعشرون

التسامح مفهوماً مصداقاً ١

* ١ ـ لا بدَّ أولاً من ملاحظة أساسية ينبغي أخذها بعين الاعتبار في أطروحة أستاذنا الدكتور محمود عكام عن التسامح في الإسلام ، هذه الملاحظة هي :

إنَّ هذه الأطروحة تتخذ من الآية الكريمة التالية منطلقاً لها :

﴿ لكلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم في ما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ .

وبعبارة بشرية :

إنه طرحٌ لا يستهدف أن يقدِّم نفسه في هذه الصورة من الاستيعاب و الشمول وامكانية تقبُّلِ وجود المخالف ، من حيث النظرية ، ليتحول هذا الادعاء في الواقع ، أداةً لمصادرة الآخرين ، والحجر عليهم لأنهم « لا يمتلكون مثل هذه النظرية التي نملكها » .

بل ما يطمع فيه ـ وهو يقدم النماذج التاريخية تأكيداً لإمكانية ذلك ـ هو أن يقدم صيغةً مستوعِبةً يرى أنها متكاملة ، و قادرة على توفير أسسٍ لحياة مشتركة فاعلة ، بين كل الاتجاهات الفكرية الحاضرة على ساحتنا اليوم ، في سعيها جميعاً لإعادة بناء الأمة المنشودة ، القادرة على إثبات وجودها على المستوى الإنساني ، وفي كل الأصعدة و المجالات التي تهتم بها هذه الأمة .

وهذه الصيغة التي يقدِّمها أستاذنا الدكتور هي الإسلام ، وبكل بساطة وقوة .

وفي رأينا أن كل مفهوم للحرية والتسامح لا يضع في حسبانه هذا الأمر ، إنما هو مفهوم يلغي حجة وجوده قبل أن يلغي الآخرين ،

يصادر نفسه قبل أن يصادرهم ، وقد قال أستاذنا الدكتور ـ حفظه الله ـ جواباً لمن قال له : « إن الإسلام ينتصر في جو الحرية » :

(إنَّ الحرية تصنع الإنسان ، ونحن لا نريد الحرية لنفرض ما نريد ، أو لنلغي الآخرين ، إنما نريدها من أجل أن نرى الآخرين في أفعالهم وحالاتهم التي تعبر عمَّا في حقيقة داخلهم ، لا كما هم في حالة الخوف ، أو الرهبة ، أومراقبة الآخرين) .

٢ ـ ينبغي ثانياً أن نحدد السؤال أو الإشكالية ، التي يأتي هذا البحث « الخطبة » جواباً أو حلاً لها ، ويحسن بنا أن ننقل ما قاله أستاذنا الدكتور ، جواباً لسؤال وجَّهته له مجلة « العالم » ، الصادرة بلندن ، عدد/ ٥٢٥/ ، حول الديمقراطية في الإسلام ، و هل يسمح الإسلام بوجود المعارضة ؟ ، فقال :

(المعارضة والمعارضُون قضيةٌ لا تحتمل نقاشاً أوحواراً في الوجود ، ولكنَّ الحوار والنقاش يتعلق بالتنظيم .

وإذا كان لكل دولة أوحزب قانونه في تنظيم المعارضة الخاصة به ، والتابعة له ، فالمهمُّ في النهاية أن ينتفي الإرهاب و القهر و القسر ، وأن يَحلَّ محلَّ ذلك الحوار الجادُّ ، والدعوة الواعية ، و التسامح الإنساني الراقي) .

وانطلاقاً من هذا الأساس ، يبين أستاذنا الدكتور ـ حفظه الله ـ حدود مصطلح « التسامح » ، و يضع له قواعده ، في مواجهة كلام كثير يقال عن حقوق غير المسلم في المجتمع الإسلامي .

هذا الكلام الذي يأخذ شكل الطعن واللمز في كثير من الأحيان ، بعيداً عن الروح العلمية المنصفة .

وهو طعنٌ لا يتوجه فقط إلى تاريخنا ، ليلتمس ما فيه من

خروجات قام بها حكامٌ « مسلمون » ، أوسقطاتٍ وقع فيها أفرادهم في معاملة غير المسلمين ، ثمّ يحاول بعد ذلك تعميمها ، ليجعلها حاكماً على مسيرة حضارة كاملة وتاريخ طويل .

وإنما يتوجه هذا الطعن أيضاً إلى كل خطابٍ معاصر يتبنّى الإسلام مرجعاً حضارياً له ، في خطةِ العمل التي يقدّمها لنهضة الأمة .

وهكذا تثار في مواجهة كل خطاب إسلامي مسائلُ معروفة في هذا المجال ، وتُطرَح بعض المصطلحات التي عرفتها الحضارة الإسلامية في تعاملها مع غير المسلمين كـ « الجزية » ، و « أهل الذمة » ، و « أهل الكتاب » ، علاماتٍ على عدم إمكانية تقديم رؤية إسلامية معاصرة ، ومستوعبةٍ لما يضمُّه المحيط العربي والإسلامي من ديانات مختلفة ، أوتيارات متناقضة .

ويتناسى المتكلمون هنا أمرين اثنين يتعلقان بهذه المسائل :

أولاً ـ إنّ هذه المصطلحات ، القوانين ، التنظيمات ـ ومن خلال تجربة تاريخية طويلة ـ قد أثبت أنها قادرة على تشكيل إطار تنظيمي واقعي ، تشارك من خلاله كل الجماعات الأخرى في تحمّل مسؤولياتها تجاه الأمة ، وتستمد منه المستند القانوني لحقوقها الخاصة والعامة .

وأستاذنا الدكتور محمود عكام يقدّم لنا بعض النماذج التاريخية ؛ التي تمثل هذه الحياة ، التي أفرزتها تلك التنظيمات .

ويمكن أنْ نسجّل هنا أسبقيةً قانونية كبرى للإسلام ، لأنّه قدّم رؤية تشريعية متكاملة تنظّم علاقة أتباعه بالآخرين ممن لا يدينون به ، ضمن إطار علاقةٍ سلمية ، بل وأكثر من ذلك ، فإنّ هذه التشريعات قدّمت صيغة لحياة مشتركة ، وعيشٍ واحد مفتوح أمام كل إنسان ، مهما كان

معتقده تحت مظلة الإسلام المستوعِب .

ثانياً - إنّ الأسس القرآنية و الحديثية ، التي قامت عليها هذه التشريعات ، تمتلك من الاتساع و المرونة - كما يتضح من استعراضها - ما يمكن لنا من خلاله الاستغناء عن بعض المصطلحات التي ولّدها المجتهدون في هذا المجال ، ما دامت تثير شيئاً من الحساسية في نفوس غير المسلمين .

وفيما يتعلق بالمصطلحات التي اعتمدها القرآن نفسه ، والحديث الشريف ، فإنّ هذه النصوص نفسها تقدّم لنا مانزيل به التشوهات التي ألحقتها بعض التجارب التاريخية بفهم غير المسلمين لهذه المصطلحات ، خاصة بعد استغلالها من قِبل فئات عديدة للطعن في التجربة الإسلامية عبر التاريخ .

و يمكن أن نذكر أمثلة عديدة على هذه المرونة التشريعية منها :

- موقف الصحابة رضي الله عنهم في خلافة سيدنا عمر ، لمّا أقروا رفع « الجزية » عن بني تغلب من نصارى العرب ، مقابل أن يدفعوا زكاة مضاعفة .

- ومنها ذلك التطوير الذي أدخله فقهاء المالكية على مصطلح «أهل الذمة » ، فصار يطلق عندهم على أتباع أي دينٍ من الأديان ، إذا كانوا يعيشون ضمن عهد أمانٍ ، في ظل سلطة سياسية تتبع ديناً آخر ، حتى لو كانوا مسلمين ، ماداموا تابعين سياسياً لغير سلطة الدولة الإسلامية « المسلمون في صقلية في عهد النورمنديين مثلاً » .

ونحب أن نذكّر بفكرة هامة لأستاذنا الدكتور حول مصطلح التسامح ، وهي أنّ كلمة التسامح تشير إلى فعل يقوم به أكثر من طرف واحد في الوقت نفسه ، فـ« التسامح » « تفاعل » ، وعملية مشاركة ،

على خلاف كلمة « السماح » مثلاً ، التي تدلُّ على فعل يبادر به طرف معين تجاه طرف آخر ، دون أن يكون لهذا الأخير دور إيجابي فاعل .

لاغنى أخيراً عن القول بأن مروِّجي الإشاعات السود عن سجلِّ الإسلام في حقوق الإنسان ـ وهو الأنصع والأنقى والأشرف ـ هؤلاء هم أنفسهم من يروِّج اليوم لسيادة القوة ، وحاملوا الإعلانات التي تدعو لمن يبغي أن يكون وحدَه سيد العالم وصاحب قراراته ، حتى لوكانت هذه القرارات على حساب إنساننا نحن ، فليمت الفلسطيني ، وما مِنْ مشكلةٍ في الصومال ، وأيُّ شيءٍ هي البوسنة ؟ . مادامت مصالحه التوسعيَّة مصونةً .



بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْم

أمَّا بعد:

أيُّها الإخوة المؤمنون:

في وقتٍ كَثُرتْ فيه المصطلحات، وتزاحمتْ على الشِّفاه، وراح الناس يعطونها ماشاؤوا منَ المعاني، ويضمِّنونها ما أرادوا، وما تملي عليهم أهواؤهم منْ دلالات، وجدتُّني مضطراً لبيان بعضٍ منها، منْ منظورٍ أسأل الله أنْ يكون مسلماً، ذلك أنَّ المصطلح منفذٌ للعقيدة، ووسيلةٌ للتعبير عنها، فلزمَ ضبطه ومعايرته وفقَ شريعة الله، منْ كتابٍ كريم، وسنَّةٍ شريفة.

ويوم اتَّخذ أعداء الله بعضَ المصطلحات وسيلةً للإساءة إلى إيمان المؤمن، ومنفذاً إلى ذلك، جاء المنع في القرآن الكريم حاسماً:

﴿ لاتقولوا راعنا وقولوا انْظرنا ﴾ (١).

واليوم ونحن أمام عددٍ وركام كبير من هذه المصطلحات، فإنَّ موقفنا

لا يعدو أنْ يكون أحدَ أمرين، إمَّا الرفض وإمَّا التصحيح، وبقدر ما أذكر منْ مصطلحات تحتاج إلى تصحيح، بقدر ما أنفي تلك المصطلحات الشائعة، التي تقتضي منَّا رفضاً، ومنعاً، وعدمَ قبول لها، ولنظرائها من المصطلحات التي تقتضي الردَّ.

أيُّها الإخوة:

مصطلحٌ يحاول الناس في بقاع الأرض أنْ يتذرَّعوا به، وأنْ يتسلَّحوا به، بل تحاول الديانات الموجودة اليوم أنْ تتَّخذه لها عنواناً، بل ويحاول أولئك الملحدون أنْ يضعوه في مواجهة بعض المتديِّنين، أو في مواجهة بعض أصحاب الديانات، إنَّ هذا المصطلح هو «التسامح الديني».

إنَّه مصطلحٌ يريده كلُّ الناس، ويتمنَّاه كلُّ الناس، ويطلبه كلُّ الناس، مصطلحٌ غدا ضرورياً اليوم، بعد رؤيتنا لمشاهدَ تقشعرُّ منها الجلود، بعد رؤيتنا لمناظر تكاد تأخذ بالأبصار من فظاعتها، وما «لبنان» عنَّا ببعيد، وما غيره عنَّا ببعيد، إنَّهم يدَّعون، ولكنهم لا يفعلون، إنَّهم يقولون، ولكنهم لا يُضمِّنون.

إنَّ مصطلح التسامح غدا اليوم حجةً، يتذرَّع بها أصحاب الباطل في مواجهة الحق، ويُتناسى منْ قِبلهم حينما يقومون بباطلهم.

لقد أصَّلنا لهذا المصطلح قواعد، ولقد حدَّدنا لهذا المصطلح أسساً، إلا أنَّ الآخرين - ولا أقول هذا تجنِّياً عليهم - وضعوه في مواجهتنا حينما نمارس حقاً لنا، وهؤلاء هم أنفسهم الذين رمَوا هذا المصطلح خلفهم، حينما عبثوا بباطلهم، نحن الذين قدَّمنا للدنيا حدودَ هذا المصطلح، أركانَ هذا

المصطلح، تطبيقات هذا المصطلح، وكان من نتيجة ذلك أنْ شهد الناس لنا، أنْ شهد الآخرون لنا، أنْ شهد الأعداء لنا، فلقد قال قائلهم في كتاب طبع في القرن العشرين:

« لم يعرف التاريخ فاتحين أرحم من المسلمين ».

أيُّها الإخوة:

قبل الحديث عن التطبيقات والشهادات، لا بد أنْ نبيِّن القواعدَ والأسس، ومن خلال القواعد والأسس، ندرك التعريف.

١ ـ لقد رسَّخ الإسلام تحت عنوان التسامح أشياءَ كثيرة، فلقد رسَّخ في قلوب المسلمين أنَّ الديانات السماوية تستقي من مَعينٍ واحد، من أجل التسامح، فقال:

﴿ شرع لكم منَ الدِّين ما وصَّى به نوحاً و الذي أوحينا إليك و ما وصَّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أنْ أقيموا الدِّين ولا تتفرقوا فيه ﴾ (٢).

٢ ـ رسَّخ الإسلام من أجل التسامح في قلوب المسلمين أنَّ الأنبياء إخوة، لا تفاضلَ بينهم مِنْ حيث الرسالة، ومن حيث الإيمان بهم، فقال القرآن الكريم:

﴿ قولوا آمنَّا بالله، وما أنزل إلينا، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحَق ويعقوب والأسباط، وماأوتيَ موسى وعيسى، وما أوتيَ النبيون مِنْ ربِّهم، لانفرِّق بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون ﴾ (٣).

لا نفرِّق بين أحدٍ منهم، لا نفرِّق على الإطلاق، فالكلُّ في نظرنا أنبياء، ونحن لله، نحن له مسلمون.

٣ ـ لقد رسَّخ الإسلام تحت قنطرة التسامح أنْ لا إكراه في الدين، فالعقيدة ينبغي أنْ يستقبلها القلب والعقل بشكلٍ واضح، وبشكل جليٍّ:

﴿ لا إكراهَ في الدِّين قد تبيَّنَ الرُّشدُ منَ الغَيِّ فمَنْ يكفر بالطاغوت ويؤمنْ بالله فقد استمسكَ بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ (٤).

٤ ـ لقد رسَّخ الإسلام من أجل التسامح أنَّ أمكنة العبادات على اختلافها محترمةٌ في نظر المسلمين، فها هو القرآن يقول:

﴿ ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض، لهدِّمتْ صوامعُ وبِيَعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكَر فيها اسم الله كثيراً ﴾ (٥).

٥ ـ لقد رسَّخ الإسلام من أجل التسامح أنَّ هؤلاء المسلمين ينبغي أنْ ينظروا إلى غيرهم على أنَّهم بشر، يجادلونهم بالتي هي أحسن. فقال القرآن الكريم:

﴿ ولا تجادلوا أهلَ الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ (٦).

وإذا ما اقتضى الأمر الشتَّم، فإيَّاكم والشتَّم:

﴿ ولا تَسبُّوا الذين يَدْعون مِنْ دون الله، فيسبُّوا الله عَدْواً بغير علم ﴾ (٧).

٦ ـ لقد رسَّخ الإسلام في قلوب المسلمين من أجل التسامح البِرَّ لهم، وحُسْنَ الضيافة لهم، فها هو القرآن يقول للمسلمين:

﴿ وطعام الذين أوتوا الكتابَ حلٌّ لكم وطعامكم حلٌّ لهم ﴾ (٨).

٧ ـ لقد رسَّخ الإسلام في قلوب المسلمين، أنْ لا عداوة بين المسلمين وبين غيرهم، لمجرَّد كونِهم غير مسلمين، وتركَ الأمر ليوم القيامة، اللهمَّ

إلا إذا اعتدى هؤلاء على المسلمين، إلا إذا وقف هؤلاء في طريق دعوة المسلمين حجرَ عثرة، عند ذلك قال القرآن الكريم:

﴿ وقالت اليهود ليست النَّصارى على شيءٍ، وقالت النَّصارى ليست اليهود على شيءٍ، وهم يتلون الكتاب، كذلك قال الذين لا يعلمون مثلَ قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ (٩).

لقد رسَّخ الإسلام في قلوب المسلمين كلَّ هذه الأسس ليحدِّد التسامح المطلوب مِنْ إنسانٍ يعيش على وجه هذه البسيطة، وليمارس هذا التسامح ممارسةً رائعة، تنبثق من إنسانٍ استلم سدَّة الحياة، وعاش ليؤكِّد للناس إنسانيته الرائعة.

إنَّ هذه أيُّها الإخوة أسسٌ رائعة، ونحن نطالب الآخرين بتحديد أسسٍ للتسامح عندهم؛ ثمَّ سنأتيهم ببعض التطبيقات لنقول لهم:

إنَّ النبيَّ ﷺ استقبل وفد نصارى نجران، وسمح لهم بإقامة الصلاة في مسجده (١٠).

واستقبل النبيُّ ﷺ هديةً من المقوقس، في مصر، وهي الجارية التي أنجبت إبراهيمَ ولد المصطفى ﷺ، ثمَّ وقف فقال:

[إذا فتحت مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإنَّ لهم دماً ورحماً] (١١).

واستقبل المصطفى ﷺ وفد نصارى الحبشة، وأكرمهم بنفسه، وقال:

[إنَّهم كانوا لأصحابنا مكرمين، فأحبُّ أن أكرمهم بنفسي] (١٢).

هذا هو التطبيق أيُّها الإخوة.

إذا ما أردتم مثالاً للتسامح في حياة المصطفى ﷺ فسلوا ذلكم الرجل

المشرك مُطعِم بن عدي، الذي قدَّم مساعدة للنبيِّ ﷺ، يوم دخل النبيُّ ﷺ في حِماه، حينما عاد من الطائف، دخل في حماه إلى مكة، ثمَّ ذهبت الأيام، وتوالت، وإذ بمطعم يموت كافراً، أما وأنَّه قدَّم خدمة للنبيِّ ﷺ، فقد وقف حسان الشاعر المسلم رضي الله عنه، فرثاه، فقال قصيدته التي أوَّلها:

فلو أنَّ دهراً أخلدَ مجدَه اليوم واحداً

لأخلدَ الدَّهرُ مجدَه اليوم مطعماً

فبكى النبي ﷺ.

أيُّها الإخوة:

إنَّ التسامح ملحوظٌ، يوم جاءت فاطمة، وهي صغيرة السِّنِّ رضي الله عنها وأرضاها إلى أبيها ﷺ، تشتكي لطْمَ أبي جهلٍ لها ـ لطمها أبو جهل ـ فقال لها المصطفى ﷺ:

[اذهبي إلى أبي سفيان واشتكي له]

وذهبت إلى أبي سفيان، وقالت له القصة، فأخذها أبو سفيان وكان مشركاً، وقال لها: الطمي أبا جهلٍ كما لطمك. فلطمته وعادت، فأخبرت النبي ﷺ بذلك، فرفع يديه إلى السماء وقال:

[اللهمَّ لا تنسها لأبي سفيان].

يقول ابن عباس: (فما أظنُّ أنَّ إسلام أبي سفيان إلا استجابةً لدعوة النبي ﷺ هذه) (١٣).

لبنان شاهدٌ على أولئك الذين يقفون اليوم أمام المسلمين، لبنان شاهدٌ

يوم يصنِّف هؤلاء الدولةَ لاعلى أساس العدد، فالمسلمون أكثر من غيرهم في لبنان، ولكنَّها البغضاء، أمَّا التسامح، فعنوانٌ مزركش، يظهرون به على منابر الأمم المتحدة، ليُسكتوا أصوات الحق المنبعثة، هنا وهناك، ولكن سيبوؤن بالخيبةِ وربِّ الكعبة، في كلِّ مكان.

أيُّها الإخوة:

لا نريد أنْ نتعدَّى على إنسان، ولا نريد أبداً أنْ نكون المهاجمين البادئين، ولكنْ ما حيلتنا، وما رأيكم أنَّ الإسلام اليوم يُهاجَم على أنَّه خالٍ من التسامح، وهذه قواعده وهذه أسسه ؟! .

وسنتكلم في الأسبوع القادم، عن تطبيقاتٍ للصحابة والتابعين، وعن شهاداتِ الآخرين بذلك .

ونحن ندعو الآخرين اليوم ليحددوا لنا من خلال كتابهم، من خلال دساتيرهم، من خلال مناهجهم، ليحددوا أسساً للتسامح يمكنها أنْ تكون موازية، أو أقلَّ من تلك التي حددناها .

أيُّها الإخوة:

لا تصدقوا أبداً ما يُلقى في آذانكم، مِن اتهامٍ للإسلام، على أنَّه شرس، هم شرسون، وربِّ الكعبة، انظروا إليهم في شرق البلاد وغربها، منذ فجر التاريخ وحتى اليوم، لن ينسى المسيحيون أنفسُهم، لن ينسى النصارى، يوم دخل محمَّد الفاتح القسطنطينية هناك؛ فوقف أحدالمسيحيين الأرثوذكس ليقول:

(إنَّ عمامة السلطان أحبُّ إلينا منْ تاج البابا الرومي الكاثوليكي، الذي

حلَّ بنا، واستعمرنا) .

نعم لم يعرف التاريخ فاتحين أرحم من المسلمين، هكذا قالوا .

لـمَّا حكمنا شـهدَ الناس بعَدْلنا

لما حكمتمْ سالت بالدِّماء الأبْطُحُ

فلندعُ إلى الإسـلام أيُّها الشبـاب بقـوة، وهو دين القـوة إنْ أردتَه، وهو دين الشـجـاعـة إنْ أردته، وهو دين الحقِّ إنْ أردته، وهو دين التسـامح وبالأرقام إنْ أردته .

أنا الرجل الذي أبحث أيُّها الإخـوة ـ واعـذروني هنا إذا قلت هذا ـ أنا الرجل الذي أبحث وربِّ الكعبة عن الحقيقة دائماً، لقد حاولتُ أنْ أقرأ في كتب الآخرين قواعدَ للتسامح نظموها، أو أسساً للتسامح وصفوها، فلم أجد إلا ادعاءً لا يمكن أنْ يكون له رصيد، لم أجد لدى هؤلاء إلا ادعاءً لا تاريخ يسنده، ولاواقع يدعمه، ولكنَّه الادعاء في مواجهة المسلمين فقط، إنَّهم في مواجهتنا يدَّعون التسامح، ولكنهم في باطلهم يعبثون بكلِّ القيم، بكل الأخلاق، بكل المبادئ.

هيَّا أيُّها المسلمون إلى قوَّتكم، إلى شجاعتكم، إلى تسامحكم، فربُّكم معكم، ولن يترككم .

نِعمَ مَنْ يُسأل ربُّنا، ونِعمَ النَّصير إلهنا .

الهوامش

(١) البقرة / ١٠٤ .

(٢) الشورى / ١٣ .

(٣) البقرة / ١٣٦ .

(٤) البقرة / ٢٥٦.

(٥) الحج / ٤٠ .

(٦) العنكبوت / ٤٦ .

(٧) الأنعام / ١٠٨ .

(٨) المائدة / ٥ .

(٩) البقرة / ١١٣ .

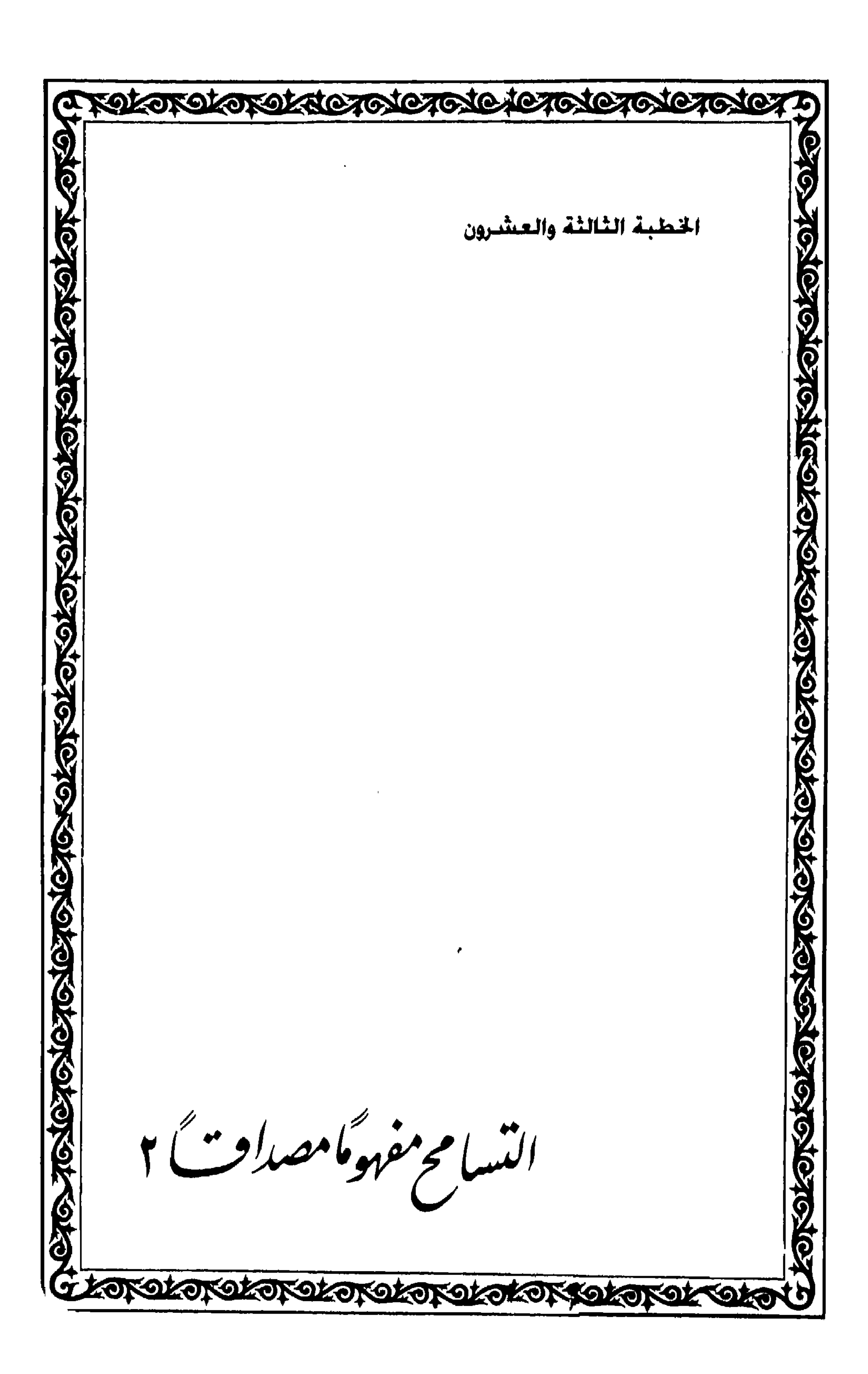
(١٠) ابن هشام ، ج٢ص١٦٠ .

(١١) رواه الطبراني بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح ، كما ذكرَ في مجمع الزوائد ج١٠ص٤٨، الحديث رقم/ ١٦٦٧٩ / .

(١٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة، ج٢ص٣٠٧ .

(١٣) كما ذكر القسطلاني في المواهب اللدنية .





الخطبة الثالثة والعشرون

التسامح مفهوماً مصداقاً ٢



بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْمِ

أمَّا بعد:

أيُّها الإخوة المؤمنون:

إنَّ للمصطلح مستويين. وهذا شأن كلّ هامٍّ:

١ ـ مستوىً نظريٌّ، أعني به قواعدَ وأسساً وتأطيرات.

٢ ـ ومستوىً عمليٌّ، أعني به تطبيقاتٍ منعكسةً عن تلك القواعد، تبتدأ منذ الولادة، ولادةِ المصطلح وحتَّى النهاية.

وحين نطرح مصطلح التسامح، فمِنْ خلال مستوييْه الإثنين هذين، النظريِّ والعمليِّ، وهذا ما يميِّز طرحَنا عن غيرنا. فقد يريد الآخرون طرح هذا المصطلح عنواناً، ولكنَّهم في الحقيقة يبغون ضدَّه، وقد يضعونه أيضاً ادعاءً، ولكنْ يبتغون منه عبثاً بحقوق الآخرين، وقد يستخدمونه أحياناً أخرى في مواجهة الآخرين حينما يستخدم هؤلاء حقَّهم، ويضعونه هم ستاراً لهم لينفِّذوا باطلهم.

والصهيونية ونظائرها، وبكلِّ أشكالها وصورها، ولا حاجة لتعداد

أسمائها ومفرداتها، هي دليلٌ بكلِّ أشكالها على ما نقول، إذ إنَّها تنادي بالتسامح، ولكنَّها في الحقيقة تسعى لمآربها في تحقيق باطلها، تدَّعي التسامح أحياناً، و لكنَّها في حقيقتها تريد ضدَّه، لا شكَّ في ذلك ولاريب.

وإنَّنا حينما نطرح التسامح، فقد طرحناه على المستوى النظري، وأطَّرنا له قواعدَ وأسساً، وقلنا، وعلى سبيل الاختصار:

إنَّ الإسلام حينما طرح التسامح فمن خلال:

١ ـ أنَّ الأديان إنَّما تستقي من معينٍ واحد.

٢ ـ وأنَّ الأنبياء إخوة.

٣ ـ وأنَّه لا إكراه في الدين.

٤ ـ وأنَّ اختلاف الدين لا يمنع منَ البرِّ، وأنَّ على الإنسان أنْ يواصل من اختلف عنه في دينه، إنْ كان أباه أو أمه.

٥ ـ وأنَّ الجدال مع الذين لم يؤمنوا بدينك، ينبغي أنْ يكون بالتي هي أحسن.

٦ ـ وأنَّ السِّباب، والشَّتم ممنوع، ﴿ ولا تسبُّوا الذين يَدْعون مِنْ دون الله ﴾ (1).

٧ ـ وأنَّ البرَّ وحُسن الضيافة هي التي تتوِّج علائقنا مع أهل الكتاب:
﴿ وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ﴾ (2).

٨ ـ وأنْ لاعداوة بين المسلمين وبين غيرهم، لمجرَّد كونهم غيرَ مسلمين.

هذه أسسٌ نظرية لهذا المصطلح الذي طرحناه، ثمَّ طرحنا بعد ذلك

تطبيقات عملية من خلال حياة المصطفى ﷺ، وقلنا بأنّنا سنتحدث عن تطبيقات عملية لجيلٍ جاء بعد النبي ﷺ، وسنذكر أمثلةً ليس من شأنها الحصر، وإنّما من شأنها أنْ تُرِيَ الناس دليلاً على صحة ما نقول .

أيُّها الإخوة :

اسمعوا إلى قصةٍ جرتْ مع عمر بن الخطاب ، إنَّ عمروَ بن العاص يوم كان والياً لمصر ، ويوم جاءها فاتحاً حكم مصر ، وكان العدلُ ديدنَه ، وإنْ وقع في بعض الهنات ، كان الخليفة يصحِّح له ، مرةً كان الجامع في مصر بحاجةٍ إلى توسيع ، وكان بجانب الجامع دارٌ لامرأةٍ مسيحية ، فأخذها عمرو وأعطاها ثمنها ، وهذا ما تجيزه الدول في قوانينها اليوم ، فرفعت هذه المرأة شكوى إلى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ ، وقالت : إنَّ والي مصر أخذ منِّي داري دون رضىً منِّي ، فهو وإنْ أعطاني ثمنها إلا أني لا أريد أنْ أبيعها له .

وكان عمرو قد أدخل الدار مع الجامع ، ووسَّع الجامع ، فلما وصل الخبر إلى عمر بن الخطاب أمر عَمْراً وقال له :

(يا عمرو اهدمْ ما ألحقت بالجامع مِنْ دار المرأة ، وأعِدْ للمرأة دارها كما كانت ، فإنَّما بُعثنا مبشِّرين ، ولم نبعث منفِّرين) .

إنَّه تسامحٌ ، والقصص كثيرة .

إنَّ عمر بن الخطاب لما أدركته صلاة العصر وهو يزور كنيسة القيامة ، وقد جاء إلى القدس فاتحاً ، لم يُصلِّ في الكنيسة ، ولما سُئل أجاب :

(كي لا يتَّخذها المسلمون بعد ذلك ذريعة ، فيطالبوا بالكنائس من أجل

أنْ يصلُّوا فيها) . وخرج وصلّى خارج الكنيسة ، لا لحرمةٍ في الصلاة داخل الكنيسة ، لكنْ مِنْ أجل بقاءِ حقوق الآخرين على ماهي عليه .

أيُّها الإخوة المسلمون :

إنَّما نريد منْ وراء ذكر هذه القصص ، أنْ ندلّل للآخرين أنَّ مصطلح «التسامح » قد بيَّناه نحن المسلمين على المستوى النظري ، وعلى المستوى العملي .

يُروى أنَّ الخلفاء كانوا يستعينون بالكفؤ في مجال الوظائف ، وإنْ اختلف دينه ، وإنْ كان مسيحياً ، فـ « سرجون » كان رجلاً نصرانياً ، وضعه معاوية كاتباً ، وإنَّ هذا التسامح لم نعهد له نظيراً في تاريخ الآخرين ، ولافي عصورنا الراهنة .

إنَّ اختيار الكفؤ لوظيفةٍ ما ، بِغضِّ النظر عن دين ذلك الرجل ، أصبح مطلباً يتطلّع الإنسان إليه ، في كل العصور على اختلافها ، وعلى اختلاف حكّامها ، وعلى اختلاف مسؤوليها .

إنَّ الوظيفة اليوم لم تعدْ ترتبط بالكفاءة ، وإنَّما أضحت حكراً على إنسان ، ربما اكتسب صفةً معينة لاعلاقة لها بالوظيفة ، ولاعلاقة لها بالعمل .

أمَّا إسلامنا ، فلقد نظر إلى حسن القيام بهذه الوظيفة ، دون النظر إلى دين الرجل ، حتى إنِّي لأذكر على سبيل المثال وليس على سبيل الحصر ، عدداً كبيراً من الأطباء النصارى ، الذين حققوا الكثير منَ النجاح ، وكانوا محترمين منْ قِبَل الخلفاء ، و حظوا بالتشجيع والحماية منْ قِبل الأمراء

المسلمين، لأنَّهم كان أكفاءً في مجالهم، قُدِّرت كفاءتهم، وأكرموا على أساسها.

أذكر أموراً كثيرة في مثل هذا الميدان، من أجل أنْ تدللوا على وجود التسامح بشكله الحقيقي في ديننا، في عقيدتنا، في شرعنا، في واقعنا، والأمثلة كثيرة، وإذا نظرتم إلى كتب التاريخ، فسترَوْن الكثير الكثير.

ولكنَّ الذي يؤلمنا، أنَّ الغرب وقد ادَّعى أنَّه وصل إلى مرحلةٍ من التسامح، تكاد تسبق الماضي بكلِّ صوره ؛ نجده يعلن فظاظته وهو ينادي ظاهراً بهذا التسامح، يعلن فظاظته في كلِّ شبرٍ من أصقاع الدنيا.

إنَّ لبنان، كما قلت في الأسبوع الماضي، خيرُ شاهدٍ وأصدق دليل على ما نقوله، حيث يُطلَب من النصارى هناك أنْ يكونوا موضوعيين في اختيار الكفؤ لمن يحكم ذلك البلد، لكنهم يرفضون ذلك وبتشجيعٍ منَ الغرب، وينادون بقوانين ليست مسجَّلة في قواعد تبقى لكي تكون مطبقة، وإنَّما كانت مجرد أعراف، اعتبرتها البلاد في لحظة من اللحظات، في ظل الاحتلال.

أيُّها الإخوة:

إنَّنا إذ نطرح التسامح اليوم، ولكنْ بشرط أنْ ينادي الآخرون به، وأنْ يقبلوه، لكننا حينما نجد منهم إمعاناً في ضلالتهم، إمعاناً في تحيُّزهم، ومن الذي ينكر التحيُّزَ الظاهر في كل مكان نعيش فيه، فاختيار الإنسان أضحى وفقَ أمور معينةٍ، لاعلاقة لها بالكفاءة، كما قلت لكم.

سلوا كلَّ مكان يمكن أنْ تحلّوا فيه، سلوا كلَّ وظيفةً يمكن أنْ تنظروا

إليها، لتدركوا صحة ما نقول، نحن الذين ننادي أنَّ الإنسان الكفؤ ينبغي أنْ يكون في مكانه الصحيح، نحن ومن خلال ديننا، نحن الذين ننادي الآخرين أنَّ الكفاءة هي التي ينبغي أنْ تُحَكَّم في كلِّ أمرٍ من الأمور، لاعلاقة في ذلك بدين أو بمذهب، نحن الذين نادينا بهذا، قبل أنْ يقول الآخرون هذا الكلام، على أنَّ كلامهم دعاية، على أنَّه هراء، على أنَّه كلام لم يكن، ولايمكن أنْ يكون موضع التطبيق.

ولقد شهد أعداء الإسلام على اختلاف مراحل التاريخ بتسامحنا، شهد أعداء الإسلام من خلال أقلامٍ حملها بعض المستشرقين، ولكنَّهم حينما رأوا الحقيقة ساطعة بيِّنةً وقعوا بين أمرين:

إمَّا أنْ يتحدَّثوا عنها، وإمَّا أنْ تتهمهم الأجيال، على أنَّهم حائدون عن الحقيقة، فسجَّل بعضُ مَنْ ارتوى، وبعض منْ قنِعَ وعقل، سجَّل هذه الشهادات وإليكم بعضها:

يقول كاتبٌ أوربي عن الإسلام:

(إنَّ التعاليم الإسلامية أسَّست في العالم تقاليدَ عظيمةً للتعامل العادل الكريم، وإنَّها لتنفخ في الناس روحَ الكرم والسَّماحة، إنَّ الإسلام، وحينما نشاهده، ومن خلال كلِّ تعاليمه، وفي كلِّ تطبيقاته وتاريخه، إنَّ الإسلام مليءٌ بروح الرِّفق، والسَّماحة، والأخوَّة » .

ويقول « رينان » في كتاب أسماه « تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرة »:

(إنَّ المسلمين في مدن الأندلس ، كانوا يعاملون النصارى بالحسنى).

ويقول آرنولد توينبي عن الإسلام :

(لكنَّ مبادئَ التسامح الإسلامي ، حرَّمتْ مثل هذه الأعمال ، التي تنطوي على الظلم .

بل كان المسلمون على خلاف غيرهم ، إذ يظهر لنا أنَّهم لم يألوا جهداً في أنْ يعاملوا كلَّ رعاياهم منَ المسيحيين بالعدل والقسطاس) .

ويقول رجلٌ كان يشغل منصباً كبيراً في عالم الدين النصراني ، هو بطريرك أنطاكية اليعقوبي في وقته « ميخائيل السوري » ، وقد خضعت أنطاكية للمسلمين ، يقول هذا الرجل في كتابه « الأخبار » :

(لما عاين إله الانتقام خبثَ الروم وما يقترفونه حيثما بسطوا سيادتهم مِنْ نهبٍ عديمِ الرأفة لكنائسنا وأديرتنا ومِنْ تنكيلٍ بلا رحمةٍ بنا ، جاء بأبناء اسماعيل كي يجعل خلاصنا منَ الروم على أيديهم ، وما حَسَنةٌ هَيِّنةٌ بالنسبة إلينا أنْ نتخلص منْ قسوة الرومان وخبثهم وغضبهم وغيرتهم القاسية علينا ، وأنْ نخلد إلى راحةٍ وطمأنينة) [٣] .

بل إنَّ البطريرك اليعقوبي آثر بعد عودة السيطرة البيزنطية على شمال سورية وكليكيا في القرن العاشر الميلادي ، آثر أنْ ينقل مقرَّ الكرسي الرسولي البطريركي إلى الديار الإسلامية .

أيُّها الإخوة :

لقد نقلت لكم عبارةً في الأسبوع الماضي ، وأعيدها في هذا الأسبوع :

(لم تعرف الأمم فاتحين راحمين متسامحين كالعرب ، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم) .

وهذا الرجل يقول :

« إنَّ المسلمين يوم دخلوا مصر، كانت كنائس الأقباط في يد النَّصارى الملكانيين، احتلَّها الملكانيون منهم، وهم نصارى ويتبعون الدِّينَ نفسه .

وحينما دخل المسلمون أخذوا كنائس الأقباط منَ الملكانيين وأعادوها للأقباط) .

لم يستعملوها مساجد، ولم يستغلُّوها جوامع، ولكنَّهم أخذوها وأعادوها لأربابها، عند ذلك قال الرجل هذا القول الذي ذكرناه : (لم تعرف الأمم فاتحين راحمين كالعرب، ولا ديناً سمحاً كدينهم) .

وأنا أريد أيُّها الشباب أنْ تربطوا بين الجملتين، فالعرب لم يكونوا متسامحين لولا إسلامهم .

والعرب لم يكونوا راحمين لولا دينهم .

والعرب لنْ يكونوا أقوياء لولا دينهم .

والعرب لن يكونوا أبطالاً تشهد الدنيا بتسامحهم وقوَّتهم، لولا هذا الإسلام الذي أكرمهم الله ـ عزَّوجلَّ ـ به .

نحن أعزاء يوم نأخذ الدِّين على أنَّه لَبوسٌ لنا، نحن كرماء، نحن متسامحون، يوم نعتقد اعتقاداً كاملاً أنَّ الإسلام دين الإنسان، حيثما وجد الإنسان .

إنَّ للتسامح شروطاً، ولا نرضى أبداً لأولئك أنْ يقولوه كلاماً فارغاً، أو أنْ يعبِّروا عنه في مجالاتهم، وفي ميادينهم دون تحقيقٍ لأسسه النظرية وتطبيقاته العملية، وإلاَّ، وهذا ما نعتقده، وإلاَّ فالإسلام سيبقى ـ ولا شكَّ

في ذلك ـ سيبقى الإسلام الدِّين الذي يغطِّي كلَّ مجتمعٍ يسعى إلى الرفاهية، إلى الصدق، إلى الاطمئنان، إلى التسامح، إلى الشجاعة، إلى القوة.

أعود فأقول:

لولا الإسلام ما عرف الإنسان التسامح، لولا الإسلام لقتل الإنسان أخاه، لولا الإسلام لجاء الإنسان إلى أخيه الإنسان من أجل أنْ يدمِّره.

إنَّ الإسلام يوم يُتَّخذ ديناً منْ قِبل الإنسان، ستجد الفضلَ، ستجد الرَّحمة، وستجد المجد، وستجد القوة.

اللهمَّ بحقِّ نبيِّك، وبحقِّ أتباع نبيِّك، ردَّنا إلى دينك رداً جميلاً.
نِعمَ مَنْ يُسأل أنت، ونعمَ النصير أنت.

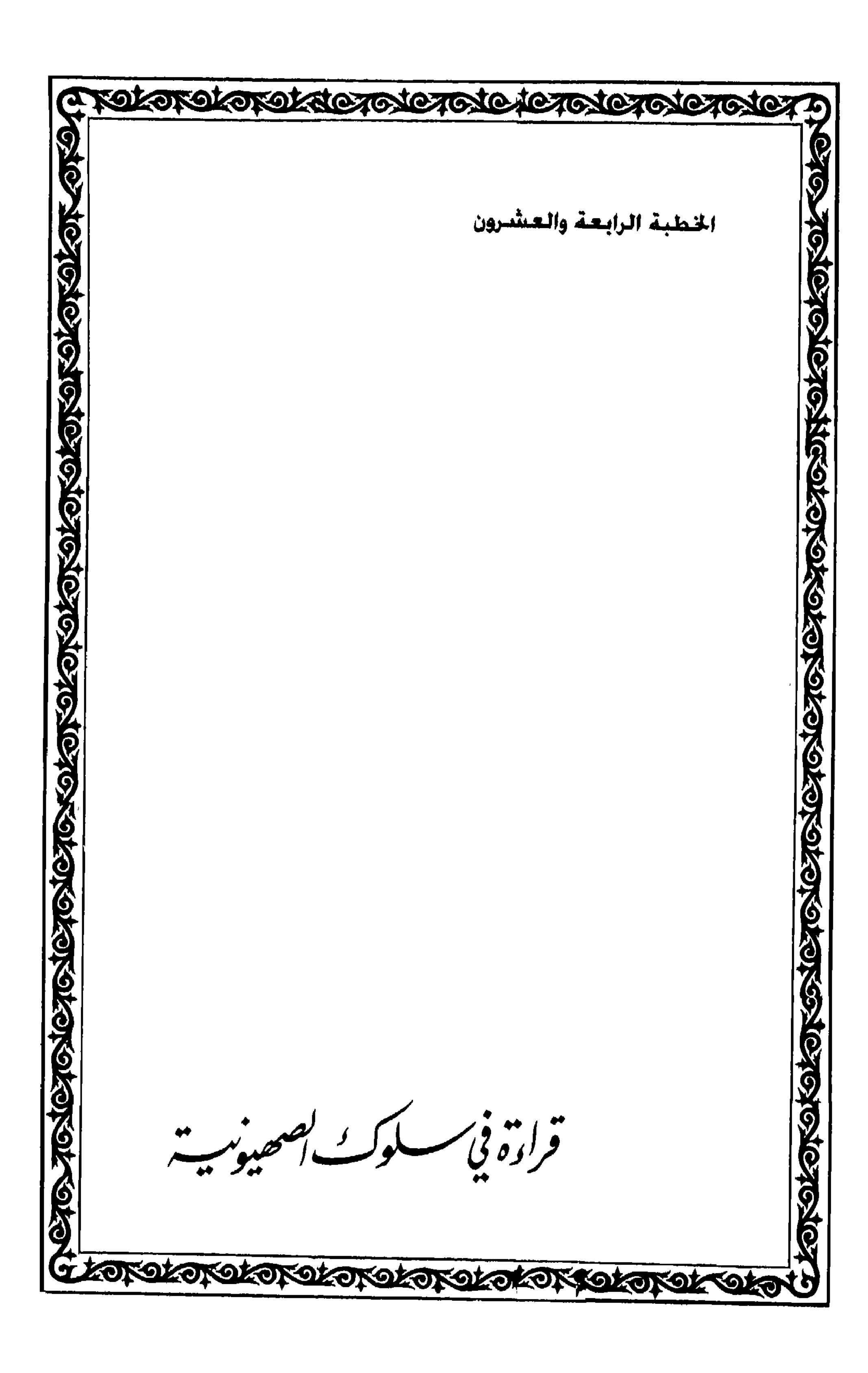
الهوامش

(١) الأنعام / ١٠٨ .

(٢) المائدة / ٥ .

(٣) انظر الدراسة الهامة التي قام بها الأستاذ الدكتور جورج قرم ، ونشرتها دار النهار في بيروت بعنوان :

« تعدد الأديان وأنظمة الحكم ، دراسة سوسيولوجية مقارنة » .



الخطبة الرابعة والعشرون

قراءة في سلوك الصهيونية

* لن يعدو الإنسان الحقيقة عندما يقول :

إنّ قضية فلسطين، هي قضية القرن العشرين الأولى ، ولا شك في أنها العنوان الأكثر حضوراً في ذهن الإنسان المسلم اليوم ، ومن خلالها يمكن ملاحظة الأبعاد المتعددة للصراع الخطير ، الذي دخلت فيه أمتنا منذ ما يقارب القرن ، لا في المجال السياسي والعسكري فقط ، بل وعلى كل الأصعدة العقدية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية ، وكل المجالات الحيوية التي تمسّ الأمة .

ومن هنا ، كان هذا الحضور الدائم لقضية فلسطين عند أستاذنا الدكتور محمود عكام ، من خلال الخطب المتعددة التي رافقت الأحداث المهمة المتعلقة بهذه القضية ، وسلسلةِ خطب « اليهود في القرآن »، وسلسلة « مقوّمات النصر » ، ثم من خلال الخطب المتعددة التي رافقت مسيرة « الانتفاضة » البطولية المباركة ، منذ اشتعالها وحتى يومنا هذا .

وتشكل هذه الخطبة « قراءة في سلوك الصهيونية »، نموذجاً على الموقف المبدئي الملتزم ، والمؤسَّس على دراسةٍ علمية ، ومعالجةٍ فكرية جادّة ، الذي قدَّمته خطبة أستاذنا الدكتور حول قضية فلسطين ، والصراع مع الصهيونية .

وانطلاقاً مما يقدمه الإسلام في هذه القضية ، فقد أكد أستاذنا الدكتور دائماً على الثوابت التالية في صراعنا مع عدونا :

أولاً - إن توصيف العدو ، ومعرفته المعرفة الكاملة ، وتحديد الأسس التي تشكل الدائرة المواجهة لنا ، كلٌّ ذلك يشكل الخطوة الأولى المؤسِّسة لكل الخطوات اللاحقة ، ويحدد أستاذنا الدكتور المصادر

التالية لهذه المعرفة :

ـ أ : دراسة العقيدة والأفكار والتصورات، التي يبني عدونا سلوكَه عليها ، ولقد أدرك عدونا أن السلوك لا ينتج إلا عن عقيدة ، ولأنّ العقيدة الربانية لا يمكن أن تحمل الإنسان على سلوك يعادي الإنسان ؛ فقد غيَّر هؤلاء عقيدتهم ، وبدَّلوها ، وفق السلوكيات الشاذة التي أرادوا القيام بها .

وما ينبغي أن نعلمه في هذا المجال، هو أن العقيدة لا يمكن أن تواجه إلا بعقيدة ، و الإسلام هو عقيدتنا التي توجِّه سلوكياتنا، في كل نواحي حياتنا .

ـ ب : دراسة التاريخ : تاريخ عدونا، فالتاريخ هو مستقى تجاربنا، ولقد أكد التاريخ دائماً مصداقية قوله تعالى : ﴿ لتجدن أشدَّ الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ﴾ ، وقد بين أستاذنا الدكتور ذلك من ناحيتين :

١ ـ من دراسة مواقف اليهود مع رسول الله ﷺ ، ومؤامراتهم المستمرة لاغتياله ، وضد المجتمع الإسلامي في المدينة المنورة ، وكيف يمكن أن تُنسى أفعال بني النضير ، وبني قينقاع ، وبني قريظة ، وغزوة الخندق ، وفتح خيبر .

٢ ـ من دراسة تاريخهم الأسود مع الشعوب التي عاشوا بينها ، وكيف كانوا دائماً مصدراً للإفساد والحروب ، والأفكار المعادية للإنسانية .

ـ ج : دراسة الحاضر : والتي تعني الإحاطة بالأبعاد المختلفة لصراعنا الحاضر مع هذا العدو، والمعرفة العلمية الشاملة بأوضاعه ، ومراقبة سياساته المختلفة ، ليصار إلى مواجهتها عن معرفة ، ومن لم

يعرف عدوه ، لا يستطيع مواجهته .

ثانياً ـ تحديد موقفنا تجاه عدونا ، بعد أن عرفناه : والموقف الطبيعي الذي تنتجه معرفتنا بهذا العدو ، هو ما عبر عنه أستاذنا في إحدي خطبه بقوله :

(ونحن نحتفل بحرب رمضان ، لعلّ بعض الناس يقول : انتهت الحرب ، ووضع السلاح ، لكننا نقول لا ، فحرب رمضان لم تكن إلا البداية ، والقتال مع أعداء الله ماضٍ إلى يوم القيامة ، ولا يمكن للسلاح أن يكون موضوعاً ، وأعداء الله يعتدون علينا) .

وفي خطبة له بعنوان : « المجاهدون » ، من سلسلة خطب « أحباء الله » ، يعرض أستاذنا حفظه الله حيثيات هذا القرار بالقتال ، الذي اتخذته أمتنا فيقول :

(القتال هو الوجه الآخر للجهاد ، فالجهاد دعوة وقتال ، يسلكه الإنسان بديلاً حتمياً عن الوجه الأول ، الذي هو الدعوة ، بعد أن يدرك عدم الجدوى من الدعوة ، وبعد أن يدبّر مستخيراً ومشاوراً ، حتى يقوم بالقتال متوكلاً على الله عزوجل ، من أجل أن يقضي على الفتن الظاهرة ، وأن يقف أمام من يعادون الإنسان .

إن القتل والقتال فعلة قاسية ظاهراً ، إلا أنها موظفة عندنا بما ينسجم مع الكون ، لأنّا نستخدمها كما أمر ربنا ، للقضاء على الفتنة ، وأعداء الإنسان) .

وشروط هذا القتال بعد معرفة العدو ، هي كما حددها أستاذنا في خطبه :

آ ـ أن يكون في سبيل الله :

وإذا كان القتال في سبيل الله فهذا يعني أنه قتال مضبوط ، يعرف

هدفه وطريقه ، اللذين ليس فيهما اعتداءٌ على الإنسان ، ولا ظلم لأحد ، فنحن أصحاب رسالة إنسانية ، وإنسانيةُ رسالتنا تتجلى حتى في قتالنا .

يقول أستاذنا حفظه الله مخاطباً كل فرد منا :

(وتبقى إنسانيتك الصفة الأساس ، فانطلق من إنسانيتك نحو العلاقة التي ترتبط بها مع كل طرف من حولك : إنساناً عبداً لله ، إنساناً معلماً ، إنساناً مجاهداً . . . إلخ ؛ وإنما تتجلى إنسانيتك في جهادك يوم تجاهد من أجل الفكرة ، لا من أجل ذاتك ، فنحن لسنا ضد أشخاص ، ولسنا ضد شعوب ، إنما نحارب فيهم أفكاراً وسلوكيات عزلت عنهم إنسانيتَهم) .

ب ـ الإعداد اللازم لهذا القتال : ويحدد أستاذنا الدكتور مفردات هذا الإعداد كما يلي :

١ ـ إيمان بالله نستمد منه الثقة بالنصر .

٢ ـ واعتصام فيما بيننا ، ووحدة تؤلف بين قلوبنا .

٣ ـ وعتاد نقاتل به ، والعتاد سلاح ، والعتاد ـ أيضاً ـ علمٌ نستمد أطرَه من شرع الله ، تاريخاً وفلسفة واقتصاداً وغيرها .

لقد أطلق أستاذنا الدكتور من على منبر جامع التوحيد كلمةً غدتْ عنواناً يلخص صراعنا مع العدو الغاشم ، يوم قال :

(إنَّ الضعف العابر لا يُغيِّر الحقَّ الثابت)

وإذا كنَّا لا نستطيع أن نستخلص حقَّنا من المغتصبين ، فإنَّ أستاذنا الدكتور يدعو المثقفين ، والمسؤولين عن التربية في أقطارنا ، إلى صيانة « التصوُّرات » في أذهان أجيالنا ، لتبقى ثابتة قويَّة أمام ريح الضعف التي تعصف بنا ، وتلك هي مهمة اليوم الأكيدة .

بسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحيْمِ

أيُّها الإخوة المؤمنون :

دراسةُ السلوك مفصولاً عن العقيدة، دراسةٌ لا فائدة فيها ، ولا قيمة لها .

والبحثُ في الأفعال معزولةً عن البحث في الأفكار ، بحثٌ مهدور .

والأملُ المعقود عن بارقةِ ثغرٍ ، أو معسولِ لفظٍ ، دون الولوج إلى العمق ، أملٌ مَبنيٌ على شَفَا جُرُفٍ هارٍ .

وقراءةُ التصرفات مقطوعةً عن جذورها داخل النفس ، قراءةٌ لا يمكن أنْ يُعتَمد عليها في فهمٍ أو استنباط .

أقول هذا الكلام أيُّها الإخوة ، ونحن في مواجهة عدوٍ لدود .

ولقد حدَّدنا معالمَ الهجرة فيما مضى ، فأصبحتْ مواجهةً لهذا العدو ؛ ومَنْ لا يعرف عدوَّه لا يمكن أنْ يهاجر الهجرةَ التي تحدَّثنا عن معالمها [1] ، فعدوُّنا بغيض ، وعدوُّنا لدود ، وعدوُّنا ـ ونحن نَرقبه عن مسيرةٍ طويلة ـ وإنْ وافقَ ظاهراً على السَّلام إلا أنَّه مكَّار ، وإنْ رضيَ ادعاءً ما تمليه عليه

آراءٌ تدعو إلى السلام الظاهر أيضاً ، إلا أنَّنا ينبغي أنْ نعلم أنَّ ذلك العدوَ خدَّاع ، وإنْ أعلن في لحظةٍ ما أنَّه في فِعْلته متوافقٌ معنا ، لكنَّه ـ وأيمُ الله ـ إنَّما ينبثق عن فكرٍ خبيث .

وإن قال لنا في لحظةٍ ما بأنَّه يدعو إلى الأمان ، إلا أنَّنا ينبغي أنْ نفهم وبكلِّ اختصار ، أنَّ أعداءنا لا يُؤْمَنون ، وأنَّهم بغير القوة والقتال لايفهمون ، تلك حقيقةُ عدونا ، فهل يستيقظ المسلمون ؟! .

إنَّ الصهيونية العالمية ـ في أيِّ مكان كانت ـ وقد تجسَّدت في « إسرائيل » ، وربَضت على قلوب أبنائنا في فلسطين ، تلك الصهيونية لا يمكن أنْ يقام معها أيُّ لقاء ، ولايمكن أبداً أنْ تكون في جلسة يُدْعَى مِنْ خلالها إلى سلام ، فلقد جرَّبناهم عبر الزمن الماضي ، وحَسْبنا أنَّ المصطفى ﷺ لما كان معهم في المدينة المنوَّرة ، بعد الهجرة الشريفة الرائعة ـ التي حوَّلت المسلمين كما قلنا ، مِنْ دعاةٍ إلى قضاة ـ أنَّ المصطفى ﷺ كان مع هؤلاء صاحبَ تجربةٍ ، ينبغي أنْ نتَّخذها أسوة .

لقد غدروا ومكروا ، فكانت النتيجة أنَّهم أجْلوا عن المدينة المنورة ، أجْلِيَ بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة . وهيهات هيهات ألاَّ نتعرف على عدوِّنا ! ، هيهات أنْ تكون معرفتنا بعدونا مأخوذةً من سلوكٍ ظاهر ، مفصول عن العقيدة ، أومن قراءةٍ عابرة معزولة عن جذورها في نفوسهم !

هيهات أنْ تكون معرفتنا بعدوِّنا من خلال بحثٍ في الأفعال ، لا يستند إلى معرفةٍ في الأفكار ! ، وهيهات أنْ يكون أملنا منبثقاً من خلال بارقةِ ثغرٍ ، أو معَسول لفظ .

هيهات أنْ تكون كذلك هذه المعرفة، وقد قرأنا في كتاب ربِّنا حكايةً عن هؤلاء، عن أجدادهم وأسلافهم:

﴿ فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهمْ، ثمَّ يقولون هذا مِنْ عند الله ليَشتروا به ثمناً قليلاً، فويلٌ لهمْ ممَّا كتبتْ أيديهمْ، وويلٌ لهم ممَّا يكسبون ﴾ (٢).

﴿ولمَّا جاءَهم كتابٌ منْ عند اللهِ مصدقٌ لما معهمْ، وكانوا مِنْ قَبْلُ يستفتحون على الذين كفروا، فلمَّا جاءهم ما عرَفوا كفروا به، فلعنةُ الله على الكافرين ﴾ (٣). تلك قصتُّهم في القرآن مختصرة.

أيُّها الإخوة:

إنْ سألتم عنهم غير القرآن، أنبأكم التاريخ في صحائفه، والمجالُ كبير، والكلام كثير، وعجباً لأمةٍ حُذِّرتْ من عدوٍ لها لدود، عجباً من أمةٍ حُذِّرت من عدوٍ أكيد، وكان هذا التحذير على لسان سيِّد البشر ﷺ، عجباً لهذه الأمة، كيف تقعد عن جهادٍ قتالي له ؟!، سيَّما وأنَّ الأملَ الحقيقي المرسوم لنا جاء على لسان هذا النبيِّ ﷺ، كما في صحيحي البخاري ومسلم:

[لا تقوم السَّاعة حتَّى يقاتلَ المسلمون اليهود، فيقتلَهم المسلمون، حتَّى يختبئَ اليهودي مِنْ وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أوالشجر: يامسلم، يا عبدَ الله هذا يهوديٌّ خلفي، فتعالَ فاقتله، إلاالغرقد، فإنَّه مِنْ شجر اليهود] (٤).

واسمعوا حكاية يهوديٍ أسلمَ، كان حَبْراً من أحبارهم، وعلماً من

أعلامهم، وعالماً من علمائهم، إنَّه عبد الله بن سلام، واسمعوا ماذا يقول عنه صاحب السيرة ابن اسحاق (٥) ، يحدِّث عن هذا الرجل، وكان يسمَّى قبل اسلامه «حصيناً»، هذا الرجل كان في المدينة المنورة، وقد هاجر اليهود إليها، أو إلى الجزيرة العربية بشكل عامٍّ، عامَ سبعين للميلاد ـ كما يقول معظم المؤرخين ـ هذا الرجل وكان يهودياً عالماً ، وقف مرةً على رأس نخلة ، وقد سمع بقدوم النبيِّ محمَّد ﷺ إلى المدينة مهاجراً ، وقف على رأس النخلة ، وقال لعمَّته خالدة بنت حارث :

(ياعمَّتاه هذا هو النبيُّ المنتظر، الله أكبر) . فقالت له عمَّته : خيَّبك الله ، تكبِّر وكأنَّك رأيتَ موسى بن عمران . قال لها :

(ياعمَّة ، إنَّه أخو موسى بن عمران ، بُعِث بما بعث به موسى بن عمران) .

ثمَّ جاء إلى النبيِّ ﷺ . و هو يحدِّث عن هذا المجيء فيقول :

(جئت إليه فيمَنْ جاء إليه ، ونظرت وجهَه واستَبَنْته وتأمَّلته ، فوالله إنَّ وجهَه ليس بوجهِ كذابٍ) .

وأعلن إسلامه ، فقال له سيِّدنا الحبيب الأعظم ﷺ :

[يا حصين أنت منَ اليوم عبد الله] .

ورجع إلى أهله ، فأسلمَ أهله معه ، ثم جاء إلى النبي ﷺ ثانية وقال له ، وهنا موطن القصيد :

(يا رسو ل الله ، إنَّ اليهود قومٌ بُهْتٌ ـ أيْ إنَّ اليهود قومٌ كذابون دجَّالون ، يفترون الكذب على الله ، وعلى الناس ـ وإنِّي أسلمت مع أهلي ،

وإنّي أريدك ألاّ تخبر اليهود بإسلامي، وأن تغيِّبَني في بعض بيوتك، حتى إذا جاؤوك سألتَهم عني، فتنظرَ ماذا يقولون، ثمَّ بعد ذلك كيف يغيِّرون).

فغيَّبه النبيُّ ﷺ في بعض بيوته، و أرسل النبيُّ ﷺ إلى اليهود، فلما أتوا قال لهم:

[أيُّ رجلٍ الحصينُ بن سلام فيكم؟].

أيْ ما هو الحصين عندكم وماقيمته. فقالوا: سيِّدُنا وابن سيِّدنا، وحَبْرنا وعالمنا. وهنا خرج عبد الله بن سلام، وقال:

(يا معشر اليهود، اتقوا الله، إنَّه واللهِ رسول الله، آمِنوا به وأسلموا، فإنَّه الرجل الذي وجدنا اسمَه وصِفتَه في التوراة).

وإذ بهؤلاء يغيِّرون كلامهم، ويَعيبون على عبد الله، ويقولون كما توقَّع عبد الله: إنَّه شرُّنا وابن شرِّنا.

وهكذا تغيَّرتْ لهجتهم، إنَّهم خدَّاعون، ومكَّارون، وخبيثون، وبغير القتال لا يفهمون، تغيَّرتْ لهجتهم حيال هذا الرجل، وعابوا عليه وعنَّفوه، وراحوا يُرْجِفون حوله في المدينة بين قومه، وراحوا يتكلمون عليه.

إنَّها شهادةُ رجلٍ كان منهم، ثمَّ بعد ذلك أعلن براءته، وهاهو يدخل رحاب الإسلام.

فإنْ لم يدخل اليهود رحاب الإسلام فلا يمكن أبداً أنْ يكونوا موضع اطمئنان.

ومهما أعلنوا ومهما تكلَّموا ومهما ادَّعوا، فسيبقى هؤلاء على حقدهم

وعلى حَسَدهم ، وعلى عنادهم ، وعلى استكبارهم ، وعلى جحودهم .

ويروي ابن اسحاق (٦) عن رجلٍ يهودي من بني النضير ، لمْ يُسلم ، يُسمَّى حُيَيَّ بن أخطب ، تتحدَّث ابنته صفية رضي الله عنها ، وتقول :

كنتُ أحبَّ الأولاد لأبي ، ولعمِّي أبي ياسر بن الأخطب ، وكانا يأخذاني قبل بقية الأولاد فيحملاني ، ولقد سمعا بمقدم النبيِّ ﷺ إلى قباء إلى بني عمرو بن عوف ، فخرجا إليه مُغْلسِين ، في وقت الفجر ، ثم عادا و قد أصابهما الوَهَن ، يمشيان الهوينى ، فقال أبو ياسر لأخيه حيي ا بن أخطب : أهوهو ؟ . قال : نعم والله . قال : أتعرِفه وتَثبّته ؟ . قال : نعم . قال : فما تفعل معه ؟ . قال : عداوةٌ بيني وبينه ما حَييت .

وبقيَ يعادي الحبيب الأعظم ﷺ .

عداوته ما حَييت ، وعداوةٌ بيني وبينه ما بقيت ، هكذا يقول منطقهم ، إنَّهم قَتَلة الأنبياء ، قتلوا أنبياءَهم من دون تردد ، ومن دون أنْ يسمعوا منهم ، وذكرتْ كتبهم بالذات أنَّهم قتلوا حزقيال ، وقتلوا أشعيا ، وقتلوا أرميا ، وقتلوا يحيى ، وقتلوا زكريا ، وغيَّروا دين النصرانية ، من خلال بولس ، الذي ظهر حوالي سنة خمسين للميلاد ، وغيّروا التوراة والإنجيل ، وكادوا للإسلام .

هؤلاء إذاً هم أعداؤنا ، ولا يمكن أبداً أنْ نسكت عنهم أو عليهم ، سيَّما وأنهم دخلوا أرضنا ، سيَّما وأنهم أخذوها زوراً وبهتاناً ، سيَّما وأنَّهم يغيِّرون معالم تاريخنا ، ومعالمَ تاريخ الأرض التي يعيشون عليها غصباً وزوراً وبهتاناً .

أيُّها الإخوة:

[لا هجرةَ بعد الفتح، ولكن جهادٌ ونيَّة] (٧).

نعم، إذا كانت الهجرة قد أضحت خطةً للتحويل من مقام الدعوة إلى مقام الدولة، ومن كونِ المسلمين دعاةً، إلى كون المسلمين قضاة، فينبغي أنْ يقضيَ المسلمون في أعداء الله هؤلاء، أنْ لاهوادة معهم، وأنْ لا التقاء معهم، إلا في ساحة الوغَى، من خلال سواعدَ مؤمنة، ووجوهٍ مشرقة، واستمساكٍ بحبل الله المتين، وإعلانٍ للجهاد في سبيل الله.

تلك هي اللغة التي يفهمها هؤلاء، ولا يفهمون غير هذه اللغة، و إذا ما أرادوا أنْ يُبطِلوا هذا الذي نقول ؛ إذاً فليخرجوا من أرضنا لأنَّهم غاصبون، ثَبتَ ذلك تاريخاً، وثبت ذلك نقلاً، وثبت ذلك عقلاً، وثبت ذلك باعترافهم، وباعتراف علماء التاريخ، وعلماء الجغرافيا.

إنْ صدقوا فيما يدَّعون منْ سلام، إذاً فليخرجوا من وطننا أو ليعيشوا في ظلِّ دولةٍ مؤمنة مسلمة، ترفع القرآن دستوراً حاكماً، وتعلن الله أكبر حكمةً رائدة مغطِّيةً لسطح هذه الأرض، و إلاَّ فكلُّ ادعاءاتهم باطلة، لاقيمة لها، ولا جدوى فيها.

ياربَّنا عرِّفنا بحقيقة أنفسنا، وحقيقة عدونا. ياربَّنا لا تُمِتْ فينا جذوة الجهاد في سبيلك. ياربَّنا وفقنا من أجل أنْ نكون مؤمنين صادقين.

اللهمَّ ـ أولاً وأخيراً ـ أحْيِنا مسلمين، وأمِتنا مؤمنين.

اللهمَّ واحشرنا يوم القيامة تحت لواء سيِّد المرسلين.

والحمد لله ربِّ العالمين.

الهوامش

(١) لقد تحدَّث أستاذنا الدكتور عن الهجرة، في سلسلة خطبٍ مميَّزة ،نرجو الله تعالى أن يوفقنا لنشرها، في الأعداد القادمة من « فكر ومنبر ».

(٢) البقرة / ٧٩ .

(٣) البقرة / ٨٩ .

(٤) رواه البخاري، حديث رقم / ٢٧٦٧ / ، ج ٣ ص ١٠٧٠ .

(٥) انظر سيرة ابن هشام، ج ١ ص ٥١٦ .

(٦) انظر ابن هشام، ج ١ص ٥١٨ .

(٧) رواه البخاري، حديث رقم / ١٧٣٧ / ، ج ٢ ص ٦٥١ .

الفهرس

* * *

والحمد لله ربّ العالمين











فكر ومنبر

. . . وأظن أن دوافعي في تحويل المقول إلى مكتوب تسعفني ليكون منها تأكيد على أهمية منبر الجمعة في حياتنا فصلاة الجمعة سُرَّةُ العلاقة مع الله عبر الصلاة، وخطبتها قطب العلاقة مع الناس، ومن هنا كان يوم الجمعة الأفضلَ بين أيام الأسبوع، واليوم الأغر فيها، فلنُعد اهتمامنا بها، صلاةً تضبط الصلة مع الله وخطبةً تقدم المفاهيم والقضايا التي لاغنى للإنسان عنها في مسيرته كلها، ماظهر منها ومابطن.

ولنجددْ نظرة من أعين الناس متجهةً إليها وليكن برهاننا واقعاً ينطق بالقبول والاستجابة وحالاً يردد في جنبات داخل الإنسان وخارجه:

لم تضعْ صلاة الجمعة ولن تضيع ولم يأفل نجم نضارتها ولن يأفل، فالشباب القادم يطرق الباب بهمة ويمسك بيده مصباح التجديد.

فصلت
للدراسات والترجمة والنشر
الجمهورية العربية السورية - حلب
أقيول - بناء الأوقاف - مقابل المطبوعات المدرسية